

نَهْائِتُ الْأَدَبِ

فِي

فُنُونِ الْأَدَبِ

تَأْلِيفُ

شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ التَّوَيْرِيِّ

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢٠-١٩

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحميني الأستاذ عِمَادُ عَلِي حَمزة

منشورات

مجمع رجال في بيوت

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

تسغرات حق رةلوت بةروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite
et exposerait le contrevenant à des poursuites
judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



9 782745 138835

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم يسّر ولا تعسر، واختم بخيراتك إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد.

الباب الثاني

من القسم الخامس

في أخبار الخلفاء الراشدين

أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان،
وعلي بن أبي طالب، وأيام الحسن بن علي رضوان الله
عليهم أجمعين

ذكر خلافة أبي بكر الصديق

وشيء من أخباره وفضائله

هو أبو بكر، واسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، ومجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند مرة بن كعب. وأمه سلمى - وكنيتها أم الخير - بنت صخر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي بنت عم أبيه.

وكان رضي الله عنه يُنعت بعتيق، وقد اختُلف في سبب نعته بذلك؛ فقال الليث بن سعد^(١)، وجماعة معه: إنما قيل له عتيق لجماله وعتاقة وجهه.

(١) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعه، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سرياً سخياً... (وفيات الأعيان ٤: ١٢٧).

وقال مصعب الزبيري وطائفة من أهل النسب: إنما سُمِّيَ عَتِيقًا لأنه لم يكن في نسبه شيء يُعَاب.

وقال آخرون: كان له أخوان: أحدهما يسمَّى عَتِيقًا، والآخر عُتِيقًا؛ مات عَتِيق قبله، فسمِّيَ باسمه.

وروي عن موسى بن طلحة، قال: سألت أبي طلحة بن عبيد الله، قلت له: يا أبت، بأي شيء سُمِّيَ أبو بكر عَتِيقًا؟ قال: كانت أمه لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، وقالت: اللهم إن هذا عَتِيقُك من الموت فهبه لي.

وقال آخرون: إنما سُمِّيَ عَتِيقًا لأنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ سرَّه أن ينظر إلى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، فسمِّيَ عَتِيقًا بذلك.

وروي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: إنني لفي بيت رسول الله ﷺ، وأصحابه بالفناء؛ وبينهم السُّر، إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن ينظر إلى عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا».

قالت: وإن اسمه الذي سمَّاه أهله لعبد الله بن عثمان، وسمِّيَ رضي الله عنه بالصَّدِيق؛ لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به.

وقيل: بل قيل له الصديق؛ لتصديقه رسولَ الله ﷺ في خبر الإسراء.

وقال أبو مخجن الثقفي^(١) في أبي بكر رضي الله عنه: [من الطويل]

وَسُمِّيتْ صَدِيقًا، وكلُّ مهاجِرٍ سواك تسمي باسمه غير منكِرٍ
سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، والله شاهدٌ، وكنت جليسا بالعريش المشهَرِ
وبالغار إذ سُمِّيتَ بالغارِ صاحبًا وكنت رفيقًا لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ

يعني بقوله: «بالعريش» في يوم بدر؛ لأنه رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في العريش؛ لم يكن معه فيه غيره. وبقوله:

* وبالغار إذ سُمِّيتَ بالغارِ صاحبًا *

قوله تعالى: ﴿ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) هو من ثقيف وكان مولعًا بالشراب مشتهرًا به وكان سعد بن أبي وقاص حبسه فيه. ولما كان يوم القادسية أطلقت أم ولد لسعد بعد أن أخذت عليه الموائيق، فأبلى بلاءً حسنًا، فقال سعد: «لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن...» (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ولنبداً من أخباره رضي الله عنه بذكر شيء من فضائله، والله المستعان، وعليه التكلان.

ذكر نبذة من فضائل أبي بكر الصديق ومآثره في الجاهلية والإسلام

كان رضي الله عنه في الجاهلية وجيهاً، رئيساً من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية - والأشناق الديات - فكان إذ حمل شيئاً قالت فيه قريش: صدّوقه، وامضوا حمالته^(١) وحمالة من قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدّقه.

وكان رضي الله عنه ممّن حرّم الخمر على نفسه، وتنزّه عنها في الجاهلية، وكانت أشراف قريش تختلف إليه وتزوره، وتستشيريه وتقتدي برأيه، وتربص في الأمور المعضلة إذا غاب إلى أن يقدم، ويدلّ على ذلك ما قدّمناه في أوائل السيرة النبوية من خبره مع الشيخ الكبير الأزدي في سفره إلى اليمن، وما بشره الأزدي به من مبعث رسول الله ﷺ، وأنه يعاونه على أمره، وأن أبا بكر رضي الله عنه لما رجع إلى مكة، جاءه شيبه بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري^(٢)، وعُقبه بن أبي معيط، ورجالاً قريش مسلمين عليه. وقولهم له: حدث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي أرسله الله إلى الناس، ولولا أنت ما انتظرنا به؛ فإذا جئت فأنت التّهمة، وقد تقدم ذكر هذه القصة في المبشرات برسول الله ﷺ.

ومثل ذلك لا ينتظر به إلا من لا يمكن أن يقطع الأمر دونه. وفي هذا أقوى دلالة على فضله وشرّفه، ومكانته لديهم. وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما فيها من خير وشر.

وأما فضائله رضي الله عنه ومناقبه في الإسلام فكثيرة جداً، قد أبانه رسول الله ﷺ بفضائل ومناقب، وخصّه بمزايا لم يخصّ بها غيره، وذكره في مواطن لم يُذكر فيها سواه.

(١) الحمالة: الدية.

(٢) أبو البختري: وهو وهب بن وهب، والبختري منسوب إلى التبختري في المشي.. وهو من رجال بني عبد العزى بن قصي.. (الاشتقاق لابن دريد).

وقد تقدم من ذلك جملة في أثناء السيرة النبوية فنشير الآن إليها، ونذكر ما سواها مما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

فمن فضائله التي تقدم ذكرها سابقته في الإسلام، وأنه رضوان الله عليه أول من أسلم من الذكور، وأول من صلى مع رسول الله ﷺ.

روى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى الشعبي^(١)، قال: سألت ابن عباس - أو سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي الناس كان أول إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت: [من البسيط]

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقة فاذكّر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية، أنقاها وأعدّلها بعد النبي، وأوفّاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس حقاً صدق الرُسل

ويروى أن رسول الله ﷺ، قال لحسان بن ثابت: هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم؛ وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع، وهو:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا

فسر رسول الله ﷺ، وقال: «أحسنتم يا حسان».

وروي أنّ فيها بيتاً خامساً، وهو:

وكان حب رسول الله ﷺ إذ علموا خير البرية لم يغدِل به رجلا

ومما يؤيد أنه رضوان الله عليه أول من أسلم ما رواه الجريري، عن أبي نضرة، قال: قال أبو بكر لعلي رضي الله عنهما: أنا أسلمت قبلك...، في حديث ذكره، فلم ينكر عليه.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه فدى رسول الله ﷺ بنفسه.

رُوي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أنها قالت، وقد قيل لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، فتذكروا رسول الله ﷺ، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدّقهم،

(١) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار... وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم... (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

فقالوا: أَلَسْتَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فتشبهوا به بأجمعهم، فأتى الصَّريخُ^(١) إلى أبي بكر، ف قيل له: أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسولَ الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم! ﴿أَنْفَقْتُمْ رِجَالًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]! فلهذا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا يضربونه. قالت: فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدايره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

ومنها، أنه رضي الله عنه أنفق على رسول الله ﷺ ما كان يملكه، طيبةً بذلك نفسه.

روي عن هشام بن عروة^(٢)، عن أبيه، قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً، أنفقها كلها على رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله. وقال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مَالٌ مثل ما نفعني مَالُ أبي بكر».

ومن رواية أخرى عنه قال: أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف دينار، وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزئيرة، والثَّهْدِيَّةَ وابنتها، وجارية بني نوفل، وأم غُبَيْس. وقد تقدّم خبرهم في السيرة النبوية.

ومنها، أنه رضي الله عنه أسلم على يديه بدعائه نصف العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، رضوان الله عليهم أجمعين.

وأسلم أبواه، وصحبا رسول الله ﷺ، وأسلم بنوه كلهم، وصحب رسول الله ﷺ هو وأبوه أبو قحافة، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، وابن ابنه محمد بن عبد الرحمن، وليست هذه المنقبة لأحد من الصحابة غيره.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في الغار، ورفيقه في هجرته، وناهيك بهما! وسماه عز وجل في كتابه: «صاحبه». فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) الصريخ: الاستغاثة، أو المغيث، أو المستغيث وهو المراد هنا.

(٢) هشام بن عروة: هو أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي. . وكان أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث، المعدودين من أكابر العلماء وجلة التابعين، وهو معدود في الطبقة الرابعة من أهل المدينة رضي الله عنهم. . (وفيات الأعيان ٨٠: ٦).

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه؛ لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار.

وعن حبيب بن أبي ثابت في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠].
قال: عَلَى أَبِي بَكْرٍ؛ فَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أنت صاحبني على الحوض، وصاحبني في الغار».

وعن سُفْيَانِ بْنِ عُيَيْنَةَ، قال: عاتب الله عز وجل المسلمين كلهم في رسول الله ﷺ إلا أبا بكر، فإنه خَرَجَ من المعاتبَةِ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَتَدَّ نَصْرُهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن فضائله ومزاياه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قدمه للصلاة بالمسلمين في حياته، وأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلا باب أبي بكر، وقد تقدم ذلك.

ومنها ما روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «رأيت في المنام أنني وُزِنْتُ بأمتي فرجحت، ثم وُزِنَ أبو بكر فرجح، ثم وزن عمر فرجح». وهذا دليل على أنه رضوان الله عليه أرجح من الأمة أكثر من مرتين، فإنه رجح الأمة، وعمر رضي الله عنه فيهم، ورجح عمر الأمة. ورؤيا رسول الله ﷺ حق لا محالة.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه؛ ولوددت أنني شجرة في صدر أبي بكر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ أمر بالصدقة، قال عمر بن الخطاب وكان عندي مال كثير. فقلت: والله لأفضلن أبا بكر هذه المرة، فأخذت نصف مالي وتركت نصفه، فأتيت به النبي ﷺ، فقال: «هذا مال كثير، فما تركت لأهلك؟» قال: تركت لهم نصفه؛ وجاء أبو بكر بمال كثير، فقال رسول الله ﷺ: «ما تركت لأهلك؟» قال: تركت لهم الله ورسوله.

وفي رواية: قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝﴾ [الليل: ٥، ٦]؛ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنتُ عند النبي ﷺ، وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عباءة قد خَلَّها^(١) في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل، فقال: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّها في صدره بخلال! فقال: «يا جبريل، أنفق ماله عليّ قبل الفتح»، قال: فإنَّ الله عزَّ وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: قل له: أراضِ أنتَ عليّ في فرك هذا، أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أسخط على ربِّي! أنا عن ربِّي راضٍ، أنا عن ربِّي راضٍ، أنا عن ربِّي راضٍ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: هبط عليّ جبريل وعليه طُنْفَسَة^(٢)، وهو متخلِّل بها، فقلت: يا جبريل، لِمَ نزلتَ إليّ في مثل هذا الزَّيِّ؟ قال: إنَّ الله أمر الملائكة أن تتخلَّل في السماء كتخلَّل أبي بكر في الأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أصبح منكم صائماً اليوم؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «مَنْ أطعم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «مَنْ عاد اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا، فقال: «مَنْ شهد اليوم منكم جنازة؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعت هذه الخصال في رجل قط إلا دخل الجنة».

وعن ابن أبي أوفى، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فأقبل على أبي بكر وقال: «إني لأعرف اسم رجلٍ واسم أبيه، واسم أمِّه؛ إذا دخل الجنة لم تبقَ غرفةٌ من غرفها، ولا شُرْفَةٌ من شُرْفها إلا قال: مرحباً مرحباً!»، فقال سلمان: «إن هذا لغيرُ خائب»، فقال: «ذاك أبو بكر بن أبي قُحافة».

وعن سليمان بن يسار^(٣)، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمر خيرُ الأرض إلا أن يكون نبياً».

قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «الخير ثلاثمائة وستون خَصْلة، إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل فيه واحدةً منهنَّ يدخل بها الجنة»، قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، هل في شيءٍ منهنَّ؟ قال: «نعم، جميعاً من كلِّ».

(١) المراد بقوله خَلَّها أي ربطها.

(٢) الطنفسة: البساط؛ أو النمرقة فوق الرجل.

(٣) سليمان بن يسار: هو أبو أيوب - ويقال أبو عبد الرحمن، ويقال أبو عبد الله - سليمان بن يسار مولى ميمونة زوجة رسول الله ﷺ؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة... وكان سليمان المذكور أخاً عطاء بن يسار، وكان عالماً ثقة عابداً ورعاً حجة... (وفيات الأعيان ٢: ٣٩٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه! فقال رسول الله ﷺ: «إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي».

وعن أبي أمامة قال: استطال أبو بكر ذات يوم على عمر، فقام عمر مغضباً، فقام أبو بكر فأخذ بطرف ثوبه، فجعل يقول: ارض عني، اعف عني، عفا الله عنك! حتى دخل عمر الدار وأغلق الباب دون أبي بكر ولم يكلمه؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب لأبي بكر، فلما صلى الظهر جاء عمر، فجلس بين يديه، فصرف النبي ﷺ وجهه عنه، فتحول يمينا فصرف وجهه عنه، فلما رأى ذلك ارتعد وبكى، ثم قال: يا رسول الله، قد أرى إعراضك عني، وقد علمت أنك لم تفعل هذا إلا لأمر قد بلغك عني، موجدة علي في نفسك، وما خير حياتي وأنت علي ساخط، وفي نفسك علي شيء! فقال: «أنت القاتل لأبي بكر كذا وكذا، ثم يعتذر إليك فلا تقبل منه!» ثم قام النبي ﷺ، فقال: «إن الله عز وجل بعثني إليكم جميعاً، فقلت: كذبت، وقال صاحبي: صدقت؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي! ثلاثاً. فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فقام أبو بكر فقال: والله لأنأ بدأته، ولأنأ كنت أظلم، فأقبل عمر على أبي بكر فقال: ارض عني رضي الله عنك، فقال أبو بكر: يغفر الله لك! فذهب عن رسول الله ﷺ غضبه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن أبعث رجالاً من أصحابي إلى ملوك الأرض يدعونهم إلى الإسلام كما بعث عيسى ابن مريم الحواريتين». قالوا: يا رسول الله، أفلا تبعث أبا بكر وعمر فهما أبلغ! فقال: «لا غنى لي عنهما؛ إنما منزلتهما من الدين منزلة السمع والبصر من الجسد».

وعن أبي أروى الدؤسي، قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالساً، فطلع أبو بكر وعمر، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي أيدني بكما».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «يا أبا بكر، إن الله أعطاني ثواب من آمن بي منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب من آمن بي منذ بعثني إلى يوم تقوم الساعة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لي وزيران من أهل السماء: جبريل وميكائيل، ووزيران من أهل الأرض: أبو بكر وعمر».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «ألا أخبركما بمثلكما من الملائكة، ومثلكما في الأنبياء؟ أمّا مثلك أنت يا أبا بكر في الملائكة فمثل ميكائيل، ينزل بالرحمة، ومثلك أيضًا في الأنبياء كمثل إبراهيم إذ كذّبه قومه، وصنعوا به ما صنعوا، فقال: ﴿فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [نوح: ٢٦]. ومثلك يا عمر في الملائكة كمثل جبريل، ينزل بالبأس والشدة والنقمة على أعداء الله؛ ومثلك في الأنبياء كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وعن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل آنفًا، فقلت له: يا جبريل حدثني بفوائد عمر بن الخطاب في السماء. فقال: يا محمد، لو حدثتك بفوائد عمر بن الخطاب في السماء مثل ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ما نفدت فوائده عمر، وإنَّ عُمرَ حسنة من حسنات أبي بكر».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: هبط جبريل على النبي ﷺ فوقف ثلاثًا يناجيه؛ فمر أبو بكر الصديق فقال جبريل: يا محمد، هذا ابن أبي قحافة؛ قال: يا جبريل، وتعرفونه في السماء؟ قال: إي والذي بعثك بالحق؛ لهو أشهر في السماء منه في الأرض، وإن اسمه في السماء للحلیم.

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح».

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ أنه كان يوم بدر مع المشركين، فلما أسلم قال لأبيه: لقد اهتمدت^(١) لي يوم بدر، فضررت، عنك ولم أقتلك؛ فقال أبو بكر: لكئلك لو اهتمدت لي لم أنصرف عنك.

وعن ابن عثم، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لأبي بكر، وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفكما».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، إنَّ الله يأمرُك أن تستشير أبا بكر».

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ خرج إلى المسجد ومعه المهاجرون والأنصار، ما أحد منهم يرفع رأسه من حبوته إلا أبو بكر وعمر، فإنه كان يبتسم إليهما ويبتسمان إليه.

(١) اهتمدت: أي جعلت عرضة للطعن.

وعن الزبير بن العوام، قال: قال رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: «اللهم بارك لأمتي في أصحابي، فلا تسلبهم البركة، وبارك لأصحابي في أبي بكر، فلا تسلبه البركة، واجمعهم عليه، ولا تشتت أمره؛ فإنه لم يزل يؤثر أمرك على أمره. اللهم أعن عمر بن الخطاب، وصبر عثمان بن عفان، ووفق علي بن أبي طالب، وثبت الزبير، واغفر لطلحة، وسلم سعدًا، ووفر عبد الرحمن، وألحق بي السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

وقيل: لما قدم رسول الله ﷺ من حجة الوداع صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يأيها الناس، إن أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا ذلك له. يأيها الناس، إني راضٍ عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا ذلك لهم. يأيها الناس، إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية. يأيها الناس، احفظوني في أحبائي وأصهارى وفي أصحابي، لا يطلبنكم الله بمظلمة أحدٍ منهم، فإنها ليست فيما يوهب. يأيها الناس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، إذا مات الرجل، فلا تقولوا فيه إلا خيرًا»، ثم نزل ﷺ.

وعن عمرو بن العاص، أنه أتى النبي ﷺ، فقال: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: من الرجال، قال: أبوها. قال: ثم من؟ قال: عمر.

وعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كنا مع النبي ﷺ، فقال: «إني مشتاق إلى إخواني»، فقلنا: أولسنا إخوانك يا رسول الله! قال: «كلاً، أنتم أصحابي وإخواني»، فجاء أبو بكر الصديق، فقال عمر: إنه قال: «إني لمشتاق إلى إخواني، فقلنا: ألسنا إخوانك؟ فقال: لا، إخواني قوم يؤمنون بي ولم يرؤني. فقال النبي ﷺ: «ألا تحب قومًا بلغهم أنك تحبني فأحبوك لحبك إياي، فأحبهم الله!»

وعنه قال: رأيت رسول الله ﷺ متكئاً على علي، وإذا أبو بكر وعمر قد أقبلًا، فقال رسول الله ﷺ: «أحبهما فحبهما يدخل الجنة».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وشكره واجب على أمتي».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حب أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما كفر».

وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ولد أبو بكر الصديق أقبل الله تعالى على جثة عذني، فقال: وعزتي وجلالي لا أدخلك إلا من يحب هذا المولود» - يعني أبا بكر -.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثَمَانِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى لِمَنْ أَحَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ؛ وَفِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ثَمَانِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَلْعَنُونَ مَنْ أَبْغَضَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد بين أبي بكر وعمر، وهو معتمد عليهما، فقال: «هَكَذَا نَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَمِيعًا».

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ؛ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَحَاسِبُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ».

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَأْتِي الْمَلَائِكَةُ بِأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ تَرْفُقهُ إِلَى الْجَنَّةِ رَفًّا».

وعن ثابت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُعْطَى كِتَابَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَلَهُ شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ» فقل له: فأين أبو بكر يا رسول الله؟ قال: «هِيَهَاتَ! زَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْجَنَّةِ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَأَنِّي بِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ تَشْفَعُ لِأُمَّتِي».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: أَلَا هَاتُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ»، قال: فيؤتى بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فيقال لأبي بكر: قِفْ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَأَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ شِئْتَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَدَعْ مَنْ شِئْتَ بَعْلَمَ اللَّهُ، وَيُقَالُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: قِفْ عَلَى الْمِيزَانِ فَثَقِّلْ مَنْ شِئْتَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَخَفِّفْ مَنْ شِئْتَ بَعْلَمَ اللَّهُ، وَيُعْطَى عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ عَصَا آس^(١)، الَّتِي غَرَسَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لَهُ: دُدِ النَّاسُ عَنِ الْحَوْضِ».

وقد ورد في الصحيحين من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ما فيه مفتح، وفضائله رضوان الله عليه كثيرة، وقد ذكرنا جملة كافية، فلنذكر صفته.

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق، أبيض الزهر أو وردي، عطري، وثماره لبية سود تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل. وهو من فصيلة الآسيات.

ذكر صفة أبي بكر الصديق

كان رجلاً نحيفاً طويلاً أبيض، خفيف العارضين أجنباً^(١)، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقْوِيهِ^(٢)، معروق الوجه^(٣)، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع^(٤).

هكذا وصفته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وكان يخضب بالحناء والكتم^(٥).

ذكر ما ورد من أن رسول الله ﷺ

استخلف أبا بكر على أمته من بعده وحجة من قال ذلك

قال الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري^(٦) رحمه الله: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه على أمته من بعده؛ بما أظهر من الدلائل البينة على محبته في ذلك، وبالتعريض الذي يقوم مقام التصريح، ولم يصرح بذلك لأنه لم يؤمر فيه بشيء.

وكان ﷺ لا يصنع شيئاً في دين الله إلا بوحي، والخلافة ركن من أركان الدين.

قال: ومن الدليل الواضح على ما قلنا، ما حدثنا سعيد بن نصر وعبد الوارث بن سفيان، قالوا: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا منصور بن سلمة. وأخبرنا أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا الميمون بن حمزة الحسيني بمصر، قال: حدثنا الطحاوي؛ قال: حدثنا المزني، قال: حدثنا الشافعي، قال:

(١) الأجنب: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الحقو: الكشح والإزار أو معقده.

(٣) معروق الوجه: أي قليل اللحم فيه.

(٤) الأشاجع: مفردا الأشجع، وهو عرق ظاهر الكف.

(٥) الكتم: المشهور أنه النيلة، وقيل نبت له ورق دقيق وزهر أصفر وحمل أسود كالفلفل... يقوي الشعر ويمنع سقوطه... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٦) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وأبي محمد بن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وغيرهم... وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وغيرهما... (وفيات الأعيان ٦٦:٧).

حدثنا إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فسألتها عن شيء، فأمرها أن ترجع إليه. فقالت: يا رسول الله، أرايت إن جئت ولم أجدك؟ - تعني الموت - فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجديني فأت أبا بكر».

قال الشافعي رحمه الله: في هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

وقد تقدم في السيرة النبوية عن عاصم، عن قتادة^(١)، قال: ابتاع النبي ﷺ بعيراً من رجل إلى أجل، فقال: يا رسول الله، إن جئت فلم أجدك؟ - يعني الموت - قال: فأت أبا بكر، قال: فإن جئت فلم أجد أبا بكر؟ - يعني بعد الموت - قال: فأت عمر، قال: إن جئت فلم أجد عمر؟ قال: إن استطعت أن تموت إذا مات عمر، فمت.

وساق أبو عمر بن عبد البر في أدلته على استخلاف رسول الله ﷺ له أحاديث الصلاة، وكونه استخلفه أن يصلي بالناس في مرضه.

وقد قدمنا ذكر ذلك كله في خبر وفاة رسول الله ﷺ.

ومما يؤيد ذلك ويعضده ما قدمناه من حديث عائشة رضي الله عنها، وقول رسول الله ﷺ لا: «لقد هممت - أو أردت - أن أرسل إلى أبيك، أو أخيك فأقضي أمري، وأعهد عهدي؛ فلا يطمع في الأمر طامع، ولا يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون» ثم قال: «كلا يأبى الله ويدفع المؤمنين»، أو «يدفع الله ويأبى المؤمنين». وقال بعضهم في حديثه: «ويأبى الله إلا أبا بكر».

وفي الحديث الآخر عن أبي مليكة، قال: قال النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «ادعوا إلي أبا بكر»، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل يغلبه البكاء؛ ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب؛ قال: «ادعوا إلي أبا بكر»، قالت: إن أبا بكر يرق، ولكن إن شئت دعونا لك ابن الخطاب، فقال: «إنكن صواحب يوسف، ادعوا أبا بكر وابنه؛ فليكتب؛ أن يطمع في أمر أبي بكر طامع، أو يتمنى متمن». ثم قال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون، يأبى الله ذلك والمؤمنون!».

(١) قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، السدوسي البصري الأكمه، كان تابعياً وعالمًا كبيراً.. وكان قتادة أجمع الناس... (وفيات الأعيان ٤: ٨٥).

قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون.

وفي هذا الحديث والذي قبله تصريح على أنه الخليفة بعده، ودليل على أن الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه، وتركه لما كثر عنده التنازع؛ إنما كان المراد به أن ينص على أبي بكر في الخلافة. والله تعالى أعلم.

وروى أبو عمر بسنده إلى عبد الله بن مسعود، أنه قال: اجعلوا إمامكم خيركم؛ فإن رسول الله ﷺ جعل إمامنا خيرنا بعده.

وروى الحسن البصري، عن قيس بن عباد، قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ مريض ليالي وأياما، ينادى بالصلاة فيقول: «مروا أبا بكر يصلي بالناس»؛ فلما قبض رسول الله ﷺ، نظرت، فإذا الصلاة علم الإسلام، وقوام الدين، فرضينا لديننا ما رضي رسول الله ﷺ لديننا، فبايعنا أبا بكر.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: أنا خليفة رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان يدعى: يا خليفة رسول الله ﷺ.

وروي عن ابن أبي مليكة، قال: قال رجل لأبي بكر يا خليفة الله، قال: لست خليفة الله؛ ولكن أنا خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راض بذلك.

وروى أبو عمر بسنده، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكان علي رضي الله عنه يقول: سبق رسول الله ﷺ، وصلى أبو بكر، وثلاث عمر، ثم خبطنا فتنة يغفر الله فيها عمن يشاء. وقال: رحم الله أبا بكر! كان أول من جمع بين اللوحين^(١).

وقال أبو عمر بن عبد البر: وروينا من وجوه، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أنه قال: ولينا أبو بكر فخير خليفة، أرحمه بنا؛ وأحناه علينا.

وقال مسروق: حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهم من السنة.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المقرري.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

(١) اللوح المحفوظ: أي مستودع مشيئات الله تعالى، وإنما هو على المثل... وقوله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَكَ فِي الْأَلْوَابِ﴾ [الأعراف: ١٤٥] قال الزجاج: قيل في التفسير إنهما كانا لوحين، ويجوز أن يقال للوحين ألواح، ويجوز أن يكون ألواح جمع أكثر من اثنين... (اللسان مادة ل. و. ج).

ذكر بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخبر السقيفة، وما وقع بين المهاجرين والأنصار من التراجع في الإمارة

ببيع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة؛ وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، في سقيفة بني ساعدة، وذلك قبل أن يُشرع في جهاز رسول الله ﷺ.

وكان من خبر سقيفة بني ساعدة، أنه لما توفّي رسول الله ﷺ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولي هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ سعد بن عبادة، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال سعد لأبيه - أو لبعض بني عمه -: إني لا أقدر أشكو، أي أن أسمع القوم كلهم كلامي؛ ولكن تلقّ مني قولي فأسمعهموه، فكان سعد يتكلّم ويحفظ الرجل قوله، فيرفع به صوته، فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حيد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، إن لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب؛ إن محمدًا ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل؛ واللّه ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسوله، ولا أن يُعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم فيما عُمّوا به؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة؛ ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه. فكنتم أشدّ الناس على عدوه من غيركم؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيد المقادة صاغراً^(١) ذاخراً^(٢)؛ وحتى أئخن^(٣) الله لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب. وتوفّاه الله إليه وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير العين. استبدّوا بهذا الأمر دون الناس؛ فإنه لكم دون الناس. فأجابوه بأجمعهم، أن قد وفّقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدّو ما رأيت؛ نوليّك هذا الأمر؛ فإنك فينا رفيع، ولصالح المؤمنين رضا.

ثم إنهم تراثوا الكلام، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش؟ فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله ﷺ الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه؛ فعلام تنازعونا

(١) الصاغرة: الذي رضي بالذل والمهانة. (٢) الداخر: الدليل المهان.

(٣) يقال: أئخن في الأرض: إذا بالغ في قتل أعدائه. وأئخن الشيء: علمه حق العلم.

الأمر من بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإننا نقول إذاً فمنا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد بن عباد بن عباد حين سمعها: هذا أول الوهن^(١)!

وأتى عمر رضي الله عنه الخبر، فأقبل إلى منزل النبي ﷺ، فأرسل إلى أبي بكر، وأبو بكر في الدار، وعلي بن أبي طالب نائب في جهاز النبي ﷺ؛ فأرسل إلى أبي بكر، أن اخرج إلي؛ فأرسل إليه: إني مشغول، فأرسل إليه: إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عباد؛ وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير!

فخرجوا مسرعين نحوهم، فلحقوا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوا إليهم ثلاثتهم، فلحقهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة، فقالا لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. قالوا: فارجعوا. فاقضوا أمركم بينكم؛ فإنه لم يكن إلا ما تحبون، فقالوا: لا نفعل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه: فقلت: والله لنأتيهم! قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة وإذا بين أظهرهم^(٢) رجل مزمل^(٣)، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عباد. قلت: ما شأنه؟ قالوا: وجع، فقام رجل منهم، فحمد الله وقال: أما بعد، فنحن الأنصار، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر قريش رهطنا، وقد دقت^(٤) إلينا من قومكم دافعة.

قال: فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. وقد كنت زورت^(٥) في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، وهو كان أقر مني وأحلم، فلما أردت أن أتكلم قال لي: على رسلك^(٦)! وكهرت أن أغضبه، فقام، فحمد الله، وأثنى عليه، فما ترك شيئاً زورت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت، إلا قد جاء به، أو بأحسن منه.

(١) الوهن: الضعف وذبول الحيوية.

(٢) بين أظهرهم: أي بينهم.

(٣) الرجل المزمل: الذي تلفف وتغطى.

(٤) الدافعة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد.

(٥) يقال: زور الكلام: إذا زخرفه وموهه. وزور الكلام في نفسه: أي هياه وحضره.

(٦) على رسلك: أي على مهلك.

وقال: أما بعد، يا معشر الأنصار، فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا أنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش؛ هم أوسط العرب داراً ونسباً، وإنني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح.

يقول عمر وهو على المنبر: وإنني والله ما كرهت من كلامه شيئاً غير هذه الكلمة، أن كنت أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر.

قال: فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل، فقال: أنا جُذيلُها^(١) المحكك، وعذيقُها^(٢) المرجب؛ منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ يا معشر قريش.

قال عمر: وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبي بكر: أبسط يدك نبايعك، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار، ثم نَزَوْا^(٣) على سعد؛ حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عبادة. فقلت: قتل الله سعداً! وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر، إنا خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُخذثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما نرضى، أو نخالفهم فيكون قُشل.

ومن رواية عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمر الأنصاري، وذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وما قاله الأنصار، فقال بعد أن ساق ما تقدم أو نحوه، ثم قال: فبدأ أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته؛ ليعبدوا الله ويوحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، يزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنما هي حَجَرٌ منحوت، وخشب منجور. ثم قرأ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به، والمواساة له والصبر معه، على شدة أذى

(١) الجذل: عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به. ويقال: هو جذيلها المحكك: لمن يستشفى برأيه.

(٢) رجب النخلة: أي دعمها ببناء تعتمد عليه، أو ضم عذاقها إلى سعفاتها وشدها بالخصوص لئلا تنفضها الريح. والعذق: قنو النخلة.

(٣) نزا عليه: أي وثب عليه.

قومهم لهم، وتكذيبهم إيتاهم، وكلّ الناس لهم مُخالف، وعليهم زار^(١)، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشَنَفَ^(٢) النَّاسَ لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول مَنْ عَبد الله في الأرض، وآمن بالله والرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا يَنَازِعُهُمْ ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، أنتم مَنْ لا يَنكُر فضلهم في الدين، ولا سابقتهُم العظيمة في الإسلام، رضىكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جَلَّةُ أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدٌ بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور.

قال: فقام الحُبَابُ بن المنذر بن الجَمُوح، فقال: يا معشر الأنصار، املِكوا على أيديكم. فإنّ الناس في فيثكم وفي ظلّكم، ولن يجترى مجترىً على خلافكم، ولن يُصدِر الناس إلا عن رأيكم؛ وأنتم أهل العزّ والثروة، وأولو العدد والتجربة، وذوو البأس والتجدة؛ وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتتنقض عليكم أموركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنّا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن^(٣)! إنه والله لا يرضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها ﷺ من غيركم؛ ولكن العرب لا تمتنع أن تولّي أمورها من كانت النبوة فيهم، وتولّي أمورهم منهم؛ ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين. مَنْ ذا يَنَازِعنا سلطان محمد وإمارته؛ ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانف^(٤) لإثم أو متورّط في هلكة!

فقام الحُبَابُ بن المنذر، فقال: يا معشر الأنصار، املِكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه، فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولّوا عليهم هذه الأمور؛ فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم؛ فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين، أنا جُذيلُها المحكّك وعُذيقها المرّجّب؛ أما والله لئن شتتم لنعيدنّها جَذَعَةً^(٥)! فقال له عمر: إذن يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل.

(٢) يقال: شنف له: أي فطن.

(٤) المتجانف: المتمايل.

(١) الزار: المختقر.

(٣) القرن: الحبل يقرن به البعيران.

(٥) جذعة: فتية.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغير.

فقال بشير بن سعد، أبو النعمان بن بشير:

يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا ﷺ، والكذب لأنفسنا؛ ما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا، فإن الله وليّ المنّة علينا بذلك؛ ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحقّ به وأولى. وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا! فاتقوا الله ولا تخالفوهم، ولا تنازعوهم.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: هذا عمر وأبو عبيدة، فأيهما شتم فبايعوا؛ فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك، وأنت أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك! أبسط نبايعك.

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه المنذر بن الحُبَاب: يا بشير بن سعد، عَقَقْتَ عَقَاقِي! ما أحوجك إلى ما صنعت! أنفست على ابن عمك الإمارة! قال: لا والله، ولكن كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم.

قال: ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعوا إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض - وفيهم أسيد بن حُضَيْر: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري^(١) في تاريخه: فروي عن أبي بكر بن محمد الخُزَاعِي: إنَّ أسلمَ أقبلت بجماعتها حتى تضايقت بها السكك ليبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيتُ أسلمَ، فأيقنت بالتضر.

(١) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل يزيد بن كثير بن غالب؛ صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٤: ١٩١).

قال عبد الله بن عبد الرحمن: فأقبل الناس من كل جانب يبائعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سعد بن عباد، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدًا لا تطؤوه، فقال عمر: اقتلوه، اقتلوه، قتله الله! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تُنذر^(١) عِصْرُكَ؛ فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، ثم قال: والله لو خَصَصْتُ^(٢) منها شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة^(٣).

فقال أبو بكر: مَهْلًا يا عمر، الرفق هاهنا أبلغ! فأعرض عنه عمر؛ وقال سعد: أما والله لو أن بي من قوتي ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أفطارها وسككها^(٤) زئيرًا يُجْجِرُكَ^(٥). وأصحابك. أما والله إذا لألحقك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع. احملوني عن هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره، وترك أياها ثم بعث إليه أن أقبل فبايع؛ فقد بايع الناس وبايع قومك؛ فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي، فلا أفعل وأيم الله: لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أغرض على ربي وأعلم ما حسابي.

فلما أتى أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع؛ فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى وإنه ليس يبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته. فاتركوه، فليس تركه يضاركم، إنما هو رجل واحد. فتركوه، وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه؛ فكان سعد بن عباد لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم^(٦)، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن الضحّاك بن خليفة، أن سعد بن عباد بايع.

وعن جابر، قال: قال سعد بن عباد يومئذ لأبي بكر: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقومي أجبرتموني على البيعة؛ فقال أبو بكر: إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة، ولكننا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها؛ لئن نزعنا يدًا من طاعة، أو فرقنا جماعة لأضربن الذي فيه عينك.

(١) يقال: ينذر الشيء: أي يزال عن موضعه.

(٢) حصصت: أسقطت.

(٣) الواضحة من الأسنان: التي تبدو عند الضحك.

(٤) السكة: السطر المصطف من الشجر والنخيل، أو الطريق المستوي. جمع سكة.

(٥) يججرك وأصحابك: أي يدخلكم المضايق.

(٦) الإفاضة: انصراف الحجاج عن الموقف في عرفة.

وحكى أبو عمر بن عبد البر رحمه الله؛ أن عمر رضي الله عنه قال: نشدكم الله! هل تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس! فقالوا: اللهم نعم، قال: فأتيكم تطيب نفسه أن يزيله عن مقام أقامه فيه رسول الله ﷺ! فقالوا: كلنا لا تطيب نفسه، ونستغفر الله. وبايعوه.

قال: ثم بويع البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم، وتخلّف عن بيعته سعد بن عباد، وطائفة من الخزرج، وفرقة من قريش، ثم بايعوه بعد غير سعد.

وقيل: إنه لم يتخلّف عن بيعته يومئذ أحد من قريش.

وقيل: تخلّف عنه من قريش: عليّ، والزبير، وطلحة، وخالد بن سعد بن العاص. ثم بايعوه بعد.

وقد قيل: إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لم يبايعه إلا بعد موت فاطمة رضي الله عنها، ثم لم يزل سامعاً مطيعاً له، يشي عليه ويفضّله.

وقيل: إنه تخلّف عليّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة، وقال الزبير: لا أغمّد سيفي حتى يبايع عليّ، فقال عمر: خذوا سيفه، فاضربوا به الحجر؛ ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة.

وقيل: إن عليّاً لما سمع ببيعة أبي بكر خرج في قميص، ما عليه إزار ولا رداء، عَجلاً حتى بايعه، ثم استدعى إزاره وردّاه.

وحكى محمد بن إسحاق رحمه الله؛ عن عبد الله بن أبي بكر، أن خالد بن سعيد بن العاص قدّم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ، فترتّب ببيعته لأبي بكر شهرين، وكان يقول: قد أمرني رسول الله ﷺ ولم يعزلني، ثم بايع أبا بكر. فلما بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، كان أول من بعث على رُبع منها خالد بن سعيد، فلم يزل به عمر حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان، وكان عمر رضي الله عنه قد اضطغن عليه تأخره عن بيعة أبي بكر.

وعن عكرمة^(١)، قال: لما بويع لأبي بكر تخلّف عن بيعته عليّ، وجلس في بيته، فلقيه عمر، فقال: تخلّفت عن بيعة أبي بكر، فقال: إنّي أكتب يمين حين قبض رسول الله ﷺ ألا أرتدي برداء إلا إلى الصلاة المكتوبة؛ حتى أجمع القرآن؛ فإنّي خشيت أن ينفلت، ثم خرج فبايع.

(١) عكرمة: هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أصله من البربر من أهل المغرب، كان لحصين بن الحر العبدي، فوهبه لابن عباس رضي الله عنهما حين ولي البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسماه بأسماء العرب... (وفيات الأعيان ٣: ٢٦٥).

وعن مالك بن مغول، عن ابن أبجر، قال: لما بُويع لأبي بكر الصديق جاء أبو سفيان بن حرب إلى عليّ، فقال: غَلَبَكُمْ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ أَرَدَلْ بَيْتَ فِي قَرِيشٍ! أَمَّا وَاللَّهِ لَأَمْلَأَنَّ خَيْلًا وَرَجُلًا! فقال له عليّ: مَا زِلْتَ عَدُوَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَمَا ضَرَّ ذَلِكَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ شَيْئًا. إِنَّا رَأَيْنَا أَبَا بَكْرٍ لَهَا أَهْلًا. ورواه عبد الرزاق، عن ابن المبارك.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أَنَّ عَلِيًّا وَالزَّيْبِرَ كَانَا حِينَ بُوِيَِعَ لِأَبِي بَكْرٍ يَدْخُلَانِ عَلَىٰ فَاطِمَةَ فَيُشَاوِرَانِهَا فِي أَمْرِهِمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ: يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا كَانَ مِنَ الْخَلْقِ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَبِيكَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْنَا بَعْدَهُ مِنْكَ، وَقَدْ بَلَغْنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ التَّفَرُّ يَدْخُلُونَ عَلَيْكَ، وَلَتُنَّ بَلَغْنِي لِأَفْعَلَنْ وَلَا فَعَلَنْ! ثُمَّ خَرَجَ وَجَاوُوهَا فَقَالَتْ لَهُمْ: إِنْ عُمَرُ قَدْ جَاءَنِي وَحَلَفَ إِنْ عَدْتُمْ لِيَفْعَلَنْ، وَأَيْمُ اللَّهِ لِيَفْقِينَ بِهَا، فَانظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَيَّ؛ فَانصَرَفُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا حَتَّى يَابِعُوا لِأَبِي بَكْرٍ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وهذا الحديث يردّ قول من زعم أن عليّ بن أبي طالب لم يبايع إلا بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها.

ولما بُويع لأبي بكر رضي الله عنه، قال ابن أبي عَزَّة^(١) القرشي الجُمَحِيّ:

[من الكامل]

شَكَرًا لِمَنْ هُوَ بِالتَّنَاءِ خَلِيقُ	ذَهَبَ اللَّجَاجُ وَبُوِيَِعَ الصَّدِيقُ ^(٢)
مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَتْ بِسَعْدٍ بَغْلُهُ	وَرَجَا رَجَاءَ دَوْنِهِ الْعَيْقُوقُ ^(٣)
جَاءَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ عَاجِبَ رَأْسِهِ	فَأَتَى بِهِ الصَّدِيقُ وَالْفَارُوقُ
وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَالَّذِينَ إِلَيْهِمْ	نَفْسُ الْمُؤَمِّلِ لِلْبَقَاءِ تَتَوَقُّ
كُنَّا نَقُولُ لَهَا عَلِيُّ وَالرَّضَا	عُمَرُ وَأَوَّلَاهُمْ بِتِلْكَ عَتِيقُ
فَدَعَتْ قَرِيشٌ بِاسْمِهِ فَأَجَابَهَا	إِنَّ الْمَنُوّهَ بِاسْمِهِ الْمُؤَثُّوقُ

(١) أبو عزة: هو عمرو بن عبد الله بن عمير بن أهيب بن جذافة. . أحد رجال بني جمح، كان يحضض على النبي ﷺ، فأمر يوم بدر. . . (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) اللجّاج: واحدها اللجة، وهي اختلاط الأصوات، أو الجلبة.

(٣) العيقوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الشريا لا يتقدمها. ويطلع قبل الجوزاء.

وروي عن سعيد بن المسيّب، قال: لما قبض رسول الله ﷺ ارتجت مكة، فسمع أبو قحافة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قبض رسول الله ﷺ، قال: أمرٌ جَلَلٌ، فمن ولي بعده؟ قالوا: ابْنُكَ، قال: فهل رضىت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله. والله تعالى أعلم، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب بعد البيعة الأولى وقبل البيعة الثانية العامة

روى أنس بن مالك^(١)، قال: لما بُويع أبو بكر رضي الله عنه في السقيفة، وكان العَدُوّ جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمرُ فتكلّم قبل أبي بكر، فحمّد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

أيها الناس، إنّي قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلّا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهدَه إلينا رسولُ الله ﷺ، ولكن قد كنت أرى أنّ رسولَ الله ﷺ سيُدبّرُ أمرنا حتى يكون آخرنا، وإنّ الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هَدَى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوا. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر، فحمّد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أمّا بعد؛ أيها الناس، فإنّي قد وليتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن أحسنّت فأعينوني، وإن أسأتْ فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقويّ منكم الضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قومُ الجهادَ في سبيل الله، فإنّه لا يدعه قوم إلّا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم؛ قوموا إلى صلاتكم، يرحمكم الله.

(١) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام، صحب رسول الله ﷺ وخدمه.. (الاشتقاق لابن دريد).

- يعني بالصلاة هنا، الصلاة على رسول الله ﷺ - فإن خطبته هذه كانت قبل

دفعه ﷺ.

وقول عمر بن الخطاب في كلامه: «إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة»، إشارة إلى ما كان قد تكلم به عند وفاة رسول الله ﷺ من إنكاره أنه مات، على ما قدمنا ذكره في خبر وفاة رسول الله ﷺ؛ وإنما أوضحنا هذا الكلام في هذا الموضع لئلا يتبادر إلى ذهن من يسمعه ممن لم يطالع ما قبله، ولا عليم الواقعة فيتوهم أن كلامه بذلك رجوع عما تكلم به بالأمس في شأن بيعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

وعن عاصم بن عدي^(١)، أنه قال: وقام أبو بكر رضي الله عنه من بعد الغد - يعني من يوم بيعته - فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس؛ إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، فإنا أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقممت فاتبعوني، وإن زغث فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قُبِضَ، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة؛ ضربة سوط فما دونها؛ ألا وإنما لي شيطان يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِبَ عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يَمْضِيَ هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تُسَلِّمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نَسُوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم. الجَدُّ الجَدُّ، والوحي الوحي^(٢)، والنَّجاة النَّجاة، وإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مره سريع. واحذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تُغْبِطُ به الأموات.

وقام أيضاً رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريدَ به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم، فطاعةً أنيتموها، وحظاً ظفرت به، وضرائب أدّيتموها، وسلَفَ قدّمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم، واعتبروا يا عباد الله بمن مات منكم، وفكروا فيمن كان قبلكم.

(١) هو من بني أسماء بهراء بن عمرو واسمه عاصم بن عدي بن الجد، صاحب النبي ﷺ.

(الاشتقاق لابن دريد).

(٢) الوحي: الإسراع.

أين كانوا أمس وأين هم اليوم! أين الجبارون الذين كان لهم ذكرُ القتال والغلبة ومواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً، قد تُركت عليهم القالات^(١)؛ الخيئات للخيئين، والخيئون للخيئات.

وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها، قد بُعدوا، ونسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء. ألا إن الله قد أبقي عليهم التَّبعات، وقَطَعَ عنهم الشَّهوات، ومَضَوْا والأعمالُ أعمالهم، والدُّنيا دُنْيَا غيرهم، وبقينا خَلْفًا بعدهم، فإنَّ نحنُ اعتبرنا بهم نجونا.

أين الوُضَاءُ^(٢) الحسنة وجوهُهم، المعجَّبون بشبابهم! صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرةً عليهم.

أين الذين بنوا المدائن؛ وحصَّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب! قد تركوها لمن خلفهم، فتلَّك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور، هل تحسُّ منهم من أحدٍ، أو تسمع لهم ركزاً^(٣)!

أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت به آجالهم؛ فوردوا على ما قدَّموا، فحلُّوا عليه، وأقاموا للشَّقْوة أو السَّعادة فيما بعد الموت؛ ألا إنَّ الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه سبب يُعطيه به خيراً، ولا يصرف به عنه شراً إلا بطاعته واتباع أمره.

واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأنَّ ما عنده لا يُدْرِك إلاَّ بطاعته. ألا وإنَّه لا خير بخير بعده الثَّار، ولا شرٌّ بشرٍّ بعده الجنة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر إنفاذ جيش أسامة

قد ذكرنا في السَّيرة النبوية في الغزوات والسرايا؛ أنَّ رسول الله ﷺ كان قد جَهَّز أسامة بنَ زيد قبل وفاته، وندب معه جماعة من أعيان المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر.

وذكرنا أيضاً ما تكلم به من تكلم من الصحابة في شأنه، وما قاله رسول الله ﷺ

(١) القالة: اسم للقول الفاشي في الناس، خيراً كان أو شراً. جمع قالات.

(٢) الوضاء: أي الوضيء: وهو الذي حسن وجمل ونظف.

(٣) الركز: الصوت الخفي.

عندما بلغه ذلك، من الشاء على أسامة بن زيد وعلى أبيه زيد بن حارثة، واستخلافه للإمارة، وأن رسول الله ﷺ قبض وجيش أسامة بالجُرف^(١).

فلما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كان أول ما بدأ به أن أمر مناديه فنادى في الناس من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ ليتّم بعث أسامة: ألا لا يبقين في المدينة أحد من جند أسامة إلا أخرج إلى عسكره بالجُرف.

رُوي ذلك عن عاصم بن عدي. وعن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: لما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجمع الأنصار على الأمر الذي افترقوا عنه، قال: لِيَتِمَّ بعث أسامة، وقد ارتدت العرب، وإما عامة، وإما خاصّة في كل قبيلة، ونجم^(٢) النفاق، واشرايت اليهوديّة والنصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة^(٣)، في الليلة الشاتية؛ لفقد نبيهم وقتلهم، وكثرة عدوهم.

فقال له الناس: إن هؤلاء جُلّ المسلمين، والعرب على ما ترى؛ قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تُفرّق عنك جماعة المسلمين.

فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

وعن الحسن بن أبي الحسن، قال: ضرب رسول الله ﷺ قبل وفاته بغنا على أهل المدينة ومن حولهم، وفيهم عمر بن الخطاب، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فلم يجاوزوا آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله ﷺ، فوقف أسامة بالناس، ثم قال لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ، فاستأذنه، يأذن لي أن أرجع بالناس، فإنّ معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وثقل رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقالت الأنصار: فإنّ أباي إلا أن نمضي؛ فأبلغه عثا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سنا من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة، فأتى أبا بكر، فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو خطفتني الكلاب أو الذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ، قال: فإنّ الأنصار

(١) الجرف: بالضم ثم السكون... موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل، قالوا: سمي الجرف لا نبعا مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى العرض... (معجم البلدان لياقوت الحموي).

(٢) نجم الشيء: أي طلع وظهر، أو نشأ وحدث.

(٣) المطيرة: التي أصابها المطر.

أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سنًا من أسامة. فوثب أبو بكر وكان جالسًا. فأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك وعلمتك يا بن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه!

فخرج عمر إلى الناس، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله ﷺ!

ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتاهم، فأشخصهم وشيعهم وهو ماش؛ وأسامه راکب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل والله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؛ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وتحمي عنه سبعمائة خطيئة؛ حتى إذا انتهى أبو بكر، قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له. ثم قال:

يأيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغفلوا^(١) ولا تغدروا، ولا تمثلوا^(٢)، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا^(٣) نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرؤن بأقوام قد فرغوا أنفسهم بالصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وسوف تلقون أقوامًا قد فحصوا^(٤) أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم^(٥) بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله.

ثم أوصى أسامة أن يفعل ما أمره به رسول الله ﷺ، فسار وأوقع بقبائل قضاة التي ارتدت، وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يومًا، وقيل: سبعين يومًا، وقيل: أربعين؛ سوى مقامه ومقفله راجعًا.

(١) غل الشيء: أخذه من الغنime خفية قبل القسمة.

(٢) مثل بفلان: أي نكل به بجحد أنه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء.

(٣) عقر النخلة: أي قطعها من أصلها فسقطت.

(٤) المراد أن الشيطان قد جعلها مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها. والأفحوص: حفرة تحفرها القطة لتبيض وترقد فيها، جمع أفاحص؛ وكذلك المفحص، جمع المفاحص.

(٥) خفقه بالسيف: أي ضربه به خفيقًا.

وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم تكن لهم قوة ما أرسلوا هذا الجيش؛ فكفوا عن كثير مما كانوا عزموا على فعله، وذلك ببركة اتباع أمر رسول الله ﷺ.

ذكر أخبار من ادعى النبوة من الكذابين وما كان من أمرهم، وتجهيز أبي بكر الصديق الجيوش إليهم، وإلى من ارتد من قبائل العرب

قال المؤرخون: كان ادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ ثلاثة، وهم: الأسود العنسي، وطليحة الأسدي، ومسيلمة الكذاب، وادعت النبوة سجاح بنت الحارث التميمية.

فأما الأسود العنسي، واسمه عبهلة بن كعب بن عوف العنسي - بالثون الساكنة، وعنس بطن من مذحج - فكان يلقب ذا الخمار^(١) لأنه كان متخمرا أبدا.

وقال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: إنه كان له جمار مغلي يقول له: اسجد لربك، فيسجد. ويقول له: ابرك فيبرك. ف قيل له: ذا الجمار. والله تعالى أعلم.

وكانت ردة أول ردة كانت في الإسلام، وغلب على صنعاء إلى عمن إلى الطائف.

وكان من خبره ما روي عن الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه؛ قال: أول ردة كانت في الإسلام باليمن، ردة كانت على عهد رسول الله ﷺ، على يد ذي الخمار عبهلة بن كعب - وهو الأسود - في عامة مذحج، خرج بعد الوداع. وكان الأسود كاهنا مشعبا^(٢)، وكان يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من سمع منطقته، وكان أول ما خرج أن خرج من كهف حبان - وهي كانت موطنه وداره، وبها ولد ونشأ - فكانت به مذحج وواعدوه نجران، فوثبوا عليها، وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص، ثم أنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فزوة بن مسيك فأجلاه، ونزل منزله، فلم يلبث عبهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ.

(١) الخمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها، أو ما خالط الإنسان من سكر الخمر.

(٢) المشعب: المشعوذ: الذي يأخذ كالسحر، يجعلك ترى الشيء بغير ما عليه.

وكان رسول الله ﷺ جمع لبازام، حين أسلم، وأسلمت اليمن كلها على جميع مخالفينها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته لم يعزله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه فيها شريكاً حتى مات بازام، ففرق رسول الله ﷺ عمل اليمن على جماعة من أصحابه، وهم: شهر بن بازام، وعامر بن شهر الهمداني، وعبد الله بن قيس أبو موسى، وخالد بن سعيد بن العاص، والطاهر بن أبي هالة، ويعلى بن أمية، وعمرو بن حزم. وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعكاشة بن ثور بن أضغر الغوثي؛ على السكاسك والسكون، ومعاوية بن كندة. وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين: اليمن وحضرموت.

وروي عن عبيد بن صخر، قال: بينما نحن بالجند؛ قد أقمناهم على ما ينبغي، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب؛ إذ جاءنا كتاب من الأسود: أيها المتورّدون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتهم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، فقلنا للرسول: من أين جئت؟ قال: من كهف حبان؛ ثم كان وجهه إلى نجران حتى أخذها في عشر لمخرجه، وطابقه عوام مذحج؛ فبينما نحن ننظر في أمرنا، ونحن نجتمع جتمعنا إذ أتينا. فقيل: هذا الأسود بشعوب^(١)، وقد خرج إليه شهر بن بازام، وذلك لعشرين ليلة من منجمه؛ فبينما نحن ننتظر الخبر على من تكون الدبرة^(٢)؛ إذ أتانا أنه قتل شهراً، وهزم الأبناء، وغلب على صنعاء، لخمس وعشرين ليلة من منجمه.

وخرج معاذ هارباً حتى مرّ بأبي موسى وهو بمأرب، فاقتحما حضرموت، فأما معاذ فإنه نزل في السكون، وأما أبو موسى فإنه نزل في السكاسك، وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر إلا عمراً وخالدًا، فإنهما رجعا إلى المدينة، والطاهر يومئذ في وسط بلاد عك^(٣) بجبال صنعاء؛ وغلب الأسود على ما بين صهيذ - مفازة حضرموت - إلى عمل الطائف، إلى البحرين قبل عدن، وطابقت عليه اليمن، وعك بتهامة معترضون عليه، وجعل يستطير استطارة الحريق، وكان معه يوم لقي شهر بن بازام سبعمائة

(١) شعوب: بفتح أوله، وآخره ياء موحدة، قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع... وقيل: شعوب: بسايتين بظاهر صنعاء... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الدبرة: الهزيمة في القتال.

(٣) عك: بفتح أوله: قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك، قال أبو القاسم الزجاجي: سميت بعك حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائز أن يكون من العك وهو شدة الحر... (معجم البلدان).

فارس سوى الرُّكبان، واستغلظ أمره، ودانت له سواحل من السواحل وعَدَن والجَنَد؛ ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسية وغيرها.

وعامله المسلمون بالبقية، وعامله أهل الردة بالكفر، والرجوع عن الإسلام.

وكان خليفته في مَدَجج عمرو بن معدى كرب، وأسند أمر جُنْدِه إلى قيس بن عبد يَغُوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداؤونه. فلما أثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز وبدأؤونه. وتزوج امرأة شهر، وهي ابنة عم فيروز.

قال أبو عبيد بن صخر: فبينما نحن كذلك بحضرموت، ولا نأمن أن يسير إلينا الأسود، أو أن يبعث إلينا جيشاً، أو يخرج بحضرموت خارج يدعي بمثل ما ادعى به الأسود، فنحن على ظهر، تزوج معاذ إلى بني بكرة - حي من السكون - امرأة يقال لها: رَمْلَة، فحديبوا^(١) لصهره علينا - وكان معاذ بها معجباً - فإن كان يقول فيما يدعو الله به: اللهم ابعثني يوم القيامة مع السكون، ويقول أحياناً: اللهم اغفر للسكون؛ إذ جاءتنا كتب النبي ﷺ، يأمرنا فيها أن نبعث الرجال لمجاولته ومصالوته، وأن يُبلِّغ كل من رجا عنده شيئاً من ذلك عن النبي ﷺ.

فقام معاذ في ذلك بالذي أمره به، فعرفنا القوة، ووثقنا بالنصر.

وعن جُشَيْش بن الديلمي، قال: لما قديم علينا وبُر بن يُحْنَس بكتاب النبي ﷺ يأمرنا فيه بالقيام على ديننا، والتهوض في الحزب، والعمل في الأسود، إنا غيلة، وإنا مصادمة، وأن تُبلِّغ عنه مَنْ رأينا أن عنده نجدة ودينًا، فعملنا في ذلك، فرأين أمرًا كثيرًا، ورأيناه قد تغير لقيس بن عبد يغوث - وكان على جنده - فقلنا: يُخاف على ذميه فهو لأول دعوة، فدعونا وأنبأناه الشأن، وأبلغناه عن النبي ﷺ، فكأنما وقفنا عليه من السماء، وكان في غم وضيق بأمره، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك، وكاتبنا الناس، ودعوناهم. فأخبره الشيطان بشيء، فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عمدت إلى قيس فأكرمته؛ حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العز مثلك؛ مال مئيل عدوك، وحاول مُلُوكك، وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود! يا سواة، يا سواة! اقطف قُتَّتَه^(٢)، وخُذ من قيس أعلاه؛ وإلا سلبك، أو قطف قُتَّتَك.

فقال قيس وحلف به؛ كذب وذو الخمار؛ لأنت أعظم في نفسي، وأرجى عندي من أن أحدث بك نفسي!

(٢) قنة كل شيء: أعلاه.

(١) حذب عليه: انحنى وعطف.

فقال: ما أجفاك! أتكذب الملك! صدق الملك، وعرفتُ الآن أنك تائب مما أطلع عليه منك، ثم خرج فأتانا فقال: يا جُشيش، يا فيروز، يا داذوئه! إنه قد قال وقلت: فما الرأي؟ فقلنا: نحن على حذر؛ فإننا في ذلك، إذ أرسل إلينا؛ فقال: ألم أشرفكم على قومكم! ألم يبلّغني عنكم! فقلنا: أولنا مرتنا هذه؛ فنجونا، ولم نكد، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم؛ إذ جاءنا اعتراضُ عامر بن شهر وذو زود وذو مُرّان وذو الكلاع وذو طُلَيْم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا الثُّصر، وكاتبناهم؛ وأمرناهم ألا يحركوا شيئاً حتى نُبرم الأمر، وإنما احتاجوا لذلك حين جاء كتابُ رسول الله ﷺ إليهم. وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكني الأرض من غير غريبهم، فتتخّوا، وانضمّوا إلى مكان واحد. وبلغه ذلك، وأحسّ بالهلاك، وفرّق لنا الرأي، فدخلت على آزاد - وهي امرأته - فقلت: يا بنت عمّ، قد عرفته بلاء هذا الرجل عند قومك؛ قتل زوجك، وطأطأ^(١) في قومك القتل، وسَقَل^(٢) بمن بقي منهم، وفَضَح النساء، فهل عندك من ممالأة^(٣) عليه؟ فقلت: على أيّ أمره؟ قلت: إخراج، فقلت: أو قتله! قلت: أو قتله، قالت: نعم والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه؛ ما يقوم الله على حقّ، ولا ينتهي له عن حُرمة، فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتى هذا الأمر. فأخرج فإذا فيروز وداذوئه ينتظراني، وجاء قيس ونحن نريد أن نناهضه، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا: الملك يدعوك، فدخل في عشرة من مذجج وهمدان فلم يقدِر على قتله معهم.

فقال: يا عبهلة بن كعب بن غوث، أميتي تحصن بالرجال! ألم أخبرك الحقّ وتخبرني الكذابة! إنه يقول: يا سواة، إلا تقطع من قيس يده، يقطع فُتتك العلّيا، حتى ظنّ أنه قاتله.

فقال: إنه ليس من الحقّ أن أقتلك وأنت رسول الله؛ فمرني بما أحببت، فأما الخوف والفرع فأنا فيهما مخافة أن تقتلني، ولما قتلني فموتة أهون عليّ من موتات أموتها كل يوم. فرق له وأخرجه؛ فخرج إلينا، فأخبرنا. وقال: اعملوا عملكم، وخرج إلينا في جمع، فقمنا مثولاً له، وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخطّ خطاً، وأقيمت من ورائه، وقام من دونها فنحراها غير محسبة ولا معقّلة، ثم خلاها ما يقتحم الخط منها شيء، ثم خلاها فجالت إلى أن زهقت^(٤).

(١) طأطأ: وضع من قدره.

(٢) سفل: نزل من أعلاه إلى أسفله.

(٣) مالاة عليه ممالأة: ساعده وعاونه.

(٤) زهقت نفسه: خرجت.

فما رأيتُ أمراً كان أفضح منه، ولا يوماً أوحش منه، ثم قال: أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟ - وبوأ له الحرية - لقد هممتُ أن أنحرك فأتبعك هذه البهيمة؛ فقال: اخترتُنا لصُهرِك، وفَضَّلْتُنا على الأبناء، فلو لم تكن نبياً ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمرُ آخرَةٍ ودنيا! لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك؛ فإننا بحيث تحب؛ فقال: اقسِم هذه، فأنت أعلم بمن هنا.

فاجتمع إليّ أهل صنعاء، وجعلت أمر للرهط بالجزور، ولأهل البيت بالبقرة، ولأهل الحِلَّةِ بعدة، حتى أخذ أهل كل ناحية بقسطهم. فلحق به قبل أن يصل إلى داره - وهو واقف عليّ - رجل يسعى إليه بفيروز، فاستمع له، واستمع له فيروز، وهو يقول: أنا قاتله غداً وأصحابه، فاغْدُ عليّ، ثم التفت فإذا به؛ فقال: مَهْ! فأخبره بالذي صنع؛ فقال: أحسنت، وضرب دابته داخلاً، فرجع إلينا فأخبرنا بالخبر، فأرسلنا إلى قيس، فجاءنا، فأجمع ملوهم أن أعود إلى المرأة؛ فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر، فأتيت المرأة، وقلت: ما عندك؟ قالت: هو متحرز متحرّس، وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت؛ فإن ظهّره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، فإنكم من دُون الحرس؛ وليس دون قتله شيء. وقالت: إنكم سترون فيه سراجاً وسلاحاً، فخرجتُ فتلقاني الأسود خارجاً من بعض منازلها؛ فقال: ما أدخلك عليّ؟ ووجأ^(١) رأسي حتى سقطت؛ وكان شديداً، وصاحت المرأة فأدهشته^(٢) عني؛ ولولا ذلك لقتلني؛ وقالت: ابن عمي جاءني زائراً؛ فقال: اسكتي لا أبا لك! فقد وهبته لك فتزِيلُ^(٣) عني، فأتيت أصحابي، فقلت: اللّجاء! الهرب! وأخبرتهم الخبر، فإننا على ذلك حيارى إذ جاءني رسولها: لا تدعن ما فارقتك عليه، فإني لم أزل به حتى اطمأن.

فلما أمسينا عملنا في أمرنا، وقد واطأنا أشياءنا، وعجلنا عن مراسلة الهمدانيين والجميريين، فنقبتنا البيت من خارج، ثم دخلنا وفيه سراجٌ تحت جفنة^(٤)، والتقينا بفيروز - وكان أنجدنا وأشدنا - فقلنا: انظر ماذا ترى؟ فخرج ونحن بينه وبين الحرس معه في مقصورته، فلما دنا من باب البيت سمع غطيظاً شديداً، فإذا المرأة جالسة، فلما قام على الباب أجلسه الشيطان، فكلمه على لسانه وإنه ليغط جالساً. وقال أيضاً:

(١) وجأ رأسه: ضربه.

(٢) أدهش: أذهب عقله من وله أو فزع أو حياء.

(٣) تزيت: احتشمت.

(٤) الجفنة: القصعة.

ما لي ولك يا فيروز! فخشي إن رجع أن يهلك وتهلك المرأة، فعاجله فخالطه^(١) وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه فقتله، فذُقْ عُنُقَهُ، ووضع ركبتيه في ظهره فدقّه، ثم قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه، وهي ترى أنه لم يقتله، فقالت: أين تدعني؟ قال: أخبر أصحابي بمقتله؛ فأتانا، فقمنا معه، فأردنا حَزْ رأسه، فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه. فقلْتُ: اجلسوا على صَدْرِهِ، فجلس اثنان على صَدْرِهِ، وأخذت المرأة بشعره، وسمعنا بَرَبْرَةً^(٢)، فأمر الشفرة على حلقه، فخار كاشد خوار ثور سمعته قط.

فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا؟ فقالت المرأة: النبي يوحى إليه؛ فحمد، ثم سَمَرْنَا ليلتنا ونحن نأتمر كيف نخبر أشياعنا؛ ليس غيرنا ثلاثنا فيروز وداذويه وقيس، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا أو بين أشياعنا، ثم ينادى بالأذان فلما سمع بذلك، وطلع الفجر، نادى داذويه بالشعار، ففرع المسلمون والكافرون، وتجمع الحرس فأحاطوا بنا.

ثم ناديت بالأذان، وتوافت خيولهم إلى الحرس، فناديتهم، أشهد أن محمداً رسول الله، وأن عبه كذاب، وألقينا إليهم رأسه؛ فأقام وبرّ الصلاة، وشئها القوم غارة، ونادين: يا أهل صنعاء؛ مَنْ دخل عليه داخل فتعلقوا به، ومَنْ كان عنده منهم أحد لم يخرج، فتعلقوا به، ونادين بمن في الطريق: تعلقوا بمن استطعتم، فاختطفوا صبياناً كثيراً، وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوا خارجين.

فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارساً ركبانا، وإذا أهل الطريق والدور قد وافونا بهم، وفقدنا سبعمائة عيّل، ثم راسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما في أيديهم، وترك لهم ما في أيدينا، ففعلوا؛ فخرجوا لم يظفروا بشيء.

وتردّدوا فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجند، وأعرّ الله الإسلام وأهله، وتنافسنا الإمارة، وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم، فاضطلخنا على معاذ بن جبل فكان يصلّي بنا، وكتبنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وذلك في حياة النبي ﷺ، فأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رُسُلُنَا، وقد مات النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة، فأجابنا أبو بكر رضي الله عنه.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أتى الخبرُ النبي ﷺ من السماء الليلة التي قُتِل فيها العنسي ليُشَرَّنَا فقال: قُتِل الأسود البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين قيل: ومن هو؟ قال: فيروز.

(١) خالطه: اشتبك معه.

(٢) البربرة: الصوت المختلط.

وعن فيروز؛ قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان، إلا أننا أرسلنا إلى مُعَاذٍ؛ ففراضينا عليه، فكان يصلي بنا في صَنْعَاءَ، فوالله ما صلى بنا إلا ثلاثاً ونحن راجعون مؤملون، حتى أتى الخبرُ بوفاةِ رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيراً ممَّا كنا نعرف، واضطربت الأرض.

وكانت مدة العنسي من حين ظهور أمره إلى أن قُتِل ثلاثة أشهر.

وعن الضحاك بن فيروز، قال: كان ما بين خروجه بكهف خُبَّان^(١) إلى مقتله نحوًا من أربعة أشهر، وقد كان قبل مُستسراً بأمره حتى نادى بعد.

وقال أبو بشر الدولابي: إنَّه قتل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. والله أعلم.

وقيل: أتى الخبر بمقتله إلى المدينة في آخر ربيع الأول، سنة إحدى عشرة، بعد إنفاذ جيش أسامة بن زيد، فكان ذلك أول فتح لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

روى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ يرفعه إلى شُرَحْبِيل بن مسلم الخولاني أنَّ الأسود بعث إلى أبي مسلم عبد الله الخولاني، فلما جاءه قال: أتشهدُ أتَي رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فردَّد ذلك عليه؛ كلَّ ذلك يقول مثل ذلك. قال: فأمر بنارٍ عظيمة فأُجِجت، ثم ألقى فيها أبا مسلم، فلم تضره شيئاً. فقيل له: انْفِه عنك وإلاً أفسد عليك مَنْ اتبعك، فأمره بالرحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأنَاخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، وقام فصلَّى إلى سارية، ويَصْرُ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يَمَن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: أنشدك الله أنت هو! قال: اللهم نعم، قال: فاعتنقه عمر، وبكى. ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، ثم قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى في أمةٍ محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله ﷺ.

هذا ما كان من أمر العنسي، وأمَّا بقية الكذابين؛ فنسذكر أخبارهم عند ذكرنا تجهيز أبي بكر الجيوش إن شاء الله تعالى.

(١) خُبَّان: بضم أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: هي قرية باليمن في وادٍ يقال له وادي خُبَّان قرب نجران، وكهف خُبَّان: هي دارة الأسود العنسي وبها ولد ونشأ... (معجم البلدان).

ذكر غزوة أبي بكر وقتاله أهل الردة وعبس وذبيان

قالوا: لما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، ارتدت العرب كُلُّها إلا قريشًا وثَقِيفًا، وأتت وفود العرب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرتدين يُقرّون بالصلاة، ويمنعون الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردّهم، وقال: والله لو منعوني عَقَالًا^(١) كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها. وخرج في جمادى الآخرة منها، واستخلف على المدينة أُسامَةُ بن زيد، وقيل: سنانا الضمري، وسار فنزل بذي القُصّة^(٢).

وكان رسول الله ﷺ بعث نُوَفْلَ بن معاوية الديلمّي على الصدقة، فلقيه خارجة بن حُصَيْن بالشَّربة^(٣)، فأخذ ما في يديه وردّه على بني فزارة، ورجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة.

فأولُ حربٍ كانت في الردّة بعد وفاة رسول الله ﷺ حرب العنسي باليمن، ثم حرب خارجة بن حصين ومنظور بن زبّان بن سيار في عَطْفان، والمسلمون غَارُون^(٤)، فانهزأ أبو بكر إلى أكمة فاستتر بها، ثم هزم الله المشركين.

وروي أن أول غزاة غزاها أبو بكر، كانت إلى بني عبس وذبيان، وأنه قاتلهم وهزمهم، وأتبعهم حتى نزل بذي القُصّة، وكان ذلك أول الفتح، ووضع أبو بكر رضي الله عنه بها النعمان بن مقرّن^(٥) في عدد ورجع إلى المدينة، فوثب بنو عبس وذبيان على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم. فحلف أبو بكر رضي الله عنه: لَيَقْتُلَنَّ في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة.

وقدمت رسل رسول الله ﷺ من اليمن واليمامة وبلاد بني أسد، ووفود مَنْ كان كاتبه النبي ﷺ.

-
- (١) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.
 - (٢) ذو القصة: جبل في سلمى من جبلي طيء عند سقف وغصور، وقال نصر: ذو القصة موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلًا، وهو طريق الريدة... (معجم البلدان لياقوت).
 - (٣) الشربة: بفتح أوله وثانيه، وتشديد الباء الموحدة، قيل: الشربة موضع بين السليلة والريدة، وقيل: إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقعت في الشربة... (معجم البلدان لياقوت).
 - (٤) غارون: غافلون.
 - (٥) النعمان بن مقرن: هو من رجال مزينة (قبيلة من قبائل الرباب)، له صحبة. وكان على المسلمين يوم نهاوند في خلافة عمر رضي الله عنه، ففتحها وقتل يومئذ... (الاشتقاق لابن دريد).

وأمر أمره في الأسود ومُسَيْلِمة وطلحة بالأخبار والكُتُب، فدفعوا كُتُبَهُمْ إلى أبي بكرٍ، وأخبروه الخير؛ فقال لهم: لا تَبْرَحُوا حتى تَجِيءَ رسلُ أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وَصَفْتُمْ، وأمرَ بانتقاض الأمور؛ فلم يلبثوا أن قَدِمَتْ كُتُبُ أمراء النبي ﷺ من كُلِّ مكانٍ بانتقاضٍ، عامة أو خاصة، وتبسط من ارتدَّ على المُسْلِمِينَ بأنواع الميل.

فحاربهم أبو بكر رضي الله عنه بما كان النبي ﷺ يحاربهم، حاربهم بالرسول، فردَّ رسلَهُمْ، وأتبع الرسلَ رسلًا، وانتظر بمصادمتهم قدومَ أسامة بن زيد، وطرقت المدينة صدقات نفرٍ كانوا على الصدقة؛ وهم صفوان بن صفوان، والزُّبْران^(١) بن بَذَرٍ، وعدي بن حاتم؛ فازداد المسلمون قُوَّةً، ثم قَدِمَ أسامة بنُ زيدٍ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة ومعه جنده لِيَسْتَرِيحُوا.

ثم خرج بمن كان معه، فناشده المسلمون ليقيم، فأبى وقال: لأَؤَاسِيَكُمْ بنفسِي، فسار إلى حُصَيٍّ وذِي الْقَصَّةِ حتى نزل بالأَبْرِقِ^(٢)، فقاتل من به من المشركين فهزمهم، وأخذ الحطيئة أسيرًا، وأقام بالأَبْرِقِ أيامًا ثم رجع إلى المدينة، ولحق مَنْ انهزمَ من عُبَيْسٍ وَذُبْيَانَ وَطُلَيْحَةَ.

وروي عن هشام بن عروة عن أبيه أنَّ أَوَّلَ مَنْ صَادَمَ أبو بكر رضي الله عنه بني عُبَيْسٍ وَذُبْيَانَ، عَاجَلُوهُ، فَقَاتَلَهُمْ قَبْلَ رُجُوعِ أسامة.

ولما قدم أسامة استخلف على المدينة، ومضى حتى انتهى إلى الرَبَذَةِ^(٣)، فتلقى بني عُبَيْسٍ وَذُبْيَانَ وجماعةً من بني عبد مناة بن كنانة، فلقيهم بالأَبْرِقِ، فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَلَّهِمْ، ثم رَجَعَ إلى المدينة فعَقَدَ الْأُلُويَةَ.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(١) قيل: للزُّبْران ثلاث كنى: أبو العباس، وأبو شذرة، وأبو عياش. وثلاثة أسماء الزُّبْران، والقمر، والحصين: بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة، وسمي بذلك لأنه كان يرفع له بيت من عمام وثياب، وينضح بالزعفران والطيب. وكانت بنو تميم تحجه... (الروض الأنف للسبيلي ٢: ٣٣٥).

(٢) المراد أبرق الرَبَذَةِ: بالتحريك والذال معجمة: موضع كانت به وقعة بين أهل الردة وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ذكر في كتاب الفتوح: كان من منازل بني ذبيان فغلهم عليه أبو بكر رضي الله عنه لما ارتدوا وجعله حمى لخيول المسلمين... (معجم البلدان).

(٣) الرَبَذَةُ: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، واسمه جندب بن جنادة... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر عقد أبي بكر رضي الله عنه الألوية

وتجهيزه الجيوش لقتال أهل الردة وما كاتب به من ارتد وما عهد

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله في تاريخه ما مختصره ومعناه: لما رجع أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، وأراح أسامه وجنده ظهروهم وجموا^(١)، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء:

عقد لخالد بن الوليد، وأمره بطليحة؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطح إن أقام له.

وعقد لعكرمة وأمره بمسيلمة الكذاب باليمامة.

وعقد للمهاجر بن أبي أمية، وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح، ومن أعانته من أهل اليمن عليهم، ثم يَمْضِي إلى كِنْدَةَ بحضرموت.

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص، وبعثه إلى الحمقنين من مشارف الشام.

وعقد لعمر بن العاص وأرسله إلى جماع قضاة ووديعه والحارث.

وعقد لحذيفة بن محصن الغلفاني، وأمره بأهل دِبا^(٢) لابن هرثمة، وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمع كل واحد منها في عمله.

وبعث شريح بن حنن في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة؛ وأنت على حيلك تقاتل أهل الردة.

وعقد لمغن بن حاجز - ويقال: لطريفة بن حاجز - وأمره ببني سليم^(٣) ومن معهم من هوازن.

(١) جموا: أي استراحوا فذهب إعياءهم.

(٢) دبا: بفتح أوله، والقصر، قال الأصمعي: سوق من أسواق العرب بعمان... وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأشعارها، وكانت قديماً قسبة عمان، ولعل هذه السوق المذكورة فتحها المسلمون في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) بنو سليم: هم بنو سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر. أو هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن حفضة بن قيس... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وعقد لسُوَيْدِ بْنِ مِقْرَنٍ؛ وأمره بِتِهَامَةَ^(١) اليمَنَ.

وعقد للعلاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، وأمره بِالْبَحْرَيْنِ.

فَقَصَلَتْ الْأُمَرَاءُ مِنْ ذِي الْقَصَةِ، وَلَحِقَ بِكُلِّ أَمِيرٍ جُنْدُهُ، وَعَهْدَ إِلَى كُلِّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ، وَكَتَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى سَائِرٍ مِنْ أَرْتَدَ نُسخَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أبي بكر خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا مِنْ عَامَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ، أَقَامَ عَلَى إِسْلَامِهِ أَوْ رَجَعَ عَنْهُ.

سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَلَمْ يَزِجْ بَعْدَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى، فَإِنِّي أَخْبَدُ اللَّهَ إِلَيْكُمْ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأُقِرُّ بِمَا جَاءَ بِهِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى خَلْقِهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا؛ لِيَنْذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَجْعَلَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَهَدَى اللَّهُ لِلْحَقِّ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ، وَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِذْنِهِ مَنْ أَذْبَرَ عَنْهُ؛ حَتَّى صَارَ إِلَى الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا، ثُمَّ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ نَفَذَ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ.

وَكَانَ اللَّهُ قَدْ بَيَّنَّ لَهُ ذَلِكَ وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَغْبُدُ مُحَمَّدًا، ﷺ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَغْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ، حَيٌّ قَيُّومٌ لَا يَمُوتُ، وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، حَافِظٌ لِأَمْرِهِ، مُسْتَقِمٌ مِنْ عَدُوِّهِ، يَجْزِيهِ.

وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَحَظِّكُمْ وَنَصِيصِكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ، وَأَنْ تَهْتَدُوا بِهَدَاهِ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِدِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ ضَالٌّ، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُعَافِهِ اللَّهُ مُبْتَلَى، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُعِنِهِ اللَّهُ مَخْذُولٌ.

(١) تِهَامَةُ: بالكسر: تِهَامَةُ تَسَايِرِ الْبَحْرِ، مِنْهَا مَكَّةُ . . . وَالْحِجَازُ مَا حَجَزَ بَيْنَ تِهَامَةَ وَالْعَرُوضِ . . . (معجم البلدان).

فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًّا، وَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ كَانَ ضَالًّا، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا عَمَلٌ حَتَّى يَقْرَبَهُ، وَلَمْ يُقْبَلْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به اغترارًا بالله وجهالةً بأموره، وإجابة للشيطان.

وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجَيْنَ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وإني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف، وعمل صالحًا قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يخرقهم بالنيان ويقتلهم كل قتلة، ويسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام.

فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم.

والداعية الأذان؛ فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوههم؛ وإن أذنوا أسألوههم ما علمتهم، فإن أبوا عاجلوههم، وإن أقرؤا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم.

قال: فتفدت الرسل بالكتب أمام الجنود، وخرجت الأمراء ومعهم الغهود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى فلان؛ حين بعثه فيمن بعث لقتال من رجع عن الإسلام؛ عهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله؛ سره وعلايته، وأمره بالجد في الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له، ثم يبتهم بالذي عليهم والذي لهم، ويأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم؛ لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه، وأعانه

عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، وإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه فيما استسره به، ومن لم يجب داعية الله قُتِلَ وقُوتِلَ حيث كان، وحيث بلغ مراغمه^(١)؛ لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله؛ فإن أظهره^(٢) الله عليه قتل منهم كل قتلة، بالسلاح والثيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس، فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم خشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بهم في السير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصخبة ولين القول.

والله تعالى أعلم بالصواب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا

محمد.

ذكر خبر طليحة الأسدي

وما كان من أمره وأمر من اتبعه من

قبائل العرب وما آل إليه أمره بعد ذلك

كان خبر طليحة بن خويلد الأسدي؛ أسد خزيمية، أنه ارتد في حياة رسول الله ﷺ وادعى النبوة، فلما ظهر أمره وجه رسول الله ﷺ ضرازا بن الأزور إلى عماله على بني أسد، وأمرهم بالقيام في أمر طليحة ومن ارتد معه، ونزل المسلمون بواردات^(٣)، ونزل المشركون بسميراء^(٤).

فضعف أمر طليحة، وما زال المسلمون في نماء، والمشركون في نقصان حتى هم ضرازا بن الأزور أن يسير إلى طليحة، ولم يبق أحد إلا أخذه سلماً^(٥)، فاتفق أنه ضرب ضربة بسيف فنيا^(٦) عنه، وشاعت تلك الضربة في الناس، وقالوا: إن السلاح لا يعمل في طليحة، فبينما الناس على ذلك إذ ورد الخبر بوفاة رسول الله ﷺ، فما

(١) المراغم: المهرب والمذهب. (٢) أظهره الله عليه: أعانه.

(٣) واردات: موضع عن يسار طريق مكة وأنت قاصدها.

(٤) سميراء: قال أبو عبيد السكوني: الربائع عن يسار سميراء وواردات عن يمينها، ويوم واردات معروف بين بكر وتغلب... (معجم البلدان).

(٥) السلم: الاستسلام. (٦) نبا السيف عن الشيء: لم يصبه.

أمسى المسلمون من ذلك اليوم حتى عرفوا النقصان، وكثُرَ جَمْعُ طَلِيحَةٍ واستطار أمرُهُ، وادَّعى أَنَّ جبريلَ يأتيه، وسجع للناس الأكاذيب فكان مما أتى به قَوْلُهُ: «والحمام واليمام، والصُّرْدُ^(١) الصَّوَام، قد ضَمِنَ قَبْلَكُمْ بأعوام، ليلُغْنَ ملكنا العراق والشام». وأَمَرَ طَلِيحَةُ الناس بترك السجود في الصَّلَاة، وتَبِعَهُ كثيرٌ من العرب، وكان أكثر أتباعه أَسَدٌ وَعَظْفَانٌ وطِيءٌ، ولما انهزمت عبَسٌ وذُبْيَانُ التحقوا به بِبُزَاخَةٍ^(٢)، وأرسل طَلِيحَةُ إلى جَدِيلَةَ والغوث - وهما حَيَّانٍ من طِيءٍ - أن ينضموا إليه، فتعجَّلَ إليه أناسٌ من الحثين، وأمروا قومهم باللَّحَاقِ بهم، فقدموا على طَلِيحَةٍ وكانوا معه. وبعث أبو بكر رضي الله عنه عِدِيَّ بن حاتم الطَّائِيَّ قَبْلَ توجيهه خَالِدَ بن الوليد إلى قَوْمِهِ، وقال: أَذَرِكُهُمْ لَا يُؤْكَلُوا؛ فخرج عِدِيَّ إليهم؛ فقتلهم في الذُّزوة والغارب، وخرج خَالِدُ بن الوليد في أثره، وأمره أبو بكر رضي الله عنه أن يَبْدَأَ بطِيءٍ على الأكناف؛ ثم يكون وجهه إلى البُزَاخَةِ، ثم يُثَلِّثَ بالبُطَاح، ولا يَبْرُحَ إذا فَرَّغَ من قوم حتى يَأْذَنَ له، وأظهر أبو بكر أَنَّهُ خارجٌ إلى خَيْبَرَ ومنصبٌ عليهم مِنْهَا، حتى يَلَاقِيَهُ بالأكناف، أكناف سَلَمَى.

قال ابن الكلبي: وإِنَّمَا قال ذلك أبو بكر مكيدةً حتى يبلغ ذلك عدوُّه فِيرْعِبَهُمْ، وكان قد أَوْعَبَ^(٣) مع خَالِدِ الناس، فخرج خَالِدٌ، فأزواَزَ عَنِ البُزَاخَةِ وَجَنَحَ إلى أَجَا^(٤)، وقدم عِدِيَّ بن حاتم عليهم؛ ودَعَاهُم إلى الإسلام؛ فأجَابُوهُ بعد امتناع، وقالوا له: أَخْرُ عَنَّا الجيش حتى نستخرج من أَلْحَقَ بالبُزَاخَةِ مِئًا، فَإِنَّا إِن خَالَفْنَا طَلِيحَةَ وهم في يَدَيْهِ قَتَلَهُمْ أو ارتهنهم، فاستقبل عِدِيَّ خَالِدًا وهو بالسُّنْح، فقال: يا خَالِد، أَمْسِكْ عني ثلاثًا؛ تجتمع لك خمسمائة مقاتلٍ تضرب بهم عدوُّكَ؛ خيرٌ من أن تُعْجِلَهُم إلى النَّار. وتشاغَلَ بهم، ففعل وعاد إليهم وقد أُرْسِلُوا إلى إخوانهم؛ فَأَتَوْهُم من بُزَاخَةٍ كَالْمَدَدِ، ولولا ذلك لم يُتْرَكُوا، فعاد عِدِيَّ بإسلامهم إلى خَالِد، وارتحل

(١) الصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به.

(٢) بزاخت: بالضم والخاء معجمة، قال الأصمعي: بزاخت ماء لطيب بأرض نجد، وقال أبو عمرو الشيباني: ماء لبني أسد كانت فيه وقعة عظيمة في أيام أبي بكر الصديق مع طليحة بن خويلد الأسدي... (معجم البلدان).

(٣) أوعب الناس: جمعهم.

(٤) أجأ: بوزن فعل، بالتحريك، مهموز مقصور، قال الزمخشري: أجأ وسلمى جبلان عن يسار سميراء، وقد رأيتهما، شاهقان. ولم يقل عن يسار القاصد إلى مكة أو المنصرف منها... (معجم البلدان لياقوت).

خالد يريد جديلة، فقال له عدي: إِنَّ طَيْئًا كَالطَّائِرِ، وَإِنَّ جَدِيْلَةَ أَحَدُ جَنَاحِي طَيْيءٍ، فَأَجْلُنِي لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُنْقِذَ جَدِيْلَةَ لَكَ كَمَا أَنْقَذَ الْعَوْثُ؛ ففعل، وأتاهم عدي؛ فلم يَزَلْ بهم حتى بَايَعُوهُ؛ فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم أَلْفُ رَاكِبٍ، فكان خَيْرَ مَوْلُودٍ وَلَدَ فِي أَرْضِ طَيْيءٍ وَأَعْظَمَهُ عَلَيْهِمْ بَرَكَةٌ.

قال هشام الكلبي: وسار خالد بن الوليد إلى طليحة، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد جعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمره إلى خالد، فلما دنا خالد من القوم، بعث عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم بن ثعلبة العجلاني البلوي حليف الأنصار طليحة؛ حتى إذا دنوا من القوم خرج طليحة وأخوه سلمة ينظران ويسألان، فلقياهما فبرز سلمة لثابت، وبرز عكاشة لطليحة. فأما سلمة، فلم يُمهَلْ ثَابِتًا أَنْ قَتَلَهُ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أَنْ أَعْنِي عَلَى الرَّجُلِ فَإِنَّهُ آكَل، فاعتونا^(١) عَلَى عكاشه، فقتلاه ثم رجعا، وأقبل خالد بالناس، فمروا بثابت بن أقرم قتيلاً، فلم يفتنوا له حتى وطئته المطي بأخفافها، فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هُمُ بِعُكَّاشَةٍ صَرِيْعًا، فجزع لذلك المسلمون وقالوا: قُتِلَ سَيِّدَانِ مِنْ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وفارسان من فرسانهم.

قال: ثُمَّ التَقَى الْمُسْلِمُونَ بِطَلِيْحَةٍ وَمِنْ مَعَهُ عَلَى بُزَاخَةٍ، واقتتلوا أشدَّ قتال، وطليحة متلُفٌ في كسائه بفناء يَتَبَّأُ لَهُمْ بِرَغْمِهِ، وكان عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري مع طليحة في سبعماية من بني قَزَازَةَ يُقَاتِلُ قِتَالًا شَدِيدًا، فلما اشتدَّ القتال كَرَّ عيينة على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا؛ فرجع فقاتل حتى إذا ضرس^(٢) القتال، وهزَّته الحربُ كَرَّ عَلَيْهِ، فقال له: لا أبا لك! هل جاءك جبريلُ بعد؟ فقال: لا، فقال عيينة: حتى متى؛ قد والله بلغ منَّا! ثم رجع فقاتل؛ حتى إذا بلغ كَرَّ عَلَيْهِ فقال: هل جاءك جبريلُ بعد؟ قال: نعم؛ قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إِنَّ لَكَ رَحًا كَرَحَاهُ، وحديثًا لا تنسَاهُ». قال عيينة: قد عَلِمَ اللَّهُ أَنْ سَيَكُونُ لَكَ حَدِيثٌ لَا تَنْسَاهُ، ونادى عيينة: يَا بَنِي قَزَازَةَ؛ هَكَذَا فَانصَرَفُوا، فهذا والله كَذَّابٌ، فانصرفوا وانهزَمَ النَّاسُ فَغَشَوْا طَلِيْحَةَ، يقولون: ماذا تأمرنا؟ وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته عنده، فلما غشيه النَّاسُ قَامَ قَوْتَبٌ عَلَى فَرَسِهِ، وحمل امرأته الثَّوَارَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَنَجَا بِهَا، وقال للناس: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ وَيَنْجُو بِأَهْلِهِ

(١) اعتونا: اشتد.

(٢) اعتونا: تعاونوا.

فليفعل، ثم سلك الجوشنية^(١) ولحق بالشام فازفص جمعه، وقتل الله من قتل منهم، وأتت قبائل سليم وهوازن وفزارة وأسد وغطفان، وتلك القبائل يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله وبرسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا.

فبايعهم خالد بن الوليد على الإسلام، ثم أقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة، يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيء قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام.

قال أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير^(٢): وكانت بيعته: عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله، ولتقيمن الصلاة، ولتؤتنن الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم! فيقولون: نعم، ولم يقبل من أحد منهم إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا، وعدوا على المسلمين في حال ردتهم، فأتوه بهم، فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة سيّد بني عامر ونفر معه أوثقهم، ومثل بالذين عدوا على المسلمين فأحرقهم بالنيران بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار وأرسل إلى أبي بكر يعلمه ما فعل، ورضخهم، وبعث بقرة وبالأسارى إلى أبي بكر رضي الله عنه وكتب إليه: إن بني عامر أقبلت بعد إغراض، ودخلت في الإسلام بعد تربص، وإني لم أقبل من أحد سألني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتل، وبعثت إليك بقرة وأصحابه.

فكتب أبو بكر إليه: ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، فأتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جد في أمر الله ولا تبنين ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته، ونكلت به غيره.

وكان عيينة بن حصن ممن أسير، روي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. قال: أخبرني من نظر إلى عيينة بن حصن مجموعة يداه إلى عنقه في حبل،

(١) الجوشنية: بزيادة ياء النسب، والهاء: جبل للضبب قرب ضربة من أرض نجد... (معجم البلدان).

(٢) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخيه... كان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم وقائعهم، صنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣: ٣٤٨).

ينخسه غلمان المدينة بالجريد^(١) يقولون: أي عدوّ الله، أكفرت بالله بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط؛ حكاها أبو جعفر الطبري.

قال: فتجاوز أبو بكر رضي الله عنه، وحقن له دمه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما طليحة وما آل إليه أمره؛ فإنه لحق بالشام، ثم نزل على كلب، فأسلم حين بلغه إسلام أسد وغطفان، ولم يزل في بني كلب حتى مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وخرج في خلافة أبي بكر إلى مكة مُعْتَمِراً، ومراً بجنّات المدينة. فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به؟ خلّوا عنه، فقد هداه الله للإسلام. فمضى نحو مكة، فقصى عمرته، ثم أتى عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه للبيعة حين استخلف، فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت! والله لا أحبك أبداً؛ فقال: يا أمير المؤمنين ما تنقم من رجّلين أكرمهما الله بيدي، ولم يهني بأيديهما! فبايعه عمر ورجع إلى دار قومه فأقام حتى خرج إلى العراق.

ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد

كان من خبر بني تميم أنّ رسول الله ﷺ قبل وفاته فرّق عمّاله فيهم، فكان الزُّبْرَقَان بن بدرٍ على الرِّبَاب^(٢) وعوف والأبناء؛ وكان سهم بن مُشْجَاب وقيس بن عاصم على مَقَاعِس^(٣) والبُطُون، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو، هذا على بَهْدَى، وهذا على خَضَم (قبيلتين من بني تميم)، ووكيع بن مالك ومالك بن ثَوْبَرَةَ على بني حنظلة، هذا على بني مالك، وهذا على بني يَرْبُوع.

فأما صفوان فإنه لما أتاها الخبر بوفاة رسول الله ﷺ ضرب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه بصدقات بني عمرو وما ولي منها وبما ولي سبرة، وأقام سبرة في قومه لحديث إن ناب.

(١) الجريد: واحدها الجريدة، وهي سعة طويلة تقشر من خوصها.

(٢) الرِّبَاب: تيم، وعدني، وعكل، ومزينة، وضبة. وإنما سموا الرِّبَاب لأنهم تحالفوا فقالوا: اجتمعوا كاجتماع الرِّبَابة.. وقال قوم: بل غمّسوا أيديهم في ربّ وتحالفوا... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) بنو مقاعس: هم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم.. ومن قبائل مقاعس: عمرو، وصرم، وأصرم، وربيح، وعمير، وعبيد.. ومن رجال مقاعس: سليك بن السلكة.. ومقاعس اسمه الحارث بن عمرو.

وأما قيس بن عاصم فإنه قسم ما وليه من الصدقات في مُقَاعِسَ والبطون؛ وإنما فعل ذلك مخالفةً للزُّبْرَقَانِ.

وأما الزُّبْرَقَانُ فإنه أتبع صفوان بالصدقات التي أخذها مِمَّنْ كَانَتْ تليه، وقدم بها إلى المدينة على أبي بكرٍ وهو يقولُ ويُعَرِّضُ بَقِيسِ بن عاصم^(١): [من الطويل]

وَفَيْتُ بِأَذْوَادِ الرَّسُولِ وَقَدْ أَبَتْ سُعَاءُ فَلَمْ يَزِدْ بِعِيرًا مُجِيرَهَا

ثم ندم قيسُ بن عاصم على ما كان مِنْهُ، فلما أظله العلاءُ بنُ الحضرمي تلقاه بالصدقة، وخرج معه؛ وقال في ذلك: [من الطويل]

أَلَا أَبْلَغًا عَنِّي قُرَيْشًا رِسَالَةً إِذَا مَا أَتَتْهَا بَيِّنَاتُ الْوُدَائِعِ

قال: وتشاغل الناس في تلك الحال بعضهم ببعض، ونشِبَ الشُّرُ، فتشاغلت عَوْفُ والأبناءُ بالبطون والرياب بمقاعِسَ، وتشاغلت عمرو وخضم بمالك وبهدي بربوع؛ فبينما الناس في بلاد تميم على ذلك قد شغل بعضهم بعضاً، فمُسْلِمُهُمْ بِإِزَاءِ مَنْ قَدَّمَ رَجُلًا وَأَخَّرَ أُخْرَى، وتربص وارتاب؛ إذ فحِثَّتْهُمْ سَجَاحُ ابنة الحارث، قد أقبلت من الجزيرة؛ وكانت ورهطها في بني تغلب، فأتت تقود أفناء ربيعة، معها الهذيلُ بنُ عِمْرانَ في بني تغلب، وعَقَّةُ بنُ هلالٍ في الثَّيمِرِ، وزِيَادُ ابنُ فُلانٍ في إِيَادِ، والسَّلِيلُ بنُ قَيْسٍ في بني شَيْبَانَ، فأتاهم أَمْرٌ دَهِيٌّ؛ هو أعظمُ مما فيه الناس؛ لهجومها عليهم، ولما هُم فيهِ مِنْ اختلافِ الكلمة والتشاغل بما بينهم. وكانت سَجَاحُ ابنة الحارث بن سُوَيْدِ بن عُقْفَانَ هي وبنو أبيها بنو عُقْفَانَ في بني تغلب، فاستجاب لها الهذيلُ، وترك النَّصْرَانِيَّةَ، فراسلت مالك بن نُؤَيْرَةَ ودعته إلى المَوَادَعَةِ، فأجَابَهَا وحملها على أخِيَاءِ بني تميم، فقالت: نعم فشأنك بمن رأيتَ، فإنما أنا امرأة من بني يَرْبُوعَ، فإن كان مُلْكُكَ فَالْمُلْكُ مُلْكُكُمْ. وأرسلت إلى بني مالك وحنظلة تدعوهم إلى المَوَادَعَةِ.

فخرج عَطَّارِدُ بن حاجب، وسروات بني مالك، حتى نزلوا في بني العنبر على سَبْرَةِ بن عمرو هُرَّابًا، وخرج أشباههم من بني يَرْبُوعَ حتى نزلوا على الحصين بن نيار

(١) قيس بن عاصم المنقري، جده سنان بن خالد بن منقر أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم وقيس يكنى أبا عليٍّ، وهو شارح فارس شجاع حليم، كثير الغارات مظفر في غزواته أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم وأحسن إسلامه وأتى إلى النبي ﷺ وصحبه في حياته وعمر بعده زماناً... (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢: ٢٦٣).

في بني مازن، وقد كرهوا ما صنع مالك، فلما جاءت رسلها إلى بني مالك تطلب الموادعة أجابها إلى ذلك وكيع بن مالك، فاجتمع وكيع ومالك بن نويرة وسجاح، وقد وادع بعضهم بعضاً، واجتمعوا على قتال الناس، وقالوا: بمن نبدأ؟ بخضم أم يبهدي، أم بعوف والأبناء، أم بالرباب؟ وكفوا عن قيس بن عاصم لما رأوا من تردده وطمعوا فيه. فقالت سجاح: «أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب»، وصمدت سجاح للأحفار حتى تنزل بها، وقالت لهم: «إن الدهناء حجاز بني تميم، ولن تغدو الرباب، إذا شدها المصاب، أن تكون بالدجاني والدهاني، فلينزلهما بعضكم».

فتوجه مالك بن نويرة إلى الدجاني فنزلها، وسمعت بهذا الرباب، فاجتمعوا لها: ضبثها وعبد مانتها، فولي وكيع ويشر بن بكر بن ضبة، وولي ثعلبة بن سعد عقة، وولي عبد مناة الهذيل، فالتقى وكيع ويشر وبنو بكر من بني ضبة فهزما، وأسير سماعة ووكيع وقعقاع، وقتلت قتلى كثيرة، فاجتمع بعد ذلك رؤساء أهل الجزيرة، وقالوا لسجاح: ماذا تأمرينا؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا؟ فقالت: اليمامة؛ فقالوا: إن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة فقالت: «عليكم باليمامة، ودقوا»^(١) دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، ولا يلحقكم بعدها ملامة، فتهدت^(٢) لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها، وخاف إن هو شغل بها أن يدهمه شرحبيل ابن حسنة والقبائل، فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيتها.

فأنزلت الجنود على الأمواه له وأمنته، فجاءها في أربعين من بني حنيفة. وكانت سجاح راسخة في الضرانية، قد علمت من علم نصارى تغلب، فقال لها مسيلمة: لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلت؛ فقالت: «لا يرذ النصف إلا من حنف، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسيف»^(٣). فقال مسيلمة: «سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع. راكم ربكم فحياكم، ومن وخشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم، علينا من صلوات مغش أبرار؛ لا أشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبار، رب الغيوم والأمطار».

(١) يقال: دف الطائر: إذا ضرب جنيبه بجناحيه، أو حرك جناحيه ورجلاه في الأرض.

(٢) نهدت: نهضت.

(٣) السيف: الذي اشتد عطشه.

وقيل: إِنَّ مُسَيْلِمَةَ لما نزلت به سَجَاحٌ أَغْلَقَ الحصنَ دُونَهَا. فقالت له: انزِلْ. قال: فَنَحْيِي عَنْكَ أَصْحَابَكَ، ففعلتُ. فقال مسيلمَةُ: اضربوا لها قُبَّةً وَجَمُّوْهَا^(١) لعلها تذكُرُ الباه^(٢)، ففعلوا، فلَمَّا دخلت القُبَّةُ نزل مسيلمَةُ. فقال لأصحابه: ليَقِفْ هاهنا عشرة، ثُمَّ دارسها. فقالت: ما أُوحي إِلَيْكَ؟ فقال: «ألم ترَ إلى رَبِّكَ كيف فعلى بالحُبْلَى، أخرج منها نَسَمَةً تَسْعَى، من بين صِفاقٍ^(٣) وَحَشَى» قالت: وماذا أيضًا؟ قال: أُوحي إِلَيَّ «إِنَّ الله خلق النساءَ أَفْرَاجًا، وجعل الرجالَ لهنَّ أَزْوَاجًا، فنولِجُ فيهنَّ قُعْسًا^(٤) إِبِلَاجًا، ثُمَّ نخرجها إذا شئنا إِخْرَاجًا، فينتجن لنا سَخَالًا^(٥) إِنْتَاجًا». قالت: أَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قال: هل لك أن أتزوَّجَكَ، وأدِلَّ بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال: [من الهزج]

أَلَا قُومِي إِلَى النِّئِيكِ	فقد هُيِّيَ لكَ المَضْجَعُ
فإن شئت ففي البيت	وإن شئت ففي المَخْدَعِ
وإن شئت سَلِّقْنَاكِ	وإن شئت على أربع ^(٦)
وإن شئت بثلاثيه	وإن شئت به أَجْمَعُ

قالت: بل به أَجْمَعُ. قال: بذلك أُوحي إِلَيَّ، فأقامت عنده ثلاثة أيام، ثم انصرفت إلى قومها. فقالوا لها: ما عِنْدَكَ؟ قالت: كان عَلَى حَقٍّ، فَأَتْبَعْتُهُ فَتَزَوَّجْتُهُ، قالوا: هَلْ أَصْدَقُكَ شَيْئًا؟ قالت: لا. قالوا: فارْجِعِي إليه، فقبيح على مِثْلِكَ أن ترجع بغير صداق، فَرَجَعَتْ. فلما رآها مسيلمَةُ أَغْلَقَ الحصن وقال: ما لَكَ؟ قالت: أَصْدَقْنِي صَدَاقًا. قال: مَنْ مَوْذُنُكَ؟ قالت: شَبْتُ بن رِبْعِي. قال: عليَّ به، فأتاه. فقال: نادِ في أَصْحَابِكَ: إِنَّ مسيلمَةَ رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أَتاكم به مُحَمَّدٌ: صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة.

قال: وكان من أصحابها الزُّبَيْرُ قَان بن بدرٍ وعطارِد بن حاجب ونظراؤُهُم. فقال: إِنَّ عَامَّةَ بني تميم بالرَّمْل لا يصلونها، فانصرفت سَجَاحٌ ومعها أَصْحَابُهَا، فقال عطارِد بن حاجب: [من البسيط]

أَمْسَتْ نَبِيئَتُنَا أَتَتْ نَطِيفُهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

(١) جمروها: أي بخروها بالمجمرة، والمجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.

(٢) الباه: النكاح.

(٣) الصفاق: الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر.

(٤) القعس: اللواتي يهن قعس. والقعس: دخول الظهر وخروج الصدر.

(٥) السخال: جمع السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد؛ والمراد هنا المواليد.

(٦) سلقها: أي بسطها وجامعها.

وقيل: إنَّها صالحت مسيلمة على أن يَحْمِلَ لَهَا النُّصْفَ مِنْ غَلَاتِ الْيَمَامَةِ: وأبَتْ إِلَّا السَّنةَ الْمُقْبِلَةَ يُسَلِّفُهَا، فَأَعْطَى لَهَا النُّصْفَ وَقَالَ: خَلْفِي عَلَى السَّلَفِ مَنْ يَجْمَعُهُ لَكَ، وَاَنْصِرْفِي أَنْتِ بِنُصْفِ الْعَامِ، فَاَنْصِرَفَتْ بِالنُّصْفِ إِلَى الْجَزِيرَةِ، وَخَلَفَتْ الْهَذِيلَ وَعَقَّةَ وَزِيَادًا؛ لِيَنْجِزُوا النُّصْفَ الثَّانِي، فَلَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا دُنُو خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَارْفَضُوا^(١).

وكان من أمرِ مُسَيْلِمَةَ وقتله ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

قال: ولم تزل سجاح بالجزيرة في أخوالها مِنْ بني تَغْلِبَ حَتَّى تَقْلَهُمْ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ عَامَ الْجَمَاعَةِ، وَجَاءَتْ مَعَهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا وَإِسْلَامُهُمْ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ وَمَاتَتْ بِهَا.

وقيل: بَلْ لَمَّا قَتِلَ مُسَيْلِمَةُ سَارَتْ إِلَى أَخْوَالِهَا بِالْجَزِيرَةِ، فَمَاتَتْ عَنْدهُمْ، وَلَمْ يُسْمَعْ لَهَا بِذِكْرٍ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وَخَرَجَ الزُّبَيْرُ قَانُ وَالْأَقْرَعُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ؛ وَقَالَا: اجْعَلْ لَنَا خِرَاجَ الْبَحْرَيْنِ؛ وَنُضْمِنُ لَكَ أَلَّا يَرْجِعَ مِنْ قَوْمِنَا أَحَدٌ، فَفَعَلَ. وَكُتِبَ الْكِتَابُ، وَكَانَ الَّذِي يَخْتَلَفُ بَيْنَهُمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، وَأَشْهَدُ شَهودًا، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمَّا أُتِيَ عُمَرُ بِالْكِتَابِ فَنَظَرَ فِيهِ لَمْ يَشْهَدْ، ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللهِ وَلَا كِرَامَةَ! وَمَرْؤُهُ وَمَحَاهُ، فَغَضِبَ طَلْحَةُ، وَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: أَنْتَ الْأَمِيرُ أَمْ عُمَرُ؟ فَقَالَ: عُمَرُ؛ غَيْرَ أَنَّ الطَّاعَةَ لِي، فَسَكَتَ.

وشهد الزُّبَيْرُ قَانُ وَالْأَقْرَعُ مَعَ خَالِدِ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا حَتَّى الْيَمَامَةِ، ثُمَّ مَضَى الْأَقْرَعُ وَمَعَهُ شَرْحِبِيلُ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ^(٢).

ذكر مسير خالد إلى البطاح

ومقتل مالك بن نويرة

قال أبو جعفر^(٣) رحمه الله: لَمَّا اَنْصِرَفَتْ سَاجِحُ إِلَى الْجَزِيرَةِ اَزْعَوَى مَالِكُ بْنُ نُؤَيْرَةَ، وَنَدِمَ وَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَعَرَفَ وَكَيْعَ وَسَمَاعَةَ قُبِجَ مَا أَتَى، فَارْجَعَا رَجُوعًا حَسَنًا؛

(١) ارفضوا: تفرقوا وتبددوا.

(٢) دومة الجندل: بضم أوله وفتححه، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين، وقد جاء في حديث الواقدي دوما الجندل... قيل: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة من كلب... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أبو جعفر: هو محمد بن جرير الطبري، وقد تقدمت ترجمته.

ولم يتجبرا، وأخرج الصّدقات واستقبلا بها خالد بن الوليد، فقال خالد: ما حملكما على مُوادة هؤلاء القوم؟ فقالا: نأزّ كُنا نطلبه في بني ضبّة.

فسار خالد يريدُ البُطاحَ دون الحَزَن^(١)، وعليها مالك بن نُؤيرة، وقد تردّدت الأنصار على خالد، وتخلّفت عنه. وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنّ الخليفة عهد إلينا إنّ نحن فرغنا من البُزَاخة واستبرأنا بلادَ القوم أن نقيم حتى يكتُب إلينا؛ فقال خالد: إنّ يك عهد إليكم هذا، فقد عهد إليّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإليّ تنتهي الأخبار، ولو أنّه لم يأتني له كتاب ولا أمر، ثم رأيتُ فرصة فكنت إن أعلمته فأتّني لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذا لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نُؤيرة بحيلنا، وأنا قاصد له ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم.

ومضى خالد، وندمت الأنصار وتذامروا، وقالوا: إن أصاب القوم خيرا، إنّه لخير خرمتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس، فأجمعوا اللّحاق بخالد، وجردوا إليه رسولا، فأقام عليهم حتى لحقوا به، ثم سار حتى لحق البُطاح، فلم يجدوا به أحدا. ووجد مالك بن نُؤيرة قد فرّقهم في أموالهم، ونهاهم عن الاجتماع حين تردّد عليه أمره، وقال: يا بني يربوع، إنّنا قد كُنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين، وبطّأنا الناس عنه فلم نُفلح ولم نُنجح، وإنّي قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر لا يتأتى لهم بغير سياسة، فإياكم ومناوأة قوم صُنع لهم، فتفرّقوا إلى دياركم، وأدخلوا في هذا الأمر. فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم.

وخرج مالك بن نُؤيرة حتى رجّع إلى منزله. فلما قَدِم خالدُ البُطاحَ بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام، أن يأتوه بكلّ من لم يُجب، وإن امتنع أن يقتلوه. فجاءته الخيلُ بمالك بن نُؤيرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع، من عاصم وعبيد، وعربين وجعفر، فاختلفت السريّة فيهم، وفيهم أبو قتادة - وكان ممن شهد أنّهم قد أذّنوا وأقاموا وصلّوا - فلما اختلفوا فيهم أمر بهم خالد فحسبوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، وجعلت تزداد بردا، فأمر خالدُ مناديا فنادى: أذفئوا أسراكم. وكانت في لغة كنانة إذا قالوا: ذئروا الرجل فاذفئوه، كان دَفَوْه قَتَله، فظنّ القوم - وهي في لغتهم القتل - أنّه أراد القتل، فقتلوه، فقتل ضيراء بن الأزور مالكا، وسمع خالد الواعية^(٢)، فخرج وقد فرغ منهم فقال: إذا أراد الله أمرا أصابه.

(١) الحزن من الأرض: ما غلظ.

(٢) الواعية: الصراخ والصوت على الميت.

وقد اختلف القوم فيهم؛ فقال أبو قتادة: هَذَا عَمَلُكَ! فزَبَرَهُ^(١) خَالِدٌ فغَضِبَ، ومضى حتى أتى أبا بكر، فغَضِبَ عليه أبو بكر حتى كَلَّمَهُ عُمَرُ فِيهِ، فلم يَرْضَ إِلَّا أَنْ يَرْجَعَ إِلَى خَالِدٍ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ حَتَّى قَدِمَ مَعَهُ الْمَدِينَةَ.

وتزوَّج خَالِدٌ أُمَّ تَمِيمِ ابْنَةَ الْمُنْهَالِ، وتركها لِيَتَقَضِيَ طَهْرَهَا، وكانت الْعَرَبُ تَكْرَهُ النِّسَاءَ فِي الْحَرْبِ، فقال عمر لأبي بكر: إِنَّ فِي سَيْفِ خَالِدٍ رَهَقًا^(٢)، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ تُقَيِّدَهُ، وَأَكْثَرَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وكان أبو بكر لا يُقَيِّدُ مِنْ عَمَالِهِ - فقال: هَبْهُ يَا عُمَرُ تَأَوَّلْ فَأَخْطَأَ، فَارْفَعَ لِسَانَكَ عَنْ خَالِدٍ. وَوَدَى مَالِكًا، وكتب إلى خَالِدٍ أَنْ يَقْدِمَ فَفَعَلَ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ فَعَذَرَهُ وَقَبِلَ مِنْهُ، وَعَثَّقَهُ فِي التَّزْوِيجِ الَّذِي كَانَتْ تَعِيبُ عَلَيْهِ الْعَرَبُ.

وقيل: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَلْحَى عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي عَزْلِ خَالِدٍ. وقال: إِنَّ فِي سَيْفِهِ رَهَقًا. فقال: يَا عُمَرُ، لَمْ أَكُنْ أَشِيئُ^(٣) سَيْفًا سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

وقيل: ولما أَقْبَلَ خَالِدٌ قَافِلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ، عَلَيْهِ صَدَأُ الْحَدِيدِ، مُعْتَجِرًا^(٤) بِعِمَامَةٍ لَهُ، قَدْ غَرَزَ فِيهَا أَسْهَمًا، فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ فَانْتَزَعَ الْأَسْهَمَ مِنْ رَأْسِهِ فَحَطَّمَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَقْتَلْتُ امْرَأً مُسْلِمًا ثُمَّ نَزَوْتُ عَلَى امْرَأَتِهِ! وَاللَّهِ لَا زُجْمَتُكَ بِأَحْجَارِكَ، وَخَالِدٌ لَا يَكْلُمُهُ وَلَا يَظُنُّ إِلَّا أَنَّ رَأْيِي أَبِي بَكْرٍ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي عُمَرَ فِيهِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ، فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَعَذَرَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَجَاوَزَ عَنْهُ مَا كَانَ فِي حَرْبِهِ تِلْكَ.

وخرج خالد حين رَضِيَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا بَنَ أُمِّ شَمْلَةَ؛ فَعَرَفَ عُمَرُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ رَضِيَ عَنْهُ فَلَمْ يَكْلُمِهِ، وَدَخَلَ بَيْتَهُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى، وَهُوَ حَسْبِي، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة

كَانَ مِنْ خَيْرِ مُسَيْلِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ وَفَدَ بَنِي حَنِيفَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي أَخْبَارِ الْوُفُودِ، وَكَانَ مُسَيْلِمَةُ فِي رَحَالِهِمْ، فَلَمَّا أَجَازَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَلَفْنَا صَاحِبَنَا لَنَا فِي رِحَالِنَا يُبَصِّرُهَا لَنَا، وَفِي

(٢) الرهق: السفه والخفة وركوب الظلم.

(٤) اعتجر: لف العمامة.

(١) زبره: نهره.

(٣) شام السيف: أغمدته.

ركابنا يَحْفَظُهَا عَلَيْنَا؛ فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر لأصحابه، وقال: «ليس بشركم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم»، فقبل ذلك لمُسَيْلَمَةَ. فقال: عَرَفَ أَنَّ الْأَمْرَ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ.

ثم ادعى النبوة بعد ذلك، وكان الرِّجَالُ بن عُنْفُوَة قد هاجر إلى رسول الله ﷺ، فتعلَّم القرآن من أَبِي بن كعب، وَفَقِهَ فِي الدِّينِ، فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعَلِّمًا لِأَهْلِ الْيَمَامَةِ، وَلِيَشْغَبَ^(١) عَلَى مُسَيْلَمَةَ؛ وَيشدّد من أمر المسلمين، وكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ مَعَهُ؛ فَصَدَّقُوهُ وَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَأَمَرُوهُ بِمَكَاتِبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَعَدُوهُ إِنَّهُ هُوَ لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُعِينُوهُ عَلَيْهِ.

وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَوِيَتْ شَوْكَةُ مُسَيْلَمَةَ، وَاشْتَدَّ أَمْرُهُ، وَكَثُرَتْ جُمُوعُهُ، وَتَمَكَّنَ الرِّجَالُ بن عُنْفُوَة مِنْ مُسَيْلَمَةَ، وَعَظُمَ شَأْنُهُ عِنْدَهُ، فَكَانَ لَا يَخَالِفُهُ فِي أَمْرٍ وَلَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا تَابَعَهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُسَيْلَمَةُ يُصَانِعُ كُلَّ أَحَدٍ مِمَّنْ أَتَبَعَهُ، وَيَتَابَعُهُ عَلَى رَأْيِهِ، وَلَا يَبَالِي أَنْ يَطْلُعَ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى قَبِيحٍ، وَضَرَبَ حَرَمًا بِالْيَمَامَةِ؛ فَكَانَ مُحَرَّمًا، فَوَقَعَ ذَلِكَ الْحَرَمُ فِي الْأَحَالِيفِ، (أَفْخَاذٌ مِنْ بَنِي أَسِيدَ كَانَتْ دَارُهُمُ الْيَمَامَةُ)، فَصَارَ مَكَانٌ دَارَهُمُ الْحَرَمِ، وَالْأَحَالِيفِ: سِيحَانٌ وَثُمَارَةُ، وَبَنُو جُرُوزَةَ، فَكَانُوا يُغَيِّرُونَ عَلَى ثَمَارِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَإِنْ نَذَرُوا^(٢) بِهِمْ فَدَخَلُوا الْحَرَمَ أَخْجَمُوا^(٣) عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْذَرُوا بِهِمْ فَذَاكَ مَا يَرِيدُونَ؛ فَكَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، حَتَّى اسْتَعَدُّوا عَلَيْهِمْ مُسَيْلَمَةَ، فَقَالَ: انْظُرُوا الَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ فِيكُمْ وَفِيهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «وَاللَّيْلِ الْأَطْحَمُ»^(٤)، وَالذُّبَابُ الْأَدْلَمُ^(٥)، مَا انْتَهَكْتَ أَسِيدَ مِنْ مُحَرَّمٍ، ثُمَّ عَادُوا لِلْغَارَةِ وَالْعُدْوَى^(٦)، فَقَالَ: انْتَظَرُوا الَّذِي يَأْتِينِي. ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّيْلِ الدَّامِسُ، وَالذُّبَابُ الْهَامِسُ»^(٧)، مَا قَطَعْتَ أَسِيدَ مِنْ زَطْبٍ وَلَا يَابَسٍ؛ فَقَالُوا: أَمَّا النَّخِيلُ فَمُرْطَبَةٌ وَقَدْ جَدُّوْهَا^(٨)، وَأَمَّا الْجُذُرَانُ فَيَابَسَةٌ وَقَدْ هَدَمُوْهَا، فَقَالَ: أَذْهَبُوا وَارْجِعُوا فَلَا حَقَّ لَكُمْ.

وَكَانَ فِيهَا يَقْرَؤُهُ لَهُمْ فِيهِمْ: إِنَّ بَنِي تَمِيمٍ قَوْمٌ طَهَّرَ لِقَاحَ^(٩)، لَا مَكْرُوهَ عَلَيْهِمْ وَلَا إِتَارَةَ، نَجَاوَرَهُمْ مَا حَيِينَا بِإِخْسَانٍ، نَمْنَعُهُمْ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَإِذَا مِتْنَا فَأَمْرُهُمْ إِلَى الرَّحْمَنِ.

(١) شَغَبَ الْقَوْمَ وَعَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَبِهِمْ: هَيَّجَ الشَّرَّ بَيْنَهُمْ.

(٢) نَذَرُوا: عَلِمُوا.

(٣) أَخْجَمُوا عَنْهُمْ: كَفَرُوا وَنَكَصُوا.

(٤) اللَّيْلِ الْأَطْحَمُ: الْأَسْوَدُ.

(٥) الذُّبَابُ الْأَدْلَمُ: الْأَسْوَدُ الطَّوِيلُ.

(٦) الْعُدْوَى: الْعُدْوَانُ.

(٧) الْهَامِسُ: الشَّدِيدُ.

(٨) جَذَّ: قَطَعَ.

(٩) قَوْمٌ لِقَاحَ: لَمْ يَدِينُوا لِلْمَلُوكِ.

وكان يقول: والشَّاءُ وألوانها، وأعجبها السُّود وألوانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض؛ إنه لعَجَبٌ محض، وقد حُرِّمَ المَذَقُ^(١)، فما لكم تمَجِّعون^(٢)! وكان يقول: «يا ضِفْدَعُ ابنة ضِفْدَعٍ، نُقِّي مَا تَبْقَيْنَ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تُكْذِّرين».

وقال أيضًا: «والمبذرات زرعًا، والحاصيدات خضدًا، والزراعات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا^(٣)، واللاقمات لقما، إهالة^(٤) وسمنا، لقد فُضِّلْتُمْ على الوَيْرِ، وما سبقكم أهل المدر؛ ريفكم فامنعوه، والمُعْتَرِ^(٥) فأووه، والباغي فناووه».

قالوا: وأنت امرأة فقالت: إِنْ نَخَلْنَا لَسُحْقُ^(٦)، وَإِنْ أَبَارْنَا لَجَرَزُ^(٧) فادعى الله لمائنا ونخلنا، كما دعا محمد لأهل هزمان، ففعل كما فعل رسول الله ﷺ، ودعا للنخل، وتمضمض من الماء، ومَجَّه في الآبار، فبَسَّتِ النخلُ، وغارت الآبارُ.

وقيل: إنه نزل على أولاد بني حنيفة كما فعل رسول الله ﷺ، فمرَّ بيده على رؤوسهم، وحَنَكهم، ففرغ ولِثَعٌ مَنْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وظهر ذلك كله بعد مهلكه.

قالوا: وجاء طلحة النمرِّي، فقال: أَيْنَ مُسَيْلِمَةُ؟ فقالوا: مَهْ رَسولُ الله! فقال: لا، حتى أراه، فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: مَنْ يَأْتِيكَ؟ قال: رحمن، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَذَّابٌ، وَأَنْ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، وَلَكِنْ كَذَّابٌ رَبِيعَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَادِقٍ مُضَرٍّ.

والله سبحانه أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

ذكر الحروب الكائنة بين

المسلمين وبين مسيلمة وبين أهل اليمامة وقتل مسيلمة

قد ذكرنا أَنَّ أبا بكر الصديق لَمَّا عَقَدَ الْأُلويةَ، عَقَدَ لِعِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَأَمْرَهُ بِمُسَيْلِمَةَ، ثُمَّ أَزْدَقَهُ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ، فَعَجَّلَ عِكْرَمَةَ، وَبَادَرَ الْحَرْبَ لِيَذْهَبَ بِصَوْتِهَا، فَوَاقَعَهُمْ، فَنَكَبُوهُ، وَأَقَامَ شُرَحْبِيلُ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى أَذْرَكَهُ الْخَبْرُ.

(١) المذق: اللبن الممزوج بالماء.

(٢) متجع: أكل الجميع. والمجيع: ضرب من الطعام يصنع من لبن وتمر.

(٣) يقال: ثرد الخبز: أي فته ثم بله بمرق.

(٤) الإهالة: الشحم؛ أو الزيت؛ أو كل ما أوتدَم به.

(٥) المعتَر: الفقير.

(٦) السحوق: الطويلة من النخل، جمع سحق.

(٧) الأرض الجرز: التي أجذبت.

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عكرمة: يا بن أم عكرمة؛ لا أرى لك ولا تراني على حالها، ولا تزجج فتوهن الناس، انض على وجهك حتى تساند حذيفة وعزجة، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة^(١)، وإن شغلا فامض أنت، ثم تسير ويسير جندك؛ تستبرئون من مرزتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت.

وكتب إلى شرحبيل يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره، ثم كتب إليه قبل أن يوجه خالد بن الوليد بأيام إلى اليمامة: إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم - إن شاء الله - فالحق بقضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبي منهم وخالف.

فلما قدم خالد على أبي بكر الصديق رضي الله عنه من البطاح رضي الله عنه، وقبل عذره كما ذكرنا، ووجهه إلى مسيلمة، وأوعب^(٢) معه الناس، وجعل على كل قبيلة رجلاً، وجعل على المهاجرين أبا حذيفة بن عتبة، وجعل على الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وتعبل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح، وانتظر البعث الذي ضرب بالمدينة، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ تزيد عدتهم على أربعين ألف مقاتل. وعجل شرحبيل ابن حسنة، وبادر بالقتال قبل وصول خالد كما فعل عكرمة، فثكب كما نكب، فلما قدم خالد لأمه، وسار خالد حتى إذا أطل على بني حنيفة أسند خيولاً لعقة والهديل وزياد، وقد كانوا أقاموا على خرج أخرجه لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح، وإنما أسند خالد تلك الخيول مخافة أن يأتوه من خلفه، وأمد أبو بكر رضي الله عنه خالدًا بسليط بن عمرو بن عبد شمس العامري القرشي ليكون رداء له من أن يأتيه أحد من خلفه؛ فخرج.

فلما دنا من خالد وجد تلك الخيول التي انتابت تلك البلاد قد فرقوا فهربوا، فكان منهم قريباً لهم، وأما مسيلمة فإنه لما بلغه دنو خالد بن الوليد منه عسكر بعقرباء، واستنفر الناس، فجعل الناس يخرجون إليه، وخرج مجاعة بن مرة بن سلمى الحنفي اليمامي - وكان رئيساً من رؤساء بني حنيفة - في سرية يطلب بثار له في بني عامر وبني تميم، فلما كان خالد من عسكر مسيلمة على ليلة، إذا مجاعة

(١) مهرة: بالفتح ثم السكون، هكذا يرويه عامة الناس، والصحيح مهرة بالتحريك وجدته بخطوط جماعة من أئمة العلماء لا يختلفون فيه... قيل: مهرة: بلاد تنسب إليها الإبل... وقيل: مهرة: قبيلة، وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة تنسب إليهم الإبل المهرية وباليمن هم مخلاف... بينه وبين عمان نحو شهر... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: أوعب القوم: خرجوا كلهم إلى الغزو.

وأضحاه وقد غلبهم الكرى - وكانوا راجعين من بلاد بني عامر - فَعَرَسُوا دُونَ ثِيَّةٍ^(١) اليمامة، فوجدوهم نياماً وأزساناً خيولهم بأيديهم تحت خدودهم، ولا يشعرون بقرب الجيش منهم، فأنبهوهم، وقالوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: مجاعة، وهذه حنيفة، فأوثقوهم، وأقاموا إلى أَنْ جَاءَهُمْ خَالِدٌ فَأَتَوْهُ بِهِمْ، فَظَنَّ أَنَّهُمْ جَاؤُوهُ لِيَسْتَقْبِلُوهُ، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: مَا شَعَرْنَا بِكَ، إِنَّمَا خَرَجْنَا لِنَارٍ لَنَا فِيمَنْ حَوْلَنَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَتَمِيمٍ، فَأَمَرَ بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا، فقالوا: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِأَهْلِ الْيَمَامَةِ غَدًا خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَاسْتَبِقْ هَذَا، وَلَا تَقْتُلْ - يريدون مجاعة - فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ دُونَهُ، وكانوا ثلاثة وعشرين راكباً - وقيل: أَرْبَعِينَ. وقيل: سِتِينَ - وصَبَرَ^(٢) مجاعة، وسار إلى اليمامة، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة، فنزلوا بعقرباء، وهي طَرْفُ الْيَمَامَةِ؛ دُونَ الْأَمْوَالِ، وَرِيفُ الْيَمَامَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ.

وقال سُرْحَبِيلُ بْنُ مَسِيلَمَةَ: يَا بَنِي حَنِيفَةَ، الْيَوْمُ يَوْمُ الْغِيَرَةِ، الْيَوْمَ إِنْ هَزِمْتُمْ تُسْتَرَدَفُ^(٣) النِّسَاءُ سَبِيَّاتٍ، وَيُنْكَحْنَ غَيْرَ حَظِيَّاتٍ، فَقَاتِلُوا عَنْ أَحْسَابِكُمْ، وَامْنَعُوا نِسَاءَكُمْ.

فالتقوا بعقرباء واقتتلوا، وكانت راية المهاجرين يؤمّنذ مع سالم مولى أبي حذيفة. وقيل: بَلْ كَانَتْ مَعَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ، فَلَمَّا قُتِلَ أَخَذَهَا سَالِمٌ، فَقَالُوا لَهُ: تَخْشَى عَلَيْنَا مِنْ نَفْسِكَ شَيْئًا؟ فقال: بَشَسُ حَامِلِ الْقُرْآنِ إِنَّا إِذَا! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، وكانت العرب على راياتها، ومجاعة في الأسر مع أم تميم زوجة خالد في فسطاطها^(٤)، واقتتل الناس أشد قتال، ولم يلق المسلمون حرباً مثلها، فانهزم المسلمون وخلف بنو حنيفة إلى خالد، فزال عن الفسطاط، ووصلوا إليه وقطعوه، ودخل أناس من بني حنيفة على أم تميم، فأرادوا قتلها، فمنعها مجاعة. وقال: أَنَا لَهَا جَارٌّ، فَنِعِمَّتِ الْحَرَّةُ! فدفعهم عنها.

ثم إن المسلمين تداعوا؛ فقال ثابت بن قيس: بِشَسْمَا دَعَوْتُمْ أَنْفُسَكُمْ إِلَيْهِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا يَغْبُذُ هَؤُلَاءِ - يعني أهل اليمامة - وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ - يعني المسلمين - ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، قُطِعَتْ رِجْلُهُ فَرُمِيَ بِهَا قَاتِلُهُ فَقَتَلَهُ.

- وله رضي الله عنه عجبٌ نذكره إن شاء الله تعالى في آخر هذه الوقعة -.

(١) الثنية: كل عقبة في الجبل مسلوكة. (٢) صبر فلاناً: حبسه.
(٣) أردف فلاناً: جعله ردفه وأركبه خلفه. (٤) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

قالوا: وحمل خالد في الناس حتى رَدَّهم أبعَدَ ما كانوا، واشتدَّ القتال، وكانت الحربُ يومئذ تارةً للمسلمين، وتارةً عليهم، وقُتِلَ سالمٌ وأبو حذيفة وزيدُ بنُ الخطاب وغيرُهم.

فلما رأى خالدُ ما النَّاسُ فيه، قال: امتازوا^(١) اليوم أيُّها الناس، لنعلم بلاءَ كلِّ حيٍّ، ولنعلم من أين تُؤتَى! فلما امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم نستحيي من الفرار. وقاتل النَّاسُ قتالاً عظيماً، وثبت مُسيلمة، فعرف خالدُ أنَّ الفتنة لا تزُكَّد إلاَّ بِقَتْلِ مُسيلمة، فبرز ودعا إلى البراز، فما يبرز له أحدٌ إلا قتلَهُ، ودعا مُسيلمة فأجابه؛ وعرضَ عَلَيْهِ أشياء، فكان إذا هَمَّ بجوابه أعرضَ بوجهه يستشير شيطانه، فينهاه أن يَقْبَلَ، فأعرضَ بِوَجْهِه مرة، فركبه خالد وأرهقه فأدبر، وزال أَصْحَابُهُ، فكانت هزيمَتهم، وقالوا لِمُسيلمة: أين ما كُنْتَ تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أَحْسَابِكُمْ. ونادى الْمُحَكَّمُ بنُ الطَّفِيل: يا بني حنيفة، الحديقة الحديقة! فدخَلوها، وأغلَقُوا بابها عليهم.

قال: وكان البراءُ بنُ مالكٍ أخُو أنسٍ؛ إذا حضر الحرب أخذته رِعدة حتى يَقْعُد الرجال عليه، ثم يبول، فإذا بال ثارٍ كما يثور الأسدُّ، فأصابَهُ ذلك، فقال: إليَّ أيُّها الناس؛ أنا البراءُ بنُ مالكٍ؛ وَقَاتِلْ قِتالاً شديداً، فلما دخل بنو حنيفة الحديقة، قال البراء: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم فيها. فقالوا: لا نفعل، فاحتمل حتى أشرف على الجدارِ واقتمحها عليهم، وقاتل على الباب، وفتحهُ المسلمون، ودخلوا عليهم، فاقتتلوا أشدَّ قتال، وكَثُرَ القَتْلُ في الفريقين، فلم يزلوا كذلك حتى قُتِلَ مُسيلمة، واشترك في قتله وحشيٌّ، مولى جُبَيْر بن مُطْعِم قاتل حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ من الأنصار، فولَّت حنيفة عِنْدَ قتلِهِ منهزمةً، وأخذَهُم السَّيْفُ من كُلِّ جانب. وقُتِلَ مُحَكَّم اليمامة، قتلَهُ عبد الرحمن بن أبي بكرٍ الصديق، رضي الله عنه؛ رماه بسهم في نحره وهو يخطُبُ ويحرِّضُ الناسَ فقتله، وقُتِلَ من المهاجرين والأنصارِ من أهلِ المدينة ثلاثمائة وستون، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة، وقتل من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموتِ مثلها، وفي الطَّلَبِ نحو منها؛ وخرج خالدٌ بمِجَاعَةٍ يرْسُفُ^(٢) في الحديد ليدُلَّهُ على مُسيلمة، فجعل يكشفُ القَتلى حتى مرَّ بِمُحَكَّم بن الطَّفِيل، وكان رَجُلًا جسيمًا وسيماً، فلما رآه خالدُ قال: هذا صاحبُكُمْ؟ قال: لا، هذا والله خيرٌ منه وأكرمُ؛ هذا مُحَكَّم اليمامة، ثم مضى حتَّى دخل

(١) امتاز: انفصل عن غيره وانعزل؛ أو بدا فضله على مثله.

(٢) رسف في القيد: مشى فيه رويداً.

الحديقة، فقلَّب له القَتْلَى، فإذا رُوِجِل أَصَيَّر أُخَيِّنِس^(١). فقال مَجَّاعَة: هذا صاحبُكم قد فرغتم منه؛ فقال خالدٌ لمَجَّاعَة: هذا فعل بكم ما فعل! قال: قَدْ كان ذلك يا خالد، وإنَّه واللَّهِ ما جاءك إلا سَرَعان^(٢) الناس، وإنَّ جماهير النَّاس لَنُفِي الحُصُون، فقال: ويلك، ما تقول! قال: هو والله الحقُّ، فهلُم لأُصَالِحْكُمْ على قومي.

وجاء عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر إلى خالد، فقالا له: ارتحل
بالناس، فانزل على الحصون، فقال: دعاني أئبُ الخيول فألتقط مَنْ لَيْسَ فِي الْحَصُونِ
ثُمَّ أَرَى؛ فَبَيْتُ الْخَيُولِ فَحَوَّوْا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ وَصَبْيَانٍ، فَضَّوْهُمْ إِلَى الْعَسْكَرِ،
وَنَادَى بِالرَّحِيلِ لِيَنْزَلَ عَلَى الْحَصُونِ، فَقَالَ لَهُ مَجَاعَةٌ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا جَاءَكَ إِلَّا سَرَعَانُ
النَّاسِ، فَإِنَّ الْحَصُونِ لَمَمْلُوءَةٌ رَجَالًا، فَهَلُمَّ إِلَى الصَّلْحِ عَلَيَّ مَا وَرَائِي، فَصَالَحَهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ دُونَ الثُّفُوسِ؛ ثُمَّ قَالَ مَجَاعَةٌ: أَنْطَلِقْ إِلَيْهِمْ فَأَسْأِرْهُمْ، وَنَنْظُرْ فِي هَذَا
الْأَمْرِ، ثُمَّ أَرْجِعْ إِلَيْكَ، فَدَخَلَ مَجَاعَةُ الْحَصُونَ وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ
وَمَشِيخَةٌ فَانِيَّةٌ، وَرَجَالٌ ضَعْفَى، فَظَاهَرَ^(٣) الْحَدِيدَ عَلَى النِّسَاءِ، وَأَمْرَهُنَّ بِنَشْرِ
شَعُورِهِنَّ، وَأَنْ يُشْرِفْنَ عَلَى رُؤُوسِ الْحَصُونِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى خَالِدٍ،
فَقَالَ: قَدْ أَبْوَا أَنْ يُجَبِّزُوا مَا ضَيَّعْتُ، وَقَدْ أَشْرَفَ لَكَ بَعْضُهُمْ نَقْضًا عَلَيَّ، وَهُمْ مَنِي
بُرَاءً، فَنَظَرَ خَالِدٌ إِلَى رُؤُوسِ الْحَصُونِ، وَقَدْ اسْوَدَّتْ وَقَدْ نَهَكَتِ الْمُسْلِمِينَ الْحَرْبُ،
وَأَحْبَبُوا أَنْ يَرْجِعُوا عَلَى الظُّفْرِ. فَقَالَ مَجَاعَةٌ لَخَالِدٍ: إِنْ شِئْتَ صَنَعْتُ شَيْئًا، فَعَزَمْتُ
عَلَى الْقَوْمِ؛ تَأْخُذُ مِنِّي زُبْعَ السَّنْبِي وَتَدْعُ مَا بَقِيَ؛ فَقَالَ خَالِدٌ: قَدْ فَعَلْتُ. قَالَ: قَدْ
صَالَحْتُكَ، فَلَمَّا فَرَّغَا فَتَحَتِ الْحَصُونَ، فَإِذَا لَيْسَ فِيهَا إِلَّا النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ. فَقَالَ خَالِدٌ
لِمَجَاعَةٍ: وَيْحَكَ! خَدَعْتَنِي. فَقَالَ: قَوْمِي، وَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا مَا صَنَعْتُ.

وقيل: إِنَّ خَالِدًا صَالِحَ مَجَاعَةٍ عَلَى نِصْفِ السَّنِي، وَالصُّفْرَاءُ، وَالْبَيْضَاءُ،
وَالْحَلَقَةُ^(٤)، وَالْكُرَاعُ^(٥)، وَحَائِطُ^(٦) مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ يَخْتَارُ خَالِدٌ، وَمَزْرَعَةٌ يَخْتَارُهَا،
فَتَقَاضُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ سَرَّحَهُ وَقَالَ: أَنْتُمْ بِالْخِيَارِ ثَلَاثًا، وَاللَّهُ لَنْ لَمْ تُتِمُّوا وَتَقَبَّلُوا
لَا نَهْدَنَّ إِلَيْكُمْ. ثُمَّ قَالَ: لَا أَقْبِلُ مِنْكُمْ خَصْلَةً أَبَدًا إِلَّا الْقَتْلَ، فَأَتَاهُمْ مَجَاعَةٌ فَقَالَ: أَمَا
الآنَ فَاقْبَلُوا، فَقَالَ سَلْمَةُ بْنُ عُمَيْرٍ الْحَنْفِيُّ: لَا وَاللَّهِ لَا نَقْبِلُ؛ تَبَعْتُ إِلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ
وَالْعَبِيدِ، فَنَقَاتِلُ وَلَا نَقَاضِي خَالِدًا؛ فَإِنَّ الْحَصُونَ حَصِينَةٌ، وَالطَّعَامُ كَثِيرٌ، وَالشِّتَاءُ قَدْ
حَضَرَ.

(١) أخينس: تصغير أخنس؛ وهو الذي تأخر أنفه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.

(٣) المراد ألبسهن الحديد.

(٤) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة. (٥) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٤) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة.

(۶) الحائط: يراد به هنا البستان.

(۶) الحائط: يراد به هنا البستان.

فقال له مجاعة: إنك امرؤ مشؤوم، وغرّك أنني خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح، وهل بقي منكم أحد فيه خيرٌ وبه دفع! وإنما أنا بادرْتُكم.

فخرج مجاعة سابع سبعة حتى أتى خالدًا. فقال: بعد شرٍّ ما رضوا اكتب كتابك، فكتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مُرارة وسلَمة بن عُمير، وفلانًا وفلانًا، قاضاهم على الصّفراء والبيضاء ونصف السّني، والحلقة والكراع، وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن يسلموا، ثم أنتم آميئون بأمان الله، لكم ذمة خالد بن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، وذمة المسلمين على الوفاء.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد بقتل كل محتلم، وكان قد صالحهم فوقى لهم. ثم إن خالد بن الوليد قال لمجاعة: زوّجني ابنتك، فقال مجاعة: مهلاً، إنك قاطع ظهرك وظهري معك عند صاحبك. قال: أيها الرجل، زوّجني، فزوجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب، إليه كتاباً يقطر الدّم؛ يقول:

يا بن أمّ خالد؛ إنك لفارغ، تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفّ بعد!

فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعيسر - يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه -.

وبعث خالد وفدًا من بني حنيفة إلى أبي بكر، فقدموا عليه. فقال لهم: ويحكم! ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمرًا لم يبارك الله له، ولا لعشيرته فيه. قال: على ذلك، ما الذي دعائكم به؟ قالوا: كان يقول: «يا ضقدع نقي نقي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: سبحان الله، ويلكم! إن هذا الكلام ما خرج من إل^(١) ولا بر^(٢)، فأين يذهب بكم!

(١) الإل: العهد والقرابة.

(٢) البر: الخير أو الفؤاد.

قال أبو جعفر: لما فرغ خالد من اليمامة، وكان مَنَزَلُهُ الذي به التقى الناس أباَضَ (واِدٍ من أودية اليمامة)؛ ثم تَحَوَّلَ إلى واِدٍ من أوديتها يقال له: الوبر، فكان مَنَزَلُهُ بها.

ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس في مقتله وتنفيذ وصيته للرؤيا التي رثيت بعد مقتله

قد أشرنا عند ذكر مقتله أن له خبرًا عجيبيًا نذكره، ورأينا إيرادَه هاهنا توفيةً للشرط.

حكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة. قال ثابت بن قيس وسالمٌ مَوْلَى أَبِي حذيفة: ما هكذا كُنَّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثم حَفَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا له حفرة، وثبتا وقاتلا حتى قُتِلَا. وكان على ثابت يومئذٍ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأخذها، فبينما رجلٌ من المسلمين نائمٌ إذ أتاه ثابتٌ في منامه، فقال له: إني أوصيك بوصية، فإنَّك أن تقول هذا حُلْمٌ فتضيِّعه؛ إني لَمَّا قُتِلْتُ أمسٍ مرَّ بي رجلٌ من المسلمين، فأخذ دِرْعِي، ومنزله في أقصى النَّاسِ، وعند خبائه فرس يستنُّ^(١) في طَوْلِهِ^(٢)، وقد كفأ^(٣) على الدرع بُرْمَةً^(٤)، وفوقَ البُرْمَةِ رحل، فأَتَ خالدًا فمزَّه أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إنَّ عَلَيَّ من الدِّينِ كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق.

فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها.

وحَدَّثَ أبا بكرٍ برؤياه، فأجاز وصيته من بعد موته. قال: ولا نغلم أحدًا أُجيزَتْ وصيته بعد موته غير ثابت بن قيسٍ رحمه الله تعالى.

ذكر أهل البحرين ومن ارتد منهم وانضم إلى الحُطَم وما كان من أمرهم

والحُطَم اسمه شُرَيْح بنُ ضُبَيْعَةَ. قال أبو عبيدة في سبب تسميته بالحُطَم: إنَّه كان غزا اليمن في جموع جمعها من ربعة، فغنم وسبى بعد حرب كانت بينه وبين

(٢) الطول: الحبل.

(٤) البرمة: القدر من الحجارة.

(١) يستن: يحمص.

(٣) كفأ البرمة: كبها وقلبها.

كِنْدَةَ، أسر فيها فزعان بن مهدي بن معدي كرب عم الأشعث بن قيس، وأخذ على طريق مَفَازَةٍ؛ فضلٌ بهم دليلهم، ثم هرب منهم، ومات فزعان عَطْشًا، وهلك منهم ناسٌ كثيرون بالعطش، وجعل مُرْنِج يسوقُ بأصحابه سَوَاقًا حَيْثَا حَتَّى نَجَوْا، وورَدوا الماء؛ فقال فيه رُشِيد بن رُمَيْض^(١) هذه الأبيات: [من الرجز]

بات يقاسيها غلامٌ كالزَّلَمِ نامَ الحداةُ وابنَ هِنْدٍ لم يَنْمِ^(٢)
هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّي زَيْمٌ قد لَقَّها الليل بسَوَاقٍ حُطَمِ^(٣)
خدَلَجُ السَّاقِينِ خُفَّاقُ القَدَمِ ليسَ براعي إبل ولا غنمِ^(٤)
* ولا بجزارٍ على ظَهْرٍ وُضِمَ *^(٥)

فلَقِبَ يومئذٍ الحُطَمَ لذلك.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: كان من حديث أهل البحرين أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى هو والمنذر بن ساوى في شهرٍ واحدٍ، ثم مات المنذر بعد رسول الله ﷺ بقليل، وارتدَّ بعده أهلُ البحرين، فأما عبد القيس ففأنت^(٦)، وأما بكر فتمت على الردة، وكان الذي ثنى عبد القيس الجارود بن المعلّى. وقيل فيه: الجارود بن عمرو بن حبّيش بن يعلى، واسمه - فيما يقال - بشر بن عمرو، وإنما قيل له الجارود؛ لأنّه أغار في الجاهلية على بكر بن وائل، فأصابهم فجردهم. - وهذه الزيادة في اسم الجارود عن غير الطبري -.

قال أبو جعفر: وكان الجارود قد قديم على رسول الله ﷺ، وكان نصرانيًا فأسلم، ومكث بالمدينة حتى فقه، ثم رجع إلى قومه فكان فيهم؛ فلم يلبث إلا قليلًا حتى قبض رسول الله ﷺ؛ فقالت عبد القيس: لو كان محمدٌ نبيًا لما مات؛ وارتدّوا؛ فبعث إليهم فجمعهم، وقال: يا معشر عبد القيس؛ إني سائلكم عن أمرٍ فأخبروني به إن علمتموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموا؛ قالوا: سلّ عما بدا لك. قال: تعلمون أنّه كان لله تعالى أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: ترونه أو تعلمونه؟ قالوا: لا، بل

(١) هو رشيد بن رميض العنزي، من بني عنز بن وائل، أو من بني عنزة... (تاج العروس ٣٧: ٥).

(٢) الزلم: القدح الذي لا ريش عليه، والجمع أزالام. الجوهري: الزلم، بالتحريك القدح... (اللسان مادة ز. ل. م.).

(٣) ماشية زيم: متفرقة.

(٤) الخدلج: الممتلىء الذراعين والساقين.

(٥) الوضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك، يوقى به من الأرض.

(٦) فآنت: رجعت.

نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا؛ قال: فإنَّ محمدًا ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله؛ قالوا: ونحن نشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأنتَ سيدنا وأملنا.

وثبتوا على إسلامهم وخلَّوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى، فكان المنذر مشتغلًا بهم حياته، فلما مات حُصِر أصحابه في مكانين، فكانوا كذلك حتى أنقذهم العلاء بن الحضرمي.

قال: ولما ارتدَّت ربيعة ومن تابعها. قالوا: نردُّ الملَّك في آل المنذر، فملَّكوا المنذر بن النُّعمان بن المنذر، وكان يسمَّى العُرور، فكان يقول بعد ذلك حين أسلم الناس وغلَّبهم السيف: لستُ بالعُرور، ولكني المغرور.

قال: ولما مات النبي ﷺ خرج الحُطَم بن ضبيعة أخو قيس بن ثعلبة فيمن اتَّبعه من بكر بن وائل على الرِّدة، ومن تأسَّب^(١) إليه من غير المرتدِّين؛ ممَّن لم يزلْ كافرًا حتى نزل القُطيف^(٢) وهَجَرَ، وبعث بعثًا إلى دارين، فأقاموا به ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم، يمدُّون المنذر والمسلمين، وأرسل إلى العُرور ابن أخي النُّعمان بن المنذر، فبعثه إلى جُؤاثى، وقال له: اثبت، فإنِّي إنْ ظفرت ملَّكتُك بالبحرين حتى تكون كالنُّعمان بالبحيرة، وبعث إلى جُؤاثى فحصرهم، وألحوا عليهم، وفي المسلمين المحصَّورين رجلٌ من صالحى المسلمين. يقال له: عبد الله بن حَذَف، أحد بني بكر بن كلاب، فاشتدَّ عليه وعليهم الجوع حتى كادوا يهلكوا؛ فقال عبد الله بن حَذَف^(٣) في ذلك: [من الوافر]

ألاَّ أبْلِغْ أبا بكرٍ رسولاً
فهل لَكُم إلى قوم كرام
كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجٍّ
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا
وفتيان المدينة أجمعيـنا
فُعودٍ في جُؤاثى مَحْصَرِينَا^(٤)
شُعَاعُ الشَّمْسِ يَغْشَى النَّاظِرِينَا
وَجَدْنَا الصَّبْرَ لِلْمَتَوَكِّلِينَا

(١) تأسَّب: تجمع إليه من هنا وهنا.

(٢) القُطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه: مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها، وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة. وقال الحفصي: القُطيف قرية لجذيمة عبد القيس... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) عبد الله بن حَذَف: من بني فزارة.

(٤) الجائث والجأث: الذي ينقل الأخبار؛ وجثث: ثقل عند القيام أو حمل شيء ثَقِيل.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد عَقَدَ للعلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين كما قَدَّمنا ذكر ذلك، فسار العلاء فيمن معه، فلما كان بحيال اليمامة لِحَقَّ به ثَمَامَةُ بْنُ أَنَالٍ في مُسْلِمَةِ بني حَنِيفَةَ، وخرج مع العلاء من بني عمرو وسعد والرباب مثل عسكره، وسَلَكَ الدَّهْنَاءَ^(١) فنزل، وأمر النَّاسَ بالنزول، فنزلوا، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقيَ بعيْرٌ ولا زاد ولا مِزَادٌ ولا بناءٌ إلَّا ذهبَ عليها في عرض الرَّمْلِ، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطُّوا، فَمَا هَجَمَ على جَمْعٍ من الغنم ما هجم عليهم، وأوصى بَعْضُهُمْ إلى بعض، ونَادَى مَنَادِي العلاء: اجتمعوا، فاجتمعوا إليه؛ فقال: ما هذا الذي قد ظهر فيكم، وغلب عليكم؟ فقال النَّاسُ: وكيف نلام ونحن إن بلغنا غَدًا لم نخمَّ شَمْسُهُ حتى نصير حديثًا، فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، لا تُراعوا، أَلَسْتُمْ مسلمين! أَلَسْتُمْ في سبيل الله! أَلَسْتُمْ أَنْصَارَ اللَّهِ! قالوا: بلى. قال: فابشروا فوالله لا يخذل الله مَنْ كان في مثل حالكم.

ونادى المَنَادِي بِصَلَاةِ الصُّبْحِ حين طلع الفجر، فصلَّى بهم، منهم المتيَّم، ومنهم من لم يَزَلْ على طُهرِهِ، فلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ جَنَّا لِرَكْبَتَيْهِ، وجَنَّا النَّاسُ، فنصَّب في الدُّعَاءِ، ونصَّبوا معه، فلمع لهم سراب الشَّمْسِ، فالتفت إلى الصفِّ. فقال: رائد ينظر ما هذا، ففعل، ثم رجع فقال: سراب. فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر، فكذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس معه، فمشوا حتى نزلوا عليه، فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَدُ^(٢) من كُلِّ وَجْهِ، فَأَنَاخَتْ عليهم، فقام كُلُّ رَجُلٍ إلى ظهره، فأخذه.

قال منجَابُ بْنُ رَاشِدٍ: فما فَقَدْنَا سِلَكًا^(٣)؛ فَأَزَوَيْنَاهَا وَأَسْقَيْنَاهَا الْعَلَلَ^(٤) بعد النَّهْلِ^(٥)، وتروينا، ثم تَرَوْنَاهَا. وكان أبو هريرة رَفيقِي فلَمَّا غَبَا عن ذلك المكان. قال لي: كيف عَلِمْتُك بموضع ذلك الماء؟ فقلت: أنا من أهدى العرب بهذه البلاد. قال: فكن معي حتى تقيمني عليه، فكَرَّرْتُ به، فَأَتَيْتُ به على ذلك المكان، فقلت: لولا

(١) الدهناء: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ونون وألف تمد وتقصر، قيل: هي سبعة أحيل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل بيرين، وهي من أكثر بلاد الله كلاً مع قلة أغذاء ومياه، وإذا أخضبت الدهناء ربت العرب جمعاً لسعتها وكثرة شجرها... (معجم البلدان).

(٢) تكرد: تطرد.

(٣) السلك: واحدتها سلكة، وهو الخيط الذي يخالط به الثوب.

(٤) العلل: الشراب الثاني.

(٥) النهل: الشراب الأول.

أَنِّي لَا أَرَى الْغَدِيرَ لِأَخْبِرْتُكَ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَكَانَ، وَمَا رَأَيْتُ بِهَذَا الْمَكَانَ مَاءً نَاقِعًا قَبْلَ الْيَوْمِ، وَإِذَا إِدَاوَةٌ^(١) مَمْلُوءَةٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَهْمٍ، هَذَا وَاللَّهِ الْمَكَانَ، وَلِهَذَا رَجَعْتُ بِكَ، وَمَلَأْتُ إِدَاوَتِي ثُمَّ وَضَعْتُهَا عَلَى شَفِيرِهِ. فَقُلْتُ: إِنْ كَانَ مَتًّا مِنَ الْمَنِّْ وَكَانَتْ آيَةٌ عَرَفْتُهَا، وَإِنْ كَانَ غِيَاثًا عَرَفْتُهُ، فَلِذَا مَنْ مِنَ الْمَنِّْ؟ فَحَمَدَ اللَّهُ. ثُمَّ سِزْنَا حَتَّى نَنْزِلَ هَجَرَ^(٢).

قَالَ: فَأَرْسَلَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى الْجَارُودِ وَرَجُلٍ آخَرَ: أَنْ انْضَمَّا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ حَتَّى تَنْتَرِلَا عَلَى الْحُطَمِ مِمَّا يَلِيكُمَا، وَخَرَجَ هُوَ فِيمَنْ جَاءَ مَعَهُ، وَفِيمَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ مَا يَلِي هَجَرَ، وَتَجَمَّعَ الْمُشْرِكُونَ كُلُّهُمْ إِلَى الْحُطَمِ إِلَّا أَهْلَ دَارِينَ، وَتَجَمَّعَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ إِلَى الْعَلَاءِ، وَخَنَّدَقَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَكَانُوا يَتَرَاوَحُونَ الْقِتَالَ وَيَرْجِعُونَ إِلَى خَنْدَقِهِمْ، فَكَانُوا كَذَلِكَ شَهْرًا.

فَبَيْنَا النَّاسُ لَيْلَةً إِذْ سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ فِي عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ ضَوْضَاءَ شَدِيدَةً، كَأَنَّهَا ضَوْضَاءُ هَزِيمَةٍ أَوْ قِتَالٍ، فَقَالَ الْعَلَاءُ: مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَدَفٍ: أَنَا أَتَيْكُمْ بِخَبَرِ الْقَوْمِ؛ فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ خَنْدَقِهِمْ أَخَذُوهُ؛ فَقَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَانْتَسَبَ لَهُمْ، وَجَعَلَ يَنَادِي: يَا أَبَجْرَاهُ! فَجَاءَ أَبَجْرُ فَعَرَفَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: لَا أَصْغُرُ بَيْنَ اللَّهَازِمِ^(٣)، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُظْنُكَ بِشِّ بْنِ الْأُخْتِ لِأَخْوَالِكَ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ: دَغْنِي مِنْ هَذَا، وَأَطْعِمْنِي؛ فَإِنِّي قَدْ مِتُّ جَوْعًا؛ فَقَرَّبَ لَهُ طَعَامًا فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ: زَوِّدْنِي وَاخْمِلْنِي، فَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَدَفٍ حَتَّى دَخَلَ عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْقَوْمَ سُكَارَى، فَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى اقْتَحَمُوا عَسْكَرَهُمْ، فَوَضَعُوا السُّيُوفَ فِيهِمْ حَيْثُ شَاؤُوا، وَاقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ هُرَابًا فَمَتَرْدُ وَنَاجٍ، وَدَهَشَ وَمَقْتُولٌ أَوْ مَأْسُورٌ، وَاسْتَوْلَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا فِي الْعَسْكَرِ، وَلَمْ يَسْكَمْ رَجُلٌ إِلَّا بِمَا عَلَيْهِ، فَأَمَّا أَبَجْرُ فَأَقْلَتْ؛ وَأَمَّا الْحُطَمُ فَإِنَّهُ دَهَشَ، وَطَارَ فَوَّادُهُ، فَقَامَ إِلَى فَرَسِهِ - وَالْمُسْلِمُونَ خَلَاحَهُمْ - فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ انْقَطَعَ بِهِ فَمَرَّ بِهِ، عَفِيفُ بْنُ الْمَنْذَرِ وَالْحُطَمُ يَسْتَغِيثُ؛ يَقُولُ: أَلَا رَجُلٌ يَعْقِلْنِي! فَعَرَفَ

(١) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء جمع أداوى.

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: هي مدينة وهي قاعدة البحرين.. وقيل: هي في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) اللهازم: واحدها اللهزمة: عظم ناتئ في اللحي تحت الحنك. وهما لهزمتان.

صوته، فقال: أعطني رجلك، فأعطاه رجله فنفحها^(١) فأطئها^(٢) من الفخذ، وتركه، فقال: أجهز عليّ؛ فقال: لا، إني أحبّ ألاّ تموت حتى أمضك^(٣). وجعل الحطّم لا يمرّ به أحد من المسلمين في الليل إلا قال: هل لك في الحطّم أن تقتله! حتى مرّ عليه قيس بن عاصم فقتله، فلما رأى فخذَه نادرة^(٤)، قال: واسواتاه لو علمت الذي به لم أحرّكه! وخرج المسلمون بعدما أخذوا الخندق على القوم يطلبونهم، فلحق قيس بن عاصم أبجر، فطعنه قيس في العرقوب فقطعه، فكانت رائدة، وأصبح العلاء فقسّم الأنفال^(٥)، ونقل رجالاً من أهل البلاء ثياباً.

وأما أهل عُمان ومَهرة واليمن، فإنّ حذيفة بن محصن الحميري وعرفجة سارا إلى القوم، فاقتتل المسلمون وأهل عُمان قتالاً شديداً فهزّم المسلمون المرتدين، وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف، وسبوا الذراري، وجمّعوا الغنائم، وبعثوا الخمس إلى أبي بكر، وقسموا ما بقي، ثم خرجوا نحو مهرة، فكشف الله جنود المرتدين، وقُتل رئيسهم، وركبهم المسلمون، فقتلوا منهم من شاؤوا، وأصابوا من شاؤوا، وخمسوا الغنائم، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقسموا ما بقي.

وأما من بقي من بقية الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر رضي الله عنه، وبعثهم إلى من ارتد من قبائل العرب، فإنّ كل أمير سار إلى من بعثه إليه فمن رجّع عن الردّة، وفاء إلى الإسلام قُبِل منه ومنّ أبي قتل، وأطفاً الله تلك النيران.

رؤي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: لقد أقمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه، لولا أنّ الله تعالى منّ علينا بأبي بكر، جمعنا على أن نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأن نأكل قرى عريّة^(٦)، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين.

فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فإن يقرّوا بأنّ من قُتل منهم في النار، وأنّ من قُتل ممّا في الجنة، وأن يدّوا قتلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وما أخذوا ممّا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فإن يخرجوا من ديارهم. وكانت هذه الحروب التي ذكرناها.

(١) يقال: نفحه بالسيف: أي ضربه ضربة خفيفة.

(٢) أطئها: قطعها.

(٣) أمضه: أكمه.

(٤) نادرة: ساقطة.

(٥) النفل: الغنيمة؛ أو الهبة، جمع أنفال.

(٦) عريّة: بلفظ تصغير عرنة، وعريّة: موضع ببلاد فزارة، وقيل: قرى بالمدينة؛ وعريّة: قبيلة من العرب... (معجم البلدان).

وهذه الوقائع كُلُّها في سنة إحدى عشرة، وكان فيها حوادثٌ آخر غير ما ذكرناها، نذكرها إن شاء الله تعالى في حوادث السنين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد نهاية الغزوات. والله أعلم.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية

كان إرسال خالد بن الوليد إلى العراق في المحرم سنة ثلاث عشرة من الهجرة. قالوا: وكان الذي هاج أبا بكر رضي الله عنه؛ أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يُغير على أهل فارسَ بالسواد، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعُه قبل معرفة نسبه؟ فقال قيسُ بنُ عاصم: أمّا إنّه غيرُ خامل الذُّكر، ولا مجهول النُّسب، ولا قليلُ العدد، ولا ذليلُ العِمارة^(١)، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني.

ثم قدّم المثنى على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، ابعثنني على قومي، فإنّ فيهم إسلامًا، أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو؛ ففعل أبو بكر رضي الله عنه ذلك.

وقدّم المثنى إلى العراق، فقاتل، وأغارَ على أهل فارس ونواحي السواد حَوْلًا، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يسأله المدد ويقول: إن أمددتنني وسمعت بذلك العرب أسرعوا إليّ، وأذلّ اللهَ المشركين، مع أنّي أُخبرُك يا خليفة رسول الله أنّ الأعاجم تخافنا وتُتَقِينا. فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، ابعث خالد بن الوليد مددًا للمثنى بن حارثة، يكون قريبًا من أهل الشام، فإن استغنى عنه أهل الشام ألحَ على أهل العراق؛ حتى يفتح الله عليه. حكاه أبو عمر بن عبد البر من حديث الأصمعي عن سلمة بن بلال عن أبي رجاء العطاردي.

قال: كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المثنى بن حارثة: إنّي قد وليتُ خالد بن الوليد، فكن معه؛ وكان المثنى بسواد الكوفة، فخرج خالد فتلَقَّاه، وقدم معه البصرة.

(١) العِمارة: بالكسر، وبعد الألف راء، ضد الخراب، والعِمارة: الحي العظيم ينفرد بظعنه وهي دون القبيلة، والعِمارة: الصدر، وبها سميت القبيلة: وهو ماء بالسليلة من جبل قطن به نخل... (معجم البلدان لياقوت).

وحكى أبو الحسن عليّ بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير في تاريخه «الكامل» قال: أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق، وقيل: بل قدم إلى المدينة من اليمامة، فأرسله إلى العراق، وأوصاه أن يبتدأ بفرج الهند، وهو الأبلّة^(١)، وأن يتألف أهل فارس، وكلّ من كان في ملكهم من الأمم، فصار حتى نزل بياضيا، وباروسما وأليس، فصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار سوى جزية كسرى، وكان على كلّ رأس أربعة دراهم فأخذ منهم الجزية، ثم سار حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشراقها مع قبيصة بن إياس الطائي، وكان أميراً عليها بعد الثعمان بن المنذر، فدعاهم إلى الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة فاختاروا الجزية، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية أخذت من الفرس في الإسلام، هي والقرى التي صالح عليها، واشترط على أهل الحيرة أن يكونوا عيوناً للمسلمين، فأجابوا إلى ذلك.

ثم سار خالد لقتال هرمز، فلما سمع هرمز بهم كتب إلى أردشير الملك بالخبر واستمده والتقى، وخرج هرمز، ودعا خالدًا للبراز ووطأ أصحابه على الغدر به، فبرز إليه خالد، ومشى نحوه راجلاً، وبرز هرمز، واقتلا، فاحتضنه خالد، وحمل أصحاب هرمز، فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو، فأبى أهل فارس وركبهم المسلمون؛ وسميت هذه الواقعة: ذات السلاسل، وكانت عدة أصحاب خالد ثمانية عشر ألفاً، ونجا قباد وأنو شجان، وأخذ خالد سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة، وبعث المثنى بن حارثة في آثارهم، وبعث مقررًا إلى الأبلّة ففتحها، وجمع الأموال بها والسبي.

وقيل: إن الأبلّة فُتحت في خلافة عمر على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وحاصر المثنى حصن المرأة، فافتحه، وأسلمت المرأة.

ذكر وقعة الثني^(٢)

قال: ولما وصل كتاب هرمز إلى أردشير بخبر خالد، أمده بقارن بن قريانس، فلقية المنهزمون، فرجعوا معه وفيهم قباد وأنو شجان، فنزلوا الثني - وهو النهر -

(١) الأبلّة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: اسم بلد: كانت به امرأة خمارة تعرف بهوب في زمن النبط، فطلبها قوم من النبط، فقبل لهم: هوب لآكاً، بتشديد اللام، أي ليست هوب هنا، فجاءت الفرس فغلظت، فقالت: هو بلّت، فعربت العرب فقالت: الأبلّة... (معجم ياقوت).

(٢) الثني: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وباء مخففة؛ والثني من كل نهر أو جبل منعطفه... ويوم الثني لخالد بن الوليد على الفرس قرب البصرة... (معجم ياقوت).

وسار إليهم خالد، والتقوا، واقتتلوا، فبرز قارن فقتله مَعْقِلُ بْنُ الْأَعْشى، وقتل عاصم أنوشجان وقتل عَدِيّ قُبَاذ، وقَتِلَ من الفُرسِ مقتلةٌ عظيمةٌ يبلغون ثلاثين ألفاً؛ سوى مَنْ غرق في الماء، فقسّم خالدُ الفَيءَ، بعد أن خَمَسَهُ وأرسل بالأخماس إلى المدينة، وأعطى الأسلابَ مَنْ سلبها، وكانت غنيمة عظيمة، وأخذ الجزيةَ مِنَ الفلاحين، وكانوا ذِمّةً، وكان في السُّبْيِ أبو الحسن البصري، وكان نصرانياً.

ذكر وقعة الولجة^(١)

قال: ولَمَّا وصل الخبر إلى أردشير بعثَ الأندرزغر وكان فارساً من مولدي السواد، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش، وكان مع الأندرزغر الفرس والعرب الضّاحية والدهاقين، فعسكروا بالولجة، فجاءهم خالدٌ إليها وكمن لهم كميناً، وقتلهم قتالاً شديداً، وخرج كمين خالدٍ من خَلْفِهِمْ فانهزمت الأعاجم، وأخذهم خالد من أمامهم، والكمين من خَلْفِهِمْ، فقتل منهم خلقٌ كثير. ومضى الأندرزغر منهزماً، فمات عَطْشاً.

وكانت هذه الوقعة في صفر سنة اثني عشرة، فأصاب خالدُ ابناً لجابر بن بُجَيْر، وابناً لعبد الأسود من بكر بن وائل.

ذكر وقعة أليس^(٢)

قال: لَمَّا أصاب خالدُ بْنُ الوليدِ يومَ الولجةِ ما أصاب من نصارى بكر بن وائل، الَّذِينَ أعانُوا الفُرسَ، غَضِبَ لهم نصارى قَوْمِهِمْ، فكَاتَبُوا الفُرسَ، واجتمعوا على أَلِيسَ، وعليهم عبد الأسود العِجليّ، وكتب أردشير إلى بَهْمَن جاذويه، وأمره بالقدوم على نصارى العرب، فقدم عليهم بهمن جابان، وأمره بالتوقيف عن المُحَارَبة حتى يقدم عليه، وسار بَهْمَنُ إلى أَرْدَشِيرِ يُشَاوِرُهُ فيما يَفْعَلُ، فوجده مريضاً فتوقّف؛ واجتمع على جَابَانَ نصارى عِجَلٍ، وهم اللَّاتُ وضبيعة وجابر بنُ بُجَيْر، وعربُ الضّاحية من أهل الحيرة، فسار إليهم خالد والتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فقال خالد: اللَّهُمَّ إِنْ هَزَمْتَهُمْ فَعَلَيَّ أَلَا أَسْتَبْقِيَ مِنْهُمْ مَنْ قَدَرْتُ عَلَيْهِ؛ حَتَّى أُجْرِيَ مِنْ دِمَائِهِمْ

(١) الولجة: بأرض كسكر موضع مما يلي البر واقع فيه خالد بن الوليد جيش الفرس فهزمهم... في صفر سنة ١٢... (معجم ياقوت).

(٢) أليس: مصغر بوزن فليس، والسين مهملة: الموضع الذي كانت فيه وقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية... (معجم ياقوت).

نهرهم، فانهزمت فارس، فنادى منادي خالد: الأسر الأسر! إلا من امتنع فاقتلوه، فأقبل بهم المسلمون أسراء، ووكل بهم من يضرب أعناقهم، فضرب أعناقهم يوماً وليلة؛ فقال له القعقاع: لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، فأجرى عليه الماء فسمي ذلك الماء نهر الدم، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً، وكانت الوقعة في صفر أيضاً.

ثم سار إلى أمغيثيا، وأصاب فيها ما لم يصب مثله من الغنائم، وأخربها، وبعث إلى أبي بكر بالسبي والغنائم؛ فقال أبو بكر: عجز النساء أن يلذن مثل خالد. رضي الله تعالى عنهما.

ذكر وقعة فرات بادلقي وفتح الحيرة

قال: ثم سار خالد من أمغيثيا إلى الحيرة، وحمل الرجال والأثقال في السفن، فخرج مرزبان الحيرة، وهو الأزاديه، فعسكر عند الغريين وأرسل ابنه، فقطع الماء عن السفن، فقيث على الأرض، فسار خالد نحوه فلقيه على فرات بادلقي، فقتله، وقتل أصحابه، فلما بلغ الأزاديه قتل ابنه هرب بغير قتال، ونزل المسلمون على الغريين، وتحصن أهل الحيرة فحصرهم في قصورهم، وافتتح المسلمون الدروب والدور، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور! ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث: إمّا الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة، فكفوا عنهم، وصالحهم على مائة ألف وتسعين ألفاً. وقيل: مائتي ألف وتسعين ألفاً.

وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول، وكتب لهم خالد كتاباً، فلما كفر أهل السواد ضيعوه، فلما افتتحها المثنى ثانية عاد بشرط آخر، فلما عادوا كفروا، وافتتحها سعد بن أبي وقاص، ووضع عليهم أربعمائة ألف. فقال خالد: ما لقيت قوماً كأهل فارس، وما لقيت من أهل فارس كأهل أليس.

ذكر ما كان بعد فتح الحيرة

قال: وكان الدهاقين^(١) يترصون بخالد، ما يصنع أهل الحيرة، فلما صالحهم واستأنموا له أنه الدهاقين من تلك النواحي، فصالحوه على ألفي ألف. وقيل: ألف ألف، سوى ما كان لآل كسرى.

(١) الدهاقين: رؤساء الأقاليم، أو رؤساء القرى.

وكتب إلى أهل فارس يذعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فإن أجابوه وإلا حاربهم. وجبى الخراج في خمسين ليلة، وأعطاه للمسلمين، ولم يبق لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، لاختلافهم بموت أردشير، إلا أنهم مجمعون على حرب خالد، وهو مقيم بالحيرة.

ذكر فتح الأنبار^(١)

قال: ثم سار خالد إلى الأنبار، وإنما سُميت الأنبار، لأن أهراء^(٢) الطعام كانت بها أنابيب^(٣)، وكان على مَنْ بها من الجند شيرزاد صاحب سباط، فلما التقوا أمر خالد رُماتهُ برشق السهام، وأن يقصدوا عُيُونَهُمْ، فرشقوا رِشْقًا واحدًا، ثم تابَعُوا، فأصابوا ألف عين، فسميت هذه الواقعة ذات العيون، فلما رأى شيرزاد ذلك، أرسل في طلب الصلح، فصالحه خالد على أن يلحقه مأمنه في جريدة، وليس معهم من المتاع شيء.

وخرج شيرزاد إلى بهمن جاذويه، ثم صالح خالد مَنْ حول الأنبار وأهل كلواذى. والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله وحده.

ذكر فتح عين التمر^(٤)

قال: ولما فرغ خالد من الأنبار، استخلف عليها الزُّبُرْقَان بن بدر، وسار إلى عين التمر، وبها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقّة بن أبي عقّة في جمع عظيم من العرب؛ من التمر، وتغلب، وإباد؛ وغيرهم. فقال عقّة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب منكم، فدعنا وخالدًا؛ فقال: نعم، وإن احتجتم إلينا أعناكم، فالتقى عقّة بخالد، فحمل خالد عليه وهو يقيم صفوفه، فاحتضنه وأسرّه، فانهزم أصحابه من غير قتال، وأسر أكثرهم. فلما بلغ الخبر مهران، هرب في جنده

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها، ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة، وبنائها طين، وبينها وبين شيورقان مرحلة من ناحية الجنوب... (معجم ياقوت).

(٢) الأهراء: مخازن الغلال.

(٣) أنابيب: واحدها: الأنبار: وهي بيت التاجر الذي يجمع فيه المتاع والغلال؛ أو أكداش البر.

(٤) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفانا، منها يجلب القصب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية، وهي قديمة... (معجم البلدان لياقوت).

وترك الحصن، فانتهى المنهزمون إليه وتحصنوا به، فنازلهم خالدٌ، فسألوا الأمان، فأبى، فنزلوا على حكمه، فأخذهم أسرى، وقتل عَقَّةً، ثم قتلهم عن آخرهم، وسبى كلَّ مَنْ بِالْحِصْنِ وَعَنِمْ ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل، عليهم بابٌ مغلقٌ، فكسره وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهْنٌ، فقسمهم في أهل البلاد، منهم: أبو زياد مَوْلَى ثقيف، وأبو عمرة جدُّ عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد، ونُصَيْرُ أبو موسى، وخُمرانُ مولى عثمان بن عفان.

وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس والسبى، فكان أول سَنِي قدم المدينة من العجم، وجعل خالدٌ على عين الثمر عوئمر السلمي.

ذكر خبر دومة الجندل

قال: ولَمَّا فرغ خالدٌ من عَيْنِ الثَّمَرِ أتاه كتاب عياض بن غنم؛ يستمده على مَنْ بِإِزَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فسارَ إليه، وكان بِإِزَائِهِ بَهْرَاءُ وَكَلْبٌ، وَغَسَّانٌ، وَتَنُوحٌ، وَالضَّبَّاجَةُ، وكانت دومة الجندل على رئيسين: أَكْنِيدِرُ بن عبد الملك، والجُودِي بن ربيعة، فأَمَّا أَكْنِيدِرُ فأشار بالصلح، ولم يَرِ قتالَ خالدٍ، فلم يَقْبَلُوا منه، فخرجَ عنهم، وسَمِعَ خالدٌ بِمسيره، فأرسل إلى طريقه، وأخذهُ أَسِيرًا وقتله وأخذ ما كان معه، وسار حتى نزل بدُومَةَ، وجعلها بينه وبين عياض، وخرج الجُودِي إلى خالدٍ في جمعٍ مِمَّنْ عنده من العرب، وأخرج طائفةً إلى عياض، فهزَمَهُم عياضٌ، وهزَمَ خالدٌ مَنْ يَلِيهِ، وأسر الجُودِي، وانهزموا إلى الحِصْنِ، فلَمَّا امتلأَ أغلَقُوا البابَ دون أصحابِهِم، فَبَقُوا حَوْلَهُ، فقتلهم خالدٌ، وقتل الجُودِي وقتل الأسرى إلاَّ أسرى كَلْبٍ، فإنَّ بني تميم قالوا لخالدٍ: قد أَمْنَاهُمْ، وكانوا حلفاءهم، فتركهم لهم، ثم أخذ الحِصْنَ فقتل المقاتلةَ، وسبى الذريةَ، فاشتري خالدٌ ابنة الجُودِي، وكانت موصوفة بالجمال.

وأقام خالدٌ بدُومَةَ الجندل، فطَمِعَ الأعاجم، وكاتبهم عرب الجزيرة غَضَبًا لَعَقَةً، فكانت وقعة حَصِيد^(١) والخنافس^(٢)، بين القعقاع بن عمرو، خليفة خالدٍ على الحيرة، وبين روزبه وزرمهر. فُقْتِلَ روزبه بحصيد، وانهزم الأعاجمُ إلى الخنافس؛ فتبعهم المسلمون، وهربوا إلى المصيخ، إلى الهذيل بن عمران.

(١) الحصيد: بالفتح ثم الكسر، وباء ساكنة، ودال مهملة: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة... (معجم ياقوت).

(٢) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب... (معجم ياقوت).

ثم كانت وقعة مُصَيِّخ^(١)

قال: ولما انتهى الخبر إلى خالد كتب إلى القعقاع وأبي ليلى، وواعدهم في وقت معلوم يجتمعون بالمُصَيِّخ لقتال هُذَيْلِ بنِ عِمْرانَ وَمَنْ معه، فأغاروا عليه من ثلاثة أوجِهٍ وهم نائمون فقتلوه، وأفلت الهذيلُ في نفرٍ قليل، وكَثُرَ فيهم القتلُ.

ذكر وقعة الثنى والرُمَيْل^(٢)

وكان ربيعة بن بجير بالثنى والرُمَيْل - وهما شرقي الرُصَافَةِ - قد خرج غضباً لعقَّة، فلمَّا أصابَ خالدَ أهلَ المُصَيِّخ سار إلى الثنى وَبَيَّتَهُمْ من ثلاثة أوجِهٍ، وأوقع بهم وقتلهم، فلم يُقِلَّتْ منهم مخبر، وسبى وغنم، وبعث بالخبر والخمس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فاشترى عليّ بن أبي طالب - كَرَّمَ الله وجهه - بنت ربيعة بن بُجَيْرِ التَّغَلَبِيِّ، فولدت له عُمَرَ ورقية.

ذكر وقعة الفِراض^(٣)

قال: ثم سار خالد إلى الفِراض، وهي تخوم الشام والجزيرة، فأفطر فيها شهر رمضان لا تُصَالُ الغزوات، وحميت الروم، واستعانوا بمن يلبهم من الفُرس فأعانوهم، واجتمع معهم تَغْلِب وإياد والثَّيمِر، وساروا إلى خالد، وبلغوا الفُرات، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الروم وَمَنْ معهم، وأمر خالد ألا يُزَقَّع عنهم السيفُ، فُقُتِلَ في المعركة، وفي الطلب مائة ألف، وأقام خالد على الفراض عشرة، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ثنتي عشرة، وخرج من الفراض سراً، ومعه عِدَّةٌ من أصحابه يَغِيسُف^(٤) البلاد، حتى أتى مَكَّةَ فحجَّ ورجع، وكانت غيبته عن الجند يسيرة؛ ولم يعلم بحجّه إلا مَنْ أفضى إليه بذلك.

(١) المصَيِّخ: بضم الميم، وفتح الصاد المهملة، وباء مشددة، وخاء معجمة: هو بين حوران والقلت... (معجم ياقوت).

(٢) الرُمَيْل: تصغير زميل: موضع في ديار بكر.

(٣) الفراض: بكسر أوله، وآخره ضاد معجمة: موضع بين البصرة واليمامة قرب فليج من ديار

بكر بن وائل... (معجم ياقوت).

(٤) يعسف البلاد: يضرب فيها سيراً.

ذكر فتوح الشام

قال: وفي سنة ثلاث عشرة ووجه أبو بكر رضي الله عنه الجنود إلى الشام، بعد منصرفه من مكة إلى المدينة، فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة، وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من غلباء الشام. وقيل: أول لواء عقده أبو بكر رضي الله عنه، عند توجيهه الجنود إلى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص، ثم عزله قبل أن يسير، وولى يزيد بن أبي سفيان - وكان عزله عن رأي عمر - وقدم عكرمة بن أبي جهل على أبي بكر فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين، فجعل أبو بكر عكرمة رداء للناس. وبلغ الروم ذلك، فكتبوا إلى هرقل، فخرج هرقل حتى أتى جنص، فأعد لهم لجنود، وأرسل أخاه إلى عمرو، فخرج نحوه في تسعين ألفاً، فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة؛ فإنه في ستة آلاف، فكتبوا إلى عمرو بن العاص: ما الرأي؟ فكتبهم أن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لا يغلب من قلة. فأتعدوا الرومك ليجمعوا به، وكان المسلمون كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كتبوا به إلى عمرو، فجاءهم كتابه بمثل ما رأى عمرو. وبلغ ذلك هرقل، فكتب إلى بطارقه أن اجتمعوا لهم، وانزلوا بالروم منزلاً واسعاً المطرد ضيق المهرب، ففعلوا، ونزلوا الواقصة، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وأقبل المسلمون، فنزلوا عليهم بجذائهم، فأقاموا صفر وشهري ربيع لا يقدر من الروم على شيء، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول، كتبوا إلى أبي بكر يستمدونه، فكتب إلى خالد بن الوليد يلحق بهم، وأن يسير في نصف العسكر، ويستخلف على النصف الآخر المشي ابن حارثة الشيباني، ففعل. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى الشام

وما فعل في مسيره إلى أن التقى بجنود المسلمين بالشام

لما ورد كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد، يأمره بالمسير إلى الشام في نصف العسكر سار كما أمره، فلما انتهى إلى سوي^(١) أغار على أهله، وهم بهراء، وأتاهم وهم يشربون الخمر، ومغنيهم يقول: [من الطويل]
ألا عللاني قبل جيش أبي بكر
لعل مناينا قريبت وما نذري

(١) سوي: بضم أوله، والقصر: اسم ماء لبهاء من ناحية السماوة... (معجم ياقوت).

ألا عللاني بالزُجاج وكرراً عَلَيَّ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي^(١)
 ألا عللاني من سُلَافَةٍ قَهْوَةٍ تُسَلِّي هُمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَيْدِ الْخَمْرِ^(٢)
 أَظُنَّ خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ الصُّبَاحِ مَعَ النَّسْرِ
 فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمَعْصِرَاتِ مِنَ الْخِذْرِ^(٣)

فقتل المسلمون مغنيهم، وسال الدَّمُ في تلك الجفنة^(٤)، وأخذوا أموالهم، وقيل حُرْقُوصُ بَنِ النعمان البهراني. ثم سار خالد حتى أتى أرك^(٥)، فصالحوه، ثم أتى تدمر فتحصن أهلها، ثم صالحوه، ثم أتى القرينتين^(٦)، فقاتل أهلها وظفر بهم وغنم، وأتى حوارين^(٧) فقاتل أهلها فهزمهم، وسار حتى نزل ثنية العقاب، بالقرب من دمشق ناشراً رايته، وهي راية سوداء كانت لرسول الله ﷺ، تُسمى العقاب، فسُميت الثنية بها، ثم سار فأتى مزج راهط^(٨)، فأغار على غسان، فقتل، وسبى، وأرسل سرية إلى كنيسة بالعموة، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء، ثم سار حتى وصل إلى بصرى^(٩)، وعليها أبو عبيدة بن الجراح، وشُرْحَبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ، ويزيد بن أبي سفيان، فجمع له صاحب بصرى، فسار إليه خالد هو وأبو عبيدة، فلقيهم خالد، فظفر بهم وهزمهم، فدخلوا حصنهم وطلبوا الصلح، فصالحهم على كل رأس دينار في كل عام، وجريب^(١٠) حنطة، فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد بن الوليد، وأهل العراق. وبعث الأخماس إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ثم سار فطلع على المسلمين في شهر ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم مُنْذِرًا لهم. واتفق قدوم

- (١) الكميت: الخمرة لما فيها من سواد وحمرة.
- (٢) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها؛ والسلافة من كل شيء: خالصه.
- (٣) المعصرات: جمع معصر: وهي الفتاة التي دخلت في شبابها.
- (٤) الجفنة: القصعة، أو البئر الصغيرة.
- (٥) أرك: مدينة صغيرة في طرف بركة حلب قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون.
- (٦) القرينتان: مكة والطائف... وقيل: القرينتان: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك أهلها كلهم نصارى... (معجم البلدان لياقوت).
- (٧) حوارين: قرية من قرى حلب.
- (٨) مزج راهط: بنواحي دمشق.
- (٩) بصرى: في موضعين، بالضم، والقصر: إحداهما بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، وبصرى أيضاً: من قرى بغداد قرب عكبراء... (معجم ياقوت).
- (١٠) الجريب: مكيال قدر أربعة أقدرة.

خالدٍ وقُدومُ باهان، ومع باهان القسيسون والشمامسة والزهبان يُحَرِّضُونَ الرُّومَ على القتال، وخرَجَ باهان، فوليَّ خالدُ قتالَه، وقاتلَ الأمراءَ مَنْ بإزائهم، ورجعَ ماهان والرُّومُ إلى خَنَدَقِهِمْ، وقد نالَ المسلمونَ منهم، فلزموا خَنَدَقَهُمْ غايةَ شهرهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر وقعة أجنادين^(١)

هذه الوقعة قد ذكرها ابن الأثير رحمه الله بعد وقعة اليرموك، واعتمد في ذلك على أبي جعفر الطبري رحمه الله، فإنه أوردها على منواله، ويقتضي سياق التاريخ أن تكون مُقدِّمة على وقعة اليرموك؛ وذلك أن خالد بن الوليد لما قديم بصرى وعليها أبو عبيدة وشريحيل ابن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، صالح أهلها على الجزية على ما تقدّم، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمر بن العاص، وهو مقيم بالعريّات^(٢)، واجتمعت الروم بأجنادين - وهي بين اليرموك وبينت جبرين من أرض فلسطين - وعليهم تذارق أخو هرقل لأبويه. وقيل: كان على الروم القبقلاق. وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين فلقيهم، فنزلوا بأجنادين، فبعث القبقلاق عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فعاد إليه، فقال له: ما وراءك؟ فقال: بالليل زهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوه، ولو زنى رجموه، لإقامة الحق فيهم، فقال: إن كنت صدقتني فبطن الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها. ثم التقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وظهر المسلمون عليهم، وانهزم الروم، وقُتِلَ القبقلاق وتذارق، واستشهد رجالٌ من المسلمين.

ثم جمع هرقل للمسلمين، فالتقوا باليرموك.

والله سبحانه أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم.

(١) أجنادين: بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وفتحت الدال فتكسر معها النون، فيصير بلفظ التثنية، وتكسر الدال، وفتحت النون بلفظ الجمع: وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين... وقيل: إن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين... (معجم ياقوت).

(٢) عريّات: بالتحريك، جمع عرية: وهي بلاد العرب... وعريّات: طريق في جبل بطريق مصر... (معجم ياقوت).

ذكر وقعة اليرموك^(١)

قال: واجتمع المسلمون باليرموك، وقد تكامل عددهم ستة وثلاثين ألفاً، منهم جيش خالد تسعة آلاف، وجيش عكرمة ستة آلاف. وقيل في عددهم غير ذلك. وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم: ثمانون ألف مقيّد، وأربعون ألف مُسَلَّس للموت، وأربعون ألفاً مزبوطون بالعمائم، وثمانون ألف راجل. وذلك في جُمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وخرجوا للقاء، فلما أحس المسلمون بخروجهم، قام خالد بن الوليد، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه؛ وقال: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر. أخلصوا بجهاذكُم، وأريدوا الله بعملكم، وهلموا فلتتعاور^(٢) الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غدٍ، حتى يتأمر كلُّكم؛ ودعوني أميركم اليوم. فأمروهم، وهم يزوّن أن الأمر أطول مما صاروا إليه، وخرجت الروم في تعبئة لم يرَ الرّاؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم يعبّتها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كُردوساً^(٣) إلى أربعين، وجعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس، وجعل عليها عمرو بن العاص، وفيها شُرْحبيل ابن حسنة، وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كُردوس من كراديس العراق إنساناً، وشهد اليرموك ألف رجل من الصحابة، فيهم من أهل بدر نحو المائة. فقال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم! وإنما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال.

ثم أمر خالد عكرمة والقعقاع بن عمرو - وكانا محبّتي القلب - فأنشبا القتال، فنشِبَ والتحم الناس، وتطارَدَ الفرسان؛ فإنهم على ذلك إذ قدِمَ البريدُ من المدينة، فسأله الناس عن الخبر، فأخبرهم بسلامة وأمدادٍ تقبل إليهم؛ وإنما كان قد جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالدًا، فأخبره بوفاة أبي بكر سرّاً، وأخبره بالذي أخبر به الجُند، فشكره وأخذ الكتاب، فجعله في كنانته^(٤). وخرج جرجة من عسكر الروم، وكان أحد عظمائهم، فوقف بين الصّفيين ليخرج إلى خالد، فخرج إليه، وأقام أبا عبيدة مكانه، فوافقه بين الصّفيين حتى اختلفت أعناق دابّتيهما، وقد أمِنَ كلُّ منهما صاحبة.

(١) يرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المتنة... (معجم ياقوت).

(٢) تعاور: تداول.

(٣) الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل.

(٤) الكنانة: جعبة صغيرة من آدم البغل.

فقال جَرَجَةُ: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني، فإن الحُرَّ لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع المستزِيل، قد أنزل الله على نبيكم سيفًا، فأعطاه لك، فلا تسله على قوم إلا هزَمَهُم الله! قال: لا، قال: فقيم سُميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيَّه ﷺ، فدعانا، فنفرنا منه، ثم إن بعضنا صدقه وبعضنا باعده وكذَّبه، فكنيت مِن كذَّبه وقاتله ثم هداني الله فتابعته؛ فقال: أنت سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين، ودعا لي بالنصر، فسُميت سيف الله بذلك، فانا أشدُّ المسلمين على الكافرين المشركين؛ فقال: صدقت، فأخبرني، إلام تدعوني؟ قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية، أو الحَرْب. قال: فما منزلة الذي يُجيبُكم ويدخل فيكم؟ قال: منزلتنا واحدة، قال: فهل له في الأجر والدُّخْر مثلكم؟ قال: نعم، وأفضل؛ لأننا اتَّبَعْنَا نبيَّنا وهو حيٌّ يُخْبِرُنَا بالغَيْب، ونرى منه العجائب، وأنتم لم تروا مثلنا، ولم تسمعوا ما سمعنا، فَمَنْ دخل بِنَيْةٍ وصدق، كان أفضلَ منَّا. فقلِّب جَرَجَةُ تُرْسَهُ، ومال مع خالد يُعَلِّمُهُ الإسلام، وأسلم، فمال به خالد إلى قُسْطَاطِه، فشنَّ^(١) عليه قَرْيَةً من الماء وصلَّى به ركعتين.

وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يَزَوْن أنها منه حيلة، فأزالوا المسلمين عَنْ مواقِفِهِم، فقال عِكْرَمَةُ بن أبي جهل: قاتلتُ مع رسول الله ﷺ في كُلِّ مَوْطِنٍ، وأفرُّ منكم! ثم نادى: مَنْ يُبَايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام، وضراؤ بن الأَزُور في أربعمائه مِنْ وجوه المُسْلِمِينَ وفُرْسَانِهِم، فقاتلوا أمام قُسْطَاطِ خالد حتى أُثْبِتُوا^(٢) جميعًا جراحًا، فمنهم مَنْ بَرِيَء، ومنهم مَنْ اسْتَشْهَدَ.

وحمل خالدٌ ومعه جَرَجَةُ - والروم خلال المسلمين - فنادى الناس فثابوا، وتراجعت الروم إلى مواقعهم، وزحف خالدٌ بالمسلمين إليهم حتى تصافحوا بالسيوف، وضرب فيهم خالدٌ وجَرَجَةُ من لدن ارتفاع النهار إلى جُنُوحِ الشمس للغروب، ثم أُصِيبَ جَرَجَةُ، ولم يُصَلِّ صلاةً سجد فيها إلا الركعتين مع خالد، وصلَّى الناس الظهر والعصر إيماءً، وتضعَّضَ الروم، ونهَد خالدٌ بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، فانهزم الفُرسَانُ، وخرَجَتْ خَيْلُهُم تشتت في الصحراء.

ولما رأى المسلمون خيل الروم أَفْرَجُوا لها، فذهبت، ففترقت في البلاد، وأقبل خالد ومن معه على الرُّجُل، ففَضُّوهم؛ فكأنما هُدِمَ بهم حائطٌ، واقتحموا في

(١) شنَّ: جرحوا وبهم رمق.

(٢) ثبَّتوا: صبَّ.

خَنَذَقِهِمْ، فاقتحمه عليهم، فعمدوا إلى الواقصة^(١)، فهوى فيها المقترون وغيرهم، فتهأوى فيها عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترون، وأربعون ألف مُطلق، سوى مَنْ قُتِلَ في المعركة من الفرسان والرجال، وقَاتَلَ النساءُ يومئذٍ، وكانت هزيمة الرُّومِ مع الليل. وصعد المسلمون العَقَبَةَ وأصابوا ما في عسكر الرُّومِ، قتل الله صناديد الرُّومِ ورؤوسهم وأخا هرقل؛ وانتَهَتْ الهزيمةُ إلى هِرَقْلٍ وهو دون مدينة حنص - أو بجمص - فنَادَى بِالرَّحِيلِ عنها، وجعلها بينه وبين المسلمين، وأمر عليها أميرًا كما أمر على دِمَشق.

هذا ما كان من واقعة اليرموك على سبيل الاختصار.
رُوي عن عبد الله بن الزُّبَيْر، قال: كنتُ مع أبي باليرموك وأنا صبيٌّ لا أقاتل؛ فلَمَّا اقْتَتَلَ النَّاسُ نظرْتُ إلى أَنَاسٍ على تلٍّ لا يقاتلون، فركبْتُ فذهبتُ إليهم؛ فإذا أبو سُفْيَانُ بن حرب ومشِيخةٌ من قريشٍ من مهاجرة الفتح، فرأوني حَدَثًا فلمْ يَتَّقُونِي. قال: فَجَعَلُوا إذا مال المسلمون، وركبهم الرُّومُ يقولون: إيه بني الأصفر! وإذا مالت الرُّومُ، وركبهم المسلمون قالوا: وَيَحَ بني الأصفر! فلما هُزِمَتِ الرُّومُ أخبرْتُ أبي بذلك، فضحك وقال: قاتلهم الله! أبوا إلا ضغنًا! لنحْنُ خَيْرٌ لهم من الرُّومِ.
وقد حكى أبو جعفر الطُّبري رحمه الله، أنَّ أبا سُفْيَانَ يومَ اليرموك كان يسيرُ فيقف على الكراديس فيقول: الله! الله! إنَّكم ذادة العرب وأنصارُ الإسلام، وإنَّهم ذادة الرُّومِ وأنصارُ الشُّرك! اللَّهُمَّ إِنَّ هذا يومٌ من أيَّامك، اللَّهُمَّ انْزِلْ نَصْرَكَ على عبادِكَ. والله أعلمُ.



هذا ما وقع في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من الغزوات والحروب، والفتوحات، فنذكرُ ما هو خلاف ذلك من الحوادث على السنين، إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده.

ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر غير ما ذكرناه

سنة إحدى عشرة

فيها كانت وفاةُ فاطمة بنتِ رسولِ الله ﷺ ورضي عنها، وذلك في ليلة الثلاثاء ثلاثِ خَلَوْنَ من شهر رمضان، وهي يومئذٍ ابنةُ تسع وعشرين سنة، أو نحوها. وقيل: تُوُفِّيَتْ بعد رسولِ الله ﷺ بثلاثة أشهر؛ قاله أبو جعفر.

(١) الواقصة: واد بالشام في أرض حوران... (معجم البلدان لياقوت).

ثم قال: والتَّبْتُ عندنا أنها تُوفيت بعد ستة أشهر، وغسلها علي بن أبي طالب، وأسماء بنت عُمَيْسٍ، وصلى عليها العباس بن عبد المطلب، ودخل قبرها العباس وعلي والفضل بن عباس؛ قاله الواقدي^(١).

قال أبو عمر: فاطمة أول من عُطيَ نَعَشُهَا مِنَ النِّسَاءِ فِي الإسلام؛ وذلك أنها قالت لأسماء بنت عُمَيْسٍ: يا أسماء، إني قد استقبحْتُ ما يُصْنَعُ بالنساء، إنه يُطْرَحُ على المرأة الثوبُ، فيصفها. فقالت أسماء يا بنت رسول الله، ألا أريك شيئاً رأيته بأَرْضِ الحبشة؟ فدَعَتْ بجرائد رطبٍ فحَتَّتْها، ثم طَرَحَتْ عليها ثوباً. فقالت فاطمة: ما أَحْسَنَ هذا وأَجْمَلُهُ! تُعرفُ به المرأة من الرجل، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت وعلي، ولا تُدْخِلِي عليّ أحداً، فلما تُوفيت جاءت عائشة تَدْخُلُ؛ فقالت أسماء: لا تَدْخُلِي، فشكْتُ إلى أبي بكر. فقالت: إِنَّ هذه الخُثْعِمِيَّةَ تحول بيننا وبين بنت رسول الله، وقد جَعَلْتُ لها مِثْلَ هُودَجِ العروس؛ فجاء أبو بكر، فوقف على الباب. فقال: يا أسماء، ما حَمَلَكَ على أن منعتِ أزواج رسول الله ﷺ أن يَدْخُلْنَ على بنت رسول الله، وجعلتِ لها مثل هودج العروس؟ قالت: أمرتني ألا يَدْخُلَ عليها أحدٌ، وأريتها هذا الذي صنعتُ وهي حيَّة، فأمرتني أن أصْنَعَ ذلك لها. قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك، ثم انصرف.

وفيها انصرف مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عن اليمن.

واستقضى أبو بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

وفيها أَمَرَ أبو بكر رضي الله عنه على الموسم عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ؛ وقيل: بل حجَّ بالنَّاسِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عوف عن تَأْمِيرِ أَبِي بكر إِيَّاه.

سنة اثنتي عشرة

فيها مات أبو مَرْزُدُ الْعَتَوِيُّ، واسمه كَنَازُ بن حِصْنٍ - ويقال ابن حصين - حليف حمزة بن عبد المطلب؛ صاحب رسول الله ﷺ هو وابنه مَرْزُدُ، وابنه أُتَيْسُ بن مَرْزُدُ؛ وشهد بَدْرًا هو وابنه مَرْزُدُ، وشهد هو المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة.

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إماماً عالماً له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ... (وفيات الأعيان ٤: ٣٤٨).

وفيهما، في ذي الحِجَّة مات أبو العاص بن الربيع، واختُلِفَ في اسمه، فقيل: لَقِيْط، وقيل: مُهْشَم، وقيل: هُشِيم، والأكثر لَقِيْط بن الرَبِيع بن عبد العُزَّى بن عبد مناف بن قُصَيِّ القُرَشِيِّ العَبْسِيِّ ويسمى جرو البطحاء، وهو صِهْرُ رسول الله ﷺ على ابنته زينب، وأمه هالَة بنتُ خويلد، أختُ خديجة أم المؤمنين، وأوصى إلى الزُّبَيْر بن العَوَّام، وتزوَّج عليَّ ابنته.

وحجَّ بالنَّاس في هذه السَّنة أبو بكر الصَّدِيق رضي الله عنه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفَّان رضي الله عنه. وقيل: بَلَّ حَجَّ عمرُ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه. والله تعالى أعلم بالصَّواب.

ذكر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ومدة خلافته

قد اختلف في وقت وفاته رضي الله عنه؛ فقال ابنُ إسحاق^(١): في يَوْمِ الجمعة لتسع من جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة.

وقال غيره: إنَّه مات عَشِيَّ يوم الاثنين. وقيل: ليلة الثلاثاء. وقيل: عَشِيَّ يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة.

قال ابن عبد البر: هذا قول أكثرهم.

وقيل: مكث في خلافته سنتين وثلاثة أشهرٍ وسبع ليالٍ.

وقال ابن إسحاق: سنتين وثلاثة أشهرٍ إلا خمسَ ليالٍ. وقيل: سنتين وثلاثة أشهرٍ واثنتي عشرة ليلة.

وقال غيره: وعشرة أيام.

وقال آخرون: وعشرين يومًا.

واختلف أيضًا في السَّبب الذي مات منه، فذكر الواقديُّ: أنَّه اغتسل في يوم بارد، فَحَمَّ. ومرض خمسة عشر يومًا.

(١) ابن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان، المطلبى بالولاء، المدني، صاحب المغازي والسير... (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

وقال الزبير بن بكار: كان به طَرْفٌ من السَّل. ورُوِيَ عن سلام بن أبي مطيع: أنه سُم، وأن اليهود سَمَّتْه في حَرِيرَةٍ^(١)، وهي الحسو، فأكل هو والحارث بن كَلْدَةَ، فَكَفَّ الحارث، وقال لأبي بكر: أَكَلْنَا طَعَامًا مَسْمُومًا، سَمَّ سَنَةً، فمات بعد سنة.

وقيل: أصلُ مرضه الغمُّ على رسول الله ﷺ.

وانتهت سُنُّه رضي الله عنه عند وفاته إلى سنِّ رسول الله ﷺ، ثلاثًا وستين سنة.

قال أبو عمر بن عبد البر: لا يختلفون في أن سُنَّه انتهت إلى ذلك، إلا ما لا يصح.

وقد كان آخر ما تكلم به: توفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين.

وغسلته زوجته أسماء بنت عُمَيْسٍ بوصيةً منه وابنه عبد الرحمن، وأوصى أن يكفَّن في ثوبيه، ويشتري معهما ثوبٌ ثالث، وقال: الحيُّ أخوُّج إلى الجديد من الميت، إنما هو للمُهْمَلَةِ^(٢) والصَّدِيدِ^(٣).

وصَلَّى عليه عمرُ بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وكَبُرَ أربَعًا، وحُمِلَ على السرير الذي حُمِلَ عليه رسولُ الله ﷺ، وهو سرير عائشة رضي الله عنها، وكان من خشبتي ساجٍ^(٤) منسوجًا باللَّيْفِ في ميراث عائشة، بأربعة آلاف درهم اشتراه مولى لمعاوية، وجعله للمسلمين. ودخل قبره ابنُه عبدُ الرحمن وعمر بن الخطاب وعثمان وطلحة، وجُعِلَ رأسُه عند كَتِفَيْ النَّبِيِّ ﷺ، وألصقوا لَحْدَه بِلَحْدِهِ، ودفن رضي الله عنه ليلاً.

ذكر نبذة من أخباره وأحواله ومناقبه رضي الله عنه

غير ما تقدّم

قد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا هذا في هذا السُّفَر وما قبله نبذة من أخباره، ولمعة من آثاره، وطَرْفًا من مآثره السَّنِيَّةِ، وجملةً من فضائله التي هي بجزيل الخيرات مليّة، وأحببنا أن نُورِدَ في هذا الموضع نبذةً أخرى غير ما قدّمنا، ونختّم هذا الفصل بشيءٍ من مناقبِهِ كما بدأنا، ولا نشترط الاستيعاب لمناقبه ومآثرِهِ لتوفُّرِها، ولا الحصر

(١) الحرية: براءين مهملتين، كأنه تصغير حرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة، وبها كانت الوقعة الرابعة من وقعات الفجار... (معجم ياقوت).

(٢) المهملّة: القيقح. (٣) الصديد: القيقح يفسد به الجرح.

(٤) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًّا ويذهب طولاً وعرضاً، وله ورق كبير.

لفضائله الجزيلة لتعددها وتكررها، بل نورد من كل نوع منها طرفاً يحتوي على خصال منيعة، وأخلاق شريفة، ويتحقق سامته أنه لو أنفق مِلاً أُحِدَ^(١) ذهباً ما بلغ مدّه ولا نُصِفَهُ.

كان رضي الله تعالى عنه قد تقلل من الدنيا جُهد طاقته، واقتصر منها على بعض ما يسدُّ به بعض خلّته وفاقتِه، وتجبُّ أموال المسلمين جهده، وأنفق في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ ما كان عنده؛ نطقاً بفضله القرآن، وجاهد في دين الله فأذلَّ الله له وبه أهل الشرك والطُغيان، وشمر عن الساعد في قتال أهل الرِّدة حين استدلَّهم الشيطان، وأقدم على حربهم بنفسه وجيوشه حين اشترأب النفاق ولمعت بوارقه، وناضلهم بكتبه وكتائبه حين ظهر الكفر ونُشرتِ خوافقه، فأخمد الله تعالى به ما كان قد اضطرم من نيران الرِّدة، وأفاء تلك القبائل التي كانت لحرب الإسلام مستعدة؛ إلا من استمر منهم على كفره، وما نزع عن شره ومكره، وأبى إلا جحود هذا الدين وقاتل شعبه، ونفّر عن الرجوع والانضمام إلى حزبه؛ فإن الله تعالى قتله شرّ قِتل، وأباح للمسلمين ماله وأهله ونسله.

رُوي أنه لما ارتدت العرب، خرج أبو بكر رضي الله عنه شاهراً سيفه إلى ذي القِصة، فجاءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بزمام راحلته، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شِم سيفك لا تَفْجَعْنَا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام، وكان له رضي الله عنه بيت مال بالسُّنح^(٢)، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة؛ فقليل له: ألا تجعل عليه مَنْ يحرسه؟ قال: لا، فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين، فلا يبقى فيه شيء، فلما انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه في داره.

ولما تُوفّي جمع عمر الأمناء، وفتح بيت المال فلم يجد فيه شيئاً غير دينار سقط من غرارة، فترحموا عليه.

(١) أحد: بضم أوله وثانيه معاً: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر، ليس بذي شناخيب، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قتل فيها حمزة عم النبي ﷺ وسبعون من المسلمين... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) السُّنح: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره حاء مهملة: وهي إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تزوج مليكة... (معجم ياقوت).

وفي خلافته رضي الله عنه: انفتح معدن بني سليم، فكان يُسوَّى في قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين في الإسلام، وبين الحر والعبد، والذكر والأنثى. ف قيل له: ليقدِّم أهل السُّنْبِق على قَدْر منازلهم. فقال: إِنَّمَا أَسْلَمُوا لِلَّهِ، ووجب أجرهم عليه، يوفِّيهم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغٌ.

وكان يشتري الأكسية ويُفَرِّقها في الأرامل في الشتاء.

قال أبو صالح الغفاري: كان عمر رضي الله عنه يتعهد امرأة عمياء في المدينة بالليل، فيقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وَجَدَ غَيْرَهُ قد سَبَقَهُ إليها، ففعل ما أرادت، فرصدَه عمر، فإذا هو أبو بكر رضي الله عنه، كان يأتيها ويقضي أشغالها سرًّا وهو خليفة؛ فقال: أَنْتَ هو لِعَمْرِي!

وكان منزل أبي بكر رضي الله عنه بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خازجة، فأقام هناك ستة أشهر بعدما بويع، وكان يَغْدُو على رجله إلى المدينة، وربما ركب فرسه، فيُصَلِّي بالنَّاس؛ فإذا صَلَّى العشاء رجع إلى السُّنْح. وكان إذا غاب صَلَّى بالنَّاس عمر، وكان يَغْدُو كُلَّ يوم إلى السُّوق فيبيع ويبْتَاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما رُعيَتْ له، وكان يحلب للحَيِّ أَغْنَامَهُمْ، فلما بُويع بالخلافة قالت جارية منهم: الْآنَ لَا يَحْلُبُ لَنَا مَنَائِحَ^(١) دارنا، فسمعها، فقال: بل لِعَمْرِي لأحلبنَّها لكم، وإني لأرجو ألا يَغْيِرَنِي ما دخلتُ فيه عن خَلْقٍ كُنْتُ عليه، فكان يحلبُ لهم، ثُمَّ تحوَّل إلى المدينة بعد ستة أشهر من خلافته. وقال: لا تصلحُ أُمُور النَّاس مع التجارة، وما يصلح إلا التَّفَرُّغُ لهم؛ والنظر في شأنهم، فترك التجارة، وأنفق من مال المسلمين، ما يصلحُه ويصلح عياله يومًا بيوم، ويحجُّ ويعتمر؛ فكان الذي فرضوا له في كلِّ سنة ستة آلاف درهم. فلما حضرته الوفاة قال: رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإنِّي لا أصيبُ من هذا المال شيئًا، وإنَّ أرضي الذي يكذا وكذا للمسلمين بما أصبَتْ من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر. وقيل: إِنَّهُ قال: انظروا كم أنْفَقْتُ منذ وُلِّيتُ من بيت المال؟ فاقضوه عني، فوجدوا مِئْلَةً ثمانية آلاف. وقيل: إِنَّهُ قال لعائشة رضي الله عنها: أما إِنَّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين لم نَأْكُلْ لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أَكَلْنَا من جَرِيشٍ^(٢) طعامهم، ولبسنا من خِشْنِ ثيابهم، وليس عندنا من فيء المسلمين إلَّا هذا العَبْد، وهذا البعير، وهذه القطيفة، فإذا مِتُّ فابعثي

(١) المنائح: واحدتها المنيحة، وهي الناقة تدر اللبن.

(٢) الجريش: المجروش من الحبوب وغيرها.

بالجميع إلى عمر؛ فلما مات بعثته إليه، فلما رآه بكى حتى سالت دموعه على الأرض؛ وجعل يقول: رحم الله أبا بكر! لقد أتعب من بعده، يكرّر ذلك، وأمر برفعه. فقال له عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله! تسلّب عيال أبي بكر عبداً، وناضحاً^(١)، وشيئ قطيفة ثمنها خمسة دراهم! فلو أمرت بردها عليهم. فقال: لا، والذي بعث محمداً لا يكون هذا في ولايتي، ولا خرج أبو بكر منه وأتقلّده أنا.

وقد قيل: إنّه رضي الله عنه، كان يأخذ من بيت المال في كل يوم ثلاثة دراهم أجرة، وإنه قال لعائشة: انظري يا بنية ما زاد في مال أبيك منذ ولي هذا الأمر فردّيه على المسلمين. فنظرت فإذا بجُرْدٍ^(٢) قطيفة لا تساوي خمسة دراهم، ومَحْشَة^(٣)، فجاء الرسول إلى عمر بذلك والناس حوله، فبكى عمر، وبكى الناس؛ وقال: رَجَمَكَ اللَّهُ أبا بكر! لقد كُلفت من بعدك تعباً طويلاً! فقال الناس: اردّده يا أمير المؤمنين إلى أهله. قال: كلا، لا يُخرجه من عنقه في حياته، وأرّده إلى عنقه بعد وفاته. ثم أمر بذلك، فحُمِلَ إلى بيت المال.

وحكي أنّ زوجته اشتهدت حُلُواً، فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت: أنا أَسْتَفْضِلُ من نفقَتِنَا في عدّة أيام ما نشتري به؛ قال: افعلي، ففعلت ذلك؛ فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرفت ذلك أخذه، فردّه في بيت المال. وقال: هذا يَفْضُلُ عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما استفضلت في كل يوم، وغرامة لبيت المال في المدة الماضية من ملك كان له.

قيل: ولما حَضَرَتْهُ الوفاة أتته عائشة رضي الله عنها وهو يعالج الموت، فتمثّلت:

لَعَمْرُكَ ما يغني الثراء عن الْفَتَى إذا حَشَرَجَتْ يَوْماً وضاق بها الصَّدْرُ

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك، ولكن قلبي: ﴿وَجَلَّتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. إني قد نحللتك حائط كذا، وفي نفسي منه! فردّيه على الميراث؛ وقال: إنّما هو أخواك وأختاك! قالت: من الثانية؟ إنّما هي أسماء. قال: ذات بطن بنت خارجة - يعني زوجته - وكانت حاملاً، فولدت أمّ كلثوم بعد موته.

(١) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء. (٢) جرد القطيفة: القطيفة البالية.

(٣) المحشة: حديدة تحرك بها النار.

وهو رضي الله عنه أولُ والٍ قرَضَتْ له رعيته نفقته، وأولُ خليفة وُلِّيَ وأبوه حَيٍّ، وأولُ مَنْ جَمَعَ القرآن بين اللّوْحَيْنِ بمشورة من أصحابِ رسول الله ﷺ، وسماه مُصْحَفًا، وهو أولُ من سُمِّيَ خليفة؛ رضوان الله عليه.

ذكر أولاد أبي بكر وأزواجه

تزوَّج رضي الله عنه في الجاهلية قُثَيْلَةَ - ويقال: قُتَيْلَةَ - بنت عبد العزَّى بن عبد بن أسعد بن مُضر بن مالك بن حِسل بن عامر بن لؤي، فولدت له عبد الله وأسماء.

وتزوَّج أيضًا في الجاهلية أُمَّ رومان - بفتح الراء وضمها - واسمها زينب بنت عامر بن عُويم بن عبد شمس بن عَتَّاب بن أَدِيْنَةَ بن سُبَيْع بن دهمان بن الحارث بن عَنَم بن مالك بن كنانة. أسلمت وهاجرت؛ وكانت قَبْلَ أبي بكر تحت عبد الله بن الحارث بن سَخْبَرَةَ بن جرثومة الخير بن عادية بن مرة الأزدي، وكان قَدِمَ بها مكَّة، فحالف أبا بكر قبل الإسلام، ثم تُوفِّيَ عن أُمَّ رومان، فولدت له الطُفَيْل، ثم خلف عليها أبو بكر، فولدت له عبد الرحمن وعائشة؛ فالطُفَيْل أخوها لأُمَّهما، توفيت أم رومان في ذي الحجة سنة أربع، أو سنة خمس، فنزل رسول الله ﷺ في قبرها، واستغفر لها. وقال: اللَّهُمَّ لِمَ يَخْفَ عليك ما لقيت أُمَّ رومان فيك وفي رسولك.

وروي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «من سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحُورِ العين فليَنظُرْ إلى أُمَّ رومان».

وتزوَّج رضي الله عنه في الإسلام أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية؛ وهي أخت ميمونة زوج النبي ﷺ لأُمَّها، وكانت عند جعفر بن أبي طالب، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، فولدت له هناك محمد بن أبي بكر، ثم تزوجها بعده علي بن أبي طالب، فولدت له يحيى بن علي. وزعم ابن الكلبي أن عون بن علي، أمه أسماء، ولم يقله غيره.

وقيل: كانت أسماء بنت عُمَيْس تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له ابنة تُسَمَّى أمة الله. وقيل: أُمَامَةُ، ثم خَلَفَ عليها بَعْدَهُ شَدَاد بن الهَادِ اللَّيْثِي، ثم العتواري، حليف بني هاشم، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن بن شَدَاد، ثم خلف عليها بعد شَدَاد جعفر بن أبي طالب. وقيل: التي كانت تحت حمزة وشَدَاد سَلْمَى بنت عُمَيْس أختها أسماء، والله تعالى أعلم بالصواب.

وتزوّج رضي الله عنه في الإسلام أيضًا أم حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصارية، من بني الحارث بن الخزرج، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم.

ولنصل هذا الفصل بذكر شيء من أولاد أبي بكر رضي الله عنهم.

وأما عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، فكان قديم الإسلام إلا أنه لم يُسمع له بمشهد إلا شهوده الفتح وحنيًا والطائف. ورُمي بالطائف بسهم؛ قيل: رماه به أبو محجن، فاندمل جُرْحُه، ثم انتقض عليه، فمات في شوال سنة إحدى عشرة.

وكان قد ابتاع الحُلة التي أرادوا دَفَنَ رسول الله ﷺ فيها بسبعة دنانير ليكفنها، فلما حضرته الوفاة، قال: لا تكفّنوني فيها، فلو كان فيها خير كُفّن رسول الله ﷺ فيها، ودُفِنَ بعد الظهر، وصُلّي عليه أبوه، ونزل قبره عمر بن الخطاب وطلحة وعبد الرحمن أخوه.

وكان عبد الله رضي الله عنه زَوْجَ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل العدويّة، أخت سعيد بن زيد، كانت من المهاجرات، وكانت حسناء جميلة بارعة، فأولع بها، وشَغَلَتْهُ عن مغازيه، فأمره أبوه بطلاقها لذلك؛ فقال: هذه الأبيات: [من الطويل]

يقولون طَلَّقَها وَخَيَّم مكانها	مقيماً، تمثي النفس أحلام نائم
وإن فراقِي أهل بيت جميعهم	على كَبْرَةِ مَنِي لإحدى العظام
أرايني وأهلي كالعجول تروّح	إلى بَوّها قبل العِشارِ الرّوائِم ^(١)

فعزم عليه أبوه حتى طلقها، ثم تبعثها نفسه، فهجم عليه أبو بكر رضي الله عنه وهو يقول: [من الطويل]

أعاتِكَ لا أنساكِ ما ذَرَّ شارِق	وما ناح قُمري الحمام المطوّق ^(٢)
أعاتِكَ قلبي كل يوم وليلة	إليك بما تُخفي النفوس معلق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها	ولا مثلها في غير جُرم تُطَلَّق
لها خُلِقَ جزل ورأي ومنصب	وخلق سوي في الحياء ومصّدق

فرّق له أبوه، وأمره بمراجعتها فارتجعها؛ وقال هذه الأبيات: [من الطويل]

(١) الروائم: جمع رائم: وهي الأنثى تحب وتعطف على ولدها وتلازمه.

(٢) القمري: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.

أَعَاتِكَ قَدْ طُلُقْتَهُ فِي غَيْرِ رِيْبَةٍ وَرُوجِعْتَ لِلأَمْرِ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ^(١)
كَذَلِكَ أَمَرُ اللَّهِ غَاذٍ وَرَائِحٌ عَلَى النَّاسِ فِيهِ أَلْفَةٌ وَتَبَايُنٌ
وَمَا زَالَ قَلْبِي لِلتَّفَرُّقِ طَائِرًا وَقَلْبِي لِمَا قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ سَاكِنٌ
فَإِنَّكَ مَمَّنْ زَيْنَ اللَّهِ وَجْهَهُ وَلَيْسَ لَوَجْهِ زَانِهِ اللَّهُ شَائِنٌ^(٢)

فلما مات عبد الله صارت عاتكة تراثه بهذه الأبيات: [من الطويل]

رُزْتُ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ وَبَعْدَ أَبِي بَكْرٍ وَمَا كَانَ قَصْرًا
فَالَيْتُ لَا تَنْفُكُ عَيْنِي حَزِينَةً عَلَيْكَ، وَلَا يَنْفُكُ جِلْدِي أَعْبَرًا
فَلَلِهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى أَكْرَ وَأَحْمِي فِي الْهِيَاجِ وَأَضْبَرًا^(٣)
إِذَا شَرَعْتَ فِيهِ الْأَسِنَّةَ خَاضَهَا إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى يَتْرَكَ الرُّمَحَ أَحْمَرًا

ثم تزوجت بعده زيد بن الخطاب، على اختلاف في ذلك؛ فقتل عنها يوم اليمامة شهيدًا، فتزوجها عمر بن الخطاب في سنة اثنتي عشرة، فأولم عليها، ودعا عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله ﷺ. وفيهم علي بن أبي طالب؛ فقال له: دعني أكلم عاتكة، قال: نعم، فأخذ بجانب الحذر. ثم قال: يا عديّة^(٤) نفسها، أين قولك:

فَالَيْتُ لَا تَنْفُكُ عَيْنِي حَزِينَةً عَلَيْكَ وَلَا يَنْفُكُ جِلْدِي أَعْبَرًا

فبكت. فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن؟! كل النساء يفعلن هذا، ثم قُتِلَ عنها عمر، فقالت تبكيه: [من الخفيف]

عَيْنِ جُودِي بَعْبَرَةٍ وَنَحِيْبٍ لَا تَمْلِي عَلَى الْجَوَادِ النَّحِيْبِ
فَجَعَلْتَنِي الْمَنُونُ بِالْفَارِسِ الْمُغْدِ لِمِ يَوْمِ الْهِيَاجِ وَالتُّثُوبِ^(٥)
قُلْ لِأَهْلِ الضَّرَاءِ وَالْبُؤْسِ مَوْتُوا قَدْ سَقَتْهُ الْمَنُونُ كَأْسَ شَعُوبِ

وقالت أيضًا تراثه بهذه الأبيات: [من الكامل]

مُنِعَ الرِّقَادُ فَعَادَ عَيْنِي عَائِدٌ مِمَّا تَضَمَّنَ قَلْبِي الْمَعْمُودُ
يَا لَيْلَةَ حُبْسَتْ عَلَيَّ نَجُومُهَا فَسَهَرْتُهَا وَالشَّامِثُونَ رُقُودُ

(٢) الشائِن: المعيب.

(٤) عديّة نفسها: عدوة نفسها.

(١) الريّة: الظن والشك والتهمة.

(٣) الهياج: الهيجاء: الحرب.

(٥) المعلم: الذي جعل له علامة في الحرب.

قد كان يُسهرني جِذَارَكَ مِرَّةً فالיום حُقَّ لعيني التَّشْهيدُ
أبكى أمير المؤمنين ودونَه للزائرين صفائحَ وصَّيْدٍ^(١)

ثم تزوجها الزبير بن العوام فقتل عنها؛ فقالت تراثه بهذه الأبيات: [من الكامل]
غدر ابن جُزْمُوزٍ بفارس بُهْمَةً يوم اللِّقاءِ وكانَ غير مُعَرَّدٍ^(٢)
يا عمرو لو نَبَهْتَه لوجدته لا طائشًا رِعرَشَ الجَنانِ ولا اليَدِ^(٣)
كم غَمْرَةٍ قد خاضها لم يَثْنِه عنها طِرادُك يا بنِ فِقْعِ الْفَرْدِ^(٤)
تَكِلْنِكَ أُمُّكَ إِنْ ظفرت بمثله فيما مضى ممن يَروُحُ وَيَغْتَدِي
واللهِ رُبَّكَ إِنْ قتلَ لمسلماً حلَّتْ عليك عُقوبَةُ المتعمِّدِ

ثم خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انقضاء عدتها، فأرسلت إليه.
إني لأضنُّ بك يا بنَ عمِّ رسولِ اللهِ عن القتل!

ولأنما ذكرنا ما ذكرنا من خبر عاتكة في هذا الموضع على سبيل الاستطراد؛
فالشَّيء بالشَّيء يُذكر، فلنذكر عبد الرحمن بن أبي بكر.

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه؛ فهو أسنُّ ولد أبي بكر، وكان
يكنى أبا عبد الله. وقيل: أبا محمد، بابنه محمد الذي يقال له: أبو عتيق، والد
عبد الله بن أبي عتيق، وأدرك أبو عتيق محمد بن عبد الرحمن رسولَ الله ﷺ هو
وأبوه وجده، وجدُّ أبيه؛ أربعتهم، أجمعوا على أنَّ هذه المنقبة ليست لغيرهم، روى
البخاري رحمه الله، قال: قال موسى بن عُقبة: ما نعلمُ أحدًا في الإسلام أدركوا هم
وأبناؤهم النَّبيَّ ﷺ أربعة إلا هؤلاء الأربعة: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه
عبد الرحمن بن أبي بكر، وابنه عتيق بن عبد الرحمن.

وعبد الرحمن شقيق عائشة؛ شهد عبد الرحمن بدرًا وأحدًا مع قومه، ودعا إلى
البراز، فقام إليه أبو بكر ليبارزه، فذكر أنَّ النبي ﷺ قال له: «متَّعني بنفسك». ثم
أسلم عبد الرحمن، وحسُن إسلامه، وصحَّب رسولَ الله ﷺ في هَذَنَةِ الحديدية^(٥).

(١) الصعيد: التراب.

(٢) عَزَدَ فلان: هرب، أو نكل وأحجم عن قرنه.

(٣) الجنان: القلب.

(٤) الفردد: الأرض المستوية الغليظة المرتفعة. والفقع: أردأ أنواع الكمأة.

(٥) الحديدية: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع
رسول الله ﷺ تحتها... (معجم البلدان لياقوت).

وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، وكان رضي الله عنه من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم، حضر الإمامة مع خالد بن الوليد، فقتل سبعة من كبارهم، منهم محكم الإمامة طُفَيْل، رماه بِسَهْمٍ في نحره فقتله. ولما فُتِحَتْ دمشق نَقَلَهُ^(١) عمر ليلى بنت الجودي، وكان قد رآها قبل ذلك، وكان يتشَبَّب بها. وشهد عبد الرحمن الجمل مع عائشة، وكان ابنه محمد يومئذ مع علي.

قال أبو عمر بن عبد البر: ولما قعد معاوية على المنبر، ودعا إلى بيعة يزيد، كلّمه الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فكان كلام عبد الرحمن: أهرقليّة! إذا مات كسرى كان كسرى مكانه! لا نفعل والله أبداً. وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردّها عبد الرحمن. وقال: أبيع ديني بدنياي! وخرج إلى مكة، فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد.

ويقال: إنه مات فجأة بموضع يقال له: الحُبْشِي^(٢) على نحو عشرة أميال من مكة، وحُمِلَ إلى مكة فدفن بها.

وقيل: إنه توفي في نومة نامها، وكانت وفاته في سنة ثلاث وخمسين. وقيل: سنة خمس وخمسين، والأول أشهر.

ولما اتّصل خبر وفاته بعائشة أم المؤمنين أخته، طَعَنَتْ^(٣) من المدينة حاجة حتى وقفت على قبره، وتمثّلت بهذه الآيات: [من الطويل]

وَكُنَّا كَنُذْمَانِي جَذِيمَةِ حِقْبَةٍ من الدَّهْرِ حَتَّى قَبِلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٤)

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطَوِلَ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْثُ لَيْلَةً مَعَا

وقالت: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ حَضَرْتُكَ لَدَفْتُكَ حَيْثُ مِتَّ مَكَانَكَ، وَلَوْ حَضَرْتُكَ بِكَيْثِكَ! رضي الله عنهما.

وأما محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما، فإنه وُلِدَ في عَقَبِ ذِي الْحِجَّةِ سنة عشر من الهجرة بذي الحليفة، أو بالشجرة، وسمّته عائشة محمداً، وكنّته أبا القاسم، ثم كان محمد بعد وفاة أبي بكر في حجر عليّ بن أبي طالب لما تزوّج أمّه أسماء بنت عميس، وكان محمد على رجالة عليّ يوم الجمل، وشهد معه أيام صفين، ثم ولأه

(١) نقله: أي جعل له من الغنيمة.

(٢) الحبشي: جبل بأسفل مكة.

(٣) طعنت: ارتحلت.

(٤) البيتان لمتعم بن نويرة، ومالك أخوه.

مصر، فقتل بها. واختلفوا في قتله، ف قيل: قتله معاوية بن حُديج صَبْرًا^(١)، وذلك في سنة ثمان وثلاثين؛ وقيل: إنَّه لَمَّا ولَّاهُ على مصر سار إليه عمرو بن العاص من قَبْلِ معاوية فاقتتلوا، فانهزَم أصحابُ محمدٍ وفرُّ هو، فدخل خَرِبَةً فيها جِمَارٌ مَيَّتٌ، فدخل في جوفه، فأحرق في جوفِ الحمار؛ وقيل: بل قتله معاوية بن حُديج في المعركة، ثم أحرق في جوف الحمار بعد ذلك، وقيل: إنَّه أتى عمرو بن العاص فقتله صَبْرًا بعد أن قال له: هل معك عهد؟ هل معك عقد من أحد؟ فقال: لا، فأمر به فقتل.

وكان عليّ يشي على محمدٍ خيرًا، ويفضُّله؛ لأنَّه كانت له عبادة واجتهاد؛ وكان ممَّن دخل على عثمان حين أرادوا قتله، فقال له عثمان: لو رآك أبوك لم يرضَ بهذا المقام منك! فخرج عنه وتركه.

روى محمد بن طلحة، عن كنانة مولى صفية بنت حُيَيٍّ - وكان شهد يوم الدار - أنَّه لم يَنَلْ محمد بن أبي بكر دم عثمان بشيء. قال: محمد بن طلحة: فقلت: لكنانة: فلم قيل: إنَّه قتله؟ قال: معاذ الله أن يكون قتله! إنَّما دخل عليه، فقال له عثمان: يا بن أخي، لستَ بصاحبي، وكلمه عثمان بكلام فخرج ولم يَنَلْ دمه بشيء. فقلت لكنانة: فمن قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال له: جَبَلَةُ بن الأيهم.

وأما عائشة رضي الله عنها فقد تقدَّم ذكرها في السيرة النبوية في أزواج النبي ﷺ، أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن.

وأما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه فهي قديمة الإسلام. قال ابن إسحاق: أسلمت بعد سبعة عشر، وكانت تحت الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقُبَاء^(٢)، وكانت تُسمَّى ذات النُّطَاقين، وقد تقدَّم الخبر في تسميتها بذلك في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عند خروجه من مكة إلى الهجرة.

توفيت أسماء بمكة في جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله، وقد بلغت مائة سنة.

وأم كلثوم بنت أبي بكر رضي الله عنه، تزَّوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما، فولدت له عائشة بنت طلحة، فتزوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن

(١) قتله صَبْرًا: حبسه حتى مات.

(٢) القُبَاء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه.

أبي بكر الصديق. ولعائشة بنت طلحة أخبار تقدم ذكرها، وتزوجت عائشة بعد عبد الله مُصْعَب بن الزبير، ولم تلد من أحد من أزواجها غير عبد الله، ولدت له عمران، وعبد الرحمن، وأبا بكر، وطلحة، ونفيسة، تزوجها الوليد بن عبد الملك، وكان ابنها طلحة أجود أجواد قريش، وله يقول الحزين الديلي^(١): [من المتقارب]

فإن تك يا طلح أعطيتني عذافرة تستخف الضفارا^(٢)
فما كان نفْعك مرة ولا مرّتين ولكن مرارا
أبوك الذي صدق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا
وأُمك بيضاء تميّة إذا نُسب الناس كانت نُضارا

وظلحة هذا، ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
وظلحة هذا هو جدّي الذي أنسب إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب،
والله المرجع والمآب.

ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه

وحاجبه وخادمه

لَمَّا وُلِّيَ أبو بكر رضي الله عنه، قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء، فاستعملهما. فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان في محاكمة، وكان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومن حضر، وكان حاجبه شديد مولاه، وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد، ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر. وقيل: مات بعده.

وكان على الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية، وعلى حضرموت زياد بن لبيد، وعلى خولان يغلى بن أمية، وعلى زبيد أبو موسى الأشعري، وعلى الجند معاذ بن جبل، وعلى البحرين العلاء الحضرمي.

(١) الحزين الديلي: قد يكون الحزين الكتاني: وهو أحد بني كنانة والحزين لقب غلب عليه واسمه عمرو بن عبيد بن وهب بن مالك أحد بني عبد مناة بن كنانة ويكنى الحزين أبا الحكم... (شرح الحماسة للتبريزي).

(٢) العذافرة: الناقة الشديدة الأمانة الوثيقة الظهيرة وهي الأمون... (اللسان مادة ع. ذ. ر).
والضفار: ما يشد به البعير ونحوه من شعر مضمور ونحوه.

ويعث جرير بن عبد الله إلى نَجْران، وعبد الله بن ثور إلى جُرَش^(١)، وعياض بن غَنَم إلى دُومة الجَنْدَل.

وكان على الشام أبو عبيدة بن الجراح، وشُرَخْبِيل ابن حَسَنَة ويزيد بن أبي سفيان، وعمر بن العاص؛ كُلُّ رجل منهم على جُند وعليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكان خاتمة خاتم رسول الله ﷺ. وقال الزُّبَيْر بن^(٢) بَكَّار: وكان نقش خاتمه: «نعم القادر الله». وقال غيره: كان نقش خاتمه: «عبدٌ ذليل لربِّ جليل». وعاش أبو قحافة بعده ستة أشهر وأيامًا.

وفي المعجم الكبير للطبراني^(٣)، قال: ومات أبو بكر، فورثه أبواه، وكانا قد أسلما، وماتت أم أبي بكر قبل أبيه، ومات أبوه وله سبع وتسعون سنة. والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم.

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رِيَّاح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَّاح بن عَدِي بن كعب بن لُؤَي بن غالب القُرَشِي العدوي، ويجمع نسبُه مع نسب رسول الله ﷺ عند كعب بن لُؤَي. وأمة حَنْتَمَة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - على ما صححه أبو عمر بن عبد البر - وخطأ من قال: إنها بنت هشام بن المغيرة، وقال: لو كانت بنت هشام لكانت أخت أبي جهل، وإنما هي بنت عمِّه لأن هاشمًا وهشامًا أخوان، فهاشم والد حَنْتَمَة أم عمر، وهشام والد الحارث، وأبي جهل، وهاشم بن المغيرة جدُّ عمر لأبيه يقال له: ذو الرُّمَحَيْن.

(١) جرش: بالضم ثم الفتح، وشين معجمة: من مخاليف اليمن من جهة مكة، وهي في الإقليم الأول، طولها خمس وستون درجة، وعرضها سبع عشرة درجة، وقيل: إن جرش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة... (معجم ياقوت).

(٢) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار - وكنيته أبو بكر - بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيري، كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله تعالى، وصنف الكتب النافعة، منها كتاب أنساب قريش... (وفيات الأعيان ٢: ٣١١).

(٣) الطبراني: هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني؛ كان حافظ عصره، رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر وبلاد الجزيرة الفراتية... له المصنفات الممتعة النافعة الغربية منها المعاجم الثلاثة: «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير»... (وفيات الأعيان ٢: ٤٠٧).

وُلِدَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ألفيل بثلاث عشرة سنة، وروى أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن جده، قال: سمعتُ عمر يقول: وُلِدْتُ بعد الفجار الأعظم بأربع سنين.

قال الزُّبَيْر بن بَكَّار: كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه من أشرف قريش، وإليه كانت السُّفارة في الجاهلية؛ وذلك أنَّ قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا ومفاخرًا، ورضوا به. وقد تقدم خبر إسلامه، وإظهار الله تعالى الإسلام به، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيه حين قال: «اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين عمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام». فاستجيب في عمر.

قال ابن مسعود: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر. ولقَّب بالفاروق لإعلانه بالإسلام، ففرَّق بين الحق والباطل لما أسلم؛ رضي الله عنه.

ذكر نبذة

من فضائل عمر رضي الله عنه ومناقبه

وفضائله رضي الله عنه كثيرة، ومناقبه جمَّة مشهورة، قد قدَّمنا منها في ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ما تقدَّم، ولنورد في هذا الفصل من مناقبه خلاف ذلك:

رُوِيَ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه». ونزل القرآن بموافقة في أشياء؛ منها ما رآه في أسرى بدر، وفي تحريم الخمر، وفي حجاب أزواج النبي ﷺ، وفي مقام إبراهيم. ورُوِيَ عن عُقْبَةَ بن عامر^(١) وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبيُّ لكان عمر».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد كان في الأمم قبلكم مُحدِّثون، فإن كان في هذه الأمة أحدٌ فعمر بن الخطاب».

(١) هو عقبة بن عامر بن نابي، من رجالات الخزرج، شهد بدرًا والعقبة الأولى، وقتل يوم اليمامة... (الاشتقاق لابن دريد).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى رَأَيْتُ الرَّيَّ^(١) يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ». قالوا: فما أَوْلَتْ ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم.

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ فِيهَا دَارًا - أَوْ قَالَ: قَصْرًا - وَسَمِعْتُ فِيهِ ضَوْضَاءً، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَظَنَنْتُ أَنِّي أَنَا هُوَ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هُوَ؟ قَالُوا: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَلَوْلَا غَيْرُكَ يَا أَبَا حَفْصٍ لَدَخَلْتَهُ. فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: عَلَيْكَ يُغَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ قَالَ عَلَيْكَ أَغَارُ!».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُنِي فِي الْمَنَامِ، وَالنَّاسَ يُغَرِّضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ مِنْهَا إِلَى كَذَا، وَمِنْهَا إِلَى كَذَا، وَمَرَّ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَجْرُ قَمِيصُهُ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَوْلَتْ ذَلِكَ؟ قَالَ: الدِّينُ».

ومن رواية الليث بن سعد^(٢)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قد سمع رسول الله ﷺ يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ وَالنَّاسُ يُغَرِّضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدْيَ وَمِنْهَا دُونَ ذَلِكَ، وَغَرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ»، قالوا: فما أَوْلَتْ ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّينُ».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَقَالَ: مَا كُنَّا تُبْعَدُ أَنَّ السَّكِينَةَ^(٣) تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لَوْ وُضِعَ عِلْمُ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي كِفَّةٍ مِيزَانٍ، وَوُضِعَ عِلْمُ عُمَرَ لِرَجَحٍ عَلَيْهِمْ عِلْمُ عُمَرَ. وَلَقَدْ كَانُوا يَرُونَ أَنَّهُ ذَهَبٌ بِتِسْعَةِ أَغْشَارِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَجْلِسْ كُنْتُ أَجْلِسُهُ مَعَ عُمَرَ أَوْثَقُ فِي نَفْسِي مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ.

(١) الرِّي: يقال: روي من الماء بالكسر، ومن اللبن يروي ريًا وروي أيضًا مثل رضا وتروى وارتوى كله بمعنى، والاسم الرِّي أيضًا، وقد أرواني... (اللسان مادة ر.و.ي).

(٢) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعه، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقةً سريعاً سخياً... (وفيات الأعيان ٤: ١٢٧).

(٣) المراد بالسكينة: الإلهام.

ذكر صفة عمر رضي الله عنه

قد اختلف الناس في صفة عمر رضي الله عنه؛ فقليل: كان شديد الأدمة^(١) طَوَّالاً أَكْثُ اللحية، أصْلَعُ أَعْسَرَ يَسْرًا، يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا، يَخْضِبُ بِالْحَنَاءِ وَالكَتَمِ^(٢)، هَكَذَا وَصَفَهُ زَرْبَنُ حَبِيشٍ وَغَيْرُهُ بِأَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْأُدْمَةِ.

قال أبو عمر: وهو الأكثر عند أهل العلم بأيام الناس وسيَرَهُم وأخبارهم.

قال: ووصفه أبو رَجَاءِ العُطَارِدِيُّ - وكان مغفلاً - فقال: كان عُمر طَوِيلًا جَسِيمًا أَصْلَعُ شَدِيدَ الصَّلَعِ، أبيض شديد حُمرة العينين، في عارضيه خِفَّةٌ، سَبَلَتَهُ^(٣) كثيرة الشعر، في أطرافها صُهْبَةٌ^(٤).

وذكر الواقدي من حديث عاصم بن عبيد الله بن عمر عن أبيه، قال: إنَّما جاءتنا الأُدْمَةُ من قِبَلِ أخوالي بني مَظْلُوعٍ، قال: وكان أبيض، لا يتزوج إلا لطلب الولد.

قال أبو عمر: وعاصم بن عبيد الله لا يُخْتَجُّ بحديثه، ولا بأحاديث الواقدي. قال: زَعَمَ الواقدي أَنَّ سُمُرَةَ عمر وأُدْمَتَهُ إنَّما جاءت من أَكَلِهِ الزَّيْتِ عام الرَّمَادَةِ^(٥) قال: وهذا منكرٌ من القول.

وأصح ما في هذا الباب حديث سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ^(٦)، عن عاصم بن بَهْدَلَةَ، عن زَرْبَنِ حَبِيشٍ، قال: رأيت عمر شديد الأُدْمَةِ. وقال أنس: كان أبو بكر يَخْضِبُ بِالْحَنَاءِ وَالكَتَمِ، وكان عُمر يَخْضِبُ بِالْحَنَاءِ بَخْتًا. وعن مجاهد أنَّ عمر كان لا يُغَيِّرُ شَيْئَهُ.

(١) الأدمة: السمرة.

(٢) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٣) السبلة: ما على الشارب من الشعر. (٤) الصهبة: حمرة أو شقرة في الشعر.

(٥) الرمادة: هي في عدة مواضع، منها: رمادة اليمن... ورمادة فلسطين... والرمادة بلدة لطيفة بين برقة والإسكندرية... والرمادة أيضًا: بلدة من وراء القريتين على طريق البصرة... والرمادة أيضًا: محلة كبيرة كالمدينة في ظاهر مدينة حلب... والرمادة: محلة أو قرية من نواحي نيسابور... والرمادة قرية من قرى بلخ معروفة... (معجم البلدان لياقوت)... وعام الرمادة، كما في القاموس: في أيام عمر هلك في الناس والأموال.

(٦) سفيان الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور بن عبد مناة... يرجع نسبه إلى معد بن عدنان، الثوري الكوفي؛ كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٢: ٣٨٦).

وقال هلالُ بنُ عبد الله: رأيتُ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه، رجلاً آدم ضخماً كأنه من رجالِ سدُوس، في رجله رَوْحٌ^(١).

وقال بعضهم في صفته: كان طويلاً من النَّاسِ كراكبِ الجمل، أمهق^(٢) أضلع.

استخلفه أبو بكر رضي الله عنه قبل وفاته؛ وذلك أنه لما نزل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف. فقال: أخبرني عن عمر، فقال: إِنَّهُ أَفْضَلُ من رَأْيِكَ فيه إِلَّا أَنَّ فيه غِلْظَةً؛ فقال أبو بكر: ذلك لأنَّه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمرُ إليه لترك كثيراً ممَّا هو عليه، وقد رُمقته، فكنتُ إذا غضبتُ على رجل أراني الرُّضَا عنه، وإذا لُنتُ له أراني الشُّدَّةَ عليه. ودعا عثمان فقال له: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خيرٌ من علانيته، وليس فينا مثله. فقال أبو بكر لهما: لا تذكرَا ممَّا قلتُ لكما شيئاً، ولو تركته ما عدوتُ عثمان، ولا أدري لعله تاركٌ، والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً، ولوددت أني كنت من أموركم خُلُوا، وكنتُ فيمن مَضَى من سَلَفكم.

ودخل طلحةُ على أبي بكر فقال: استخلفتُ على النَّاسِ عمرَ، وقد رأيتُ ما يلقي النَّاسُ منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم! وأنت لآقٍ ربُّك فسائلُك عن رعيتك؛ فقال: أجلسوني؛ فأجلسوه، فقال: بالله تُفَرِّقني، أو بالله تُخَوِّفني! إذا لقيتُ ربِّي فسألتني قلت: استخلفتُ على أهليك خيرَ أهليك. ثم أحضر أبو بكر عثمان بن عفان خالياً، فقال: اكتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عهدَ أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين؛ أمَّا بعد - ثم أُعْني عليه - فكتب عثمان: أمَّا بعد؛ فقد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عَلَيَّ، فقرأ عليه، فكبر أبو بكر وقال: خِفْتُ أن يختلفَ النَّاسُ إن متُّ في عَشِيَّتِي، قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. فلما كتب العهد أمر به أن يُقرأ على النَّاسِ، فجمعهم، وأرسل الكتاب مع مولى له، ومعه عمر، فكان عمر يقول للناس: أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله ﷺ؛ فإنه لم يَألكم نُضْحًا، فسكت النَّاسُ، فلما قُرئ عليهم الكتابُ سمِعوا وأطاعوا.

(١) الروح، بالتحريك: وسعة في الرجلين دون الفحج، وهو أن يتباعد صدر القدمين وتتداني العقبان.

(٢) الأمهق: الأبيض كالجص لا يخالطه حمرة، وليس بنير.

وكان أبو بكر قد أشرف على الناس، وقال: أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإني ما استخلفت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني والله ما ألوذ من جهد الرأي، فقالوا: سمعنا وأطعنا، ثم أحضر أبو بكر عمر، فقال: قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوصاه بتقوى الله، ثم قال: يا عمر؛ إن الله حقًا بالليل لا يقبله في النهار، وحقًا في النهار لا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم! وحق الميزان لا يوضع فيه غدا حق إلا أن يكون ثقیلاً! ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم، وحق الميزان لا يوضع فيه غدا باطل إلا أن يكون خفيفاً! ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً؛ لا يرغب رغبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبةً يلقي فيها بيديه! ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوا أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم ما كان من شيء، فإذا ذكرتهم قلت: أين عملي من أعمالهم! فإن حفظت وصيتي، فلا يكون غائب أحب إليك من الموت، ولست بمعجزه.

وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، فلما دفن صعد عمر المنبر، فخطب الناس ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف^(١) أتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.

وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوليته جند خالد بن الوليد، وب عزل خالد لأنه كان عليه سخطاً خلافة أبي بكر كلها لوقعته بابن ثؤيرة، وما كان يعمل في حربه، وأول ما تكلم به عزل خالد، وقال: لا يلي لي عملاً أبداً.



(١) الجمل الأنف: الذي عقر الخشاش أنه لا يمتنع على قائدة للوجع الذي به... (النهاية لابن الأثير).

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وفي خلافته رضي الله عنه كثرت الفتوحات على المسلمين، ولنبداً من ذلك بذكر فتوح دمشق، وما والاها من المدن والثغور والحصون، ثم نذكر فتوحات العراق، وما والاها، ثم فتوح مصر، وما والاها، لتكون الفتوحات متوالية، ولا ينقطع خبرها بأخبار غيرها، ولا يتداخل فتوح بفتوح، ثم نذكر الغزوات إلى أرض الروم، ثم نذكر الوقائع بعد ذلك خلاف الفتوحات والغزوات على حكم السنين على ما ستقف عليه، إن شاء الله تعالى على ذلك.

ذكر فتوح مدينة دمشق

قال: لما هزم الله تعالى أهل اليرموك استخف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الجُميري، وسار حتى نزل بالصُفُر؛ فأتاه الخبر أن الذين انهزموا من الروم اجتمعوا بفُحْل^(١)، وأن المدد قد أتى أهل دمشق من جَمُص؛ فكتب إلى عمر بذلك، فأمره أن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت المملكة، وأن يشغل أهل فُحْل بخيل تكون بإزائهم، فإذا فُتِحَتْ دمشق سار إلى فُحْل، ثم يسير إلى جَمُص هو وخالد بن الوليد، ويترك شُرْحِبِيل ابن حَسَنَةَ، وعمر بن العاص بالأردن وفلسطين، فأرسل أبو عبيدة طائفة من المسلمين، فنزلوا بالقرب منها، وبقى^(٢) الروم الماء حول فُحْل، فوجلت الأرض، ونزل عليهم المسلمون، فكان أول محصور بالشام أهل فُحْل، ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة أيضاً جنداً، فنزلوا بين جَمُص ودمشق، وأرسل جنداً فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار هو وخالد بن الوليد، فقدموا دمشق، وعليها نسطاس؛ فنزل أبو عبيدة على ناحية، وخالد على ناحية؛ ويزيد بن أبي سفيان على ناحية، وحصرهم المسلمون سبعين ليلة، وقتلوهم بالزحف^(٣) والمجانيق^(٤)، فكان هرقل بالقرب من حمص، فأمد أهل دمشق بخيل، فمنعتها خيول المسلمين، وخُذِل أهل دمشق. ووُلِدَ

(١) فحل: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره لام: اسم موضع بالشام... (معجم البلدان).

(٢) ببق الماء موضع كذا: خرقة وشقه فانبت.

(٣) الزحف: الجيش الكثير.

(٤) المنجنيق: آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة.

للبطريق الذي على دمشق مولود، فصنع وليمةً، فأكل القومُ وشربوا، فعلم خالد بذلك دون غيره، وكان قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم، فلما أمسى ذلك اليوم نهض بمن معه وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارتقوا إلينا، واقصدوا الباب؛ وارتقى هو وأصحابه على السور في تلك الجبال، ثم انحدر ببعض من معه، وترك بذلك المكان الذي صعد منه من يحميه، وأمرهم بالتكبير، وجاء المسلمون إلى الباب وإلى الجبال، وقصد خالد الباب، وقتل من دونه، ثم قتل البوابين، وفتح الباب، وقتل من عنده من الروم، ودخل أصحابه المدينة، وثار أهلها لا يدرون ما الخبر، فلما رأوا ذلك قصدوا أبا عبيدة، وبذلوا له الصلح، فقبله منهم، وفتحوا له الباب، وقالوا: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كل باب بصلح ممن يليهم، ودخل خالد عتوةً، والتقى والقواد وسط المدينة هذا قتلاً ونهباً، وهذا صفحاً وتسكيناً، فأجروا جهة خالد مجرى الصلح، وكان صلحهم على المقاسمة؛ الدينار والعقار^(١) ودينار عن كل رأس، واقتسموا الأسلاب.

أرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، وأنه قسم الغنمة على من حضر الفتح، وعلى الجنود التي على فحل وحمص وغيرهم، فجاء كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جند العراق إلى سعد بن أبي وقاص، فأرسلهم، وأمر عليهم هاشم بن عتبة، وسار أبو عبيدة إلى فحل. والله أعلم.

ذكر شيء مما قبل في أمر مدينة دمشق ومن بناها

حكى عن كعب الأحبار^(٢)، قال: أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل^(٣).

واختلف فيمن اختط دمشق؛ ف قيل: إن نوحاً عليه السلام اختطها بعد حران. وقيل: نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص دمشق، وبنى مدينتهم وسماها جيرون.

(١) العقار: كل ملك ثابت له أصل، كالأرض والدار.

(٢) يقول ابن عماد الحنبلي في «شذرات الذهب»: سنة خمس وثلاثين... وفيها توفي عالم الكتاب به وبالأثار كعب الأحبار أسلم في زمن أبي بكر وروى عن عمر رضي الله عنه... (٤٠: ١).

(٣) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية من الكوفة والحلة؛ ينسب إليها السحر والخمر... (معجم البلدان).

وقيل: هي إرم ذات العماد.

وقيل: إن جَيرون وبَريد كانا أخوين، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهما اللذان يعرف جيرون وياب البريد بدمشق بهما.

وعن وهب بن منبه^(١)، قال: دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل، وكان حبشيًا، وهبه له نمرود حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق، فسمّاها على اسمه، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له، وسكنها الروم بعد ذلك بزمان.

وقيل: إن بيوراسب الملك بنى مدينة بابل، وبنى مدينة صور، وبنى مدينة دِمَشق.

وقيل: كان زمن معاوية رجل صالح بدمشق، كان الخضر عليه السلام يأتيه في أوقات، فبلغ ذلك معاوية، فجاء إلى الرجل وسأله أن يجمع بينه وبين الخضر، فذكر الرجل ذلك للخضر، فأبى؛ فقال معاوية: قل له: قد قعدنا مع مَنْ هو خير منك؛ وحدثناه، وهو محمد ﷺ ولكن أسأله عن ابتداء بناء دِمَشق كيف كان، فسأله؛ فقال: نعم صرّت إليها، فرأيت موضعها بحرًا مستجمعًا فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرّت إليها فرأيتها غَيضة^(٢)، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرّت إليها، فرأيتها بحرًا كعادتها الأولى، ثم غبت عنها خمسمائة عام، وصرّت إليها فرأيتها قد ابتدء فيها بالبناء ونفر يسير فيها.

وعن أبي البخترى^(٣) قال: وُلد إبراهيم عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة، وذلك بعد بنيان دمشق بخمس سنين، وقال: جَيرون عند باب مدينة دمشق من بناء سليمان، بنّته الشياطين، وكان الشيطان الذي بناه يقال له: جيرون فسُمّي به. وقيل: إن دِمَشق بناها دمشقين غلام كان مع الإسكندر.

(١) هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص؛ وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء (ص) وسير الملوك... (وفيات الأعيان ٦: ٣٥).

(٢) الغيضة: الأجمة، أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٣) أبي البخترى: هو وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني؛ حدث عن عبيد الله بن عمر العمري وهشام بن عروة بن الزبير وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

وقيل: إن الذي بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة، وجعل لها سبعة أبواب، وصور على باب كيسان زحل، وقيل: وجد في كتاب: باب كيسان لزحل، وباب شرقي للشمس، وباب توما للزهرة، وباب الصغير للمشتري، وباب الجابية للمريخ، وباب الفراديس لعطارد، وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

وقيل: إن ملك مصر بنى حصن دمشق؛ الذي هو حول المسجد، وداخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس، فوضعها على أبوابه؛ فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب بيت المقدس. حكاه أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق.

ونعود إلى فتوح الشام.

ذكر غزوة فِخْل

وفِخْل بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة وبعده لام، وهو بلد معروف بِغُورِ الشَّام. قال: لما فُتِحَتْ دمشق في سنة ثلاث عشرة استخلف أبو عبيدة عليها يزيد بن أبي سفيان، وسار إلى فِخْل، وكان أهل فِخْل قد قصدوا بَيْسَانَ^(١). وكانت العرب تسمي هذه الغزوة ذات الرَّدْغَةِ وبَيْسَانَ وفِخْل.

وكان خالد بن الوليد على المقدمة، وعلى الناس شُرْحَبِيل ابن حَسَنَة وعلى الْمُجَنَّبَيْنِ أبو عبيدة وعمر بن العاص، وعلى الخيل ضِرَارُ بن الأُزُور، وعلى الرَّجُلِ عياض بن غَثَم.

فنزل شُرْحَبِيل بالناس على فِخْل، وبينهم وبين الروم تلك الأَوْحَال، وكتبوا إلى عمر، وأقاموا ينتظرون جوابه، فخرج عليهم الرُّوم، وعليهم سِقْلَار بن مِخْرَاق فأتوهم، والمسلمون حَذِرُونَ، وكان شُرْحَبِيل لا يبيت ولا يُضْبِح إلا على تعبئة؛ فاقْتَتَلُوا قتالاً شديداً حتى الصباح، ويومهم إلى الليل، فانهزم الرُّوم، وقد أظلم الليل عليهم، فحاروا، وأصيب رئيسهم سِقْلَار والذي يليه فيهم نسطورس، وظفر المسلمون بهم، وركبهم، فلم يعرف الروم مَأْخَذَهُمْ، فانتَهت بهم الهزيمة إلى تلك الأَوْحَال

(١) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس يقال إنها من الجنة، وهي عين فيها ملحوة يسيرة... (معجم البلدان لياقوت).

التي كانوا أعدّوها مكيدةً للمسلمين، فلحقهم المسلمون، فوخزّوهم بالرماح، فكانت الهزيمةُ بفِخل، والقتل بالردّاغ، فأصبّيت الروم، وهم ثمانون ألفاً، لم يُقْلَت منهم إلاّ الشريد، فصنع الله للمسلمين وهم كارهون؛ كرهوا البثوق^(١) والأوحال، فكانت عوناً لهم على عدوّهم، وغنموا أموالهم، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حِمص.

وقد اختلف في فتح فِخل ودمشق، وذكروا أن المسلمين لما فرغوا من أجنادين على رأي من جعلها بعد اليرموك؛ اجتمع الروم بفِخل، فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحت، وكانت فِخل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة، وفتح دمشق في شهر رجب سنة أربع عشرة. وقيل: كانت وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة، ولم يكن للروم بعدها وقعة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

هذا الفتح أورده ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة، قال: لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وسار إلى فِخل، وسار يزيد إلى مدينة صَيْدَاء وبُيُوت، وَجُبَيْل وَعِرْقَة^(٢)، وعلى مُقَدَّمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثير من أهلها، وتولّى فتح عِرْقَة معاوية بنفسه في ولاية يزيد.

ثم غلب الروم على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر، وأول خلافة عثمان، وفتحها معاوية، ثم رَمَّها وَشَحَنَهَا^(٣) بالمقاتلة.

ذكر فتح بيسان وطبرية

قال: لما قصد أبو عبيدة حِمص من فِخل، أرسل شَرَحْبِيل وَمَنْ معه إلى بَيْسَان، فقاتلوا أهلها، وقتلوا منها خَلْقاً كثيراً، ثم صالحهم مَنْ بقي على صلح دمشق، وكان أبو عبيدة قد بعث بالأغور إلى طَبْرِية، فصالحه أهلها على صلح دمشق أيضاً، وأن يشاطروا المسلمين المنازل، فنزلها الناس، وكتبوا بالفتح إلى عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه.

(١) البثوق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه. جمع بثوق.

(٢) عِرْقَة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة لها... (معجم البلدان).

(٣) شحنها: جعل فيها الكفاية لضبطها.

ذكر الواقعة بمرج الروم

كانت هذه الواقعة في سنة خمس عشرة؛ وذلك أن أبا عبيدة وخالداً سارا بمن معهما إلى حمص، فنزلاً على ذي الكلاع، وبلغ هرقل الخبر فبعث توذر البطريق حتى نزل بمرج الروم غزب دمشق، ونزل أبو عبيدة بالمرج أيضاً، ونازله يوم نزوله شنس الرومي في مثل خيل توذر مدداً لتوذر، ورداً^(١) لأهل حمص، فكان خالد بإزاء توذر، وأبو عبيدة بإزاء شنس، فسار توذر يقصد دمشق، فأتبعه خالد في جريدة وبلغ يزيد بن أبي سفيان الخبر، فاستقبله فاقتتلوا، ولحق بهم خالد فأخذهم من خلفهم، فقتل توذر، ولم يفلت من عسكره إلا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم، فقسّمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد، وعاد يزيد إلى دمشق، ورجع خالد إلى أبي عبيدة، فوجده قد قاتل شنس بمرج الروم، فقتلت الروم مقتلة عظيمة، وقتل شنس، وتبعهم المسلمون إلى حمص بالسير إليها، وسار هو إلى الرّيف، وسار أبو عبيدة إلى حمص.

ذكر فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس

قال: وفي سنة خمس عشرة سار أبو عبيدة إلى حمص بعد وقعة ملك الروم، فسلك طريق بعلبك وحصرها، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وصالحهم، وسار عنهم ونزل حمص ومعه خالد بن الوليد، فقاتل أهلها، ولقي المسلمون برزاً شديداً، وحاصر الروم حصاراً طويلاً، وكان هرقل قد أرسل إليهم يعدّهم المدد، وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهيز إلى حمص، وسيّر سغد بن أبي وقاص السرايا من العراق إلى هيت^(٢) فحصرها، وسار بعضهم إلى قرقيسياء^(٣) ففترق أهل الجزيرة، وعادوا عن نجدة أهل حمص، وكان أهل حمص يقولون: تمسكوا بالمدينة فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبع، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم، ودعاهم إلى مصالحة المسلمين، فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فكبر المسلمون تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص، وتزلزلت

(١) الردء: المعين والناصر، أو القوة والعماد.

(٢) هيت: بالكسر، وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية... (معجم البلدان).

(٣) قرقيسياء... قال حمزة الأصبهاني: قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية بالحلبة... بلد على نهر الخابور قرب رجة مالك بن طوق... وعندها مصب الخابور في الفرات... (معجم البلدان).

حيطانهم، وكَبَرُوا الثانية والثالثة، فأصابهم أعظم من ذلك، وخرج أهلها يطلبون الصلح، ولم يعلم المسلمون بما حَدَثَ فيهم، فصالحوهم على صلح دِمَشْق. وأنزلها أبو عبيدة السَّمُطُ بْنُ الْأَسود الكِنْدِيُّ في بني معاوية، والأشعث بن ميناَس في السَّكُون، والمِقْدَاد في بَلِيٍّ؛ وغيرهم، وبعث بالأحماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود.

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبادَةَ بْنُ الصَّامِت. وسار إلى حماة، فتلَقاه أهلها مُذْعِنِينَ، فصالحهم على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم، ومضى نحو شِيزر^(١)، فخرجوا إليه فصالحهم على مثل صلح أهل حماة.

وسار إلى مَعْرَةَ النعمان - وكانت تُعرف بمَعْرَةَ جَنْص، ونسبت بعد ذلك إلى الثُّعْمان بن بشير الأنصاري، فصالحوه على مثل صلح أهل جَنْص.

ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها، وكان لها بابٌ عظيمٌ يفتحُه جَمْعٌ من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارسيْنَ، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها، ورحلوا، فلمَّا أَجَتْهُمْ^(٢) الليل عادوا، واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا، فأخرجوا سَرَحَهُمْ^(٣)، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يُرْغَهُمْ إِلَّا والمسلمون يصيحون بهم، ودخلوا المدينة معهم، ومِلِكْتَ عنوة، وهرب قومٌ من النَّصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم على خَرَجٍ يُؤَدُّونه قُلُوءًا أو كَثْرًا، فرُدَّتْ لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجدًا جامعًا؛ بناه عبادة بن الصامت، ثم وسَّع فيه بعد ذلك.

ولما فتح المسلمون اللاذقية جَلَا أهل جَبَلَةٍ من الرُّوم عنها، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصَّامِت أنطرسوس، وكان حصنًا فجلا عنه أهله، وبنى معاوية أنطرسوس ومضَرها، وأقطع بها القطنان للمقاتلة، وكذلك فعل بباُنِياس، وفتحت سَلَمِيَّة؛ وقيل: إنها سُمِيَّتْ سَلَمِيَّةً لَأَنَّهُ كان بقربها مدينة تُدْعَى الْمُؤْتَفَكَةَ، انقلبت بأهلها، ولم يَسَلَمْ منها غير مائة نَفْسٍ، فبنوا لأنفسهم مائة منزل، وسميت «سل مائة»، ثم حَرَّفَهَا النَّاسُ. فقالوا: سَلَمِيَّة، ثم مضَرها صالحُ بْنُ عَلِيٍّ بن عبد الله بن عباس.

(١) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة... (معجم البلدان).

(٢) أجنتهم الليل: سترهم.

(٣) السرح: الماشية، ولا يسمى سرحًا إلا ما يغدى به ويراح.

ذكر فتح قنسرين^(١) ودخول هرقل القسطنطينية وما تكلم به عند ذلك

قال: ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما زحف ونزل الحاضر زحف إليه الروم، وعليهم ميثاس، وكان أعظمهم بُعد هرقل، فقتل هو ومن معه على دم واحد.

وسار خالد حتى نزل قنسرين فتحصن أهلها منه، ثم صالحوه على صلح أهل جنص، فأبى خالد إلا إخراج المدينة، فأخربها، فلما بلغ ذلك هرقل - وكان بالرّها - سار إلى سُميساط^(٢)، ثم منها إلى القسطنطينية، ولما سار علّا نَشْرًا^(٣)، ثم التفت إلى الشام. فقال: سلامٌ عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً، حتى يولد الولد المشؤوم وليته لا يولد، فما أحلى فعله، وأمرٌ فتنته على الروم. ثم سار وأخذ أهل الحصون التي بين إسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وخلت تلك الحصون وشتها هرقل، فكان المسلمون إذا مروا بها لا يجدون بها أحداً، وربما كمن عندها الروم، فأصابوا غرة ممن يتخلف من المسلمين، فاحتاط المسلمون لذلك. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المآب.

ذكر فتح حلب وأنطاكية^(٤) وغيرهما من العواصم

وهي سَرْمِين، وقورُس، وتَلّ عَزَاز، ومنبِج، وذُلُوك، ورَغْبَان وبالس، وقاصرين، وجُرجومة، ودرب بغراس، ومرعش، وحصن الحدث. قال: ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب فبلغه أن أهل قنسرين مضوا، وغدروا، فوجه إليهم السُمط الكندي فحصرهم وفتحها، ووصل أبو عبيدة إلى حاضِر حلب، وهو قريب منها يجمع أضناناً من العرب، فصالحهم على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك،

(١) قنسرين: مدينة قيل فيها قبر النبي صالح.. وقيل كان خرابها في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر... (معجم البلدان).

(٢) سُميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن... (معجم البلدان).

(٣) النَشْر: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٤) أنطاكية: كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير... (معجم البلدان).

وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن الفهري، فتحصن أهلها، وحصرهم المسلمون، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وحصنهم وكنائسهم، فأعطوا ذلك، واستثنى عليهم موضع المسجد.

وكان عياض بن غنم هو الذي صالح، فأجاز أبو عبيدة ذلك. وقيل: صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم، وقد قيل: إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحداً؛ لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية، وتراسلوا في الصلح، فلما تم الصلح رجعوا، وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصن بها خلق كثير من قيسرين وغيرها، فلما فارقها لقيه جمع العدو فهزمهم، وألجأهم إلى المدينة، وحصرها من نواحيها، فصالحوه على الجزية أو الجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ثم نقضوا، فوجه إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة، ففتحها على الصلح الأول.

وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب جماعة من المسلمين بها مرابطة، ولا يحبس عنهم العطاء.

وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين معرة مضرين وحلب، فسار إليهم فهزمهم، وقتل عدة من البطارقة، وسبى وغنم، وفتح معرة مضرين على مثل صلح حلب، وجالت خيولُه، فبلغت بؤقة، وفتحت قرى الجومة وسرّمين وتبرين، وغلبوا على جميع أرض قيسرين وأنطاكية.

ثم أتى أبو عبيدة حلب، وقد التاث^(١) أهلها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة، وسار يريد قورس، وعلى مقدمته عياض بن غنم، فلقيه راهب من أهلها، فسأله الصلح، فبعث به إلى أبي عبيدة، فصالحه على صلح أنطاكية، وبث خيله، فغلبوا على جمع أرض قورس، وفتح تلّ عزاز.

وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة، فنزل في حصن بقورس، يُعرف بحصن سلمان، ثم سار أبو عبيدة إلى مَنبج، وعياض على مقدمته، فلحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية، وسيّره إلى ناحية دُوك ورعبان، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل مَنبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم.

وولى أبو عبيدة كل كورة^(٢) فتحها عاملاً، وضم إليه جماعة، وشحن النواحي

(١) التاث: اختلط والتبس، والتاث بالشيء: التفت به.

(٢) الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ذلك اسم الكورة... (معجم البلدان، المقدمة).

المخوفة، وسار إلى بَالِس، وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحه أهلها على الجزية والجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم، وأرض الجزيرة، واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات، وعاد أبو عبيدة إلى جهة فلسطين وكان بجبل اللكام^(١) مدينة يقال لها: جُزْجُومة، ففتحها حبيب من أنطاكية صلحًا على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين، وسير أبو عبيدة جيشًا مع ميسرة بن مسروق العنسي، فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول من سلكه، فلقي جمعًا من الروم، ومعهم عرب من غسان وتثوخ وإياد يريدون اللحاق بهزقل فأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة. وسير جيشًا آخر إلى مَرَعَش مع خالد بن الوليد، ففتحها بالأمان على إجلاء أهلها، فجلاهم وأخربها، وسير جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحدث ففتحها؛ وإنما سُمي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلامًا حَدَثًا، فقاتلهم في أصحابه، فقتل: دُزْب الحدث. وقيل: لأن المسلمين أصيبوا به فُسِمِيَ بذلك، وكان بنو أمية يُسمونه دُزْب السلامة، والله أعلم.

ذكر فتح قيسارية^(٢) وحصن غزة

وفي سنة خمس عشرة أيضًا فتحت قَيْسَارِيَّة. وقيل في سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين. وذلك أنَّ عمر رضي الله عنه كتب إلى يزيد بن أبي سفيان: أن يرسل معاوية أخاه إلى قيسارية، وكتب عمر إلى معاوية يأمره بذلك، فسار معاوية إليها وحصر أهلها، فرجعوا إليه، وقتلوه، فبلغت قتلهم في المعركة ثمانين ألفًا، ثم كملت في الهزيمة مائة ألف وفتحها، وكان علقمة بن مُجَزَّز قد حصر القيقار بغزة وجعل يرأسه فلم يشفيه أحد مما يريد، فاتاه كأنه رسول علقمة وكلمه، فأمر القيقار رجلًا أن يقعد له في الطريق، فإذا مرَّ به قتلَه، ففطن به علقمة، فقال: إنَّ معي نفرًا يُشركوني في الرأي فانطلق فأتيتك بهم، فبعث القيقار إلى ذلك الرجل ألا يتعرَّض له. فخرج علقمة من عنده، ولم يعد إليه، وفعل كما فعل عمرو بن العاص رضي الله عنه مع الأَرطُبُون.

(١) جبل اللكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور... (معجم البلدان).

(٢) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام... وقيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي ملك بني سلجوق... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة

وسبسطية ونابلس وتبني وبييت جبرين ويافا

قال: لما انصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فخل إلى حمص - كما قدمنا - نزل عمرو بن العاص وشُرْحَبِيل ابن حَسَنَة على بَيْسان فافتتحها، وصالحه أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبَيْسان إلى الأَرطَبُون بأجنادين، فسار عمرو وشُرْحَبِيل إليهم بها، واستخلف عمرو على الأردن أبا الأغور، وكان الأَرطَبُون أذهى الروم وأبعدها غورًا، وكان قد وضع بالرملة جُنْدًا عظيمًا، وبإيلياء^(١) كذلك، فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: قد رَمَيْتَا أَرطَبُون الروم بأرطَبُون العرب، فانظروا عم تنفرج.

وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو، وجعل عمرو علقمة بن حكيم، ومسروقًا العكبي على قتال أهل إيلياء، فشغلوا من بها عنه، وتتابعَت الأمداد من عمر رضي الله عنه إلى عمرو، فأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأَرطَبُون على شيء، ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه، ودخل إليه كأنه رسول، ففطن به أَرطَبُون، وقال: لا شك أن هذا الأمير، أو من يأخذ الأمير برأيه، فأمر إنسانًا أن يقعد على طريقه، فإذا مر به يقتله؛ فأدرك عمرو، فقال له: قد سمعت مني، وسمعت منك، وقد وقع قولك مني بموقع، وأنا واحد من عشرة، بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكائفه فأزجع وأتيك بهم، فإن رأوا ما رأيت فقد رآه الأمير وأهل العسكر، وإن لم يروه ردذتهم إلى مأمئهم. فقال: نعم، ورد الرجل الذي أمره بقتله، فخرج عمرو من عنده، وعلم الرومي بعده مفارقه أنه خدعه. فقال: هذا أذهى الخلق، وبلغت هذه الواقعة عمر. فقال: لله ذر عمرو! ثم التقوا، واقتتلوا بأجنادين قتالًا شديدًا كقتال اليزموك، فانهزم أَرطَبُون إلى إيلياء، ففتح عمرو غزة، وقيل: فتحت غزة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم فتح سبسطية ونابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لد^(٢) وتبني^(٣) وعمواس^(٤)، وبييت جبرين ويافا. وقيل: فتحتها معاوية رضي الله عنه، وفتح رفح. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) إيلياء: بيت المقدس كما سيأتي.

(٢) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٣) تبني: بلدة بحوران من أعمال دمشق.. وقيل: تبني: قرية من أرض البثينة لغسان.

(٤) عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس.. وقيل: عمواس هي ضيعة جلييلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء

كان فتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة خمس عشرة. وقيل: ست عشرة، وذلك أن عمرو بن العاص لما فتح هذه الجهات التي ذكرناها، أرسل إلى أزطبون رجلاً يتكلم بالرومية، وقال له: اسمع ما يقول، وكتب معه كتاباً، فوصل إليه، وأعطاه الكتاب، وعنده وُزْرَاؤه، فقال لهم: لا يفتح عمرو شيئاً من فلسطين بعد أجنادين. فقالوا له: من أين علمت ذلك؟ فقال: صاحبها صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر، فعاد الرسول إلى عمرو، وأخبره بذلك، فكتب عمرو إلى عمر رضي الله عنهما، يقول: إني أعالج عدواً شديداً، وبلاذاً قد ادخرت لك، فأريك. فعلم عمر أن عمرو لم يقل ذلك إلا لشيء سمعه، فسار عن المدينة. وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام، أن أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهله أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكتب عمر إلى أمراء الأجناد بموافاته بالجابية^(١) ليوم سماء لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم، فوافوه، وكان أول من لقيهم يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد بن الوليد على الخيول، عليهم الدياج^(٢) والحرير، فنزل عن فرسه، ورمأهم بالحجارة، وقال: ما أسرع ما رجعتكم عن رأيكم! إني تستقبلونني في هذا الزي! وإنما شيعتكم منذ سنتين، وتالله لو فعلتم ذلك على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم. فاعتذروا بالسلاح. ودخل عمر الجابية وعمرو وشرحبيل لم يقدموا عليه، فبينما عمر بالجابية إذ فرغ الناس إلى السلاح. فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ألا ترى إلى الخيول والسيوف! فنظر فإذا كردوسة^(٣)، فقال: مستأمنة فلا ترأعوا، فإذا هم أهل إيلياء يصلحونه على الجزية، وكان الذي صالحه العوام، لأن أزطبون والتذارق دخلا مصر لما بلغهما مقدم عمر. وأخذوا كتابه على إيلياء وحيزها، والرملة وحيزها. وجعل عمر رضي الله عنه علقمة بن حكيم على نصف فلسطين، وأسكنه الرملة، وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر، وأسكنه إيلياء، وضم عمرو بن العاص وشرحبيل إليه بالجابية، فلقياه راكباً، فقبلاً ركبته، فضم كل واحد منهما محتضناً، ثم

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران، إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من نوى أيضاً، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية... (معجم البلدان).

(٢) الدياج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٣) الكردوسة: القطعة من الخيل.

سار إلى البيت المقدس وركب فرسه، فرأى به عرجاً، فنزل عنه، وأُتيَ بِرِذْوَن^(١) فركبه، فجعل يَتَجَلَّجَلُ^(٢) به، فنزل وضرب وجهه وقال: لا أغلم من علمك هذه الخيلاء؟ ثم لم يكره بِرِذْوَنًا بعده، ولا كان ركه قبله، وفُتحت إيلياء على يديه، ولحق أظبُون ومن أبي الصلح بمصر، فلما ملكها المسلمون قُتل. وقيل: بل لحق بالروم، فكان على صوائفهم^(٣)، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين، ومع المسلمين رجل من قريش، فقطع أظبُون يده، وقتله القرشي، وفيه يقول ويشير إلى يده: [من البسيط]

فإن يكن أظبُونُ الرومِ أفسدها فإن فيها بحمدِ الله مُنتَفَعَا
وإن يكن أظبُونُ الرومِ قَطَعَهَا فقد تركتُ بها أوصاله قِطْعَا

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل

من بها من المسلمين

قال: وفي سنة سَبْعَ عشرةَ قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح، ومن معه من المسلمين بِحمص، وكان المُهَيِّج للروم على ذلك أن أهل الجزيرة أرسلوا إلى ملكهم، وَبَعَثُوهُ على إرسال الجنود إلى الشام وَوَعَدُوهُ المعونة بأنفسهم. ففعل ذلك. فلما سَمِعَ المسلمون باجتماعهم، ضمَّ أبو عبيدة إليه مَسَالِحَهُ^(٤)، وعسكر بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من قنسرين إليهم، فاستشاره أبو عبيدة في المناجزة^(٥) أو التحصن، فأشار بالمناجزة، وأشار سائرهم بالتحصن ومكاتبة عمر، فأطاعهم، وكتب إلى عمر بذلك.

وكان عمر قد اتخذ بكل مصر خيولاً على قَدْرِهِ من فُضُول أموال المسلمين عُدةً لكون إن كان، فكان بالكوفة أربعة آلاف فَرَسٍ، والقيَم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي، وفي كل مصر من الأمصار الثمنية على قَدْرِهِ، فإن كانت ثابتة رَكِبَهَا المسلمون وساروا إلى أن يتجهز الناس.

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر.

(٢) يتجلجل: المراد هنا: يتحرك في مشيه يمنة وشمالاً.

(٣) الصائفة: غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج من بلاد الروم. جمع صوائف.

(٤) المسلح: موضع السلاح، أو القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة. جمع مسالح.

(٥) المناجزة: المنازلة والاقتيال.

وكتب عمرُ إلى سعد بن أبي وقاص: أن أندب النَّاسَ مع القعقاع بن عمرو وسرَّخهم مِن يومهم؛ فإنَّ أبا عبيدة قد أُحيط به.

وكتب إليه أيضًا: سرَّح سهيلَ بن عديٍّ إلى الرِّقَّة؛ فإنَّ أهل الجزيرة هم الذين استشاروا الرُّومَ على أهلِ حِمص، وأمره أن يُسرَّح عبدُ الله بن عتبان إلى نصيبين، ثم ليُقصد حَرَّان والرُّها، وأن يُسرَّح الوليد بن عُقبة على عَرَب الجزيرة مِن ربيعة وتَنُوح، وأن يسرَّح عياض بن غنم، فإن كانت حربُ فأمُرهم إلى عياض. فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومه نحو حِمص.

وخرج عياض بن غنم ومن ندب إلى الجزيرة، وتوجَّه كلُّ أمير منهم إلى الكورة التي أمر عليها، وخرج عمرُ من المدينة، وأتى الجابية إعانةً لأبي عبيدة، فلما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الرُّومَ على أهل حِمص خبرُ الجنود الإسلامية تفرقوا إلى بلادهم، فأشار خالدُ على أبي عبيدة بالخروج إلى الرُّوم، فخرج إليهم وقائلهم، وفتح الله عليه، وقَدِم القعقاعُ بعد ثلاثة أيام، فكتبوا إلى عمرَ بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك.

فكتب إليهم: أن أسرِّحوهم في المغنم، فإنَّهم نفروا إليكم، وانفَرَق^(١) لهم عدوكم، وقال: جزى اللهُ أهل الكوفة خيرًا؛ يكفون حوزتهم ويمدُّون الأُمصار؛ فلما فرغوا رجَعوا. والله أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

قد اختلف أصحاب التواريخ في فتح الجزيرة وأرمينية، فمنهم من يقول: إن ذلك من فتوح أهل العراق، ومنهم من يقول: إنَّها من فتوح أهل الشام. والأكثر على أنَّها من فتوح أهل الشام، ونحن نذكر القولين إن شاء الله تعالى:

فأما من قال: إنَّها من فتوح العراق فإنَّه يقول: إنَّ سعد بن أبي وقاص لما أمره عمرُ رضي الله عنه أن يبعث الجنود التي ذكرناها آنفًا إلى نصيبين^(٢) وحَرَّان^(٣) والرُّها والجزيرة مع مَنْ ذكرنا، وإن كان قتال فأمُرهم إلى عياض بن غنم. فخرج عياض ومن

(١) انفرق: افترق أو انشق.

(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان... (معجم البلدان).

(٣) حران: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم... (معجم البلدان).

معه؛ فأرسل سهيل بن عدي إلى الرقة، فصالحوه على الذمة، وخرج عبد الله بن عتبان على الموصِل إلى نصيبين، فلقوه وفعلوا كِفْعَل أهل الرقة، وخرج الوليد بن عقبة، فقدم على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ، فنهض معهم مُسْلِمُهُمْ وكافُرُهُمْ إلا إياد بن نزار، فإِنَّهُمْ دخلوا إلى أرض الرُّوم، ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضَمَّ عِيَاض إليه سهيلاً وعبد الله، وسار بالناس إلى حَرَّان، فأجابه أهلها إلى الجزية، فقبل منهم. ثم إنَّ عِيَاضاً سَرَّحَ سهيلاً وعبد الله إلى الرها، فأجابوهما إلى الجزية، وأجروا كل ما أخذوا من الجزيرة عَنوةً مَجْرَى الذمة، فكانت الجزيرة أسهلَ الْبُلْدَانِ فَتْحًا، وَرَجَعَ سهيلٌ وعبدُ الله إلى الكوفة.

قال: ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن إيادًا دخلت الرُّوم، كتب إلى ملك الرُّوم يتهدده إن لم يُخْرِجْهُمْ، فأخْرَجَهُمْ، فخرج منهم أربعة آلاف، وتفرقت بقيتهم ممَّا يلي الشَّام والجزيرة من أرض الرُّوم، فكلَّ إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف.

وقال ابن إسحاق: إنَّ فَتْحَ الجزيرة كان في سنة تسع عشرة، وقال: إنَّ عمرَ كتب إلى سعد بن أبي وقاص: إذا فتح الله الشَّام والعراق فابعث جنودًا إلى الجزيرة. فَبَعَثَ عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ، وَبَعَثَ معه جيشًا فيه أبو موسى الأشعري، وعمر بن سَعْدٍ ليس له في الأمر شيء، فسار عِيَاضُ وَنَزَلَ على الرها، فصالحه أهلها وأهل حَرَّان، ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين فافتتحها، وسار عِيَاضُ إلى دارا فافتتحها. وَوَجَّهَ عثمانُ بْنُ أَبِي العاصِ إلى أرمينية الرابعة فقاتل أهلها، ثم صالحوه على الجزية، فَعَلَى هذه الأقوال تكون الجزيرة وأرمينية من فتوح العراق.

وأما من قال إنَّها من فتوح الشَّام، فإنه يقول: إنَّ أبا عُبَيْدَةَ سَيَّرَ عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ إليها ففتحها، وكان قد كَتَبَ إلى عمرَ بن الخطاب بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضمَّ إليه عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ - إذ أخذ خالد بن الوليد إلى المدينة - فصرفه إليه، فسيره أبو عُبَيْدَةَ إلى المدينة ففتَحَها، وذلك في سنة سبع عشرة.

وقيل: إنَّ أبا عُبَيْدَةَ لَمَّا تَوَفَّى اسْتَخْلَفَ عِيَاضًا، فوَرَدَ عليه كتابُ عمرَ بولاية حِمَصَ وقنسرين والجزيرة، فسار إلى الجزيرة في سنة ثمانٍ عشرة للنَّصَف من شعبان في خمسة آلاف، وعلى ميمنته سعيد بنُ عامر الجُمَحِي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق، فانتَهت طليعةُ عِيَاضَ إلى الرقة، فأغاروا على الفلاحين، وحَصَرُوا المدينة، وبيَّ عِيَاضُ السَّرايا، فَأَتَوْهُ بِالْأَسْرَى والأطعمة، وحَصَرَهَا سِتَّةَ أَيَّامٍ، فَطَلَبَ أهلها الصُّلْحَ، فصالحَهُمْ على أنفُسِهِمْ وذُراريهِمْ وأموالِهِمْ

ومدينتهم. وقال عِيَاضُ: الأرضُ لنا، قد وَطَّئناها وَمَلَكَناها، فَأَقْرَها في أيديهم على الخَراج، ووَضَعَ عنهم الجِزْيَةَ. ثم سار إلى خَرَّانَ فَجعل عليها عسكرًا، عليهم صفوانٌ وحبيبُ بنُ مُسلمة، فحَصَرها، وسار هو إلى الرُّها، فقاتلَهُ أَهْلُها ثم انهزَموا، فحَصَرهم في مدينتهم، فطلبوا الصلحَ فصالحهم، وعاد إلى خَرَّانَ، فوجد صفوانَ وحبيباً قد غلبا على حُصونٍ وقُرى من أعمالِها، فصالحَهُ أَهْلُ خَرَّانَ على مثلِ صلحِ الرُّها، وفتحَ سُمَيْساط، وأتى سَروِج^(١) ورأسَ كَيْفا^(٢) والأرضَ اليَنْضاءَ، فصالحَهُ أَهْلُها على مثلِ صلحِ الرُّها، ثم غَدَرَ أَهْلُ سُمَيْساط، فرجع إليهم وفتحها، ثم أتى قُريَّاتِ الفُراتِ، وهي جسر مَنبِج وما يليها ففتحها، وبعث حبيبَ بنَ مُسلمة إلى مَلَطِيَّةَ ففتحها عَنوةً، على يد حبيبٍ أيضًا، ورَتَّبَ فيها جُنُودًا من المسلمين مع عاملها. قال: وسار عِيَاضُ إلى رأسِ عَيْنَ، وهي عين الوَزْدَةِ، فامتنعت عليه، فتَرَكَها، وسار إلى تَلِ مَوْزَنَ ففتحها على صلحِ الرُّها سنة تسع عشرة. وسار إلى آمِدَ، فصالحه أَهْلُها بعد قتالٍ وفتح مَيافارقين على صلحِ الرُّها ثم سار إلى نَصِيِّينَ، فقاتلَهُ أَهْلُها، ثم صالحوه على مثلِ ذلك، وفتحَ طُورَ عَبدِينَ^(٣)، وحصن ماردِينَ. وقصد المَوْصلَ، ففتح أحدَ الحِصْنينَ. وقيل: لم يَصِلْها، وأتاه بِطريقِ الزَّوْزَانِ فصالحه، ثم سار إلى أَرْزَنَ ففتحها، ودخل الدرب إلى بَدْلِيسَ، وبلغ خِلاطَ فصالحه بِطريقِها، وأنتهى إلى العينِ الحامضة من أرمينية، ثم عاد إلى الرُّقَّةِ ومضى منها إلى مدينة جِمَصَ، ومات في سنة عشرين؛ فَعَلَى هذا الخبر يكونُ ذلك من فتوح أَهْلِ الشَّامِ.

وعلى كلا القولين ففتحها على يد عِيَاضَ بنِ عَثم.

قال: ولما مات عِيَاضُ استعملَ عمرُ بنُ الحَظَّابِ سعيدَ بنَ عامرٍ بنِ جَذِيمَ، فلم يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ومات، فاستعملَ عَمِيرَ بنَ سعدِ الأنصاري، ففتحَ رأسَ عَيْنَ بعد قتالٍ شديد. وقيل: إِنَّ عِيَاضًا أَرْسَلَ عَمِيرَ بنَ سعدٍ إليها ففتحها. وقيل: إِنَّ عَمَرَ رضي الله عنه أَرْسَلَ أبا موسى الأشعري إلى رأسِ عَيْنَ بعد وَفاةِ عِيَاضَ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) سروج: هي بلدة قرية من جران من ديار مضر.

(٢) رأس كيفا: من ديار مضر بالجزيرة قرب جران، كان عبرته على السلطان ثلاثمائة ألف وخمسين ألف درهم... (معجم البلدان).

(٣) طور عبدین: بليدة من أعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل الجودي، وهي قصبة كورة فيه... (معجم البلدان).

انتهى فتوح الشام في خلافة عمر رضي الله عنه؛ فلنذكر فتوح العراق، وما والاها.

وإذا انتهت الفتوحات إن شاء الله تعالى ذكرنا الغزوات إلى أرض الروم من الشام.

ذكر فتوح العراقيين وما والاها من بلاد فارس وغيرها وغزو الترك وفتح خراسان وسجستان وغير ذلك من الوقائع

كان ابتداء أمر العراق أن المشئي بن حارثة الشيباني قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَأَوْصَى أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ بِالْمِبَادَرَةِ إِلَى إِرْسَالِ الْجُيُوشِ مَعَهُ إِلَى الْعِرَاقِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عُمَرُ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ نَدَبَ^(١) النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَ الْمَشْئِيِّ بْنِ حَارِثَةَ، ثُمَّ بَايَعَ النَّاسَ، وَنَدَبَهُمْ وَهُوَ يُبَايِعُ ثَلَاثًا، فَلَمْ يَنْتَدِبْ أَحَدٌ إِلَى فَارَسَ، وَكَانُوا أَثْقَلَ الْوُجُوهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَهَهَا إِلَيْهِمْ لَشِدَّةِ سُلْطَانِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعَ نَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْعِرَاقِ، فَكَانَ أَوَّلَ مُنْتَدِبٍ أَبُو عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَهُوَ وَالِدُ الْمُخْتَارِ^(٢)، وَسَعْدُ بْنُ عُبَيْدَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَسَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ، وَهُوَ بَذْرِي.

وَتَبَاعَ النَّاسُ، وَتَكَلَّمَ الْمَشْئِيُّ بْنُ حَارِثَةَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهَ، فَإِنَا قَدْ فَتَحْنَا رِيفَ فَارَسَ، وَغَلَبْنَاكُمْ عَلَى خَيْرِ شَيْءٍ السَّوَادِ، وَنَلْنَا مِنْهُمْ، وَاجْتَرَأْنَا عَلَيْهِمْ، وَلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا. فَاجْتَمَعَ النَّاسُ. وَقِيلَ لِعُمَرَ: أَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، إِنَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِسَبْقِهِمْ وَمُسَارَعَتِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ، فَإِذَا فَعَلَ فَعَلَهُمْ قَوْمٌ، وَتَثَاقَلُوا هُمْ، كَانَ الَّذِينَ يَنْفِرُونَ خِفَافًا وَثِقَالًا وَيَسْبِقُونَ أَوْلَى بِالرِّيَاسَةِ، وَاللَّهُ لَا أَوْمَرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَهُمْ أَنْتِدَابًا، ثُمَّ دَعَا أَبَا عُبَيْدٍ وَسَعْدًا وَسَلِيطًا. وَقَالَ لِسَعْدٍ وَسَلِيطَ: لَوْ سَبَقْتُمَا لَوَلَّيْتُكُمَا، وَأَمَرَ أَبَا عُبَيْدٍ، وَقَالَ لَهُ: اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَوْمَرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ إِلَى الْحَزْبِ، وَفِي التَّسْرُعِ إِلَى الْحَزْبِ ضِيَاعٌ، وَأَوْصَى أَبَا عُبَيْدٍ بِجُنْدِهِ.

(١) ندب الناس: دعاهم.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي من زعماء الثائرين على بني أمية، وكان يقال له كيسان، وإليه تنسب الطائفة الكيسانية. توفي سنة ٦٧ هجرية.

وأمر عمر المثنى بالتقدم حتى يقدم عليه أصحابه، وأمرهم باستنفار مَنْ حَسُن إسلامه من أهل الرّدة، ففعلوا، وسار المثنى فقدم الحيرة في عشر، وقدم أبو عبيد بعده بشهر.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر وقعة النمارق

كانت هذه الوقعة في سنة ثلاث عشرة، وذلك أن بُوران كانت يومئذ على الفُرس، فأرسلت إلى رستم بن الفُرخزاد - وكان على فُرج خُراسان - فحضر، فتوجّهت، ودعت مرّازبة^(١) فارس أن يسمّعوا له ويطيعوا، فدانت له فارس، فكُتِب رُستم إلى الدّهّاقين أن يثوروا بالمسلمين، وبعث في كل رُستاق^(٢) رجلاً يثور بأهله، فبعث جابان إلى فُرات بادقلى، وبعث نرسي إلى كسگر، وواعدهم يوماً، وبعث جُنُدا لمُصادمة المثنى، وبلغ المثنى الخبر فحذر، وعجل جابان ونزل النمارق^(٣)، وثاروا، وخرج أهل الرّسّاتيق من أعلى الفُرات إلى أسفله، وخرج المثنى من الحيرة، فنزل حُفان لثلاً يُؤتى من خلفه، وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد، فلما قدم أقام أياماً ليستريح هو وأصحابه، واجتمع إلى جابان بَسْر كثير بالنمارق، فسار إليه أبو عبيد، وجعل المثنى على الخيل، وكان على مُجَنَّبَتِي جابان جُشنس ماه ومردانشاه، فالتقوا واقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً، فهزَم الله الفُرس، وأسير جابان؛ أسره مطر بن فضة التيمي، وأسير مردانشاه، أسره أكتل بن شَمّاخ العُكلي فقتله. وأما جابان فإنه خدع مطراً، وقال: هل لك أن تؤمّني، وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عمّلك، وكذا وكذا؟ فخلّى عنه، فأخذَه المسلمون، وأتوا به أبا عبيد، وأخبروه أنّه جابان، وأشاروا عليه بقتله؛ فقال: إنني أخاف الله أن أقتله، وقد آمنه رجلٌ مُسلم، والمسلمون كالجسد الواحد، ما لزم بعضهم فقد لزم كلّهم، وتركه.

وأرسل في طلب من انهزم حتى أدخلوهم عسكر نرسي وقتلوا منهم. والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) المرزبان: رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم، وهو دون الملك في الرتبة. جمع مرّازبة.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالْبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والأستان... (مقدمة معجم البلدان).

(٣) النمرق: الوسادة الصغيرة يتكا عليها، جمع نمارق. أو الطنفسة التي فوق الرجل.

ذكر وقعة السقاطية^(١) بكسكر

ولما لحق من انهزم من الفرس بكسكر وبها نرسي، وهو ابن خالة الملك، سار أبو عبيد إليهم من التمارق، والمثنى في تعبته التي قاتل فيها، وكان على مجنبتني نرسي بندويه وتيرويه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل باروسما^(٢) والزوابي^(٣)، وكانت بوران ورستم قد بلغهما خبر هزيمة جابان، فبعثا الجالينوس إلى نرسي مدداً، فعاجلهم أبو عبيد، فالتقوا من مكان يدعى السقاطية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت الفرس، وهرب نرسي وغلب المسلمون على عسكره وأرضه، وجمعوا الغنائم. وأقام أبو عبيد وبعث المثنى إلى باروسما، وبعث وإلّا إلى الزوابي، وعاصماً إلى نهر جور، فهزموا من كان قد تجمع هناك وأخربوا، وسبوا أهل زندوزد وغيرها، وبذل لهم قروخ وفرونداذ على أهل باروسما والزوابي وكسكر ونهر جوبر^(٤) الخراج معجلاً، فأجابوه إلى ذلك وصاروا صلحاً. والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد.

ذكر وقعة الجالينوس

قال: ولما بعث رستم الجالينوس سار فنزل بباقيسيانا من باروسما، فسار إليه أبو عبيد، وهو على تعبته فالتقوا بها واقتتلوا، فهزم الله الفرس، وهرب الجالينوس، وغلب أبو عبيد على تلك النواحي، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة.

ذكر وقعة قس الناطف

ويقال لها: وقعة الجسر ووقعة المروحة

ومقتل أبي عبيد وغيره

لما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً، قال رستم: أي العجم أشد على العرب؟ قالوا: بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب - وإنما قيل له ذو الحاجب لأنه

(١) السقاطية: ناحية بكسكر من أرض واسط.

(٢) باروسما: الواو والسين ساكتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما باروسما العليا وباروسما السفلى من كورة الأستان الأوسط... (معجم البلدان).

(٣) الزوابي: في العراق أربعة أنهار: نهران فوق بغداد ونهران تحتها، يقال لكل واحد منها الزاب، وتجمع الزوابي على غير قياس، وقياسه أزواب أو زيان... (معجم البلدان).

(٤) جوبر: بالراء: قرية بالغوطة من دمشق وقيل نهر بها وهو المراد هنا.

كان يَعَصِبُ حَاجِبِيَّهَ بِعَصَابَةٍ لِيَرْفَعَهَا كِبَرًا - فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيْلُهُ، وَرَدَّ الْجَالِينُوسَ، وَقَالَ لِبَهْمَن: إِنْ أَنَهَزَمَ الْجَالِينُوسَ مَرَّةً ثَانِيَةً فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَقْبَلَ بِهْمَنُ جَادَوِيَّهَ وَمَعَهُ «دِرْفَسُ كَابِيَان» رَايَةَ كِسْرَى، وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ الثُّمُورِ، طَوَّلَهَا اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ ثَمَانِيَةِ أَذْرُعَ، فَنَزَلَ بِقُسِّ النَّاطِفِ، وَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ فَنَزَلَ بِالْمَرْوَحَةِ، فَرَأَتْ أَمْرَأَتَهُ دُومَةً أُمَ الْمُخْتَارِ أَنَّ رَجُلًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِإِنَاءٍ فِيهِ شَرَابٌ، فَشَرِبَ أَبُو عُبَيْدٍ وَمَعَهُ نَفَرٌ، فَأَخْبِرَتْ أَبَا عُبَيْدٍ بِمَا رَأَتْ؛ فَقَالَ: هَذِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ الشَّهَادَةُ، وَعَهْدٌ إِلَى النَّاسِ وَقَالَ: إِنْ قُتِلَتْ فَعَلَى النَّاسِ فَلَانٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَلَانٌ... حَتَّى أَمَرَ الَّذِينَ شَرَبُوا مِنَ الْإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ قَتَلَ أَبُو الْقَاسِمِ فَعَلَى النَّاسِ الْمَثْنَى. وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ بِهْمَنُ جَادَوِيَّهَ يَقُولُ: إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَتَدْعَكُمُ الْعُبُورَ، وَإِمَّا أَنْ تَدْعُونَا نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ؛ فَنَهَاهُ النَّاسَ عَنِ الْعُبُورِ، فَأَبَى وَتَرَكَ الرَّأْيَ، وَقَالَ: لَا تَكُونُوا أَجْرًا عَلَى الْمَوْتِ مِثْنًا، فَعَبَرَ إِلَيْهِمْ عَلَى جِسْرِ عَقْدِهِ ابْنُ صَلُوبٍ لِلْفَرِيقَيْنِ، فَالْتَقُوا وَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا نَظَرَتْ الْخِيُولُ إِلَى الْفَيْلَةِ وَإِلَى خَيْلِ الْفُزَسِ، عَلَيْهِمُ التَّجَافِيفُ^(١)، رَأَتْ شَيْئًا مَنَكْرًا لَمْ يَكُنْ رَأَتْ مِثْلَهُ، فَلَمْ تُقَدِّمِ عَلَيْهِمْ، فَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَالنَّاسُ، ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ فَصَافَحُوهُمْ بِالسُّيُوفِ، فَجَعَلَتْ الْفَيْلَةُ لَا تَحْمِلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعْتَهُمْ، فَنَادَى أَبُو عُبَيْدٍ: اخْتَوِشُوا^(٢) الْفَيْلَةَ وَأَقْطَعُوا بَطْنَهَا^(٣)، وَاقْلَبُوا عَنْهَا أَهْلَهَا؛ وَوَثَبَ هُوَ عَلَى الْفَيْلِ الْأَبْيَضِ فَقَطَعَ بِطَانَهُ وَدَفَعَ الَّذِينَ عَلَيْهِ، وَفَعَلَ الْقَوْمُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَمَا تَرَكَوْا فَيْلًا إِلَّا حَطُّوا رَحْلَهُ، وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ. وَأَهْوَى الْفَيْلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَضْرَبَهُ أَبُو عُبَيْدٍ بِالسُّيْفِ، وَخَبَطَهُ الْفَيْلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَوَطَّئَهُ وَقَامَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ النَّاسُ تَحْتَ الْفَيْلِ خَشَعَتْ أَنْفُسُ بَعْضِهِمْ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ الَّذِي كَانَ أَمْرَهُ بَعْدَهُ، فَقَاتَلَ الْفَيْلَ حَتَّى تَنَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ، فَاجْتَرَهُ^(٤) الْمُسْلِمُونَ فَأَحْرَزُوهُ، ثُمَّ قَتَلَ الْفَيْلَ الْأَمِيرُ الَّذِي بَعْدَ أَبِي عُبَيْدٍ، وَتَتَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلَّهُمْ يَأْخُذُ اللَّوَاءَ وَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ، ثُمَّ أَخَذَ الْمَثْنَى اللَّوَاءَ فَهَرَبَ عَنْهُ النَّاسُ، فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْزُودٍ الثَّقَفِيَّ ذَلِكَ بَادَرَ إِلَى الْجِسْرِ فَقَطَعَهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَمْرَاؤُكُمْ أَوْ تَظْفَرُوا. وَحَازَ الْمَشْرُكُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجِسْرِ، فَتَوَاتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى

(١) التجفاف: ما يلبسه المحارب كالدرع؛ أو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب. جمع تجافيف.

(٢) تحوش: تنحى.

(٣) البطان: حزام يشد على البطن. جمع أبطنة وبطن.

(٤) اجتر الشيء: جذبته.

الْفُرَات فَغَرَقَ، وَحَمَى الْمَثْنَى وَفُرْسَانٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ النَّاسَ، وَقَالَتْ أَبُو زُبَيْدٍ الطَّائِي حَمِيَّةٌ لِلْعَرَبِ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، ثُمَّ جَاءَ الْعُلُوجُ^(١) وَعَقَدُوا الْجِسْرَ، وَعَبَرَ النَّاسُ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ الْجِسْرِ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ، وَعَبَرَ الْمَثْنَى وَحَمَى جَانِبَهُ، فَلَمَّا عَبَرَ ارْقَضَ عَنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَيَقِي الْمَثْنَى فِي قَلْعَةٍ، وَكَانَ قَدْ جُرِحَ وَأُثْبِتَ فِيهِ حَلَقٌ مِنْ دِرْعِهِ. وَهَلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ بَيْنَ قَتِيلٍ وَغَرِيقٍ، وَهَرَبَ أَلْفَانِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَقُتِلَ مِنَ الْفُرْسِ سِتَّةُ آلَافٍ، وَأَخْبِرَ عُمَرُ عَنْ سَارٍ فِي الْبِلَادِ اسْتَحْيَاءَ مِنَ الْهَزِيمَةِ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فِي حِلٍّ مَتِي، أَنَا فِتْنَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ، يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُيَيْدًا! لَوْ كَانَ أَنَحَازَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِتْنَةً^(٢).

قال: وأراد بهَمَنْ جَادَوْنَهُ الْعُبُورَ خَلَفَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَاهُ الْخَبَرُ بِاخْتِلَافِ الْفُرْسِ، وَأَنْتَهُمْ قَدْ ثَارُوا بِرُؤْسَتِهِمْ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدَائِنِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ثَلَاثٍ عَشْرَةٍ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر وقعة أليس الصغرى

قال: لَمَّا عَادَ ذُو الْحَاجِبِ لَمْ يَشْعُرْ جَابَانَ وَمَزْدَانِشَاهَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْخَبَرِ فَخَرَجَا حَتَّى إِذَا أَخَذَا بِالطَّرِيقِ، وَبَلَغَ الْمَثْنَى فَعَلُمَا، فَاسْتَخَلَفَ عَلَى النَّاسِ عَاصِمَ بْنَ عُمَرَ، وَخَرَجَ فِي جَرِيدَةٍ^(٣) خَيْلٍ يَرِيدُهُمَا، فَظَنَّا أَنَّهُ هَارِبٌ، فَأَعْتَرَضَاهُ، فَأَخَذَهُمَا أَسِيرَيْنِ. وَخَرَجَ أَهْلُ أَلَيْسَ عَلَى أَصْحَابِهِمَا فَأَتَوْهُ بِهِمْ أُسْرَى، فَعَقَدَ لَهُمْ بِهَا ذِمَّةً، وَقَتْلَهُمَا وَقَتْلَ الْأُسْرَى. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر وقعة البويب^(٤)

ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقعة الجسر، نَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْمَثْنَى، وَكَانَ فِيمَنْ نَدَبَ بَجِيلَةَ، وَأَمَرُهُمْ إِلَى جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَتَوْا الْعِرَاقَ، وَقَالُوا: لَا نَكُونُ إِلَّا بِالشَّامِ، فَعَزَمَ عَلَيْهِمْ عُمَرُ وَنَقَّلَهُمْ رُبْعَ الْخُمْسِ، فَأَجَابُوا، وَسَيَّرَهُمْ إِلَى

(١) العلو ج من الرجال: الشديد الكثير الضرع لأقرانه. جمع علوج وأعلاج.

(٢) فتنة: مؤثر.

(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٤) البويب، بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب أيضاً: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات.. وهذا هو المراد هنا.

المُثَنَّى، وبعث عِصْمَةَ بن عبد الله الصَّبِيَّ فيمن معه، وكتبَ إلى أهل الرِّدَّة فلم يأتِه أحدٌ إلَّا رَمَى به المَثْنَى. وبعث المَثْنَى الرُّسُلَ إلى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ، فتوافقوا إليه في جَمْعٍ عَظِيمٍ، وكان فيمن جاءه أَنَسُ بن هلال التَّمَرِيِّ في جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ النُّمَيْرِ، نَصَارَى، وقالوا: نُقَاتِلُ مع قومنا. وبلغ الخبر رُسُتْمَ والفيززان فبعثا مِهْرَانَ الهَمْدَانِيَّ إلى الحِجِيرة، فسمع المَثْنَى ذلك وهو بين القَادِسِيَّةِ وَحَفَّانَ، فاستَبَطْنَ فُرَاتَ بِأَذْقَلَى، وكتب إلى جرير وعِصْمَةَ وَمَنْ أَتَاهُ مِنَ الْأُمْدَادِ بِالْخَبَرِ، وَأَمَرَهُمْ بِقَصْدِ الْبُيُوتِ، وَمِهْرَانَ بِإِزَائِهِ مِنْ وَرَاءِ الْفُرَاتِ، فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْبُيُوتِ مِمَّا يَلِي الْكُوفَةَ الْيَوْمَ، وَأَرْسَلَ مِهْرَانُ إِلَى الْمَثْنَى يَقُولُ: إِمَّا أَنْ تَغْبِرَ إِلَيْنَا، وَإِمَّا أَنْ نَغْبِرَ إِلَيْكَ، فَقَالَ الْمَثْنَى: اعْبِرُوا، فَعَبَرَ مِهْرَانُ فَنَزَلَ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ، وَعَبَّى الْمَثْنَى أَصْحَابَهُ، وَكَانَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَأَمَرَهُمْ بِالْإِفْطَارِ لِيَقْوُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَأَفْطَرُوا، وَأَقْبَلَ الْفُرْسُ فِي ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ، مَعَ كُلِّ صَفٍّ فَيْلٌ، وَرَجَالَتُهُمْ أَمَامَ فَيْلِهِمْ، وَلَهُمْ رَجُلٌ^(١).

فَقَالَ الْمَثْنَى: إِنَّ الَّذِي تَسْمَعُونَ فَسَلْ، فَالَزَمُوا الصُّمْتَ، ثُمَّ اتَّقُوا، وَاقْتَتَلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ وَأَعْظَمَهُ، فَقُتِلَ مِهْرَانُ؛ قَتَلَهُ غَلَامٌ نَصْرَانِيٌّ مِنْ تَغْلِبَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى فَرَسِهِ، فَجَعَلَ الْمَثْنَى سَلْبَهُ لِمُصَاحِبِ خَيْلِهِ، وَكَانَ التَّغْلِبِيُّ قَدْ جَلَبَ خَيْلًا هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ تَغْلِبَ، فَلَمَّا رَأَوْا الْقِتَالَ قَاتَلُوا مَعَ الْعَرَبِ، وَانْهَزَمَتِ الْفُرْسُ، وَسَبَقَهُمُ الْمَثْنَى إِلَى الْجِسْرِ فَأَتَرَقَ الْأَعَاجِمُ مُصْعِدِينَ وَمُنْحِدِينَ، وَأَخَذَتْهُمْ خِيُولُ الْمُسْلِمِينَ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةٌ، فَكَانُوا يَحْزُرُونَ^(٢) الْقَتْلَى مِائَةَ أَلْفٍ، وَسُمِّيَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْأَغْشَارِ، وَأُخْصِي مِائَةُ رَجُلٍ، قَتَلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشْرَةً. وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى اللَّيْلِ، وَمِنْ الْغَدِ إِلَى اللَّيْلِ، وَأَرْسَلَ الْمَثْنَى الْخَيْلَ فِي طَلَبِ الْعَجَمِ، فَبَلَّغُوا السَّيْبَ^(٣)، وَغَنِمُوا مِنَ الْغَنَائِمِ وَالسَّبْيِ وَالْبَقَرِ شَيْئًا كَثِيرًا، فَقَسَّمَهُ الْمَثْنَى فِيهِمْ، وَنَقَلَ أَهْلَ الْبَلَاءِ، وَأَعْطَى بَجِيلَةَ رُبْعَ الْخُمْسِ. وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الَّذِينَ تَبِعُوا مِنْ أَنْهَزَمَ يَعْرِفُونَهُ بِسَلَامَتِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ دُونَ الْقَوْمِ، وَيَسْتَأْذِنُونَهُ فِي الْإِقْدَامِ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَعَارُوا حَتَّى بَلَّغُوا سَابَاطَ؛ فَتَحَصَّنَ أَهْلُهُ مِنْهُمْ، وَأَسْتَبَاحُوا الْفَرَى، وَرَجَعَتْ مَسَالِحُ الْفُرْسِ إِلَيْهِمْ، وَسَرَّهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ.

(١) زجل: أي صوت.

(٢) الحزر: التخمين.

(٣) السَّيْب: أصله مجرى الماء كالنهر؛ وهو كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا عند قصر ابن هبيرة.. والسَّيْب أيضًا: نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة... (معجم البلدان).

ذكر خبر سوق الخنافس^(١) وبغداد

قال: ثم خَلَفَ المَثْنَى بالحِيرة بِشِيرِ ابْنِ الخصاصِيَّةِ، وسارَ يَمْخُرُ السَّوَادَ، وأرسلَ إلى مَيْسَانَ وَدَسْتِ مَيْسَانَ، وأَذْنَى المَسَالِحَ، وَنَزَلَ أُلَيْسَ (قَرْيَةً مِنْ قُرَى الْأَنْبَارِ)، وَجاءَ المَثْنَى رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَنْبَارِيٌّ فَدَلَّهُ عَلَى سُوقِ الْخَنَافِسِ، وَالثَّانِي حِيرِيٌّ وَدَلَّهُ عَلَى سُوقِ بَغْدَادَ، فَبَدَأَ بِسُوقِ الْخَنَافِسِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقُومُ قَبْلَ سُوقِ بَغْدَادَ، وَكَانَ يَجْتَمِعُ بِهَا تِجَارُ مَدَائِنِ كِسْرَى وَالسَّوَادَ، وَتَخْفِرُهُمْ^(٢) رِبِيعَةً وَقَضَاعَةً؛ فَأَغَارَ المَثْنَى عَلَى الْخَنَافِسِ يَوْمَ سُوقِهَا، فَانْتَسَفَ السُّوقَ وَمَا فِيهَا، وَسَلَبَ الْخُفْرَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَتَى الْأَنْبَارَ، فَنَزَلَ أَهْلَهَا إِلَيْهِ، وَأَتَوْهُ بِالْأَعْلَافِ وَالزَّادِ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ الْأَدْلَاءَ عَلَى سُوقِ بَغْدَادَ، وَسَارَ لَيْلًا، فَصَبَّحَهُمْ فِي أَسْوَاقِهِمْ فَوَضَعَ السَّيْفَ فِيهِمْ، وَأَخَذَ مَا شَاءَ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: لَا تَأْخُذُوا إِلَّا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْحَرَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ عَادَ رَاجِعًا حَتَّى أَتَى الْأَنْبَارَ، وَكَانَ مِنْ خَلْفِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَمْخُرُونَ السَّوَادَ، وَيَسْتَنْوُونَ الْغَارَاتِ مَا بَيْنَ أَسْفَلِ كَسْكَرٍ وَأَسْفَلِ الْفُرَاتِ، وَجَسُورٍ مُثَقَّبٍ إِلَى عَيْنِ الثَّمَرِ، وَلَمَّا رَجَعَ المَثْنَى إِلَى الْأَنْبَارِ بَعَثَ الْمُضَارِبَ إِلَى الْكَبَاثِ، وَعَلَيْهِ فَارِسُ الْعُنَابِ التَّغْلَبِيِّ، ثُمَّ لَحِقَهُمُ المَثْنَى فَسَارَ مَعَهُمْ، فَوَجَدُوا الْكَبَاثَ وَقَدْ سَارَ مِنْ كَانَ بِهِ عَنْهُ، فَسَارَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُمْ، فَقَتَلُوا فِي أُخْرِيَّاتِ أَصْحَابِ فَارِسِ الْعُنَابِ، وَأَكْثَرُوا الْقَتْلَ وَرَجَعُوا إِلَى الْأَنْبَارِ، وَسَرَّحَ المَثْنَى فُرَاتَ بْنَ حَيَّانَ التَّغْلَبِيَّ وَغُثَيَّةَ بِنَ النَّهَّاسِ، وَأَمَرَهُمَا بِالْغَارَةِ عَلَى أَحْيَاءِ بَنِي تَغْلِبَ بِصَفَيْنَ، ثُمَّ أَتَبَعَهُمَا وَاسْتَخَلَفَ عَلَى النَّاسِ عَمْرُو بْنُ أَبِي سُلَيْمَى الْهَجَنِيَّ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ صَفَيْنَ فَرَّ مِنْ بَهَا، وَعَبَرُوا الْفُرَاتَ إِلَى الْجَزِيرَةِ وَفِيَّ الزَّادِ الَّذِي كَانَ مَعَ المَثْنَى وَأَصْحَابِهِ، فَأَكَلُوا رَوَاحِلَهُمْ إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ حَتَّى جَلَدَوْهَا، ثُمَّ أَدْرَكُوا عَيْرًا مِنْ أَهْلِ دَبَا^(٣) وَحُورَانَ فَقَتَلُوا مَنْ فِيهَا، وَأَخَذُوا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنْ تَغْلِبَ كَانُوا خُفْرَاءَ، وَأَخَذُوا الْعِيرَ فَقَالَ لَهُمُ المَثْنَى: دُلُّونِي؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمْنُونِي عَلَى أَهْلِي وَمَالِي، وَأَذَلُّكُمْ عَلَى حَيٍّ مِنْ تَغْلِبَ، فَأَمَّنَهُ المَثْنَى، وَسَارَ بِهِمْ يَوْمَهُ، فَهَجَمَ الْعَيْشِيُّ عَلَى الْقَوْمِ وَالنَّعَمِ^(٤) صَادِرَةً عَنِ الْمَاءِ، وَأَصْحَابُهَا جُلُوسٌ بِأَفْنِيَّةِ الْبُيُوتِ، فَقَتَلَ الْمَقَاتِلَةَ، وَسَبَى الذَّرِيَّةَ، وَاسْتَأَقَ الْأَمْوَالَ.

(١) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب..

(٢) تخفروهم: تجيروهم وتحميمهم.

(٣) دبا: سوق من أسواق العرب بعمان.. وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكانت قديمًا قصبه عمان...

(٤) النعم: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الابن.

وأخبر المشئي أَنَّ جُمُهورَ مَنْ سَلَكَ البِلادَ قد انتَجَعَ^(١) شاطئَ دِجْلَةَ؛ فخرج المشئي وعلى مجتَبِيهِ الثُّعَمَانُ بْنُ عَوْفٍ وَمَطَرُ الشَّيْبَانِيَّانِ، وعلى مَقْدَمَتِهِ حذيفة بن مِحْصَنَ العُلقَانِيَّ، فساروا في طَلَبِهِم فَأَدْرَكُوهُم بِتَكْرِيتٍ، فأصابوا ما شَاؤُوا من النِّعَمِ، وعادُوا إلى الأَثَارِ.

وَمَضَى عُتَيْبَةُ وَفُرَاتٌ وَمَنْ مَعَهُمَا حَتَّى أَغَارُوا على صِفِّينَ، وبِهَا النِّمِرُ وَتَغْلِبُ مَتَسَانِدَيْنِ، فَأَغَارُوا عَلَيْهِم حَتَّى رَمَوْا طَائِفَةً مِنْهُمْ في المَاءِ، فَجَعَلُوا ينادُونَهُم: العَرَقُ العَرَقُ! وَجَعَلَ عُتَيْبَةُ وَفُرَاتٌ يَذْمُرَانِ^(٢) النَّاسَ وَيَنَادِيَانَهُم: تَغْرِيقُ بَتَّخْرِيقٍ! يَذْكُرَانِهِم يَوْمًا من أَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ، كانوا حَرَّقُوا فِيهِ قَوْمًا من بَكْرِ بْنِ وائِلٍ في غَيْضَةِ من الْغِيَاضِ. ثم رَجَعُوا إلى المشئي وقد عَرَّقُوهُمْ. فبلغَ ذلك عُمَرَ، فَبَعَثَ إلى عُتَيْبَةَ وَفُرَاتٍ، فاستدعاهما وسألهما عن قولهما، فأخبراهُ أَنَّهُمَا لم يَفْعَلَا ذلك على وَجْهِ طَلَبِ دُخُلِ^(٣)، إِنَّمَا هو مَثَلٌ، فاستحلفَهُمَا على ذلك وَرَدَّهُمَا إلى المشئي.

وكانت هذه الوقائع التي ذكرناها بالعراق في سنة ثلاث عشرة. ثم كانت وقعة القادسية، والله أعلم.

ذكر خبر القادسية وأيامها

كان ابتداء أمر القادسية أَنَّ الفرسَ لما مات مَلِكُهَا أَزْدَشِيرَ تَفَرَّقَتْ آرَاؤُهَا، وكان المسلمون قد فَتَحُوا من بلادهم ما ذكرناه في خلافة أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه في حياة أَزْدَشِيرَ، ثم تابعوا الغارات عليهم، فاجتمعت الفرسُ وقالوا لِرُسُومَ والفَيَّزَانَ - وهما على أهل فارس -: لا زال بكما الاختلاف حتى أَوْهَنْتُمَا^(٤) أهل فارس، وأطمعْتُمَا فيهم عدوهم.

فاجتمعوا وأستدعوا نِسَاءَ كِسْرَى وَسَرَارِيَّهَ، وكشفوا عَمَّنْ بَقِيَ مِنْ نَسْلِ المُلُوكِ الأكاسرة، فَدَلُّوهُمْ على يَزْدَجِرْدَ، من ولد شَهْرِيَّارِ بن كِسْرَى، فاستدعوه وملكوه عليهم وأطاعوه. فبلغ خبرهم المشئي بن حارثة، فكتب بذلك إلى عمر، فلم يصل الكتابَ حَتَّى نَقَضَ من كان له عَهْدٌ من أهل السَّوَادِ، فخرج المشئي حَتَّى نَزَلَ بِذِي قَارِ، ونزل النَّاسُ بِالطُّفِّ^(٥) في عسكر واحدٍ.

(١) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلاء.

(٢) الذحل: الوتر.

(٤) أوهن: أضعف.

(٥) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، وهي أرض بادية قريبة من الرديف فيها عدة عيون ماء جارية، منها: الصيد، والقطقطانة، والرهيمة وعين جمل وذواتها... (معجم البلدان).

ولما وصل كتابُ المثنى إلى عمر قال: والله لأضربنَّ ملوكَ العجم بملوكِ العرب؛ وكتب إلى عمّاله على العرب: ألاَّ يَدْعُوا مَنْ له نجدةٌ أو رأيي، أو فرسٌ، أو سلاحٌ إلاَّ وجَّهوه إليه، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة.

فاجتمع إليه النَّاسُ، ولم يَدْعُ رئيسًا ولا ذا رأيٍ وشرفٍ، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلاَّ استشارهم في الخروجِ بنفسه لِعَزْوِ الفُرسِ، وأجمع رأيي وجوه أصحاب النبي ﷺ أن يبعث رجلًا من المسلمين ويضمُّ إليه الجنودَ، واتَّفَقَ رأيهم على سعد بن أبي وقَّاص، وكان على صدقاتِ هَوازِن، فكتبَ إليه عمرُ بانتخابِ ذَوِي الرأي والنَّجدة والسَّلاح، فجاء كتابه إلى عمر يقول: قد انتخبْتُ لك ألفَ فارسٍ، كلُّهم له نجدة ورأيي؛ إليهم انتهتْ أحسابهم. فأمره بحربِ العراقِ وضمَّ إليه الجيوشَ، فخرج في أربعة آلاف، وأمدّه عمرُ بعد خروجِهِ بِألفي يمانِيٍّ، وألفي نجدِيٍّ. وكان المثنى بنُ حارثة في ثمانية آلاف، فلما سار سعدُ ثوَّقِي المثنى قبل وصوله، واجتمع مع سعدِ ثمانية آلاف، ثم أتته قبائلُ العربِ، فكان جميعُ من شَهِدَ القادسيَّةَ بضعةً وثلاثين ألفًا؛ منهم تسعة وتسعون بَذْرِيًّا، وثلاثمائة وبضعة عشر مِمنْ كانت له صحبةٌ فيما بينَ بينةِ الرُّضوانِ إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة مِمنْ كان شَهِدَ الفُتُوحَ، وسبعمائةٍ من أبناء الصَّحابة، فعبَّاهم سَعْدُ بنُ أبي وقَّاص، وأمر الأمراءَ، وعَرَّفَ على كلِّ عشرة عريفًا، وجعل أهلَ السَّابقة على الرِّاياتِ؛ وسار بالجيوشِ حتى نزل القادسيَّةَ بين العتيق والخندق بحيالِ القنطرة، وأقام بها شهرًا لم يأتِهِ من الفُرسِ أحدٌ، فأرسلَ عاصِمَ بن عمرو يطلبُ غنمًا أو بقرًا، فلم يقدِر عليها، وتحصَّنَ مِنْهُ مَنْ هُناكَ، فأصاب رَجُلًا بجانبِ أجمَةٍ^(١)، فسأله عن البقرِ والغنمِ، فقال: لا أعلم؛ فصاح ثوَرٌ من الأجمَةِ: كَذَبَ عَدُوُّ الله، ها نحن، فدخلَ عدُوُّ الله، فاستاق البَقَرَ وأتى بها العسكرَ، فقسمَها سعدُ على النَّاسِ. ثم بَثَّ الغاراتِ بينَ كُشُكِرِ والأنبارِ، فَحَوَّوا من الأَطعمة ما قام بهم زمانًا، فاستغاث أهلُ السَّوادِ إلى يَزْدَجَرِدَ وقالوا: إمَّا أن تَدفعَ العربُ، وإمَّا أن نُعطِيهم ما بأيدينا، فأرسلَ إلى رُسُثَم وأمره بالمسير للقاء المسلمين، فاستغفاه من ذلك وسأله أن يُجهِّزَ الجالينوسَ، فأبى يَزْدَجَرِدَ إلاَّ مسيرَه، فعسكرَ بساباط^(٢)، ثم استغفاه ثانية من المَسير، فأبى عليه.

(١) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف.

(٢) ساباط: ساباط كسرى موضع معروف بالمدائن، وقد سمي ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسَمِي به... وقيل: ساباط بليدة معروفة بما وراء النهر قرب أشروسنة على عشرة فراسخ من خجند وعلى عشرين فرسخًا من سمرقند... (معجم البلدان).

وَاتَّصَلَتِ الْأَخْبَارُ بِسَعْدٍ، فَكُتِبَ إِلَى عُمَرَ فَأَجَابَهُ: لَا تَكْرِيبُكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَبْعَثْ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْمُنَاطَرَةِ وَالْجَلْدِ يَدْعُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَاعِلٌ دَعَاءَهُمْ تَوْهِيئًا لَهُمْ؛ فَأَرْسَلَ نَفَرًا، مِنْهُمْ: الثُّعْمَانُ بْنُ مِقْرَنَ، وَبُشَيْرُ بْنُ أَبِي رُحْمٍ، وَحَمَلَةُ بْنُ جُوَيْتَةَ، وَخَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَفُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَدِيُّ بْنُ سُهَيْلٍ، وَعُطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ الْأَسَدِيَّ، وَالْأَسْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَسَّانَ، وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِيبَ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، إِلَى يَزْدَجَرْدَ دُعَاءَةً، فَقَدِمُوا عَلَيْهِ، فَأَحْضَرَ وُزَرَاءَهُ، وَأَحْضَرَ رُسُتَمَ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيمَا يَقُولُ لَهُمْ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمْ، وَأَحْضَرَ التَّرْجُمَانُ، وَقَالَ لَهُ: سَلُّهُمْ مَا جَاءَ بِكُمْ؟ وَمَا دَعَاكُمْ إِلَى غَزَوْنَا، وَالْوَلُوحِ بِبِلَادِنَا؟ مِنْ أَجْلِ أَتْنَا تَشَاغَلْنَا عَنْكُمْ أَجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا! فَقَالَ الثُّعْمَانُ بْنُ مِقْرَنَ لِأَصْحَابِهِ: إِنْ شِئْتُمْ تَكَلَّمْتُ عَنْكُمْ، وَمَنْ شَاءَ أَثَرْتُهُ. قَالُوا: بَلْ تَكَلَّمْ؛ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ رَجَمَنَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَأْمُرُنَا بِالْخَيْرِ، وَيَنْهَانَا عَنِ الشَّرِّ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَمْ يَدْعُ قَبِيلَةَ إِلَّا وَقَارِبَهُ مِنْهَا فِرْقَةً، وَتَبَاعَدَ عَنْهُ فِرْقَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ تُبْتَدَى إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ فَبَدَأْنَا بِهِمْ، فَدَخَلُوا مَعَهُ عَلَى وَجْهَيْنِ؛ مَكْرَةً عَلَيْهِ فَأَغْتَبَطَ، وَطَائِفٌ فَازْدَادَ، فَعَرَّفْنَا جَمِيعًا فَضَلَّ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالضُّيْقِ، ثُمَّ أَمَرْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الْأُمَمِ فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِنْصَافِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا، وَهُوَ دِينُ حَسَنِ الْحَسَنِ، وَقُبْحِ الْقَبِيحِ كُلِّهِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ هُوَ أَهْوَى مِنْ آخِرِ شَرٍّ مِنْهُ، الْجِزْيَةِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْمَنَاجِزَةُ، وَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَقْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَا عَلَيْهِ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ، وَنَرْجِعَ عَنْكُمْ وَشَأْنَكُمْ وَبِلَادَكُمْ. وَإِنْ بَدَلْتُمْ الْجِزْيَةَ قَبِلْنَا وَمَنْعْنَاكُمْ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ.

فَتَكَلَّمَ يَزْدَجَرْدُ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ أُمَّةً فِي الْأَرْضِ أَشَقَى وَلَا أَقْلَ عَدَدًا، وَلَا أَسْوَأَ ذَاتٍ بَيْنَ مِنْكُمْ، قَدْ كُنَّا نُؤَكِّلُ بِكُمْ قَرَى الصُّوَاخِيِّ فَيَكْفُونَا أَمْرَكُمْ، وَلَا تَطْمَعُوا أَنْ تَقُومُوا لِفَارِسَ، فَإِنْ كَانَ عَذْرٌ لِحَقِّكُمْ فَلَا يَغْرَنُكُمْ مَنَّا، وَإِنْ كَانَ الْجَهْدُ فَرَضًا لَكُمْ قُوتًا إِلَى خُضْبِكُمْ، وَأَكْرَمْنَا وُجُوهَكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ، وَمَلَكْنَا عَلَيْكُمْ مِلْكًا يَزْفُقُ بِكُمْ. فَأَسْكَتْ^(١) الْقَوْمُ.

فَقَامَ الْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ رُؤُوسُ الْعَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ، وَهُمْ أَشْرَافُ يَسْتَخِيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ قَالُوهُ، وَلَا كُلُّ مَا

(١) أَسْكَتْ: بِمَعْنَى سَكَتَ.

تَكَلَّمْتُ بِهِ أَجَابُوكَ عَلَيْهِ، فَجَاوَنِي لِأَكُونُ الَّذِي أَبْلُغُكَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فَهِيَ عَلَى مَا وَصَفْتَ أَوْ أَشَدَّ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ سُوءِ عَيْشِ الْعَرَبِ، وَإِرْسَالِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ نَحْوَ قَوْلِ الثُّعْمَانِ، وَقِتَالِ مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ الْجِزْيَةِ؛ ثُمَّ قَالَ: اخْتَزَ إِنْ شِئْتَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتَ صَاحِرٌ^(١)، وَإِنْ شِئْتَ السَّيْفَ، أَوْ تُسَلِّمَ فَنَنْجِي نَفْسَكَ.

فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ الرِّسْلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ، ثُمَّ قَالَ: لَا شَيْءَ لَكُمْ عِنْدِي؛ وَاسْتَدْعَى بُوَيْرَ^(٢) مِنْ تُرَابٍ، فَقَالَ: احْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ ثُمَّ سَوَّقُوهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ. ارْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَأَعْلِمُوهُ أَنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْكُمْ رِسْتُمْ حَتَّى يَدْفَنَكُمْ وَيَدْفِنَهُ مَعَكُمْ فِي خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ، ثُمَّ أَوْرَدَهُ بِلَادَكُمْ حَتَّى أَشْغِلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَشَدِّ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ سَابُورٍ.

فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو لِيَأْخُذَ التُّرَابَ، وَقَالَ: أَنَا أَشْرَفُهُمْ، أَنَا سَيِّدُ هَؤُلَاءِ؛ فَحَمَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَخَرَجَ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا وَأَخَذَ التُّرَابَ، وَقَالَ لِسَعْدٍ عِنْدَ عَوْدِهِ: أَبْشِرْ فَقَدْ وَاللَّهِ أَعْطَانَا اللَّهُ أَقَالِيدَ^(٣) مَلِكِهِمْ.

وَقَالَ يَزْدَجِرْدُ لِرُسْتُمْ: مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْعَرَبِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ، مَا أَنْتُمْ بِأَحْسَنَ جَوَابًا مِنْهُمْ، وَلَقَدْ صَدَّقَنِي الْقَوْمُ، لَقَدْ وَعَدُوا أَمْرًا لِيُدْرِكَنَّهُ أَوْ لِيَمُوتُنَّ عَلَيْهِ، عَلَى أَنِّي وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ أَخْمَقَهُمْ حَيْثُ حَمَلَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ.

فَقَالَ رِسْتُمْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّهُ أَعْقَلُهُمْ. وَخَرَجَ رِسْتُمْ وَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْوَفْدِ، وَقَالَ لِنُفْقَتِهِ: إِنْ أَدْرَكَهُمْ الرَّسُولُ تَلَاقَيْنَا أَرْضَنَا، وَإِنْ أَعَزَّوهُ سَلَبَكُمْ اللَّهُ أَرْضَكُمْ. فَرَجَعَ الرَّسُولُ مِنَ الْحِجْرَةِ بِفَوَاتِهِمْ، فَقَالَ: ذَهَبَ الْقَوْمُ بِأَرْضِكُمْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَكَانَ مِنْجَمًا كَاهِنًا.

وَلَمَّا سَارَ الْوَفْدُ أَغَارَ سَوَادُ بْنُ مَالِكِ التَّمِيمِيِّ عَلَى النَّجَافِ^(٤) وَالْفِرَاضِ^(٥)، فَاسْتَأْفَقَ ثَلَاثُمِائَةَ دَابَّةٍ مِنْ بَعِيرٍ وَحِمَارٍ وَثَوْرٍ، وَأَوْقَرَهَا^(٦) سَمَكًا، وَصَبَّحَ الْعَسْكَرَ، فَقَسَّمَهُ سَعْدٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَسَمِّيَ يَوْمَ الْحِيتَانِ. وَكَانَتِ السَّرَايَا تَسْرِي إِلَى طَلَبِ اللَّحْمِ، فَإِنَّ الطَّعَامَ كَانَ كَثِيرًا عِنْدَهُمْ، وَكَانُوا يُسْمُونُ الْأَيَّامَ بِهَا، مِنْهَا يَوْمُ الْأَبَاقِرِ وَيَوْمَ الْحِيتَانِ. وَبِعَثَ سَعْدٌ سَرِيَّةً أُخْرَى، فَأَغَارُوا فَأَصَابُوا إِبِلًا لَبَنِي تَغْلِبَ وَالتَّمِيرَ فَاسْتَأْفَقُوها.

(٢) الْوَقْرُ: الْحَمْلُ الثَّقِيلُ.

(١) الصَّاحِرُ: الذَّلِيلُ.

(٣) الْأَقَالِيدُ: الْمَفَاتِيحُ.

(٤) النَّجَافُ لُغَةً: شَعَابُ الْجَبَلِ الَّتِي يَسْكُبُ مِنْهَا الْمَاءُ؛ وَالْمُرَادُ هُنَا اسْمُ مَوْضِعٍ.

(٥) الْفِرَاضُ: مَوْضِعٌ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالْيَمَامَةِ، قَرِبَ فُلَيْجٍ مِنْ دِيَارِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ.

(٦) أَوْقَرَ الدَّابَّةَ: حَمَلَهَا حَمَلًا ثَقِيلًا.

وسار رستم من ساباط، وبعث على مُقَدِّمَةِ الْجَالِينُوسِ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَخَرَجَ هُوَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا، وَسَاقَتْهُ فِي عَشْرِينَ أَلْفًا، وَجَعَلَ فِي الْمَيْمَنَةِ الْهَزْمُزَانَ، وَفِي الْمِيسْرَةِ مِهْرَانَ بْنِ بَهْرَامِ الرَّازِيِّ. وَأَرْسَلَ سَعْدَ السَّرَايَا وَرُسْتَمَ بِالنَّجَفِ، وَالْجَالِينُوسَ بَيْنَ النَّجَفِ وَالسَّيْلَحِينَ. وَطَافَ فِي السَّوَادِ، فَبَعَثَ سَوَادًا وَحُمَيْضَةً كُلُّ مِئْتَةٍ، فَأَغَارُوا عَلَى النَّهْرَيْنِ، وَبَلَغَ رُسْتَمُ الْخَيْرُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ خِيَلًا، وَسَمِعَ سَعْدُ أَنَّ خَيْلَهُ قَدْ وَغِلَتْ، فَأَرْسَلَ عَاصِمَ بْنَ عَمْرٍو وَجَابِرًا الْأَزْدِيَّ فِي آثَارِهِمْ، فَلَحَقَهُمْ عَاصِمٌ وَخَيْلُ فَارَسَ تَحَوُّشَهُمْ لِيَخْلُصُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْفُرْسُ هَرَبُوا، وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْغَنَائِمِ. وَأَرْسَلَ سَعْدُ عَمْرٍو بْنَ مَعْدِي كِرْبَ وَطَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ طَلِيحَةً، فَسَارَا فِي عَشْرَةٍ، فَلَمْ يَسِيرُوا إِلَّا قَرْسَخًا وَيَغْضَ أَخَرٍ حَتَّى رَأَوْا مَسَالِحَهُمْ وَسَرَحَهُمْ^(١) عَلَى الطُّفُوفِ قَدْ مَلُؤُواهَا، فَرَجَعَ عَمْرٍو وَمِنْ مَعَهُ، وَأَبَى طَلِيحَةُ إِلَّا التَّقَدَّمَ، وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ عَسْكَرَ رُسْتَمَ، وَبَاتَ فِيهِ، فَهَتَكَ أَطْنَابَ بَيْتِ رَجُلٍ وَاقْتَادَ فَرَسَهُ، ثُمَّ هَتَكَ عَلَى آخِرِ بَيْتِهِ وَحُلَّ فَرَسَهُ، ثُمَّ فَعَلَ بِآخِرِ كَذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ يَعْدُو بِهِ فَرَسَهُ، وَتَذَرَّ بِهِ^(٢) النَّاسُ، فَزَكَبُوا فِي طَلَبِهِ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَحِقَهُ فَارَسٌ مِنَ الْجُنْدِ فَقَتَلَهُ طَلِيحَةُ، ثُمَّ آخَرُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ ثَالِثٌ، فَرَأَى مُضْرِعَ صَاحِبِيهِ وَهَمَا أَبْنَا عَمَّهُ، فَأَزْدَادَ حَقًّا، فَلَحِقَ بِهِ طَلِيحَةُ، فَكَّرَ عَلَيْهِ طَلِيحَةُ فَاسْرَهُ، وَلِحِقَ النَّاسُ، فَرَأَوْا فَارَسِي الْجَنْدِ قَدْ قُتِلَ وَأَسِيرَ الثَّالِثُ، وَقَدْ شَارَفَ طَلِيحَةُ عَسْكَرَهُ فَأَحْجَمُوا عَنْهُ، وَدَخَلَ طَلِيحَةُ عَلَى سَعْدٍ وَمَعَهُ الْفَارَسُ وَأَخْبَرَهُ الْخَبِيرَ، فَسَأَلَ التَّرْجَمَانُ الْفَارَسِيَّ فَطَلَبَ الْأَمَانَ، فَأَمَّنَّهُ سَعْدُ، فَقَالَ: أَخْبِرْكُمْ عَنْ صَاحِبِكُمْ هَذَا قَبْلَ أَنْ أَخْبِرْكُمْ عَمَّنْ قُتِلَ؛ بِاشْرُتُ الْحُرُوبَ مِنْذُ أَنَا غَلَامٌ إِلَى الْآنَ، وَسَمِعْتُ بِالْأَبْطَالِ، وَلَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِ هَذَا، أَنَّ رَجُلًا قَطَعَ عَسْكَرَيْنِ إِلَى عَسْكَرٍ فِيهِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَخْدُمُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ الْخَمْسَةُ وَالْعَشْرَةُ، فَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَخْرُجَ كَمَا دَخَلَ حَتَّى سَلَبَ فُرْسَانَ الْجَنْدِ، وَهَتَكَ عَلَيْهِمُ الْبُيُوتَ، فَلَمَّا أَذْرَكْنَاهُ قَتَلَ الْأَوَّلَ، وَهُوَ يُعْدُّ بِالْفِ فَارَسَ، ثُمَّ الثَّانِي وَهُوَ نَظِيرُهُ، ثُمَّ أَذْرَكْنَاهُ أَنَا، وَمَا خَلَفْتُ بَعْدِي مَنْ يَغْدُلْنِي، وَأَنَا النَّاتِرُ بِالْقَتِيلَيْنِ، فَرَأَيْتُ الْمَوْتَ وَأَسْتَوْبِزْتُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ عَنِ الْفُرْسِ. وَأَسْلَمَ وَلَزِمَ طَلِيحَةُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ بِالْقَادِسِيَّةِ، وَسَمَّاهُ سَعْدُ مُسْلِمًا.

ثم سار رُسْتَمُ وَقَدَّمَ الْجَالِينُوسَ وَذَا الْحَاجِبِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ، وَكَانَ بَيْنَ مَسِيرِهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَوُضُولِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، رَجَاءً أَنْ يَضْجَرُوا فَيَنْصَرَفُوا، وَوَقَّفَ عَلَى الْعَتِيقِ بِجِيَالِ عَسْكَرِ سَعْدٍ، وَكَانَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ فَيْلًا، مِنْهَا فَيْلُ سَابُورَ الْأَبْيَضِ،

(١) السرح: الماشية.

(٢) نذر به: علم به.

وكان الفيلة تألفه. وبات رُسْتُم ليلته. ثم أصبح وأرسل إلى سعد أن أرسل إلينا رجلاً نكلّمه ويكلّمنا، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فأظهر رستم زِيَّتَهُ، وجلس على سريرٍ مِنْ دَهَبٍ، وبَسَطَ البُسْطَ والثَّمَارِقَ والوسائد المَنسُوجَةَ بالدَّهَبِ، وأَقْبَلَ رُبُعِيَّ على فريسه، وسَيَّفَهُ في خرقَةٍ، وزُمَحَهُ مشدودَ بَعْصَبٍ وَقَدْ^(١)، فلما انتهى إلى البُسْطِ قيل له: انزِلْ، فحَمَلَ فرسه عليها، ونزل وسطها بوسادتين شَقَّهُما، وأدخلَ الحبلَ فيهما، فلم يَنْهَوْهُ وأزوه التَّهَوُّنَ، وعليه درعٌ؛ وأخذ عباءةً بغيره فتدَرَّعَهَا وشَدَّهَا على وسطه، فقالوا له: ضَعْ سلاحك؛ فقال: لم آتكم فأضعُ سِلَاحِي بأمركم، أنتم دعوتُموني، فأخبروا رُسْتُم؛ فقال: ائذَّنوا له.

فأقبل يتوكأ على رُمحه ويُقارب خطوةً، فلم يدع نُمرُقَةً ولا بساطاً إلا أفسدَهُ وهتكه، فلما دنا من رستم جلس على الأرض، وأركَزَ رُمَحَهُ على البُسْطِ؛ فقيل له: ما حَمَلَكَ على هذا؟ فقال: إنا لا نستحلُّ القُعودَ على زِينَتِكُمْ، فقال له التُّرْجَمَانُ - واسمُه عُبُود من أهل الحيرة - ما جاء بكم؟ قال: الله، وهو بعثنا لَنُخْرِجَ مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ من ضيقِ الدُّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلام، فأرسلنا بدينِهِ إلى خَلْقِهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذلك قَبِلْنَا منه، وَرَجَعْنَا عنه، وتركناه وأَرْضَهُ، وَمَنْ أَبَاهُ قاتلناه حتى يَقْضِيَ اللَّهُ إلى الجَنَّةِ أو الظَّفرِ.

فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمرَ حَتَّى ننظرَ فيه؟ قال: نعم، وإنِّ مِمَّا سَنَ لنا رسولُ الله ﷺ ألا نُمَكِّنَ الأعداءَ أَكْثَرَ من ثلاث، فنحن متردُّون عنكم ثلاثاً فَنَنْظُرُ في أمرِك، واختَرُ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجل: إمَّا الإسلامَ ونَدْعَكَ وأَرْضَكَ، أو الجزيةَ فتَقْبَلُ فنَكْفُ عَنْكَ، وإن احتججتَ إلينا نَصَرْنَاكَ؛ أو المَنَابِذَةَ^(٢) في اليومِ الرَّابِعِ إلا أن تَبْدَأَنَا، وأنا كفيلٌ بذلك عن أصحابي.

فقال: أَسَيْدُ أصحابك أنت؟ قال: لا، ولكنَّا كالجَسَدِ الواحدِ، بعضُنا من بعضٍ، يُجِيرُ أَذْنَانَا على أعلانا.

فخلا رُسْتُم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم أو سمعتم كلاماً قطُّ أعزُّ وأوضح من كلام هذا الرَّجُل؟ فقالوا: معاذَ الله أن نميلَ إلى دينِ هذا الكَلْبِ، أما تَترى إلى ثيابه! فقال: وَيَحْكُمُ! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن أنظروا إلى الرأْيِ والكلامِ والسيرة؛ إنَّ العربَ تستخفُّ باللباسِ، وتَصُونُ الأحسابَ؛ ليسوا مثلكم.

(١) القَدْ: السير يقد من لجلد لخصف التعال أو نحو ذلك، أو السوط.

(٢) المَنَابِذَةُ: المجاهرة بالحرب.

فلما كان من الغد أرسل رُستم إلى سَعْدٍ: أن أبعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حَذِيفَةَ بْنَ مِخْصَنٍ، فأقبل في نحوٍ من ذلك الزَّيِّ، فلم ينزل عَنْ فَرَسِهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رُسْتَمٍ. فقال له: انزل، قال: لا أفعل، فقال: ما جاء بك ولم يأتِ الأول؟ قال: إِنَّ أَمِيرَنَا يُحِبُّ أَنْ يَعْدِلَ بَيْنَنَا فِي الشَّدَةِ وَالرَّخَاءِ، وهذه نَوَيْتِي. فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه نحو الأول. فطلب رستم المَوَادَّةَ إلى يومٍ ما. فقال: نعم، ثلاثاً من أمس، فردّه.

وأقبل رُستم على أصحابه فقال: وَيَحْكُمُ! ألا ترون ما أَرَى؟ جاءنا الأول بالأمس فَعَلَبْنَا على أَرْضِنَا، وَحَقَّرَ مَا نُعْظِمُ، وأقام فرسه على زَبْرَجِنَا^(١)؛ وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يَمَنِ الطائر، يقوم على أَرْضِنَا دُونَنَا.

فلما كان الغد أرسل أن أبعثوا لنا رجلاً، فبعث إليهم المغيرة بْنَ شُعْبَةَ، فأقبل عليهم، وعليهم التَّيجَانُ والثَّيَابُ المنسوجة بالذهب، وَبُسْطُهُمْ على غَلْوَةٍ^(٢) سَهْمٍ، لا يُوصِلُ إلى صاحبهم حتى يُمَشَى عليها، فأقبل المغيرة حتى جلسَ مع رُستم على سريره، فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه^(٣)؛ فقال: قد كان يبلغنا عنكم الأحلام^(٤)، ولا أرى قوماً أسَفَّهُ منكم؛ إِنَّا مَعَشَرَ الْعَرَبِ لا يَسْتَعْبِدُ بعضُنا بعضاً، فظننتُ أنَّكم تُؤاسُونَ قومكم كما تُؤاسَى، فكان أحسنَ مِن الَّذِي صنعتم أن تُخبروني أنَّ بعضكم أربابُ بَغْضٍ؛ وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يضمنه أحد، وأنا لم آتكم ولكن دَعَوْتُكُمْ، اليومَ علمتُ أنَّكم مغلوبون، وأنَّ مُلْكًا لا يقوم على هذه السَّيْرَةِ ولا على هذه العقول.

فقالَتِ السَّيْفَةُ^(٥): صَدَقَ وَاللَّهِ الْأَعْرَابِيَّ.

وقالت الدَّهَاقِينُ: والله لقد رَمَى بكلام لا يزال عبيدُنَا يَنْزِعُونَ إليه، قاتل الله أولينا حين كانوا يُصْغَرُونَ أمرَ هذه الأُمَّة!

ثم تَكَلَّمَ رُستم، فحمِدَ قوته، وعَظَّمَ أمرهم، وَذَكَرَ تَمَكُّنَهُمْ في البلاد، وقُوَّةَ سلطانهم، وذكر معيشة العرب وما هم عليه من الْفَاقَةِ^(٦)، وقال: كنتم تقصدوننا إذا قَحِطَتْ بلادُكُمْ، فنأمر لكم بشيءٍ من الثَّمَرِ والشَّعِيرِ، ثم نردكم، وقد علمتُ أنَّه لم

(١) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر. (٢) الغلوة: مقدار مرمى السهم.

(٣) معكوه: دلكوه بالتراب.

(٤) الحلم: العقل، جمع أحلام.

(٥) السفلة من الناس: أسافلهم وغوغاؤهم. (٦) الفاقة: الفقر والحاجة.

يَحْمِلُكُمْ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ إِلَّا الْجَهْدُ^(١) فِي بِلَادِكُمْ، فَأَنَا أَمْرٌ لَأَمِيرِكُمْ بِكُسُوفٍ وَبِغَلٍ وَأَلْفِ دِرْهَمٍ؛ وَأَمْرٌ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِوَقْفٍ^(٢) تَمَرٍ وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا؛ فَإِنِّي لَسْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَقْتُلَكُمْ.

فَتَكَلَّمَ الْمَغِيرَةُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَزَقَهُ، فَمَنْ صَنَعَ شَيْئًا فَإِنَّمَا هُوَ بِصُنْعِهِ. فَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ بِهِ نَفْسُكَ وَأَهْلُ بِلَادِكَ فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ، وَاللَّهُ صَنَعَهُ بِكُمْ، وَوَضَعَهُ فِيكُمْ، وَهُوَ لَهُ دُونُكُمْ؛ وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ فِينَا مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَالضِّيقِ فَلَسْنَا نُنْكِرُهُ، وَاللَّهُ أَبْتَلَانَا بِهِ، وَالْدُّنْيَا دُولٌ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الرِّخَاءِ يَتَوَقَّعُونَ الشَّدَائِدَ حَتَّى تَنْزِلَ بِهِمْ، وَلَوْ شَكَّرْتُمْ مَا آتَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى لَكَانَ شُكْرُكُمْ يَقْصُرُ عَمَّا أَوْتَيْتُمْ، فَاسْلَمَكُمْ ضَعْفُ الشُّكْرِ إِلَى تَغْيِيرِ الْحَالِ، وَلَوْ كُنَّا فِيمَا أَبْتَلَيْنَا بِهِ أَهْلَ الْكُفْرِ لَكَانَ عَظِيمٌ مَا أَبْتَلَيْنَا بِهِ مُسْتَجَلِبًا مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً يُرْذِئُهَا عَنَّا؛ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ فِينَا رَسُولًا؛ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الْإِسْلَامِ، أَوِ الْجِزْيَةِ، أَوِ الْقِتَالِ، وَقَالَ: إِنَّ عِيَالَنَا قَدْ ذَاقُوا طَعَامَ بِلَادِكُمْ، فَقَالُوا: لَا صَبْرَ لَنَا عَنْهُ. فَقَالَ رُسْتَمٌ إِذَا تَمَوُّتُونَ دُونَهُ! فَقَالَ الْمَغِيرَةُ: يَدْخُلُ مِنْ قُتِلَ مِثْلُ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ النَّارَ، وَيَظْفَرُ مِنْ بَقِيٍّ مِثْلَ بَقِيٍّ مِنْكُمْ. فَاسْتَشَاطَ رُسْتَمٌ غَضَبًا، ثُمَّ حَلَفَ أَلَّا يَرْتَفِعَ الصُّبْحُ غَدًا حَتَّى أَقْتُلَكُمْ أَجْمَعِينَ.

وَأَنْصَرَفَ الْمَغِيرَةُ، وَخَلَا رُسْتَمٌ بِأَهْلِ فَارَسَ وَقَالَ: أَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ! هَؤُلَاءِ وَالرِّجَالُ، صَادِقِينَ كَانُوا أَمْ كَاذِبِينَ! وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ بَلَغَ مِنْ عَفْلِهِمْ وَصَوْنِهِمْ لَسَرُّهُمْ أَلَّا يَخْتَلِفُوا، فَمَا قَوْمٌ أَبْلَغَ لِمَا أَرَادُوا مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فَمَا يَقُومُ لَهُؤُلَاءِ شَيْءٌ. فَلَجُّوا^(٣) وَتَجَلَّدُوا، فَقَالَ: أَطِيعُونِي يَا أَهْلَ فَارَسَ؛ إِنِّي لَأَرَى لِلَّهِ فِيكُمْ نِقْمَةً لَا تَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا.

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثَةَ مِنْ دَوِي الرُّأْيِ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ أَمِيرَنَا يَدْعُوكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَنَا وَلَكَ؛ وَالْعَاقِبَةُ أَنْ تَقْبَلَ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَرْضِنَا وَتَرْجِعَ إِلَى أَرْضِكَ، وَدَارُكُمْ لَكُمْ وَأَمْرُكُمْ فِيكُمْ، وَمَا أَصَبْتُمْ كَانَ زِيَادَةً لَكُمْ دُونَنَا، وَكُنَّا عَوْنًا لَكُمْ عَلَى مَنْ أَرَادَكُمْ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا يَكُونَنَّ هَلَاكُ قَوْمِكَ عَلَى يَدَيْكَ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَنْ تَغْتَبِطَ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا أَنْ تَدْخَلَ فِيهِ، وَتَطْرُدَ بِهِ الشَّيْطَانَ عَنْكَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْأَمْثَالَ أَوْضَحُ مِنَ

(٢) الوقر: الحمل الثقيل.

(١) الجهد: المشقة.

(٣) لج القوم: اختلطت أصواتهم. ولج في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

كثير من الكلام، إنكم كنتم أهل جهِدٍ وقَشَفٍ^(١)، لا تَنَتَصِفُونَ ولا تَمْتَنِعُونَ، فلم تُسَيِّءْ جَوَارِكُمْ، وكُنَّا نَمِيرُكُمْ^(٢) ونُحْسِنُ إليكم، فلَمَّا طَعِمْتُمْ طَعَامَنَا، وَشَرِبْتُمْ شَرَابَنَا، وَصَفْتُمْ لِقَوْمِكُمْ ذلك، ووعدْتُمُوهُمْ ثم أَتَيْتُمُونَا، وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُنَا كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَ لَهُ كَرْمٌ، فرأى فيه ثعلبًا، فقال: وما ثعلب! فانطلق الثَّعْلَبُ فدعا الثَّعَالِبَ إلى ذلك الكَرْمِ، فلَمَّا اجتمعوا إليه شَدَّ صاحب الكرم النقب الذي كَنَّ يدخلن منه فقتلهن. فقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والجهد، فارجعوا ونحن نَمِيرُكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَشْتَهِي أَنْ أَتْلُكُم. وَمَثَلُكُمْ أَيْضًا كَالذُّبَابِ يَرَى الْعَسَلَ فيقول: مَنْ يُوَصِّلُنِي إليه وله دِرْهَمَانِ، فإذا دخله غَرِقَ ونَسِبَ^(٣)، فيقول: مَنْ يُخْرِجُنِي وله أربعة دراهم؟

وقال: ما دعاكم إلى ما صنعتم، ولا أَرَى عَذْدًا ولا عُذَّةً! قال: فتكلَّم القوم، وذكروا سوءَ حالِهِمْ، وما مِنْ الله تعالى عليهم من إرسال رسولٍ الله ﷺ، وأختلافِهِمْ أَوَّلًا، واجتماعِهِمْ على الإسلام، وما أَمَرَهُمْ به من الجهاد، وقالوا: وأَمَّا ما ضَرَبْتَ لَنَا مِنَ الْأَمْثَالِ فليس كذلك، ولكن إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ غَرَسَ أَرْضًا وأختار لها الشَّجَرَ، وأَجْرَى إليها الأنهارَ وزَيَّنَهَا بِالْقُصُورِ، وأقامَ فيها فَلَاحِينَ يسْكُنُونَ قُصُورَهَا ويقومون على جَنَائِهَا، فخلا الفلاحون في القُصُور على ما لا يُحِبُّ، فأطال إِمهالُهُمْ فلم يستجيبوا، فدعا إليهم غيرَهُمْ وأخْرَجَهُمْ منها، فَإِنْ ذَهَبُوا عنها يَخْطِطُفُهُمُ النَّاسُ، وَإِنْ أَقَامُوا فيها صاروا خَوَلًا^(٤) لهؤلاء، فيسومُونَهُمُ الحَسَفَ أَبَدًا، والله لو لم يكن ما نقول حقًا ولم يكن إلَّا الدُّنْيَا لما صَبَرْنَا عن الَّذِي نحن فيه من لَذِيذِ عَيْشِكُمْ، ورأينا من زَبَرَجِكُمْ، ولَقَارَغْنَاكُمْ^(٥) عليه.

فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نَعْبُرُ إليكم؟ فقالوا: بل أَعْبُرُوا إلينا. ورجعوا من عنْدِهِ عَشِيًّا، وأرسل سعدٌ إلى النَّاسِ أَنْ يَقِفُوا مَوَاقِفَهُمْ، وأرسل إليهم شَأْنَكُمْ والعبور، فأرادوا الجَوَازَ على القنطرة فَمَنَعَهُمُ المسلمون، وقالوا: أَمَّا شيءٌ غلبناكم عليه فلا تَزُدْهُ عليكم، فباتوا يَسْكُرُونَ^(٦) العتيق بالثُّرابِ والقصب والبراذع حتى الصباح، وجعلوا طريقًا، واستتم بعدما ارتفع النهار. ورَأَى رُستَم من اللَّيْلِ كَأَنَّ مَلَكًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فأخذ قِسِيَّ أصحابِهِ فَخَتَمَ عليها، ثم صَعِدَ بها إلى السَّمَاءِ، فاستيقظ مهمومًا، وأستدعى خاضعته فقصها عليهم، وقال: إِنَّ الله ليعظنا لو اتَّعَظْنَا، ثم ركب، وعَبَّرَ

(١) القشف: قدر الجلد وسوء الحال.

(٢) نمير: نسيب.

(٣) نسب: أي وقع فيما لا مخلص منه.

(٤) الخول: الخدم.

(٥) قارغ: قاتل.

(٦) يسكرون النهر: يسدون فاه بالتراب.

وعليه دِزْعَانٌ وَمِغْفَرٌ^(١)، وأَخَذَ سِلَاحَهُ وَعَبَّرَ الْفُرْسُ الْعَتِيقَ، ثم كانت الحربُ. والله تعالى أَعْلَمُ بالصَّوابِ، وإليه المرجع والمآبُ.

ذكر يوم أُرْمَات

كان يوم أُرْمَات^(٢) يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة؛ وذلك أن الْفُرْسَ لَمَّا عَبَرُوا الْعَتِيقَ، جلس رُسْتَمٌ على سَرِيرِهِ وضرب عليه طَيَّارُهُ، وَعَبَّى في الْقَلْبِ ثمانية عشر فيلًا، عليها الصناديقُ وَالرَّجَالُ، وفي المَجْنَبَتَيْنِ خمسة عشر؛ ثمانية وسبعة، وأقام الْجَالِيئُوسُ بينه وبين مَيْمَنَتِهِ، وَالْفَيْرِزَانُ بينه وبين مَيْسَرَتِهِ، وكان يَزْدَجِرْدُ قد وَضَعَ بينه وبين رُسْتَمٍ رجالًا على كُلِّ دَعْوَةٍ رجلاً، أَوْلَهُمْ على بابِ إِيوانِهِ، وآخرهم مع رُسْتَمٍ، فكلُّمَا فَعَلَ شَيْئًا قال الَّذِي معه لِلَّذِي يليه: كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للثالث، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يَزْدَجِرْدُ في أسرع وقت.

قال: وأَخَذَ المسلمون مَوَاقِفَهُمْ، وكان بسعيدِ دَمَامِيلُ وَعِزْقُ النِّسَاءِ، فلا يستطيع الجلوسُ؛ إِنَّمَا هو مُكَبِّبٌ على وجهِهِ، وفي صدرِهِ وِسَادَةٌ، وهو على سطح القصر يُشْرِفُ على النَّاسِ، فذكر النَّاسُ ذلك، وعابه بعضهم فقال في ذلك شعراً: [من الطويل]

تُقَاتِلُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ نَضْرَهُ وسعدُ بباب القادِسيَّةِ مُعْصِمٌ^(٣)
فأَبْنَا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ونِسْوَةٌ سَعْدٍ ليس فيهنَّ أَيْمٌ^(٤)

فبلغت أبياته سعدًا، فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا وَقَالَ الَّذِي قاله رِيَاءٌ وَسُنْعَةٌ فاقطع عني لسانه، فَإِنَّهُ لَوَاقِفٌ في الصَّفِّ يَوْمُنِذِ أَنَاهُ سَهُمٌ غَرَبٌ^(٥)، فأصاب لسانه، فما تكلم بكلمةٍ حَتَّى لَحِقَ بالله تعالى. ونزل سعدٌ إلى النَّاسِ فاعتذر إليهم، وأراهم ما به من القروح في فَخْذَيْهِ وَأَلْيَتَيْهِ، فعذَرَهُ النَّاسُ وَعَلِمُوا حالَهُ. ولَمَّا عَجَزَ عن الرُّكُوبِ أَسْتَخْلَفَ خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ على النَّاسِ، فَأُخْتَلِفَ عليه، فأخذ نفراً مِمَّنْ شَغَبَ^(٦) عليه فحبسهم في القُصْرِ، منهم أبو مِخْجَنٍ الثَّقَفِيُّ، وقيل: بل كان قد حُسِبَ في الخمر.

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٢) أُرْمَات: كأنه جمع رمت: اسم نبت بالبادية، آخره ثاء مثلثة. كان أول يوم من أيام القادسية...

(٣) المعصم: الممتنع.

(٤) آمت المرأة: أقامت بلا زوج بكرًا أو ثيبًا؛ أو فقدت زوجها.

(٥) سهم غرب: لا يدرى راميهِ.

(٦) شغب على القوم: هيج الشر بينهم.

وأعلم سعد النَّاسَ أَنَّهُ قد اسْتَخْلَفَ خَالِدًا، وَإِنَّمَا يَأْمُرُهُمْ خَالِدٌ بِأَمْرِهِ، فَسَمِعُوا وَأَطَاعُوا. وَأَرْسَلَ سَعْدٌ نَفَرًا مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ، مِنْهُمْ الْمَغِيرَةُ، وَخُذَيْفَةُ، وَعَاصِمٌ، وَطَلِيحَةُ، وَقَيْسُ الْأَسَدِيِّ، وَغَالِبٌ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٌ وَأُمَثَالُهُمْ، وَمِنْ الشُّعْرَاءِ: الشَّمَاخُ^(١)، وَالْحُطَيْثَةُ وَأَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ^(٢)، وَعَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ^(٣) وَغَيْرُهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِتَحْرِيزِ النَّاسِ عَلَى الْقِتَالِ فَفَعَلُوا، وَكَانَ صَفُّ الْمَشْرِكِينَ عَلَى شَفِيرِ الْعِثِيقِ، وَصَفُّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَائِطِ قُدَيْسٍ، وَالْخَنْدَقُ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَالْعِثِيقِ، وَأَمَرَ سَعْدُ النَّاسَ فَقَرَأُوا سُورَةَ الْجِهَادِ، وَهِيَ الْأَنْفَالُ، فَلَمَّا فَرَغَ الْقُرَاءَ مِنْهَا قَالَ سَعْدٌ: الزُّمُوا مَوَاقِفَكُمْ حَتَّى تُصَلُّوا الظُّهْرَ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَإِنِّي مُكَبِّرٌ فَكَبِّرُوا وَأَسْتَعِدُّوا، فَإِذَا سَمِعْتُمُ الثَّانِيَةَ فَكَبِّرُوا وَلْتَسْتَمِعْ عُدَّتَكُمْ، ثُمَّ إِذَا كَبُرَتْ الثَّالِثَةُ فَكَبِّرُوا، وَلْيَنْشُطْ فُرْسَانُكُمْ النَّاسَ، فَإِذَا كَبُرَتْ الرَّابِعَةَ فَازْحَفُوا حَتَّى تُخَالِطُوا عَدُوَّكُمْ، وَقُولُوا: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَلَمَّا كَبُرَ سَعْدُ الثَّالِثَةَ بَرَزَ أَهْلُ النَّجْدَاتِ فَأَنْشَبُوا الْقِتَالَ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْفُرْسِ أُمَثَالُهُمْ.

فَبَرَزَ غَالِبٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيِّ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ هُزْمُزٌ، وَكَانَ مِنْ مَلُوكِ الْبَابِ، وَكَانَ مَتَوَجًّا، فَأَسْرَهُ غَالِبٌ وَأَتَى بِهِ سَعْدًا. وَخَرَجَ عَاصِمٌ بْنُ عَمْرٍو فِطَارَدَ فَارِسِيًّا، فَانْهَزَمَ، فَاتَّبَعَهُ عَاصِمٌ حَتَّى خَالَطَ صَفَّهُمْ فَحَمَّوهُ، فَأَخَذَ عَاصِمٌ رَجُلًا عَلَى بَغْلٍ وَعَادَ بِهِ، فَإِذَا هُوَ خُبَّازُ الْمَلِكِ، مَعَهُ طَعَامٌ مِنْ طَعَامِ الْمَلِكِ وَخَيْصِصَةٌ^(٤)، فَأَتَى بِهِ سَعْدًا فَتَقَلَّهْ أَهْلَ مَوْقِفِهِ.

وَخَرَجَ فَارِسِيٌّ يَطْلُبُ الْبِرَازَ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبٌ، فَأَخَذَهُ وَجَلَدَهُ بِهِ الْأَرْضَ وَذَبَحَهُ، وَأَخَذَ سِوَارِيَّهِ وَمِنْطَقَتَهُ^(٥).

(١) الشماخ: هو معقل بن ضرار... كان جاهليًا إسلاميًا... وهو من أوصف الشعراء للقوس والحرر... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

(٢) أوس بن مغراء: هو من بني ربيعة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد وكان يهاجي النابغة الجعدي وهو القاتل في بني صفوان الذين كانت فيهم الإفاضة من عرفة، وهم بنو صفوان بن شجنة بن عطار بن عوف بن كعب بن سعد... (طبقات الشعراء).

(٣) عبدة بن الطيب: هو من بني عبيد شمس بن كعب بن سعد بن زيد مائة بن تميم ويقال لعبشمس قرش سعد لجمالهم... (طبقات الشعراء).

(٤) الخيصة: الحلواء المخبوضة من التمر والسمن.

(٥) المنطقة: ما يشد به الوسط.

وَحَمَلَتِ الْفَيْلَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَفَرَّقَتْ بَيْنَ الْكَتَائِبِ، فَنفَرَتِ الْخَيْلُ، وَكَانَتِ الْفُرْسُ قَدْ قَصَدَتْ بَجِيلَةً بِسَبْعَةِ عَشَرَ فَيْلًا، فَنفَرَتْ خَيْلُ بَجِيلَةٍ، فَكَادَتْ بَجِيلَةُ تَهْلِكُ لِنِفَارِ خَيْلِهَا عَنْهَا وَعَمَّنْ مَعَهَا.

فَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَى بَنِي أَسَدٍ أَنْ دَافِعُوا عَنْ بَجِيلَةٍ وَمَنْ مَعَهَا، فَخَرَجَ طَلِيحَةُ بْنُ خَوَيْلِدٍ، وَحَمَّالُ بْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابَيْهِمَا، فَبَاشَرُوا الْفَيْلَةَ حَتَّى عَدَلَهَا رُكْبَانُهَا، وَخَرَجَ إِلَى طَلِيحَةَ عَظِيمٌ مِنْهُمْ، فَقَتَلَهُ طَلِيحَةُ.

وَقَامَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فِي كِنْدَةَ، فَأَزَالُوا مَنْ بِلِزَائِهِمْ مِنَ الْفُرْسِ، ثُمَّ حَمَلَ الْفُرسُ، وَفِيهِمْ ذُو الْحَاجِبِ وَالْجَالِيئُوسُ، وَالْمُسْلِمُونَ يَنْتَظِرُونَ التَّكْبِيرَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ سَعْدٍ، فَاجْتَمَعَتِ الْفُرسُ عَلَى أَسَدٍ وَمَعَهُمْ تِلْكَ الْفَيْلَةُ فَنَبَّتُوا لَهُمْ، وَكَبَّرَ سَعْدُ الرَّابِعَةَ، فَزَحَفَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ، وَرَحَا الْحَرْبُ تَدَوَّرَ عَلَى أَسَدٍ، وَحَمَلَتِ الْفَيْلُ عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرَةِ، فَحَادَتِ الْخَيْولُ عَنْهَا، فَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ، أَمَا عِنْدَكُمْ لِهَذِهِ الْفَيْلَةِ مِنْ جِيلَةٍ؟ قَالُوا: بَلَى وَاللَّهِ.

ثُمَّ نَادَى عَاصِمٌ فِي رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ رُمَاءً وَآخَرِينَ، لَهُمْ ثِقَافَةٌ^(١)، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّمَاءِ؛ ذُوبُوا^(٢) رُكْبَانَ الْفَيْلَةِ عَنْهُمْ بِالنَّبْلِ، وَيَا مَعْشَرَ أَهْلِ الثَّقَافَةِ؛ اسْتَذْبِرُوا الْفَيْلَةَ، فَقَطَّعُوا وَضْنَهَا^(٣). وَخَرَجَ يَحْمِيهِمْ وَقَدْ جَالَتِ الْمَيْمَنَةُ وَالْمَيْسَرَةُ، وَأَقْبَلَ أَصْحَابُ عَاصِمٍ، فَأَخَذُوا بِأَذْنَابِ الْفَيْلَةِ فَقَطَّعُوا وَضْنَهَا، وَارْتَفَعَ عَوَاؤُهُمْ، فَمَا بَقِيَ فَيْلٌ إِلَّا عَوَى، وَقُتِلَ أَصْحَابُهَا، وَنَفَسَ عَنْ أَسَدٍ، وَرَدَّ الْفُرسُ عَنْهُمْ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ، وَدَامَ الْقِتَالُ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَحَتَّى ذَهَبَتْ هَذَا^(٤) مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ رَجَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَقَدْ أَصِيبَ مِنْ أَسَدٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ خَمْسَمِائَةٍ، وَكَانُوا رِذَاءَ لِلنَّاسِ، وَكَانَ عَاصِمٌ حَامِيَةً لِلنَّاسِ.

وَكَانَ سَعْدٌ تَوَجَّ سَلَمَى أَمْرَاءَ الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ بَعْدَهُ، فَلَمَّا جَالَ النَّاسُ فِي هَذَا الْيَوْمِ، جَعَلَ سَعْدٌ يَتَمَلَّلُ جَزَعًا عَلَى النَّاسِ وَهُوَ لَا يُطِيقُ الْجُلُوسَ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ الْفُرسُ، قَالَتْ: وَامِثَّاهُ، وَلَا مِثِّي لِلْخَيْلِ الْيَوْمَ! فَلَطَمَ وَجْهَهَا وَقَالَ: أَيْنَ الْمُثَنَّى عَنْ هَذِهِ الْكُتَيْبَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا الرِّحَا؟ يَعْنِي أَسَدًا وَعَاصِمًا؛ فَقَالَتْ: أَغِيرَةٌ وَجُبْنًا! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْدِرُنِي أَحَدٌ إِنْ لَمْ تَغْدِرْنِي، وَأَنْتِ تَرَيْنَ مَا بِي. . . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

(٢) ذب الشيء: طرده ودفعه عنه.

(١) ثقف فلان: صار حاذقًا فطنًا.

(٣) الوضن: جمع وضين؛ وهو ما يشد به الرجل على البعير.

(٤) هداة من الليل: جزء منه.

ذكر أغواث^(١)

قال: لما أصبح سعدٌ وكلٌ بالقتلى من ينقلهم ليُدْفَنُوا، وأسلمَ الجَزْحَى إلى النساءِ يَقمْنَ عليهم، فبينما الناس على ذلك إذ طَلَعَتْ نواصي الخَيْلِ من الشَّامِ، وكان عُمَرُ لَمَّا فُتِحَتْ دِمَشْقُ قد كَتَبَ إلى أبي عُبَيْدَةَ يأمره بإرسال أهلِ العِراقِ، فأرسلهم وأمر عليهم هاشمُ بن عُثْبَةَ بن أبي وقَّاصٍ، وعلى مقدَّمته القَعْقَاعُ بنُ عمرو، فتعجَّلَ القَعْقَاعُ، فقدم على الناس صبيحةَ هذا اليوم، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطَّعوا أعشارًا وهم ألفٌ، كُلَّمَا بلغ عشرةٌ مدَّ البَصَرِ سَرَّحُوا عشرةً، وتقدَّم هو في عشرةٍ، فأتى الناسَ فسلمَ عليهم، وبشَّروهم بالجنودِ، وحرَّضهم على القتالِ؛ وقال: اصنعوا كما أصنع، وطلبَ البرازَ، فخرج إليه ذو الحاجبِ، فعرفه القَعْقَاعُ، ونادى: يا لثاراتِ أبي عُبيد وسليط وأصحابِ الجِسر! واقتلا، فقتله القَعْقَاعُ.

وجعلت خيلُه تَرِدُ إلى اللَّيْلِ، ونَشِطَ الناسُ، وكان لم تكن بالأمس مصيبةٌ، وانكسرت الأعاجم لقتل ذي الحاجبِ، فطلب القَعْقَاعُ البرازَ، فخرج إليه الفيرزان والبندوان، فانضمَّ إلى القَعْقَاعِ الحارثُ بن ظَبْيَانٍ، ونادى القَعْقَاعُ: يا معشر المسلمين، باثيروهم بالسُّيوفِ، فإنما يُحصَدُ الناسُ بها، فأقتتلوا حتى المساءَ، فلم يرَ أهلُ فارسٍ في هذا اليوم ما يُعجِبُهُم، وأكثرَ المسلمونَ فيهم القتلَ، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيلةٍ؛ كانت توابيتها^(٢) قد تكسَّرت بالأمس، فاستأنفوا عملَها، وحملَ بنو عَمِّ القَعْقَاعِ عشرةَ عشرةٍ على إبلٍ قد ألبسوها وجلَّلوها وبَرَّقَعُوهَا، وطافَتْ بهم خيولُهم تَحْمِيهِم، وأمرهم القَعْقَاعُ أن يَحْمِلُوا على خيلِ الفُرسِ يتشبَّهونَ بِالفِيلَةِ، ففعلوا في يومِ أغواث، كما فعلَ الفُرسُ في يومِ أزمات، فنفرت خيلُ الفُرسِ من الإبلِ، فلقَّوها منها أعظَمَ ما لقيَ المسلمونَ من الفِيلَةِ، وحَمَلَ القَعْقَاعُ يومئذ ثلاثين حملةً، كُلَّمَا طَلَعَتْ قطعةٌ حَمَلَ حملةً، وأصابَ فيها، وقيل: وكان آخرهم يُرزَّجُهمِرَ الهَمْدَانِي.

وكان أبو مخَجَنَ الثَّقَفِيُّ، واسمُه مالِكُ بنُ حبيبٍ، وقيل: عبدُ اللَّهِ بنُ حبيبٍ بن عمرو بن عُمَيْرِ بن عوفِ بن عُقْدَةَ بن غُبَرَةَ بن عوفِ بن قَسِيٍّ، وهو ثَقِيفٌ، قد حُجِسَ في القَصْرِ وقُيِّدَ.

(١) أغواث: يقال لليوم الثاني من أيام القادسية يوم أغواث... ولا يدري صاحب معجم البلدان أهذا اسم موضع أم هو من الغوث.

(٢) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع.

واختلف في سبب ذلك؛ ف قيل: كان قد خالف على خالد بن عُرْقُطَةَ خليفة سَعْدٍ، وقيل: بل كان عُمَرُ قد جَلَدَهُ في الخمر مِرَارًا ثمانية وهو لا يتوب ولا يُقْلِعُ، فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه رَجُلًا، فهرب منه ولحق بسَعْدٍ، فكتب إليه عُمَرُ بحبسهِ. وقيل: بل كان مع سَعْدٍ، فَأَتَيْ بِهِ وهو سَكَرَانُ، فَأَمَرَ بِهِ إِلَى الْقَيْدِ، فلما التَحَمَ القتال قال: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أَنْ تَزِدِّي الْخَيْلُ بِالْقَنَا
إِذَا قَمْتُ عَنَّا نِي الْحَدِيدُ وَأُغْلِقْتُ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ
وَقَدْ شَفَّ جِسْمِي أَتْنِي كُلُّ شَارِقٍ
فَلِلَّهِ ذَرِّي يَوْمَ أُتْرِكَ مُوْتَقَا
حَبِيسًا عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ
وَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَخِيسُ بَعْهْدِهِ
وَأُتْرِكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا
مَصَارِعُ مِنْ دُونِي تُقِيمُ الْمُنَادِيَا^(١)
فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَالِيَا
أُعَالِجُ كَبَلًا مُضْمَمًا قَدْ بَرَانِيَا^(٢)
وَتَذْهَلُ عَنِّي أَسْرَتِي وَرِجَالِيَا
وَإِعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا^(٣)
لَشَنْ فُرِجْتُ أَلَا أَزُورَ الْحَوَانِيَا^(٤)

ثم قال لَسَلِمَى أَبْنَهُ خَصَفَةَ أَمْرَاءَ سَعْدٍ: وَيَحْك! خَلِينِي، وَلِكِ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ سَلَمْنِي اللَّهُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أَضَعَ رِجْلِي فِي الْقَيْدِ، وَإِنْ قُتِلْتُ أَسْتَرَحْتُمْ مِنِّي، فَحَلَّتْ عَنْهُ، فَوُثِبَ عَلَى فَرَسٍ لِسَعْدٍ يُقَالُ لَهَا: الْبَلْقَاءُ، ثُمَّ أَخَذَ الرُّمْحَ وَأَنْطَلَقَ حَتَّى كَانَ بِحِيَالِ الْمَيْمَنَةِ كَبُرَ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى مَيْسَرَةِ الْفُرْسِ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْ خَلْفِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلَ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ، وَكَانَ يَقْصِفُ^(٥) النَّاسَ قَضْفًا مَنَكْرًا، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْهُمْ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ أَصْحَابِ هَاشِمٍ، أَوْ هَاشِمٍ نَفْسِهِ. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: هُوَ الْخَضِرُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْلَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تُبَاشِرُ الْحَرْبَ لَقُلْنَا إِنَّهُ مَلَكٌ.

وجعل سَعْدٌ يَقُولُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْفُرْسِ: الصَّبْرُ صَبْرُ الْبَلْقَاءِ، وَالطَّعْنُ طَعْنُ أَبِي مِخْجَنٍ. وَأَبُو مُحَجَّجٍ فِي الْقَيْدِ، فَلَمَّا أَنْتَصَفَ اللَّيْلُ وَتَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ وَالْفُرْسُ، أَقْبَلَ أَبُو مُحَجَّجٍ فَدَخَلَ الْقَصْرَ، وَأَعَادَ رِجْلَيْهِ فِي الْقَيْدِ، وَقَالَ: [من الوافر]

لَقَدْ عَلِمْتُ ثَقِيفٌ غَيْرَ فَخْرٍ
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ
بَأْنَا نَحْنُ أَكْرَمُهُمْ سُيُوفًا
وَأَضْبَرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْحُتُوفَا^(٦)

(٢) الكبل: القيد من أي شيء كان.

(١) عتاه الشيء: اعترضه.

(٣) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.

(٤) خاس العهد: نقضه وخانه.

(٦) الحتف: الهلاك؛ الموت؛ أو القتل.

(٥) يقصف الناس: يضربهم ضربًا منكرا.

وَأَنَا وَقَدْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَلَيْلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِي
فَإِنْ أَحْبَسَ فَذَلِكُمْ بِلَايِي
فَإِنْ عَمِيُوا فَسَلِّ بِهِمْ عَرِيفاً^(١)
وَلَمْ أَشْعُرْ بِمَخْرَجِي الزُّحُوفَا
وَإِنْ أَتَرَكَ أَذِيقَهُمُ الْحُتُوفَا

فَقَالَتْ لَهُ سَلْمَى: فِي أَيِّ شَيْءٍ حَبَسَكَ؟ فَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ مَا حَبَسَنِي بِحَرَامٍ أَكَلْتُهُ
وَلَا شَرِبْتُهُ؛ وَلَكِنِّي كُنْتُ صَاحِبَ شَرَابٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَا أَمْرُؤُ شَاعِرٍ يَدِبُ الشُّعْرُ
عَلَى لِسَانِي، فَقُلْتُ مَرْتَجِلاً فِي ذَلِكَ أَيْبَاتًا:

إِذَا مِتُّ فَادْفَنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةِ
وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي
تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروْقَهَا
أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلَّا أَذُوقَهَا

فَلَذَلِكَ حَبَسَنِي، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَتْ سَعْدًا فَصَالَحْتُهُ وَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِ أَبِي مِخْجَنٍ،
فَاطْلَقَهُ، وَقَالَ: اذْهَبْ، فَمَا أَنَا بِمُؤَاخِذِكَ بِشَيْءٍ تَقُولُهُ حَتَّى تَفْعَلَهُ، قَالَ: لَا جَرَمَ وَاللَّهِ
لَا أَجِيبُ لِسَانِي إِلَى قَبِيحٍ أَبَدًا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ سَعْدًا لَمَّا أُخْبِرَ بِأَمْرِ دَعَاهُ وَحَلَ قُبُودَهُ، وَقَالَ: لَا تَجَلَدَنَّ عَلَى
الْخَمْرِ أَبَدًا، فَقَالَ أَبُو مِخْجَنٍ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَشْرِبُهَا أَبَدًا، فَقَدْ كُنْتُ آتِفٌ أَنْ أَدْعَاهَا مِنْ
أَجْلِ جَلْدِكُمْ.

وَقِيلَ: بَلْ قَالَ: قَدْ كُنْتُ أَشْرِبُهَا إِذْ يَقَامُ عَلَيَّ الْحَدُّ وَأَطْهَرُ مِنْهَا، فَأَمَّا إِذْ
بَهَرَجْتَنِي^(٢) فَوَاللَّهِ لَا أَشْرِبُهَا أَبَدًا.

ذكر يوم عماس^(٣)، وهو اليوم الثالث

قَالَ: وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَبَيْنَ الصُّفَيْنِ مِنْ صَرْعَى الْمُسْلِمِينَ أَلْفَانٍ مِنْ
جَرِيحٍ وَقَتِيلٍ، وَمِنْ الْمَشْرِكِينَ عَشْرَةُ آلَافٍ، فَتَقَلَّ الْمُسْلِمُونَ قَتْلَاهُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ،
وَجَزَّحَاهُمْ إِلَى النِّسَاءِ، وَكَانَ النِّسَاءُ وَالصُّبِّيَانُ يَحْفَرُونَ الْقُبُورَ وَيُدَاوُونَ الْجَرْحَى. وَأَمَّا
قَتْلَى الْمَشْرِكِينَ فَبَيْنَ الصُّفَيْنِ لَمْ يُنْقَلُوا، وَبَاتَ الْقَعْقَاعُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ يُسَرِّبُ^(٤) أَصْحَابَهُ إِلَى
الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فَارَقَهُمْ فِيهِ، وَقَالَ: إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَاقْتُلُوا مِائَةً مِائَةً، فَإِنْ جَاءَ
هَاشِمٌ فَذَاكَ، وَإِلَّا جَدِّدْتُمْ لِلنَّاسِ رَجَاءً جَدِيدًا. وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ عَلَى
مَوَاقِفِهِمْ.

(١) العريف: رئيس الجماعة.

(٢) بهرجتي: زيفتي ولم تسمع قولي.

(٣) يوم عماس: اليوم الثالث من أيام القادسية ولا يعرف صاحب معجم البلدان إن كان عماس اسم موضع أو هو من العمس.

(٤) سَرَّبَ الْقَوْمُ: تَتَابَعُوا؛ أَوْ أَرْسَلَهُمُ الْوَاحِدُ تَلُو الْآخَرِ.

فلما بَزَعَتِ الشَّمْسُ أَقْبَلَ أَصْحَابُ الْقَعْقَاعِ، فحين رَأَاهُمْ كَبُرَ وَكَبُرَ الْمُسْلِمُونَ، وَتَقَدَّمُوا وَتَكْتَبَتْ^(١) الْكِتَابُ، وَاخْتَلَفَ الطُّغْنُ وَالضُّرْبُ، وَالْمَدَدُ مَتَابِعٌ، فَمَا جَاءَ آخِرُ أَصْحَابِهِ حَتَّى أُنْتَهَى إِلَيْهِمْ هَاشِمٌ، فَأَخْبِرَ بِمَا صَنَعَ الْقَعْقَاعُ، فَعَبَّى أَصْحَابَهُ سَبْعِينَ سَبْعِينَ، وَكَانَ فِيهِمْ قَيْسُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَعْرُوفُ بِأَبْنِ الْمَكْشُوحِ الْمُرَادِيِّ، فَكَبُرَ وَكَبُرَ الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى الْفُرْسِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى خَرَقَ صَفَّهُمْ إِلَى الْعَتِيقِ ثُمَّ عَادَ، وَكَانَتِ الْفُرْسُ قَدْ أَصْلَحُوا تَوَابِيئَهُمْ وَأَعَادُوا عَلَى الْفَيْلَةِ، وَأَقْبَلَتِ الرِّجَالُ حَوْلَ الْفَيْلَةِ يَحْمُونَهَا أَنْ تُقَطَعَ وَضُنَّتْهَا، وَمَعَ الرِّجَالِ فُرْسَانٌ يَحْمُونُهُمْ، فَلَمْ تَنْفِرِ الْخَيْلُ مِنْهُمْ كَمَا كَانَتْ؛ لِاخْتِلَاطِ خَيْلِ الْفُرْسِ وَرِجَالِهَا بِهَا.

قال: ولما رأى سعد الفيولَ، وقد فَرَقَتِ الْكِتَابُ وَعَادَتْ لِفِعْلِهَا، أَرْسَلَ إِلَى الْقَعْقَاعِ وَعَاصِمَ ابْنَيْ عَمَرٍ: أَنْ أَكْفِيَانِي الْفَيْلَ الْأَبْيَضَ، وَكَانَ بِلَاؤُهُمَا وَالْفَيْوَلُ كُلُّهَا أَلْفَةً لَهُ.

وقال لِحَمَالٍ وَالرَّبِيلِ: أَكْفِيَانِي الْفَيْلَ الْأَجْرَبَ وَكَانَ بِلَاؤُهُمَا، فَحَمَلَ الْقَعْقَاعُ وَعَاصِمٌ بِرُمَحَيْهِمَا وَتَقَدَّمَا فِي خَيْلٍ وَرَجُلٍ حَتَّى وَضَعَاهُمَا فِي عَيْنِي الْفَيْلِ الْأَبْيَضِ، فَنفَضَ رَأْسَهُ، وَطَرَحَ سَاسَتَهُ، وَذَلَّى مِشْفَرَهُ. فَضَرَبَهُ الْقَعْقَاعُ، فَرَمَى بِهِ وَوَقَعَ لَجْنِهِ، وَقَتَلُوا مِنْ كَانَ عَلَيْهِ. وَحَمَلَ حَمَالُ وَالرَّبِيلِ الْأَسَدِيَّانِ عَلَى الْفَيْلِ الْأَجْرَبِ، فَطَعَنَهُ حَمَالُ فِي عَيْنِهِ فَأَقْعَى^(٢)، ثُمَّ أَسْتَوَى، وَضَرَبَهُ الرَّبِيلُ فَأَبَانَ مِشْفَرَهُ، فَتَحَبَّرَ الْفَيْلُ؛ إِذَا جَاءَ إِلَى صَفِّ الْمُسْلِمِينَ زَجَرُوهُ بِالرُّمَاحِ لِيَرْجِعَ، وَإِذَا آتَى صَفَّ الْفُرْسِ نَحَسُوهُ لِيَتَقَدَّمَ، فَوَلَّى الْفَيْلُ وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْعَتِيقِ، وَتَبِعَتْهُ الْفَيْلَةُ فَخَرَقَتْ صَفُوفَ الْأَعَاجِمِ. وَأَقْتَتَلَ الْفَرِيقَانِ حَتَّى الْمَسَاءِ وَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ أَشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ فَخَرَجَا عَلَى السَّوَاءِ. ثُمَّ كَانَتْ لَيْلَةُ الْهَرِيرِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ.

ذكر ليلة الهرير

قيل: وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَرْكِهِمُ الْكَلَامَ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَهْرُونَ هَرِيرًا، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي تَلِي يَوْمَ عَمَاسٍ. قال: وَخَرَجَ مَسْعُودُ بْنُ مَالِكٍ الْأَسَدِيُّ، وَعَاصِمُ بْنُ عَمَرٍ، وَقَيْسُ بْنُ هُبَيْرَةَ وَأَشْبَاهُهُمْ، فَطَارَدُوا الْقَوْمَ، فَإِذَا هُمْ لَا يَشُدُّونَ وَلَا يُرِيدُونَ غَيْرَ الرَّخْفِ،

(١) تَكْتَبَتْ: اجْتَمَعَتْ.

(٢) أَقْعَى: جَلَسَ عَلَى أَلْيَتَيْهِ وَنَصَبَ سَاقِيهِ وَفَخَذِيهِ.

فقدّموا صفوفهم، وزاحفهم النَّاسُ بغير إذن سَعْدٍ، فكان أول من زاحفهم القَعْقَاعُ، فقال سعد: اللَّهُمَّ اغْفِرْهَا لَهُ وَأَنْصُرْهُ، قد أَذْنْتُ لَهُ إِذْ لَمْ يَسْتَأْذِنِي. ثم قال: أرى الأمرَ ما فيه هذا، فإذا كَبُرْتُ ثَلَاثًا فَاحْمِلُوا، فَكَبَّرَ وَاحِدَةً، فَحَمَلْتُ أَسَدَ ثَمِ النَّخَعِ، ثُمَّ بَجِيلَةَ، ثُمَّ كِنْدَةَ، وسعد يقول عند حملة كُلِّ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْهَا لَهُمْ، وَأَنْصُرْهُمْ؛ ثُمَّ رَحَفَ الرُّؤَسَاءُ، وَرَحَا الْحَرْبُ تَدَوَّرَ عَلَى الْقَعْقَاعِ، وَلَمَّا كَبَّرَ الثَّالِثَةَ لِحَقِّ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَخَالَطُوا الْقَوْمَ، فَاسْتَقْبَلُوا اللَّيْلَ بَعْدَمَا صَلَّوْا الْعِشَاءَ، وَأَقْتَتَلُوا لَيْلَتَهُمْ إِلَى الصُّبْحِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ انْتَهَى النَّاسُ، فَاسْتَدَلَّ سَعْدٌ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ الْأَعْلَوْنَ.

ذكر يوم القادسية وقتل رستم

وهزيمة الفرس

قال: وَأَصْبَحَ النَّاسُ مِنْ لَيْلَةِ الْهَرِيرِ - وَتُسَمَّى لَيْلَةُ الْقَادِسيَّةِ - وَهُمْ حَسْرَى^(١)، لَمْ يُغْمِضُوا لَيْلَتَهُمْ كُلَّهَا؛ فَسَارَ الْقَعْقَاعُ فَقَالَ: إِنَّ الدَّائِرَةَ بَعْدَ سَاعَةٍ لِمَنْ بَدَأَ الْقَوْمَ، فَاصْبِرُوا سَاعَةً وَأَحْمِلُوا؛ فَإِنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ.

فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ صَمَدُوا لُرُسْتَمِ حَتَّى خَالَطُوا الَّذِينَ دُونَهُ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ الْقَبَائِلُ قَامَ فِيهِمْ رُؤُوسَاؤُهُمْ، وَقَالُوا: لَا يَكُونَنَّ هَؤُلَاءِ أَجْدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ مِنْكُمْ، وَلَا هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْفُرْسَ - أَجْرًا عَلَى الْمَوْتِ مِنْكُمْ، وَحَمَلُوا وَخَالَطُوا مَنْ بَارِزَهُمْ، فَاقْتَتَلُوا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ زَالَ الْفَيْرُزَانُ وَالْهُرْمُزَانُ، فَتَأَخَّرَا وَتَبَيَّنَا حَيْثُ أَنْتَهَيَا، وَأَنْفَرَجَ الْقَلْبُ وَرَكَدَ عَلَيْهِمُ النَّخَعُ^(٢)، وَهَبَّتْ رِيحٌ عَاصِفٌ دُبُورُ^(٣)، فَقَلَعَتْ طَيَّارَ رُسْتَمِ عَنْ سَرِيرِهِ، فَهَوَى فِي الْعَتِيقِ، وَمَالَ الْغِبَارُ عَلَى الْفُرْسِ، وَأَنْتَهَى الْقَعْقَاعُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى السَّرِيرِ فَعَثَرُوا بِهِ، وَقَدْ قَامَ رُسْتَمٌ عَنْهُ حِينَ أَطَارَتْ الرِّيحُ الطَّيَّارَ، وَاسْتَظَلَّ بِظِلِّ بَغْلٍ مِنْ بَغَالٍ كَانَتْ قَدْ قَدِمَتْ عَلَيْهَا حُمُولٌ، فَضَرَبَ هِلَالُ بْنُ عُلْفَةَ حِمْلَ الْبَغْلِ الَّذِي تَحْتَ رُسْتَمِ، فَقَطَعَ جِبَالَهُ وَسَقَطَ عَلَيْهِ، فَأَزَالَهُ رُسْتَمٌ عَنْ ظَهْرِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ هِلَالٌ ضَرْبَةً، فَفَرَّ نَحْوَ الْعَتِيقِ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِيهِ، فَاقْتَحَمَهُ هِلَالٌ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَرْجِلُهُ^(٤) ثُمَّ خَرَجَ بِهِ، وَضَرَبَ جَبِينَهُ بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ، ثُمَّ صَعَدَ عَلَى السَّرِيرِ وَقَالَ: قَتَلْتُ رُسْتَمَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ؛ إِلَيَّ إِلَيَّ! فَنَفَلَهُ سَعْدٌ سَلْبَهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُ الْمَاءُ، وَلَمْ يَظْفَرُ بِقَلْنُسُوتهِ^(٥)، وَكَانَتْ بِمِائَةِ أَلْفٍ.

(١) الحسرى: الذين أسفوا وتلهفوا. (٢) النخع: التراب.

(٣) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصبا.

(٤) يرجله: أي يعلقه برجليه.

(٥) القلنوسة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

وقيل: إن هلال بن عُلفة لما قَصَد رستم رماه بئُشابة أثبتت قَدَمَه بالركاب، فحمل عليه هلالٌ ففصر به فقتله، ثم احتز رأسه فعلقه ونادى: قتلْتُ رُستم! فانهزم قلب المشركين، وقام الجاليئوس على الرذم، ونادى الفرس إلى العبور، وانهزموا وأخذهم السيف والإسار، وأخذ ضيرارُ بنُ الخطَّاب الدَّرَفَس، وهو العَلَم الأكبر الذي كان للفرس، فعوض عنه بثلاثين ألفاً، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف، وجعل في بيت المال.

وقُتِل في هذه المعركة من الفرس عشرة آلاف سِوى من قُتل قبلها، وأما المُقترون فما أفلت منهم مخبر، وهم ثلاثون ألفاً.

وقُتِل من المسلمين قبل ليلة الهَرِير ألفان وخمسمائة، وقُتِل في ليلة الهَرِير ويوم القادسية ستة آلاف، فدُفِنوا بالخندق، ودُفِن من كان قبل ليلة الهَرِير على مشرق^(١).

وكان ممن أسَّشهد في حَرْب القادسية بنو خَنَسَاء الأربعة، وكان من خبرهم أن أمهم الخَنَسَاء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد السلمية، حضرت القادسية ومعها بنوها الأربعة، وهم رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتبو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خئت أباكم، ولا فضخت خالكُم، ولا هجئت^(٢) حسبكُم، ولا غيَّرتُ نسبكُم؛ وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حَرْب الكافرين، واعلموا أن الدارَ الباقية، خير من الدارِ الفانية؛ يقول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وأضطربت لظى على سباقها^(٣)، وجللت نارا على أوراقها، فتيَّموا وطيسها^(٤)، وجالدوا رئيسها؛ عند احتدام خميسها^(٥)، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة. فخرج بنوها قابلين لئصحها، عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، وأنشأ أولهم يقول: [من الرجز]

يا إختي إنَّ العجوزَ النَّاصحة قد نصحتنا إذ دعَّتنا البارحة

(١) المشرق: بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الراء وكسرها: واد بين العذيب وعين شمس في عدوتيه الدنيا منهما إلى العذيب والقصوى منهما من العذيب ومن عين شمس، دفن فيهما شهداء يوم القادسية... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) هجنت الحسب: جعلته هجيناً، والهجين: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية.

(٣) السباق: الكثير السبق.

(٤) الوطيس: المعركة.

(٥) الخميس: الجيش.

مقالة ذات تبيين واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة^(١)
وإنما تلتون عند الصائحة من آل ساسان كلابا نابحة^(٢)
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة^(٣)
* أو موتة تورث غنما رابحة *

وتقدم فقاتل حتى قتل، ثم حمل الثاني وهو يقول: [من الرجز]

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأي السدذ
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرأ بالولد
فبادروا الحرب حمة في العدذ إما لفوز بارد على الكبذ
أو ميتة تورثكم غنم الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد. ثم حمل الثالث وهو يقول: [من الرجز]

والله لا نعصي العجوز حزفا قد أمرتنا حدبا وعظفا^(٤)
نضحا وبرأ صادقا ولظفا فباكروا الحزب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا أو تكشفوهم عن حماكم كشفا
إننا نرى التقصير منكم ضعفا والقتل منكم نجدة وعزفا^(٥)

وقاتل حتى استشهد. ثم حمل الرابع وهو يقول: [من الرجز]

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم^(٦)
إن لم أرذ في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خضم خضرم^(٧)
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم
وقاتل حتى قتل؛ رحمهم الله.

فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

(١) حرب ضروس: شديدة مهلكة. (٢) الصائحة: صيحة المناحة.

(٣) الجائحة: المصيبة تحل بالرجل فتجتاحه كله.

(٤) حذبت المرأة: امتنعت عن الزواج بعد أبي ولدها رافة به.

(٥) العرف: الصبر.

(٦) الأخرم: الذي انشق ما بين منخريه؛ أو الذي انشقت أذنه.

(٧) الخضرم: الكثير الواسع من كل شيء.

فكان عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يُعطي الخَنَسَاءَ أرزاقَ أولادِها الأربعة؛ لكلٍّ واحد مائتي دِرْهَمٍ؛ حتَّى قُبِضَ رضي الله عنه.
حكاه أبو عُمر بنُ عبدِ البرِّ في تَرْجَمَةِ الخَنَسَاءِ.

نعودُ إلى بقيَّة أخبارِ القادِسيَّة؛ قال:
وَجُمِعَ من الأسلابِ والأَمْوَالِ ما لَمْ يُجْمَع قَبْلَهُ مِثْلُهُ، وأَمَرَ سَعْدُ القَعْقَاعُ وشرحبيلَ بأتباعِهِمْ، وخرج زُهْرَةُ بنُ الحَوَيْةِ التَّمِيمِيَّ في آثارهم في ثلاثمائة فارس، فلحق الجالينوسَ، فقتله زُهْرَةُ وأَخَذَ سَلْبَهُ، وَقَتَلُوا أَكْثَرَ الفُرسِ وأسروهم.
قيل: رَوَّى شابٌ من اللُّخَع وهو يَسُوق ثمانين أسيرًا من الفُرسِ، وكان الرجل يُشير إلى الفارسيِّ فيأتيه فيَقْتُلُهُ؛ وربما أَخَذَ سِلاحَهُ فَقَتَّلَهُ به؛ وربما أَمَرَ الرجلُ فَقَتَّلَ صاحِبَهُ.

وَلَحِقَ سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهليَّ وعبدُ الرحمن بنُ ربيعةَ بطائفة من الفُرسِ قد نَصَبُوا رايةً وقالوا: لا نَبْرَحُ حَتَّى نَمُوتَ. فَقَتَّلَهُمْ سلمانُ ومن معه، وكان قد ثَبَّتَ بعد الهزيمة بضعةً وثلاثون كَتِيبةً من الفُرسِ، استَحْيَوْا من الفُرارِ، فَقَصَدَهُمْ بضعةً وثلاثون من رؤساء المسلمين، لكلِّ كتيبة منها رئيس، فَقَتَّلَهُم المسلمون.

وكتب سَعْدُ إلى عمرَ بالفَتْحِ، وبعْدَهُ مَنْ قُتِلُوا، ومن أُصِيبَ من المسلمين، وَسَمَّى من يَغْرِفُ، وبعَثَ بذلك سَعْدُ بنَ عُمَيْلَةَ الفَزَارِيَّ، واستأذنه فيما يفْعَلُ. وأقام بالقادِسيَّةَ ينتظر جوابَهُ، فأمره بالمسير إلى المدائن^(١)، وأن يَخْلُفَ النِّساءَ والصِّبيانَ بالعَتِيقِ، ويجعل معهم جُنْدًا كَثِيفًا، وَيَشْرِكُهُمْ في كُلِّ مَغْنَمٍ؛ ما داموا يَخْلِفُونَ المسلمين في عِيالاتِهِمْ؛ فَفَعَلَ.

قيل: وكانت وقعة القادِسيَّة في سنة ستِّ عشرة. وقيل: في سنة خمس عشرة، وأُورِذَها أبو جعفر الطُّبريُّ في سنة أربع عشرة، وأُورِذَها أبو الحسن بنُ الأثير في تاريخه «الكامل»، في حوادث سنة أربع عشرة؛ وذكر الخلافَ فيهما. والله سبحانه وتعالى أعلم. فلنذكر ما كان بعد القادِسيَّة والله تعالى أعلم.

(١) المدائن: كانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون... ثم رومية... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ما كان بعد القادسية من الحروب والأيام يوم بُرس^(١)، ويوم بابل، ويوم كوثي^(٢)

وهذه الوقائع والأيام التي نذكرها في هذا الموضع تحت هذه الترجمة، قد أوردَهَا أبو الحسن عليّ بن الأثير - رحمه الله - في تاريخه (الكامل) في حوادث سنة خمس عشرة، كأنه رَجَّح قولَ أهل الكوفة: إِنَّ وقعة القادسية كانت في سنة خمس عشرة.

قال: لما فرغ سعدٌ من القادسية أقامَ بها بعد الفتح شهرين، وكاتبَ عمرَ فيما يفعل، فكتبَ إليه بالمسير إلى المدائن كما قَدَّمنا، فسار من القادسية لأَيَّامَ بَقِيْنَ من شَوَّال، وكُلَّ الناسِ فارس، قد نَقَلَ اللهُ إليهم ما كان في عَسْكَرِ الفُرسِ، فوصلتْ مقدِّمةُ المسلمين بُرسَ وعليها عبدُ الله بن المعتم، وزهرة بن الحَوَيْة وشَرَحْبِيل بن السُّمَط، فلقِيَهُم بها بصبهرى في جمع من الفرس، فهزَمهم المسلمون إلى بابل، وبها رؤساء القادسية: التَّخِيرْجَان، ومهران الرَّازِي، والهَزْمَزَان وأشباههم.

وقد استعملوا عليهم الفَيْرْزَان، وقدم عليهم بصبهرى منهزماً من بُرس، فوقع في النهر، ومات من طعنة، كان طعنه زُهْرَة، ولما هُزِمَ بصبهرى أقبل بسُطَّام دِهْقَان بُرس، فصالح زُهْرَة، وعَقَدَ للمسلمين الجُسُور، وأخبرهم بمن أَجْتَمَعَ ببابل من الفُرس، فأرسل زهرة إلى سَعْدَ يَعْرِفُه بذلك، فَقَدِمَ سعد إلى بُرس، وسير زهرة في المقدمة، وأتبعه عبدُ الله وشَرَحْبِيل وهاشِماً، فنزلوا على الفَيْرْزَان ببابل، وأقتلوا، وانهَزَمَ الفُرس، وانطَلَقُوا على وَجْهَيْنِ:

فسار الهَزْمَزَان نحو الأهواز، فأخذها، وأخرج الفَيْرْزَان نحو نهاوند، فأخذها وبها كنوزٌ كِسرَى.

وسار التَّخِيرْجَان ومهران إلى المدائن، وقَطَعَ الجِسْر، وأقام سعد ببابل، وقَدِمَ زُهْرَة بين يديه بِكثير بن عبد الله اللَّيْثِي، وكثير بن شهاب السَّعْدِي حين عَبَا الصَّرَا^(٣)،

(١) برس: موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتَلَّ مفرط العلو يسمى صرح البرس...

(٢) كوثي: موضع في العراق، وكوثي العراق كوثيان: أحدهما كوثي الطريق والآخر كوثي ربي وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وبها مولده، وهما من أرض بابل... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الصرا: هما نهران ببغداد: الصرا الكبرى والصرا الصغرى، أحدهما يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ ويسقي ضياع بادوريا ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد فيمر بقطرة العباس ثم قطرة الصبيبات ثم قطرة رحا البطريق... ولم يذكر صاحب معجم البلدان شيئاً عن النهر الآخر.

فلحقا بأخريات القوم، وفيهم فيومان والفرخان فقتلاههما، وجاء زهرة فجاز سورا، وتقدم نحو الفرس وقد نزلوا بين كوثي والدثير، وقد استخلف النخيرجان ومهران على جنودهما شهريار، فنارلهم زهرة، فبرزوا لقتاله، وطلب شهريار المبارزة، فخرج إليه أبو نباتة نايل بن جعشم الأعرجي، وكان من شجعان تميم، فظفر به وقتله، وأخذ فرسه وسواريه وسلبه، وأنهزم أصحابه، وأقام زهرة بكوثي حتى قدم عليه سعد، فقدم إليه نايلا وألبسه سلاح شهريار وسواريه، وأركبه برذونه، فكان أول عربي سور بالعراق. وأقام سعد بها أياما.

وقيل: كانت هذه الوقائع في سنة ست عشرة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خبر بهرسير^(١) وهي المدينة الغربية

قال: ثم مضى زهرة إلى بهرسير في المقدمات، فتلقاه شيرزاد دهقان ساباط بالصلح، فأرسله إلى سعد فصالحه على الجزية، ولقي سعد كتيبة كسرى التي تدعى بوران، وكانوا يحلفون كل يوم ألا يزول ملك فارس ما عشنا، فهزمهم، فقتل هاشم بن عتبة المقرط، وهو أسد كان كسرى قد ألفه، فقبل سعد رأس هاشم وبعثه في المقدمة إلى بهرسير، ووصلها سعد والمسلمون، فلما رأوا إيوان كسرى، كبر ضراؤ بن الخطاب، وقال: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وكبر الناس معه، فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا، ثم نزلوا على المدينة، وكان نزولهم في ذي الحجة سنة خمس عشرة. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الغربية وهي بهرسير

كان فتحها في صفر سنة ست عشرة. وذلك أن سعد بن أبي وقاص نزل عليها وحاصرها شهرين، ونصب عليها عشرين متجنيقا، وقاتل أهلها قتالا شديدا، وأرسل سعد الخيول، فأغارث على من ليس له عهد، فأصابوا مائة ألف فلاح، فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه، فقال: من جاءكم ممن يوعين عليكم فهو أمائهم، ومن هرب فأدركنموه فشأنكم به، فحلى سعد عنهم، وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة؛ فتراجعوا.

(١) بهرسير: بالفتح ثم الضم، وفتح الراء وكسر السين المهملة، وياء ساكنة، وراء: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بهرسير الرومقان... (معجم البلدان).

قال: وأشدّ الحصارُ على أهل المدائن الغربيّة، حتى أكلوا السنانيِر^(١) والكلاب، فبينما هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسولٌ، فقال: يقول لكم المَلِك: هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يليّنا من دجلة إلى جَبَلنا، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جَبَلِكُم؟ أما شِيعَتُم! لا أشيَع الله بطونكم! فقال له أبو مُفَرِّز الأسود بن قُطَبَة، وقد أنطقه الله عزّ وجلّ بما لا يدري لا هو ولا مَنْ معه، فرجع الرّجلُ، فَقَطَعَ الفُرس دجلة إلى المدائن الشّرقية التي فيها الإيوان، فقال له مَنْ معه: يا أبا مَفَرِّز، ما قلتَ للرّسول؟ قال: والله ما أدري، وأرجو أن أكون قد نطقْتُ بالذي هو خيرٌ، فنأدي سعدُ في النَّاس، فنهذوا إليهم^(٢)، فما ظهّر على المدينة أحد ولا خَرَجَ إلّا رجلٌ يُنادي بالأمان، فأمنّوه؛ فقال لهم: ما بَقِيَ في المدينة أحدٌ يَمْنَعُكم؛ فدخلوا فما وَجَدوا فيها غيرَ الأسارى وذلك الرّجل، فسألوه: لأي شيء هَرَبُوا؟ فقال: بَعَثَ إليكم المَلِك بالصُّلح فأجبتُموه: إلّا صُلحَ بيننا وبينكم أبداً حتى نأكلَ عَسَلَ أفريدون بأُتْرُج^(٣) كُوْثَى؛ فقال المَلِك: يا وَلِيَّتِي، إِنَّ الملائكة تكلّم على ألسنتهم ترُدُّ علينا، فساروا إلى المدينة القُصوى، ودخلَ المسلمون المَدِينَة، وأنزلهم سعد المَنازِلَ. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الشرقية التي فيها إيوان كسرى

قال: وأقام سعدٌ ببَهْرَسِيرَ أياماً من صَفَر، ثم قَصَدَ المدائن، وقطع دجلة، وهي تقذف بالرّيد لكثرة المدّ؛ وكان سَبَبُ عبوره أنْ عَلَجَا^(٤) جاءه فقال: ما مَقَامُكَ؟ لا يأتي عليك ثالث حتى يذهبَ يَزْدَجِرْدُ بكل شيءٍ في المدائن، فهتّجه ذلك على العبور، فقام وخطب النَّاس، وقال: إِنَّ عدوكم قد أعتصمَ بهذا البَحْر، فلا

(١) السنانيِر: جمع السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم، من خير ماأكله الفأر. ومنه أهلي وبري.

(٢) نهذوا: هموا.

(٣) أترج: معروف وباليونانية نالطيسون، يعني ترياق السموم، ومنه يوناني، وبالعبرية متكا أيضاً، والسريانية لتراكين؛ وهو ثمر شجر يطول، ناعم الورق والحطب ويدرك عند شمس القوس وأجوده الأملس الطوال الكبار النضيجة وأردؤه ما مال إلى استدارة ومنه ما في وسطه حماض وهو مركب القوى... مفرح يرفع الرئسة ويزيل الخفقان والسود ويحلل الرياح الغليظة ويقوي المعدة ورماد قشره يذهب البرص طلاء ومجموعه يحلل الأورام والديبلات... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٤) المراد بالعلاج هنا: الرجل من كفار العجم.

تَخْلُصُونَ إِلَيْهِ مَعَهُ، وَيَخْلُصُونَ إِلَيْكُمْ فِي سُفْنِهِمْ إِذَا شَاؤُوا، وَلَيْسَ رِءَاكُم مَّا تَخَافُونَ مِنْهُ، فَقَدْ كَفَاكُمْ اللَّهُ أَهْلَ الْأَيَّامِ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الرَّأْيِ أَنَّ تُجَاهِدُوا الْعَدُوَّ؛ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى قَطْعِ هَذَا الْبَحْرِ إِلَيْهِمْ؛ فَقَالُوا جَمِيعًا: عَزَمَ اللَّهُ لَنَا وَلَكَ عَلَى الرُّشْدِ، فَأَفْعَلْ.

فَتَدْبِ النَّاسَ عَلَى الْعُبُورِ، وَقَالَ: مِنْ يَبْدَأُ وَيَحْمِي لَنَا الْفِرَاضَ^(١) حَتَّى تَتَلَاخَقَ بِهِ النَّاسُ؛ لَكَيْلًا يَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْعُبُورِ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ عَاصِمُ بْنُ عَمْرِو ذُو الْبَاسِ فِي سِتْمَاةٍ مِنْ أَهْلِ التَّجْدَاتِ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَاصِمًا، فَتَقَدَّمَهُمْ عَاصِمٌ فِي سِتَيْنِ فَارَسًا، قَدْ أَقْتَحَمُوا دِجْلَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُم الْأَعَاجِمُ، وَمَا صَنَعُوا أَخْرَجُوا لِلْخَيْلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ مِثْلَهَا، فَأَقْتَحَمُوا عَلَيْهِمْ دِجْلَةَ، فَلَقُوا عَاصِمًا وَقَدْ دَنَا مِنَ الْفِرَاضِ، فَقَالَ عَاصِمٌ: الرِّمَاحَ الرِّمَاحَ! أَشْرِعُوهَا، وَتَوَخَّوْا الْعُيُونَ، فَالْتَقَوْا، فَطَعَنَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي عُيُونِهِمْ، فَوَلَّوْا وَلِحِقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَتَلُوا أَكْثَرَهُمْ، وَمَنْ نَجَا صَارَ أَعُورَ، وَتَلَاخَقَ السِتْمَاةُ بِالسَّتَيْنِ.

وَلَمَّا رَأَى سَعْدٌ عَاصِمًا عَلَى الْفِرَاضِ قَدْ مَنَعَهَا؛ أَذِنَ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْتِحَامِ، وَقَالَ: نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. وَأَقْتَحَمَ النَّاسُ دِجْلَةَ يَتَحَدَّثُونَ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَرِّ، وَطَبَّقُوا دِجْلَةَ حَتَّى مَا يُرَى مِنَ الشَّاطِئِ شَيْءٌ.

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَدَائِنِ أَعْجَبُ مِنْ دُخُولِ الْمَاءِ، وَكَانَ يُدْعَى يَوْمَ الْجَرَاثِمِ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا انْتَشَرَتْ^(٢) لَهُ جُرْثُومَةٌ^(٣) مِنَ الْأَرْضِ يَسْتَرِيحُ عَلَيْهَا؛ حَتَّى مَا يَبْلُغُ الْمَاءُ حِزَامَ فَرَسِهِ، فَعَبَّرُوا سَالِمِينَ، لَمْ يَغْدَمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا عُدِمَ لِأَحَدٍ شَيْءٌ إِلَّا قَدْحٌ لِمَالِكِ بْنِ عَامِرٍ سَقَطَ مِنْهُ فَجَرَى فِي الْمَاءِ، ثُمَّ أَلْقَتْهُ الرِّيحُ إِلَى الشَّاطِئِ، فَأَخَذَهُ صَاحِبُهُ، فَلَمَّا رَأَى الْفُرْسُ غُبُورَهُمْ خَرَجُوا هُرَابًا نَحْوَ حُلُوانَ، وَكَانَ يَزْدَجِرْدُ قَدْ قَدِمَ عِيَالُهُ إِلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ. وَلَمَّا هَرَبَ حَمَلُ أَصْحَابِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِمَّا خَفَ، وَمِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، وَتَرَكَوا فِي الْخَزَائِنِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْثِيَابِ وَالْأَلْطَافِ^(٤) مَا لَا تُدْرِكُ قِيمَتُهُ، وَتَرَكَوا مَا قَدْ أَعْدَوْهُ لِلْحَصَارِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْعَتَمِ وَالْبَقَرِ، وَكَانَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ثَلَاثَةُ آلَافِ أَلْفٍ، أَخَذَ مِنْهَا رَسْتَمٌ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ النِّصْفَ، وَبَقِيَ النِّصْفُ.

(١) الفراض: جمع فرضة، وهي محطة السفن من النهر.

(٢) انتشرت: بمعنى خرجت.

(٣) الجرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجر؛ والمراد هنا المكان المرتفع عن الأرض مجتمع من تراب أو طين.

(٤) الألفاظ: جمع اللطف، وهي الهدية.

وكان أول من دَخَلَ المدائن كتيبة الأهوال، وهي كتيبة عاصم بن عمرو، ثم كتيبة الخرساء وهي كتيبة القَعْقَاع بن عمرو، فأخذوا في سِكَكِهَا^(١) وأحاطوا بالقصر الأبيض وبه من بَقِي من الفُرس، فأجابوا إلى الجزية والذمة، فتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم، ونزل سعد القصر الأبيض، وسرح زهرة في آثارهم إلى النهرين، وسرح مقدار ذلك في كل جهة.

وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وراعيهم. دعا أهل بَهْرَسِير ثلاثاً، وأهل القصر الأبيض ثلاثاً. واتخذ سعد إيوان كسرى مُصَلًى، ولم يغير ما فيه من التماثيل، ولما دخل الإيوان، قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوُجُوهِ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ ۖ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَيَكِينٍ ۝﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٨﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهما، وأتم الصلاة لأنه نوى الإقامة، وكانت أول جمعة أقيمت بالمدائن في صفر سنة ست عشرة.

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

قال: وجعل سعد على الأقباض عمرو بن عمرو بن مِقْرَن، وعلى القسمة سلمان بن ربيعة الباهلي، فجمع ما في القصر والإيوان والدور، وأحصى ما يأتيه به أهل الطلب، وجدوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالاً مختومة برصاص فيها آنية الذهب والفضة، فكان الرجل يطوف ويبيع الذهب بالفضة مثلاً بمثل، ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً. وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفُرس على جسر النهرين فأزدحموا عليهم، فوقع منهم بغل في الماء فأخذه المسلمون وفيه حلية كسرى وثيابه، وخرزاته وشاحه، وذرعه المجوهر. ولحق بعض المسلمين بعلين مع فارسين فقتلها، وأخذ البغلين فأوصلهما إلى صاحب الأقباض، وهو يكتب ما يأتيه به الناس، فاستوقفه حتى ينظر ما جاء به؛ فإذا على أحدهما سَفْطَان^(٢) فيهما تاج كسرى مُفَسَّخاً، وكان جملة على أسطوانتين، وفيه الجوهر، وعلى البغل الثاني سَفْطَان فيهما ثياب كسرى من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر، وغير الديباج منسوجاً منظوماً. وأدرك القعقاع فارسيًا فقتله وأخذ منه عِيَّتَيْنِ^(٣) في أحدهما

(١) السلك: واحدتها سكة، وهي السطر المصطف من الشجر والنبيل.

(٢) السفط: وعاء كالجوالق.

(٣) العيبة: وعاء من آدم ونحوه يكون فيه المتاع.

خمسة أسياف، وفي الأخرى ستة أسياف، وأذرع منها دزُع كسرى، ومغافره^(١) وسيفه، ودرع هرقل وسيفه، ودرع شوبين وسيفه، ودرع سياوخش وسيفه، ودرع النعمان وسيفه، وبقية السيوف لهزمز وقباز وفيروز.

وكان الفرس قد استلبوا أذراع ملوك الهند والترك والروم وسيوفهم لما غزؤهم، فأحضر القعقاع ذلك إلى سعد فحيره في الأسياف فاختر سيف هرقل، وأعطاه دزُع بهرام، ونقل سائرهما إلا سيف كسرى وسيف النعمان، فبعث بهما إلى عمر بن الخطاب؛ لتسمع العرب بذلك بعد أن حسبهما في الأخماس، وبعث بتاج كسرى وجليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون.

قال: وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران، فقتل أحدهما وهرب الآخر، وأخذ الحمارين وأتى بهما إلى صاحب الأقباض، فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة على ثفره^(٢) ولبته الياقوت والزبرجد، ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلفة بالجواهر، وفي الآخر ناقه من فضة عليها شليل^(٣) من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلف بالجواهر، كان كسرى يصنعها على أسطواناتي التاج.

وأدى المسلمون الأمانة في المغمم، ولما جمعت الغنائم خمسها سعد، وقسم ما بقي من الخمس والثقل^(٤) بين الناس، وكانوا ستين ألفا كلهم فارس، أصاب كلاً منهم اثنا عشر ألفاً، ونقل من الأخماس في أهل البلاء، وقسم المنازل بين الناس، وأحضر العيالات فأنزلهم في الدور، فأقاموا بالمدائن؛ حتى نزلوا إلى الكوفة بعد فراغهم من جلولاء^(٥)، وتكريت، والموصل.

قال: وأرسل سعد في الخمس كل شيء يتعجب منه العرب، وأراد أن يخرج خمس القطيف فلم تعدل قسمته، فقال للمسلمين: هل تطيب نفوسكم بأربعة أخماسه، وتبعث به إلى أمير المؤمنين يضعه حيث يشاء؟ قالوا: نعم، فبعث به إلى عمر.

(١) المغافر: جمع المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٢) الثفر: سير في مؤخر السرج ونحوه يشد على عجز الدابة تحت ذنبها.

(٣) الشليل: مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرجل.

(٤) الثقل: الغنيمة.

(٥) جلولاء: بالمد: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا... (معجم البلدان لياقوت).

والقَطِيف: بِسَاطٍ، واحِدٌ طَوْلُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وعَرَضُهُ مِثْلُ ذَلِكَ مِقْدَارَ جَرِيبٍ^(١). كانت الأكاسرة إذا ذهبت الرّياحين بعد الشّتاء شربوا عليه، فكأنّهم في رياض، فيه طُرُقٌ كالقصور، وفصوصٌ كالأنهار، أرضه مُذهّبةٌ، وِخْلَالُ ذَلِكَ فُصُوصٌ كالدرّ، وفي حافاته كالأرض المزروعة والمُبْقَلَة^(٢) بالنبات والورق من الحرير على قُضبانِ الدّهب، وأزهاره الدّهبُ والفضّة، وثماره الجوهَرُ وأشباه ذلك.

فلَمّا وصلَ إلى عَمَر استشار المسلمين فيه، فأشاروا بقطّعه، فقَطّعه بينهم، فأصابَ عليّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه قطعةً منه، فباعها بعشرين ألفًا، ولم تكن أجودَ مِن غيرها.

ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان^(٣)

كانت وقعة جلولاء في أول ذي القعدة سنة ست عشرة، بينها وبين المدائن تسعة أشهر، وسببها أنّ الفُرس لما هَرَبُوا من المدائن انتهبوا إلى جَلُولَاء، فافتقرت الطُرُقُ بأهلِ أَذْرَبِجَانِ والباب، وأهل الجبال وفارس، فقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبدًا، وهذا مكانٌ يُفَرِّقُ بيننا، فهِلُمُّوا فلنجتمع للعرب به، وقَاتِلْهُمْ فَإِنْ كَانَتْ لَنَا فِيهِ الَّذِي نَحِبُ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى كُنَّا قَدْ قَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا، وَأَبْلَيْنَا عُذْرًا. فاجتمعوا واحتفروا حُندَقًا، واجتمعوا فيه على مِهْران الرازي، وتقدّم يَزْدَجِرْدُ إلى حُلُوان، فبلغ ذلك سعدًا، فأرسل إلى عمر، فبعث إليه أن سَرَّحَ هاشم بنَ عُتبَةَ بنَ أبي وقاص إلى جَلُولَاء، واجعل على مقدّمته القعقاعَ بنَ عمرو، وإن هَزَمَ اللَّهُ الْفُرسَ فاجعل القعقاعَ بين السّوَادِ والجَبَلِ، وليكن الجندُ اثني عَشَرَ ألفًا. ففعل سعد ذلك.

وسار هاشم من المدائن في وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب، فمرّ ببابل مهروذ، فصالحه دهقائها؛ على أن يُفرش له جريبُ الأرضِ دراهمَ ففعل، ثم قَدِمَ جَلُولَاءَ فحاصَرَهُمْ في خنادقهم، وأحاط بهم، وطاولهم الفُرس وجعلوا لا يَخْرُجُونَ إِلَّا إِذَا أَرَادُوا، وراجعهم المسلمون نحو ثمانين يومًا، كلُّ ذَلِكَ يُنْصَرُ المسلمون عليهم، وجعلت الأمدادُ تَرِدُ من يَزْدَجِرْدُ إلى مِهْران، ومن سَعْدٍ إلى المسلمين.

(١) الجريب: مكيال قدر أربعة أقدرة. (٢) المبقلة من الأرض: التي تثبت البقل.

(٣) حلوان: وهي في عدة مواضع: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد... قيل: أكثر ثمارها التين... وربما يسقط بها الثلج... وفيها رمان ليس في الدنيا مثله... وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء... (معجم البلدان).

وخرج الفُرسُ يوماً فقاتلوا قتالاً شديداً، وأرسل الله عليهم ريحاً حتى أظلمت عليهم البلاد، فسقط فرسائهم في الخندق، فجعلوا فيه طُرُقاً تصعد منها خيلهم، ففسد الخندق، فنهض المسلمون وأقتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله، ولا لئلة الهَرير، إلا أنه كان أعجل. وأنتهى القَعْقَاعُ من الوجه الذي زحف منه إلى باب الخندق، وأمر منادياً فنادى: يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل الخندق، فأقبلوا إليه، ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله، فحملوا وهم لا يشكّون أن هاشماً في الخندق، فإذا هم بالقَعْقَاعِ، فأنهزم الفُرسُ يَمَنَةً ويسرة، وأتبعهم المسلمون، فلم يُقِلَّتْ منهم إلا القليل، وقُتِلَ منهم يومئذٍ مائة ألف، فجلّت^(١) القَتلى المجال، وما بين يديه وما خلفه، فسُميتْ جُلُولاً بما جلّ لها من قتلهم، وسار القَعْقَاعُ في الطلب حتى بلغ خانقين، فأدرك مهران الرازي فقتله، وأدرك الفَيْرُزَانَ، فنزل وتوقّل^(٢) في الجبل فنجا، وأصاب القَعْقَاعُ سبائاً فأرسلهم إلى هاشم فقسّمهم، فأستولدهن المسلمون، ومن ينسب إلى ذلك السبي أمّ السّبي.

قال: ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من خلوان نحو الرّي، واستخلف على خلوان خُسرشَنوم، فلما وصل القَعْقَاعُ قصرَ شيرين خرج إليه خُسرشَنوم، وقدم إليه الرّينبي دُهْقَانُ خلوان، فقتله القَعْقَاعُ، وهرب خُسرشَنوم، وأستولى المسلمون على خلوان، وكان فتحها في ذي القعدة، وبقي القَعْقَاعُ بها إلى أن تحوّل سعد إلى الكوفة، فليحقه، وأستخلف على خلوان قُباد، وكان أصله خُراسائياً، وكتبوا إلى عمر بالفتح، واستأذنوه في العبور فأبى، وقال: لوددت أن بين السّود والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الرّيف السّود، إنّي أثمرت سلامة المسلمين على الأنفال.

قال: وجمعت الغنائم وقُسمت بعد الخمس، فأصاب كلّ فارس تسعة آلاف، وتسعة من الدّواب، وقُسم الفّيء على ثلاثين ألفاً.

وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف، وبعث سعد بالخمسة إلى عمر، وهو ستة آلاف ألف، وبعث الحساب مع زياد ابن أبيه، فكلّمه عمر فيما جاء له، فوصفه له، فقال له عمر: هل تستطيع أن تقوم في النّاس بمثل ما كلّمْتَنِي؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك! فقام في النّاس فتكلّم بما أصابوا وبما صنعوا، وبما يستأنفون من الانسياح في البلاد.

(١) جلّ: عَم.

(٢) توقّل في الجبل: صعد.

فقال عمر: هذا الخطيب المضقع^(١)، فقال: إن جئنا بالفعال أطلقوا ألسنتنا.
قال: ولما قديم الخمس على عمر قال: والله لا يُجِته^(٢) سَقَفٌ حتى أقسمه،
فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأزقم يحرسانه في المسجد، فلما أصبح
عمر جاء في الناس فكشف عنه، فلما جاء ونظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى،
فقال عبد الرحمن بن عوف: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لَموطن شُكر.
فقال عمر: والله ما ذاك يبكي، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا،
ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم.

ومنع عمر رضي الله عنه من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض،
ومقيض المياه، وما كان لبُيوت النار، وليسكك البرد^(٣)، وما كان لكسرى ومن معه،
وخاف الفتنة بين المسلمين فلم يُقسّمه، ومنع من بيعه، فلا يحل بيع شيء من أرض
السواد ما بين خلوان والقادسية.

قال: وأشتري جرير أرضاً على شاطئ الفرات، فردّ عمر ذلك الشراء وكرهه.
والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحها الأبلّة

قد اختلف المؤرخون في وقت ولايته البصرة، وهل كانت من قبل عمر بن
الخطاب أو من قبل سعيد بن أبي وقاص بأمر عمر. فأما من يقول: إن ولايته من قبل
عمر، فإنه جعلها في سنة أربع عشرة، وأن نزوله البصرة كان في شهر ربيع الأول أو
الآخر، بعثه عمر إليها، وكان بالبصرة قُطبة بن قَتادة السدوسي يُغيّر بتلك التواحي،
كما يُغيّر المشي بالحيرة، فكتب إلى عمر يُعلمه مكانه؛ وأنه لو كان معه عدد يسير
لظفر بمن قبله من العجم، فتقاهم عن بلادهم. فكتب إليه عمر يأمره بالمقام والحدّ،
ووجه إليه شريح بن عامر أحد بني سعيد بن بكر، فأقبل إلى البصرة ونزل بها قُطبة،
ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس، وفيها مسلحة^(٤) الأعاجم، فقتلوه.

فبعث عمر عتبة بن غزوان، وقال له: إنّي قد استعملتُك على أرض الهند وهي
خومة^(٥) من حومات العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، ويعينك عليها. وقد

(١) المصقع: البالغ يتفنن في مذاهب القول. (٢) يجته: يستره.

(٣) البرد: جمع البريد. (٤) المسلحة: موضع السلاح.

(٥) الحومة من القتال: أشد موضع فيه.

كتبْتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدك بعرفجة بن هرثمة، وهو ذو مُجاهدة ومكيدة للعدو، فإذا قَدِمَ عليك فاستشِرْه وأدعُ إلى الله، فَمَنْ أجابَكَ فأَقْبِلْ منه، ومن أبى فالجِزْيَة، وإلا فالسيف، وأوصاه ثم قال له: انطلق أنت ومَنْ معك؛ حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب، وأدنى أرض العجم فأقيموا.

فسار عتبةٌ ومَنْ معه حتى إذا كانوا بالمربد^(١) تقدَّموا حتَّى بلغوا جبالَ الجسر، فنزلوا، فبلغ صاحبَ الفراتِ خبرهم، فأقبل في أربعة آلاف، فألتقوا فقاتلهم، عتبةٌ بعد الزوال وهو في خمسمائة، فقتلهم أجمعين، ولم يبقَ إلا صاحبُ الفراتِ، فأخذ أسيرًا.

وأما من يقول: إنَّ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ أرسله، فقال: إنَّ البصرةَ مُصِرَّت في سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت، فأرسله سعدٌ إليها بأمرِ عمر، وإنَّ عتبةً لما نزل البصرةَ أقامَ بها نحو شهر، فخرج إليه أهلُ الأُبلة، وكان بها خمسمائة أسوار^(٢) يَحْمُونَهَا، وكانت مَرْفَأُ السُّفْنِ مِنَ الصَّيْنِ، فقاتلهم عتبةٌ فهزَمهم؛ حتَّى دخلوا المدينة، ورجعَ عتبةٌ إلى عسكره، وألقى الله الرُّعبَ في قلوبِ الفُرسِ، فخرَجوا عن المدينة وحَمَلوا ما خَفَ، وعَبَرُوا الماءَ، وأَخْلَوْا المدينةَ ودَخَلَهَا المسلمون وأصابوا متاعًا وسلاحًا وسَبِيًّا، فاقتسموه بعد أن حَمَسَهُ عتبةٌ، وكان المسلمون ثلاثمائة، وكان قَتْلُهَا في شهر رجب أو شعبان، ثم نَزَلَ موضعَ مَدِينَةِ الرِّزْقِ، وَخَطَّ موضعَ المَسْجِدِ، وبناء بالقَصَبِ. وكان أولُ مولود وُلِدَ بالبصرةَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بَكْرَةَ، فلَمَّا وُلِدَ نَحَرَ أبوه جَزُورًا فَكَفَنَهُمْ لِقَلَّةِ النَّاسِ، ثم جمعَ اللَّهُ أَهْلَ دَسْتَمِيسَانَ، فلقِيهم عتبةٌ فهزَمهم وأخذ مَرْزُبَانَهَا أسيرًا، وأخذَ قَتَادَةَ مِنْطَقَتَهُ فَبَعَثَ بِهَا إلى عمرَ مع أَنَسِ بْنِ حُجَيْجَةَ. فقال له عمر: كيف النَّاسُ؟ فقال: انهالت عليهم الدنيا، فهم يَهِيلُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فرَغِبَ النَّاسُ فِي البَصْرَةِ فَأَتَوْهَا، واستعمل عتبةٌ مجاشِعَ بنَ مسعودٍ على جماعةٍ وسيرهم إلى الفُراتِ واستخلفَ المَغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ عَلَى الصَّلَاةِ؛ إلى أن يقدَمَ مجاشِعُ فإذا قَدِمَ فهو الأمير.

وسار عتبةٌ إلى عُمَرَ، فطَفِرَ مجاشِعُ بأهلِ الفُراتِ. وجمعَ الفيلكان (عظيم من الفُرس)، فخرجَ إليه المَغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فلقِيه بِالْمَرْغَابِ فَأَقْتَتَلُوا. فقال نِسَاءُ المُسْلِمِينَ: لو لِحِقْنَا بِهِمْ، فَكُنَّا مَعَهُمْ؛ فَاتَّخَذْنَ مِنْ حُمْرِهِنَّ رَايَاتٍ، وسرن إلى المسلمين.

(١) المربد: سوق بالبصرة.

(٢) الأسوار: جمع الأساورة، وهم فرسان العجم.

وكتب المغيرة إلى عمر بالفتح، فقال عمر لعُتْبَةُ: من استعملت بالبصرة؟ فقال: مجاشع بن مسعود. قال: أتستعمل رجلاً من أهل الويز على أهل المدرا وأخبره ما كان من المغيرة، وأمره أن يرجع إلى عمله، فمات بالطريق. وقيل في وفاته غير ذلك.

وكان ممن سبي من ميسان يسار أبو الحسن البصري، وأزطبان جد عبد الله بن عون بن أزطبان. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ذكر فتح تكريت والموصل

وفي سنة ست عشرة في جمادى فتحت تكريت؛ وذلك أن الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت، وخذق عليه ليحمي أرضه ومعه الرّوم وإياد، وتغلب، والنمير، والشّهارجة، فبلغ ذلك سغدا فكتب إلى عمر، فأمره: أن سرّح عبد الله بن المغتّم، واستعمل على مقدمته ربيعة بن الأفكل، وعلى الخيل عَزَفَجَة بن هرثمة.

فسار عبد الله إلى تكريت، وحصر الأنطاق ومن معه أربعين يوماً، وتزاحفوا في المدة أربعة وعشرين زحفاً، ثم أرسل عبد الله إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعّوهم إلى الإسلام، فأسلموا، وأعلموا أن الرّوم قد نقلوا متاعهم إلى السُّفْن، فأرسل إليهم: إذا سمعتم التكبير فأعلموا أننا على أبواب الخندق، فخذوا الأبواب التي تلي دجلة، وكبروا، واقتلوا من قدرتم عليه، ففعلوا ذلك، وأخذت الرّوم السيوف من كل جانب.

وأرسل عبد الله ربيعة بن أفكل إلى الحصنين وهما نينوى^(١) وهو الحصن الشرقي، والموصل وهو الحصن الغربي، وقال: اسبق الخبر، وسرّح معه تغلب، وإياد، والنمير، فأظهروا الظفر والغنيمة، وبشروهم، ووقفوا بالأبواب. وأقبل ابن الأفكل فأقتحم الحصن فسألوا الصلح، وصاروا ذمة، وقسمت الغنيمة، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الرّاجل ألف درهم، وبعثوا بالأخماس إلى عمر، وولى الموصل ربيعة بن الأفكل، والخزاج عَزَفَجَة بن هرثمة.

(١) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو: هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، ويسود الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه... (معجم البلدان).

وقيل: إِنَّ فَتْحَ الْمُوصِلِ كَانَ فِي سَنَةِ عَشْرِينَ لَمَّا اسْتَعْمَلَ عُمَرُ عُبَيْةَ بْنَ فَرْقَدَ لِقَضَائِهَا، وَأَنَّهُ فَتَحَ الْمَرْجَ، وَبَانْهَذَرَا، وَبَاعْذَرَا، وَجِبْتُونَ، وَدَاسَنَ وَجَمِيعَ مَعَاقِلِ الْأَكْرَادِ، وَفَرْقَدَى وَبَارْزُدَى، وَجَمِيعَ أَعْمَالِ الْمُوصِلِ.

وقيل: إِنَّ عِيَاضَ بْنَ عَنَمٍ لَمَّا فَتَحَ بِلَدَ أَتَى الْمُوصِلَ فَفَتَحَ أَحَدَ الْحِصْنَيْنِ، وَبَعَثَ عُبَيْةَ بْنَ فَرْقَدَ إِلَى الْحِصْنِ الْآخَرِ، فَفَتَحَهُ عَلَى الْجَزِيَةِ وَالْخَرَاكِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر فتح ماسيدان

لَمَّا رَجَعَ هَاشِمُ بْنُ عُبَيْةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مِنْ جُلُولَاءَ إِلَى الْمَدَائِنِ بَلَغَ سَعْدًا أَنَّ أَذِينَ بْنَ الْهُرْمُزَانَ قَدْ جَمَعَ جَمْعًا وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى السَّهْلِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ضِرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي جَيْشٍ، فَالْتَقَوْا بِسَهْلِ مَاسِيدَانَ وَأَقْتَتَلُوا، فَأَسْرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَشْرُوكِينَ، وَأَخَذَ ضِرَارُ أَذِينَ أَسِيرًا فَقَتَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ فِي الطَّلَبِ حَتَّى أَنتَهَى إِلَى السَّيْرَوَانَ، فَأَخَذَ مَاسِيدَانَ عَنُوةً، وَهَرَبَ أَهْلُهَا فِي الْجِبَالِ، فَدَعَاهُمْ فَأَسْتَجَابُوا لَهُ، وَأَقَامَ بِهَا حَتَّى تَحَوَّلَ سَعْدٌ إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَارَ إِلَيْهِ، وَأَسْتَخْلَفَ عَلَى مَاسِيدَانَ أَبْنَ الْهُذَيْلِ الْأَسَدِيَّ، فَكَانَتْ أَحَدَ فُرُوجِ الْكُوفَةِ.

وقيل: إِنَّ فَتْحَهَا كَانَ بَعْدَ وَقْعَةِ نَهَاوَنْدَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذكر فتح قرقيسيا

وَفِي سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ أَيْضًا، أَرْسَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عُمَرَ بْنَ مَالِكِ بْنِ عُتْبَةَ فِي جَنْدٍ، وَجَعَلَ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْحَارِثَ بْنَ يَزِيدَ الْعَامِرِيَّ، فَخَرَجَ نَحْوَ هَيْتَ، فَتَازَلَ مَنْ بِهَا، وَقَدْ خَنَدَقُوا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ لَمَّا أَمَدُّوا هِرْقُلَ عَلَى أَهْلِ حِمْنَصٍ كَمَا ذَكَرْنَا، بَعَثُوا جُنْدًا إِلَى أَهْلِ هَيْتَ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ ائْتِصَامَهُمْ بِخَنْدَقِهِمْ، تَرَكَ الْأَخْبِيَةَ عَلَى حَالِهَا، وَخَلَّفَ عَلَيْهِمُ الْحَارِثَ فِي نِصْفِ النَّاسِ، وَسَارَ بِالنِّصْفِ الثَّانِي إِلَى قَرْقِيسِيَا، فَجَاءَهَا عَلَى غِرَّةٍ فَأَخَذَهَا عَنُوةً، فَأَجَابُوا إِلَى الْجَزِيَةِ. وَكُتِبَ إِلَى الْحَارِثِ: إِنَّهُمْ أَسْتَجَابُوا فَخَلُّ عَنْهُمْ فَلْيُخْرِجُوا إِلَّا خَنْدِيقَ عَلَى خَنْدَقِهِمْ خَنْدَقًا، وَأَجْعَلْ أَبْوَابَهُ مِمَّا يَلِيكَ حَتَّى أَرَى رَأْيِي. فَرَأَسَلَهُمْ، فَأَجَابُوا إِلَى الْعُودِ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَتَرَكَهُمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ.

ذكر فتح الأهواء ومناذر^(١) ونهر تيرى^(٢)

وفي سنة سبع عشرة فُتِحَتِ الأهواز، ومناذر ونهر تيرى، وقيل: كان في سنة ست عشرة، وكان سبب هذا الفتح: أنَّ الهُرمُزان، وهو أحد البيوتات السبعة من أهل فارس لما أنهزم يوم القادسية قصد خوزستان فملكها، وكان يُغيّر على أهل بيسان، ودستميسان من مناذر، ونهر تيرى، فاستمدَّ عتبة بنُ غزوان أمير البصرة سَعْدًا، فأمدّه بنعيم بن مُقرن ونعيم بن مسعود، وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى، ووجه عتبة بنُ غزوان سلمى بن القين، وحزملة بن مريطة - وكانا من المهاجرين - فنزلا على حدود ميسان، ودستميسان بينهم وبين مناذر، ودعوا بني العم، فخرج إليهما غالب الوائلي، وكليب بن وائل والكليبي، تواعدوا في يوم، أنَّ سلمى وحزملة يخرجان إلى الهُرمُزان، وأنَّ غالبًا وكليبا يُثور أحدهما بمناذر، والآخر بنهر تيرى، فلما كان في ليلة الموعد خرج سلمى وحزملة صبيحتها، وأنهضا نعيمًا ومن معه، والتقوا هُم والهرمزاني بين دلت ونهر تيرى، واقتتلوا؛ فبينما هم على ذلك أقبل المدد من قبل غالب وكليب، وأتى الهُرمُزان الخبر بأخذ مناذر ونهر تيرى، فأنهزم بمن معه، فقتل المسلمون منهم ما شاؤوا، وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دجيل، وأخذوا ما دونه، وعسكروا بجبال سوق الأهواز، وصار دجيل بين الهُرمُزان والمسلمين، فعندها طلب الهُرمُزان الصلح، فاستأمروا عتبة، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلها ومهرجان قذق ما خلا نهر تيرى ومناذر، وما غلبوا عليه من سوق الأهواز؛ فإنه لا يرد عليهم، وجعل عتبة سلمى بن القين على مناذر مسلحة، وأمرها إلى غالب، وجعل حزملة على نهر تيرى، وأمرها إلى كليب، فكان سلمى وحزملة على مسالح البصرة، ثم وقع بين غالب وكليب وبين الهُرمُزان اختلاف في حدود الأرضين، فحضر سلمى وحزملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا الحق بيد غالب وكليب فحالا بينه وبينهما، فكفر الهرمزاني ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد وكثف جنده.

(١) مناذر: بالفتح، والذال معجمة مكسورة: مناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، وهي كورتان من كور الأهواز...

(٢) نهر تيرى: بكسر التاء المثناة من فوقها، وياء ساكنة، وراء مفتوحة، مقصور: بلد من نواحي الأهواز حفره أردشير الأصغر بن بابك، ووجدت في بعض كتب الفرس القديمة أن أردشير بهمن بن أسفنديار وهو قديم قريب من زمن داود النبي عليه السلام... (معجم البلدان لياقوت).

فكتب سُلمى ومن معه إلى عُتْبَةَ بِذَلِكَ، فكتب إلى عمرَ فأمره بِقَضِهِ، وأَمَدَّ المسلمين بِحُرْقُوصِ بْنِ زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ، وكانت له صُحْبَةٌ، وأمره على القتال، وما غلبَ عليه.

وسار الهُرمزان وَمَنْ مَعَهُ، وسار المسلمون إلى جِسْرِ سُوقِ الْأَهْوَازِ وأرسلوا إليه: إِمَّا أَنْ تَعْبُرَ إِلَيْنَا أَوْ نَعْبُرَ إِلَيْكَ. قال: اعْبُرُوا إِلَيْنَا، فَعَبَرُوا فَوْقَ الْجِسْرِ، وَأَقْتَتَلُوا مِمَّا يَلِي سُوقِ الْأَهْوَازِ، فَانْهَزَمَ الْهَرَمَزَانُ وسار إلى رَامَهْرُمَزَ، وفتح حُرْقُوصُ سُوقَ الْأَهْوَازِ ونزل بها، وَاتَّسَقَتْ لَهُ بِلَادُهَا إِلَى تُسْتَرٍ، وَوَضَعَ الْجِزْيَةَ، وكتب بالفتح إلى عمرَ بنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه وبعث إليه بِالْأَخْمَاسِ.

ذكر صلح الهرمزان وأهل تُسْتَرٍ^(١) مع المسلمين

ولما أَنهَزَمَ الْهَرَمَزَانُ مِنْ سُوقِ الْأَهْوَازِ، جَهَّزَ حُرْقُوصُ جِزَاءَ بَنِ مَعَاوِيَةَ فِي أَثَرِهِ، فَاتَّبَعَهُ وَقَتَلَ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَتْهُ إِلَى قَرْيَةِ الشَّعْرِ، فَأَعْجَزَهُ الْهَرَمَزَانُ، فَمَالَ جِزَاءً إِلَى دُورَقَ، وَهِيَ مَدِينَةُ سُورَقَ، فَأَخَذَهَا صَافِيَةً، وَدَعَا مَنْ هَرَبَ إِلَى الْجِزْيَةِ، فَأَجَابُوهُ.

وكتب إلى عمرَ وعُتْبَةَ بِذَلِكَ، فكتب عمرُ إليه وإلى حُرْقُوصَ بِالْمُقَامِ فِيمَا عَلَبَا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْمُرَهُمَا بِأَمْرِهِ، فَعَمَّرَ جِزَاءَ الْبِلَادِ، وَشَقَّ الْأَنْهَارَ، وَأَخْيَا الْمَوَاتَ، وَرَاسَلَهُمُ الْهَرَمَزَانُ فِي طَلَبِ الصُّلْحِ، فَأَجَابَ عُمَرُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ مَا أَخَذَهُ الْمُسْلِمُونَ بِأَيْدِيهِمْ، فَأَصْطَلَحُوا عَلَى ذَلِكَ.

ونزل حُرْقُوصُ جَبَلَ الْأَهْوَازِ، فَشَقَّ عَلَى النَّاسِ الْاِخْتِلَافَ إِلَيْهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ، فَأَمَرَهُ بِنَزُولِ السَّهْلِ، وَأَلَّا يَشُقَّ عَلَى مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهِدٍ، وَبَقِيَ حُرْقُوصُ إِلَى يَوْمِ صَيْفَيْنَ، ثُمَّ صَارَ حَرُورِيًّا وَشَهِدَ النَّهْرَوَانَ مَعَ الْخَوَارِجِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

(١) تُسْتَرٌ: بِالضَّمِّ ثُمَّ السُّكُونِ، وَفَتْحُ النَّاءِ الْآخَرَى، وَرَاءَ: أَعْظَمَ مَدِينَةَ بَخْوَزِسْتَانَ الْيَوْمَ، وَهُوَ تَعْرِيبُ شَوْشْتَرٍ... قِيلَ مَعْنَاهُ: النَّزْهَ وَالْحَسَنَ وَالطَّيِّبَ وَاللَّطِيفَ... وَهِيَ مَخْطُطَةٌ عَلَى شَكْلِ فَرَسٍ... (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ).

ذكر فتح رامهرمز^(١)

قد اختلف الناس في وقت هذا الفتح، فقليل: كان في سنة سبع عشرة. وقيل: سنة تسع عشرة. وقيل: في سنة عشرين.

وكان سببه أن يزْدَجَرِد وهو بمزو لم يزل يُبْثِرُ أهل فارس، أسفًا على ما خرج من مُلكهم، فتحرَّكوا وتكاتبوا هم وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصرة، فثمي الخبر إلى خُرقوص بن زهير، وجزء وسلمى وحزملة، فكتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك.

فكتب عمر إلى سعيد: أن أبعث إلى الأهواز جنْدًا كثيفًا مع الثُعمان بن مقرن وعجل، فليَنزِلُوا بإزاء الهرمزان ويتحققوا أمره.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرة: أن أبعث إلى الأهواز جُنْدًا كثيفًا، وأمر عليهم سهل بن عدي، أخا سهيل، وأبعث معه البراء بن مالك وعزقة بن هرثمة وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعًا أبو سبرة بن أبي رهم.

فخرج الثُعمان بن مقرن في أهل الكوفة، وسار إلى الأهواز على البغال، يجنبون^(٢) الخيل، فحلف خُرقوصا وسلمى وحرملة، وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز. فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه، بادَرَ رَجَاءً أن يقتطعه، فالتقى بأزيك (موضع عند الأهواز)، واقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله عز وجل الهُرمزان، فترك رامهرمز، ونزل تُستَر، وسار النعمان إلى رامهرمز فنزلها وصعد على إيدج فصالحه تيرويه عليها ورجع إلى رامهرمز، وأقام بها، ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الأهواز، وهم يريدون رامهرمز.

فأتاهم خبر الوقعة ومسير الهُرمزان إلى تُستَر، فساروا نحوه، وسار أيضاً الثُعمان وخُرقوص وسلمى وحزملة وجزء، فأجتمعا على تُستَر، وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والأهواز، وهم في الخنادق، وأمدَّهم عمر رضي الله عنه بأبي موسى الأشعري، وجعلَه على أهل البصرة، وعلى جميع الناس أبو سبرة، فحاصروهم أشهرًا، وأكثروا فيهم القتل.

(١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان... وهي من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: جنب الدابة: إذا قادها إلى جنبه.

وَقَتَلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ فِي هَذَا الْحَصَارِ مِائَةَ مُبَارِزٍ سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي غَيْرِ الْمُبَارَزَةِ، وَقَتَلَ مِثْلَهُ مَجْرَأةُ بْنُ ثَوْرٍ وَكَعْبُ بْنُ ثَوْرٍ، وَزَاخَفَهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَيَّامَ تُسْتَرِ ثَمَانِينَ زَخْفًا يَكُونُ مَرَّةً لَهُمْ وَمَرَّةً عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ زَخْفٍ فِيهَا، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا بَرَاءُ، اقْسِمَ عَلَى رَبِّكَ لِيَهْزِمَتْهُمْ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَهْزِمْهُمْ لَنَا، وَاسْتَشْهِدْنِي، فَهَزَمُوهُمْ حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ خَنَادِقَهُمْ، ثُمَّ اقْتَحَمُوهَا عَلَيْهِمْ، فَدَخَلُوا مَدِينَتَهُمْ، وَأَحَاطَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ، فَضَاقَتِ الْمَدِينَةُ بِهِمْ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ إِلَى النِّعْمَانِ رَجُلٌ يَسْتَأْمِنُهُ عَلَى أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَدْخَلٍ يَدْخُلُونَ مِنْهُ، وَرُمِيَ فِي نَاحِيَةِ أَبِي مُوسَى بِسَهْمٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهِ: إِنْ أَمْتَمْتُمُونِي دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَكَانٍ تَأْتُونَ مِنْهُ الْمَدِينَةَ، فَأَمْتُوهُ فِي سَهْمٍ، وَرُمِيَ إِلَيْهِمْ بِسَهْمٍ آخَرَ وَقَالَ: اسْلُكُوا مَنْ قَبِلَ مَخْرَجَ الْمَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَهَا. فَغَدَبَ أَبُو مُوسَى النَّاسَ فَانْتَدَبُوا، وَغَدَبَ الثُّعْمَانُ أَصْحَابَهُ مَعَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَهُمْ، فَالْتَقَوْا هُمْ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ عَلَى مَخْرَجِ الْمَاءِ، فَدَخَلُوا فِي السَّرْبِ، وَلَمَّا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ كَبُرُوا وَكَبِرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ خَارِجٍ، وَفُتِحَتِ الْأَبْوَابُ فَاجْتَلَدُوا فِيهَا، فَأَنَامُوا كُلُّ مُقَاتِلٍ.

وَقَصَدَ الْهَرَمَزَانَ الْقَلْعَةَ، فَتَحَصَّنَ بِهَا، وَلَحِقَ بِهِ جَمَاعَةٌ، وَطَافَ بِهِ الَّذِينَ دَخَلُوا الْبَلَدَ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ عَلَى حُكْمِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَوْثَقُوهُ وَأَقْتَسَمُوا مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ قِسْمُ الْفَارَسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ، وَالرَّاجِلِ أَلْفًا.

وَجَاءَ صَاحِبُ السَّهْمِ وَالرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ بِنَفْسِهِ فَأَمْتُوهُمَا، وَمَنْ أَعْلَقَ بِأَبَاهُ مَعَهُمَا.

وَخَرَجَ أَبُو سَبْرَةَ فِي أَثَرِ الْمَنْهَزِمِينَ إِلَى السُّوسِ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا، وَمَعَهُ الثُّعْمَانُ وَأَبُو مُوسَى، وَكَتَبُوا إِلَى عُمَرَ، فَكَتَبَ بِرَدِّ أَبِي مُوسَى إِلَى الْبَصْرَةِ، فَأَنْصَرَفَ إِلَيْهَا، وَأَرْسَلَ أَبُو سَبْرَةَ وَفَدَا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِيهِمْ: أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَمَعَهُمُ الْهَزْمَزَانُ فَقَدِمُوا بِهِ الْمَدِينَةَ وَالْبَسُوهُ كُسُوتَهُ مِنَ الدِّيَابِاجَةِ الْمُدْهَبِ، وَتَاجَهُ كَانَ مُكَلَّلًا بِالْيَاقُوتِ وَعَلَيْهِ جِلْيَتُهُ؛ لِيَرَاهُ عُمَرُ وَالْمُسْلِمُونَ. فَوَجَدُوا عُمَرَ فِي الْمَسْجِدِ مُتَوَسِّدًا بُرْئُسَهُ، وَكَانَ قَدْ لَبَسَهُ لِوَفْدٍ قَدِمَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُوفَةِ، فَلَمَّا أَنْصَرَفُوا تَوَسَّدَهُ وَنَامَ، فَجَلَسُوا وَهُوَ نَائِمٌ وَالِدَّرَةُ^(١) فِي يَدِهِ.

فَقَالَ الْهَزْمَزَانُ: أَيْنَ عُمَرُ؟ فَقَالُوا: هُوَ ذَا، فَقَالَ: أَيْنَ حَرَسُهُ وَحُجَّابُهُ؟ فَقَالُوا: لَيْسَ لَهُ حَارِسٌ وَلَا حَاجِبٌ وَلَا كَاتِبٌ. فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، قَالُوا: بَلْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَثُرَ النَّاسُ.

(١) الدرة: السوط يضرب به.

فَأَسْتَيْقِظَ عُمَرُ وَاسْتَوَى جَالِسًا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَلْهَزْمُزَانُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَلَّ بِالْإِسْلَامِ هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَأَمَرَ بِتَرْجٍ مَا عَلَيْهِ، فَتَرَعُوهُ وَالْبَسُوهُ ثَوْبًا صَفِيْقًا^(١). فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: كَيْفَ رَأَيْتَ عَاقِبَةَ الْعَدْرِ، وَعَاقِبَةُ أَمْرِ اللَّهِ! فَقَالَ: يَا عُمَرُ، إِنَّا وَإِيَّاكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كَانَ اللَّهُ قَدْ خَلَّى بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فَعَلَبْنَاكُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ مَعَكُمْ غَلَبْتُمُونَا. ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا حُجَّتُكَ وَمَا عُذْرُكَ فِي أَنْتِقَاضِكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ تَقْتُلَنِي قَبْلَ أَنْ أُخْبِرَكَ. قَالَ: لَا تَخَفْ ذَلِكَ، وَأَسْتَسْقَى مَاءً، فَأَتِي بِهِ فِي قَدَحٍ غَلِيظٍ. فَقَالَ: لَوْ مِثُّ عَطْشًا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَشْرَبَ فِي مِثْلِ هَذَا، فَأَتِي بِهِ فِي إِنَاءٍ يَرْضَاهُ. فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقْتُلَ وَأَنَا أَشْرَبُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَهُ، فَأَكْفَأَهُ^(٢).

فَقَالَ عُمَرُ: أَعِيدُوا عَلَيَّ وَلَا تَجْمَعُوا عَلَيَّ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْعَطَشِ. فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِي الْمَاءِ؛ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَأْمِنَ بِهِ. قَالَ: فَإِنِّي قَاتِلُكَ، قَالَ: قَدْ أُمْتُنِي. قَالَ: كَذَبْتَ، قَالَ أَنَسُ: صَدَقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ أُمْتُتَهُ. فَقَالَ: يَا أَنَسُ، أَنَا أَوْمَنُ قَاتِلَ مَجْزَاةٍ بَنَ ثَوْرٍ وَالْبَرَاءَ بَنَ مَالِكٍ!

وَكَانَ الْهَرَمَزَانُ قَتَلَهُمَا بِيَدِهِ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَتَأْتِيَنِي بِمَخْرَجٍ أَوْ لِأَعَاقِبَتِكَ، قَالَ: قَدْ قُلْتُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي وَحَتَّى تَشْرَبَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّغْتَنِي، وَاللَّهِ لَا أَنْخَدِعُ إِلَّا أَنْ تُسَلِّمَ، فَأَسَلَّمَ، ففَرَضَ لَهُ فِي الْفَتَنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَأَنْزَلَهُ الْمَدِينَةَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذكر فتح السوس^(٣)

وَلَمَّا نَزَلَ أَبُو سَبْرَةَ عَلَى السُّوسِ فِي سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ تُسْتَرٍ كَانَ بِهَا شَهْرِيَّارُ أَخُو الْهَرَمَزَانِ، فَأَحَاطَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا وَنَاقَشُوهُمْ^(٤) الْقِتَالَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يُصِيبُ أَهْلَ السُّوسِ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمُ الرُّهْبَانُ وَالْقَسِيسُونَ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، إِنَّا مِمَّا عَهَدَ إِلَيْنَا عِلْمَاؤُنَا أَنَّ السُّوسَ لَا يَفْتَحُهَا إِلَّا الدَّجَالُ، أَوْ قَوْمٌ فِيهِمُ الدَّجَالُ، فَإِنْ كَانَ فِيكُمْ فَسْتَفْتَحُونَهَا، وَكَانَ صَافٍ بَنُ صَيَّادٍ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي

(١) ثوب صفيق: ثخين كثير الغزل.

(٢) أكفأ الإناء: كبه وقلبه.

(٣) السوس: بلدة بخوستان، فيها قبر دانيال النبي عليه السلام.. قيل: أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور سوس وتسترو ولا يدري من بناهما.. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) تناوش القوم في القتال: أي تناول بعضهم بعضاً بالرماح ولم يتدانوا كل التنادي.

خَيْلِ الثُّعْمَانِ. ثُمَّ نَاشَ أَهْلُهَا الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً، وَصَاحُوا بِهِمْ وَغَاضَوْهُمْ، فَأَتَى صَافَ بَابِ السُّوسِ قَدَقَهُ بِرَجْلِهِ، فَقَالَ: انْفَتِحْ، وَهُوَ غَضْبَانٌ فَتَقَطَّعَتِ السَّلَاسِلُ، وَتَكَسَّرَتِ الْأَغْلَاقُ، وَتَفْتَحَتِ الْأَبْوَابُ، وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ، وَأَلْقَى الْمَشْرُكُونَ بِأَيْدِيهِمْ، وَتَنَادَوْا: الصُّلْحَ الصُّلْحَ! فَأَجَابَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوهَا عَثْوَةً، وَاقْتَسَمُوا مَا أَصَابُوا، ثُمَّ افْتَرَقُوا.

فسار الثعمان حتى أتى أهل نهاوند، وكان كتاب عمر قد ورد بصرفه إليها لما تجمعت الأعاجم بها، وسار المقرب، فنزل على جنديسابور. والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر مصالحة جنديسابور (١)

قال: وسار المسلمون عن السوس في سنة سبع عشرة، فنزلوا جنديسابور ووزر بن عبد الله يحاصرهم، فأقاموا بها، فلم يفجأ الناس إلا وقد فتحت الأبواب، وأخرجوا أسواقهم، وخرج أهلها، فسألهم المسلمون، فقالوا: أُرسلتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقرزنا بالجزية على أن تمنعونا فقالوا: ما فعلنا، فإذا عبد يدعى مكيفاً كان أصله منها، فعل هذا، فقال المسلمون: هو عبد؟ قالوا: نعم، قالوا: نحن لا نعرف العبد من الحر، فإن شئتم فأغديروا، فكتبوا بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأجاز ذلك، وأنصرفوا عنهم. والله تعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الفرس

وفي سنة سبع عشرة أذن عمر رضي الله عنه للمسلمين في الانسياح في بلاد الفرس، وكان سبب ذلك أن عمر لما أتى بالهزمزان قال للوفد: لعل المسلمين يؤذون أهل الدمة، فلماذا ينتقصون بكم! قالوا: ما نعلم إلا وفاء. قال: فكيف هذا! فلم يشفه أحد، قال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وإن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقتاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا

(١) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده... وهي مدينة خصبة واسعة الخير، بها النخل والزروع والمياه... (معجم البلدان).

فَنَسِيخَ فِي بِلَادِهِمْ، وَنَزِيلَ مُلْكِهِمْ، فَهَنَّاكَ يَنْقُطِعُ رَجَاءُ أَهْلِ فَارَسَ. فَقَالَ: صَدَقْتَنِي وَاللَّهِ، وَرَجَعَ إِلَى قَوْلِهِ، وَأَنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِ، وَأَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْإِنْسِيَاخِ. فَأَمَرَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ أَنْ يَسِيرَ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى مَنْقَطِعِ ذِمَّةِ الْبَصْرَةِ، فَكَيُونُ هُنَاكَ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ، وَبَعَثَ بِالْوَيْةِ مِنْ وَلَاءِهِ مَعَ سُهَيْلِ بْنِ عَدِيٍّ، فَدَفَعَ لَوَاءَ خُرَّاسَانَ إِلَى الْأَخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَلَوَاءَ أَرْدَشِيرِ خَزَّةَ وَسَابُورَ إِلَى مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُودِ السُّلَمِيِّ، وَلَوَاءَ إِضْطَخَرَ إِلَى عَثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ وَلَوَاءَ فَسَا وَدِرَابْجَرْدَ إِلَى سَارِيَةَ بْنِ زُنَيْمِ الْكِنَانِيِّ، وَلَوَاءَ كِرْزَمَانَ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَدِيٍّ، وَلَوَاءَ سِجِسْتَانَ، إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو، وَلَوَاءَ مُكْرَانَ إِلَى الْحَكَمِ بْنِ عُمَيْرِ التُّغْلَبِيِّ، فَخَرَجُوا وَلَمْ يَتَهَيَّأْ مَسِيرُهُمْ إِلَى سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ، وَأَمَدَّهُمْ عَمْرٌ بَنَفَرٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَأَمَدَّ سُهَيْلَ بْنَ عَدِيٍّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْبَانَ، وَأَمَدَّ الْأَخْنَفَ بِعَلْقَمَةَ بْنِ النَّضْرِ وَبِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَقِيلٍ وَبِرَبِيعِي بْنِ عَامِرٍ، وَأَمَدَّ عَاصِمَ بْنَ عَمْرٍو بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرِ الْأَشْجَعِيِّ، وَأَمَدَّ الْحَكَمَ بْنَ عُمَيْرٍ بِشِهَابِ بْنِ الْمُخَارِقِ.

وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. وَقِيلَ: فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ، وَسَنَدَكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذِكْرِنَا لِفَتْوحِ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَالْمَسِيرِ إِلَيْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر غزوة فارس من البحرين

كَاتِ هَذِهِ الْغَزْوَةُ فِي سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةَ، وَكَانَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لَمَّا أُخِذَتْ الْأَهْوَاؤُ مَا يَلِيهَا: وَدَدْتُ أَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فَارَسَ جَبَلًا مِنْ نَارٍ لَا نَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْهُ، وَلَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا.

وَكَانَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَزَلَهُ عَمْرٌ، ثُمَّ أَعَادَهُ، وَكَانَ يَنَاوِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ، فَفَازَ الْعَلَاءُ فِي قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَّةِ بِالْفَضْلِ، فَلَمَّا ظَفِرَ سَعْدُ بِأَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ، وَأَزَاحَ الْأَكَاسِرَةَ جَاءَ بِأَعْظَمَ مِمَّا فَعَلَهُ الْعَلَاءُ. فَأَرَادَ الْعَلَاءُ أَنْ يَضُنَّعَ فِي الْفَرَسِ شَيْئًا، فَلَمْ يَنْظُرْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ بِجَدٍّ، وَكَانَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَهَاةً وَغَيْرَهُ عَنِ الْغَزْوِ فِي الْبَحْرِ.

فَنَدَبَ الْعَلَاءُ النَّاسَ إِلَى فَارَسَ، فَأَجَابُوهُ، وَفَرَّقَهُمْ جُنْدًا، فَجَعَلَ عَلَى أَحَدِهَا الْجَارُودَ بْنَ الْمُعَلَّى، وَعَلَى الْآخَرِ سَوَّارَ بْنَ هَمَّامٍ، وَعَلَى الْآخَرِ خُلَيْدَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، وَخُلَيْدَ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَحَمَلَهُمْ فِي الْبَحْرِ إِلَى فَارَسَ، فَخَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ

إلى إصطخر^(١)، وبإزائهم أهل فارس، وعليهم ألهريد، فحالت الفُرس بين المسلمين وبين سُفْنِهِمْ، فأقتتلوا قتالاً شديداً بمكانٍ يُدعى طاوس^(٢)، فقتلَ أبْن السَّوَار والجارود، وكان خلود أمر أصحابه أن يقاتلوا رجالة، فقتلوا من الفُرس مَقْتَلَةً عظيمة، ثم خرجوا يريدون البَصْرَةَ، ولم يجدوا في الرجوع إلى البَحْر سبيلاً، وأخذت الفُرس عليهم طريقَهُمْ، فعسَّكروا وامتنعوا.

فلما بلغ عمر ما صَنَعَ العلاء، أرسل إلى عتبة بنِ عَزْوان يَأْمُرُهُ بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وقال: إني قد أُلقي في روعي كذا وكذا، نحو الَّذي وَقَعَ، وأمر العلاء بأنقل الأشياءِ عليه، وهو تأميرٌ سَعْدٍ عليه.

فشخص العلاء إلى سعد بمن معه، وأرسل عتبة أثنى عشر ألف مقاتل، فيهم: عاصم بن عمرو، وعَرْفَجَة بن هَزْئمة، والأحنف بن قيس وغيرهم، فخرجوا على البغال يجتنبون الخيل، وعليهم أبو سبرة بن أبي رُهم حتى التَقَى بخلود، وتوالت الأمداد، ففتح الله على المسلمين، وأصابوا من المشركين ما شأوا. والله تعالى أعلم.

ذكر وقعة نهاوند وفتحها

كانت هذه الوقعة في سنة إحدى وعشرين. وقيل: في سنة ثمانى عشرة. وقيل: في سنة تسع عشرة.

وكان الذي هَيَّجَ أمرَ نهاوند أنَّ المسلمين لما خَلَصُوا جُنْدَ العلاء، وفتحوا الأهواز، كاتب الفُرس مَلِكَهُمْ، وهو بَمَزو، وَحَرَكُوهُ، فكاتبَ الملوك ما بين الباب والسند وخُراسان وحُلُوان، فاجتمعوا بِنَهاوند، ولما وصلها أوائلهم بلغ سعدا الخبر، فكتبَ به إلى عمر، وثار بسعدِ أقوامٌ ووشَّوا بِهِ، وألبوا عليه، وسعوا إلى عمر ولم يَشْغَلْهُمْ ما نزل بالنَّاسِ عنه.

فقال عمر: والله لا يَمْنَعُنِي ما نزل بكم من النَّظَرِ فيما لديكم، وكان من عزِ سَعْدٍ ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السنين.

(١) إصطخر: هي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور... بها مسجد سليمان عليه السلام... وقيل: إن أكبر كور فارس كورة إصطخر، وبها كانت قبل الإسلام خزائن الملوك... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) طاوس: موضع بنواحي بحر فارس...

وقدم سعد على عمر، وقد استخلف على الكوفة عبد الله بن عبد الله عُبَّان، فأقره عمر.

قال: ونفرت ملوك الأعاجم لكتاب يزيد جرد، واجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ومائة ألف مقاتل. وكان سعد قد كاتب عمر بالخبر كما ذكرنا، ثم شافه به لما قدم عليه، وقال له: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانساح، وأن يبدؤوهم ليكون أهيأ لهم على عدوهم.

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال: هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه، فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المضربين، ثم استنفرهم فأكون لهم رداء؛ حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب؛ فإن فتح الله تعالى عليهم صيبته في بلدانهم.

فقال له طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين، قد أعلمتك الأمور، وعجمتك^(١) البلايا، واختنكتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا ننبؤ^(٢) في يدك، ولا نكل^(٣) عليك، إليك هذا الأمر، فمزننا نطع، وادعنا نجب، واخملنا نركب، وقُدنا ننقد؛ فإنك ولي هذا الأمر؛ وقد بلوت وجربت واختبرت، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار. ثم عاد فجلس.

فعاد عمر لمقالته، فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين؛ فإنك إذا سرت قل عندك ما قد تكاثرت من عدد القوم. وقد كنت أعز عزا، وأكثر. يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمتنع من الدنيا بعزير، ولا تلوذ منها بحرير. إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فاشهذه برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه. وجلس.

فعاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمقالته، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذرايتهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم، سارت الحبشة إلى ذرايتهم، وإن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من

(١) عجمتك البلايا: اختبرتك وامتحنتك.

(٢) لا ننبؤ: أي لا نجاوز الغرض.

(٣) كل: ضعف؛ تعب.

أطرافها، وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك ممّا بين يديك من العورات، والعيالات. أقرز هؤلاء في أمصارهم، واكتب لأهل البصرة أن يتفرقوا ثلاث فرق، فرقة في حرّهم وذرائعهم، وفرقة في أهل عهدهم؛ حتى لا يتتفصوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم. إن الأعاجم إن ينظروا إليك قالوا: هذا أمير العرب في أصلها، فكان ذلك أشدّ لقلبهم^(١) عليك. وأما ما ذكرت من مسير القوم فالله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما تكره.

وأما عددهم، فإننا لم نكن نقابل فيما مضى بالكثرة؛ ولكن بالنصر. فقال عمر: هذا هو رأيي، وكنت أحب أن أتابع عليه.

وقيل: إن طلحة وعثمان أشارا عليه بالمقام، والله تعالى أعلم.

ثم قال عمر: أشيروا عليّ برجل أوليه ذلك الثغر، وليكن عراقياً. فقالوا: أنت أعلم بجندك، وقد وفدوا عليك. فقال: والله لأولين أمرهم رجلاً ليكون أول الأسيّة إذا لقيها غداً. فقيل: من هو؟ قال: النعمان بن مقرن المُرَنيّ. فقالوا: هو لها.

وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد افتتحوا جندسابور والسوس كما قدمنا، فكتب إليه عمر رضي الله عنه يأمره بالمسير إلى ماه^(٢)، فيجمع الجيوش عليه، فإذا اجتمعوا سار بهم إلى الفيرزان ومن معه.

وقيل: بل كان النعمان بكسكر، فسأله أن يعزله ويبعثه إلى جيش من المسلمين، فكتب إليه عمر يأمره بنهاوند، فسار، وكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عثمان أن يستنفر الناس مع النعمان.

فندب الناس، فخرجوا وعليهم حذيفة بن اليمان، ومعه نعيم بن مقرن، فقدموا على النعمان، وتقدم عمر إلى الجند الذين كانوا بالأهواز أن يشغلوا الفرس عن المسلمين، وعليهم المقترّب، وحرّمة، ووزقاء، فأقاموا بتخوم أصفهان، وقطعوا أمداً فارس عن أهل نهاوند، واجتمع الناس على النعمان، وفيهم حذيفة بن اليمان، وابن عمر، وجريز بن عبد الله البجليّ والمغيرة بن شعبة، وغيرهم.

فرحل النعمان وعبي أصحابه وهم ثلاثون ألفاً، فجعل على مقدمته نعيم بن مقرن، وعلى مجنّبه حذيفة وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو،

(١) كلب عليه: غضب وسفه.

(٢) ماه: الماء بالهاء خالصة: قصبة البلد، ومنه قيل ماه البصرة، وماه الكوفة، وماه فارس، ويقال لنهاوند وهمدان وحم ماه البصرة... (معجم البلدان لياقوت).

وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وقد توافت إليه أمداد المدينة، فيهم المغيرة بن شعبة، فانتهوا إلى الأسبيذهان، والفرس وقوف على تعبيتهم، وأميرهم الفيززان، وعلى مجتبته الزردق وبهمن جاذونه، وقد توافى إليه بنهاوند كل من غاب عن القادسية. فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس، فترزلت الأعاجم، وخطت العرب الأثقال، وضرب فسطاط الثعمان، فابتدره أصحاب الكوفة، من كان من أشرافها، فضربوه، منهم: حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير ابن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وجريز بن عبد الله البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر وغيرهم، فلم يربنا فسطاط بالعراق كهؤلاء، وأنشب الثعمان القتال بعد خط الأثقال فاقتتلوا يومي الأربعاء والخميس، والحرب بينهم سجال^(١)، ثم أنجحروا^(٢) في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون، وأقاموا عليهم ما شاء الله، والفرس بالخيار إن شاؤوا خرجوا، وإن شاؤوا أقاموا، فخاف المسلمون أن يطول أمرهم؛ حتى إذا كان يوم الجمعة تجمع أهل الرأي من المسلمين، وقالوا: نراهم علينا بالخيار، وآتوا النعمان في ذلك، وهو يروى في الذي رأوا فيه، فأخبروه، فبعث إلى من بقي من أهل التجدات والرأي، فأحضرهم، وقال: قد ترون المشركين وأعتصامهم بخنادقهم ومذنبهم، وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على إخراجهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق، فما الرأي الذي به نستخرجهم إلى المناجزة، وترك التطويل؟

فتكلم عمرو بن ثبتي، وكان أكبر الناس يومئذ سناً، وكانوا يتكلمون على الأسنان، فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم، فدعهم وقاتل من أتاك منهم، فردوا عليه رأيه جميعاً.

وتكلم عمرو بن مغدي كرب فقال: ناهضهم^(٣) وكاؤهم ولا تحفهم، فردوا جميعاً عليه رأيه، وقالوا: إنما تناطح بنا الجدران، وهي عوان^(٤) علينا.

فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أرى أن تبعث خيلاً مؤدية لينشوا القتال، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً، فإننا لم نستطد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طبعوا وخرجوا إلينا. فقاتلناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب، فأمر

(١) الحرب بينهم سجال: نصرتها بينهم متداولة سجل (نصيب) منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء.

(٢) انجحروا: أي لجأوا.

(٣) ناهضهم: انهض إليهم.

(٤) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.

النعمان القعقاعَ بْنَ عَمْرِو، وكان على المجردة، فأنشَبَ القتالَ، وأخرجَهُمْ من خنادِقِهِمْ كأنَّهُمْ جبالٌ مِنْ حَدِيدٍ، وقد تَواثَقُوا أَلَا يَفْزُوا وقرن بعضهم ببعض، كُلُّ سَبْعَةٍ فِي قِرَانٍ، وَأَلْقَوْا حَسَكَ^(١) الحديد بينهم؛ لِيَلَّا يَنْهَزُمُوا، فَلَمَّا خَرَجُوا نَكَصَ^(٢) الْقَعْقَاعُ، فاغتمتها الأعاجمُ ففعلوا كما ظَنُّ طَلِيحَةٌ. وقالوا: هي هي.

ولحقَ الْقَعْقَاعُ بِالنَّاسِ، وانقطعَ الْفُرْسُ عن جِصْنِهِمْ، وأمرَ التُّعْمَانُ أصحابَهُ أَنْ يَلْزُمُوا الْأَرْضَ وَلَا يُقَاتِلُوا حتى يَأْذَنَ لَهُمْ، ففعلوا، وأسْتَرُوا بِالْحَجَفِ^(٣) من الرَّمْيِ، وأقبلَ المشركونَ يرمونهم حتى أَفْشَوْا فِيهِمُ الْجِرَاحَ، والتُّعْمَانُ يَنْتَظِرُ بِالْقِتَالِ أَحَبَّ السَّاعَاتِ كانت إلى رسول الله ﷺ؛ وذلك عند الزَّوَالِ، فلَمَّا كان قَرِيبًا من تلك الساعة ركبَ التُّعْمَانُ فَرَسَهُ، وسار في النَّاسِ يُخَرِّضُهُمْ على القتالِ، ويذكُرُهُمْ وَيُمَيِّنُهُمُ الظَّفَرَ، وقال: إِنِّي مَكْبَرٌ ثَلَاثًا، فإذا كَبُرْتُ الثَّالِثَةَ فَإِنِّي حَامِلٌ، فَأَحْمِلُوا، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا أَمِيرَ بَعْدِي حَذِيفَةَ، فَإِنْ قُتِلَ فُلَانٌ، حتى عَدَّ سَبْعَةَ آخِرِهِمُ الْمَغِيرَةَ، ثم قال: اللَّهُمَّ أَعِزِّ دِينَكَ بِنَصْرِ عِبَادِكَ. وقيل: بل قال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُقَيِّرَ عَيْنِي الْيَوْمَ بِفَتْحٍ يَكُونُ فِيهِ عِزُّ الْإِسْلَامِ، وَأَقْبِضْني شَهِيدًا. فبكى النَّاسُ ثم رجع إلى موقفه، فكَبُرَ ثَلَاثًا، والنَّاسُ سَامِعُونَ مُطِيعُونَ مُسْتَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، وَحَمَلَ وَحَمَلَ النَّاسُ، وَاثْقَضْتُ رَأْيَتَهُ نَحْوَهُمْ انْقِضَاضَ الْعُقَابِ، فَأَقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا لَمْ يُسَمِعْ بِوَقْعَةٍ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْهَا، وَصَبَرَ الْمُسْلِمُونَ صَبْرًا عَظِيمًا، وَأَنْهَزَمَ الْأَعَاجِمُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَا بَيْنَ الزَّوَالِ وَالْإِعْتَامِ مَا طَبَّقَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ حتى رَلِقَ النَّاسُ والدَّوَابُّ فِي الدَّمَاءِ، فَلَمَّا أَقْرَأَ اللَّهُ عَيْنَ التُّعْمَانِ بِالْفَتْحِ اسْتَشْهَدَ، رَلِقَ^(٤) بِهِ فَرَسُهُ فَصُرِعَ. وقيل: بل رُمِيَ بِسَهْمٍ فِي خَاصِرَتِهِ فَمَاتَ، فَسَجَّاهُ أَخُوهُ نَعِيمُ بْنُ مَقْرَنٍ بِثَوْبٍ، وَأَخَذَ الزَّايَةَ وَنَاوَلَهَا حَذِيفَةَ، وَتَقَدَّمَ إِلَى مَوْضِعِ التُّعْمَانِ.

وقال المغيرة: اكتموا مُصَابَ أَمِيرِكُمْ، لثَلَا يَهِنَ النَّاسُ، ودام القتال في الْفُرْسِ حتى أَظْلَمَ اللَّيْلُ، فَانْهَزَمُوا، وَلَزِمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَعَمِيَ عَلَيْهِمْ قَصْدُهُمْ، فَأَخَذُوا نَحْوَ اللَّهْبِ^(٥) الَّذِي كَانُوا دُونَهُ، فَوَقَعُوا فِيهِ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقَعُ فَيَقَعُ عَلَيْهِ سِتَّةٌ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي قِيَادٍ وَاحِدٍ فَيُقْتَلُونَ جَمِيعًا، وَعَقَرَهُمُ حَسَكُ الْحَدِيدِ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي اللَّهْبِ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ سِوَى مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ.

(١) حَسَكُ الْحَدِيدِ: مَا يَعْمَلُ عَلَى مِثَالِ الْحَسَكِ.

(٢) نَكَصَ: أَحْجَمَ، أَوْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ قَدْ اعْتَزَمَهُ وَأَحْجَمَ عَنْهُ.

(٣) الْحَجَفُ: التُّرُوسُ مِنْ جُلُودِ بِلَا خَشَبٍ. (٤) زَلَّتِ الْقَدَمُ: زَلَّتْ وَلَمْ تَثْبِتْ.

(٥) اللَّهْبُ: شَقٌّ فِي الْجَبَلِ.

وقيل: قُتِلَ في اللَّهَبِ ثمانون ألفاً، وفي المعركة ثلاثون ألفاً سوى من قُتِلَ في الطَّلَبِ، ولم يُقْلِتْ إِلَّا الشَّريدَ، ونجا الفَيْرُزَانِ مِنَ الصَّرْعَى، فَهَرَبَ نحو هَمْدَانَ، وَاتَّبَعَهُ نُعَيْمُ بْنُ مَقْرَنٍ، وَقَدِمَ القَعْقَاعُ أَمَامَهُ، فَأَدْرَكَهُ بِثَنِيَّةِ هَمْدَانَ، وهي إِذْ ذَاكَ مَشْحُونَةٌ من بَغَالٍ وَحُمُرٍ مُوقِرَةٍ عَسَلًا.

فحبسه الدَّوَابُّ فلَمَّا لم يجد طريقاً نَزَلَ عن دَابَّتِهِ، وصعدَ في الجَبَلِ، فَأَدْرَكَهُ القَعْقَاعُ، فَقتَلَهُ المسلمونَ على الثَّنِيَّةِ، وقالوا: إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا منها العَسَلُ، واستاقوا تلك الدَّوَابَّ بِأَحْمَالِهَا، وَسُمِّيَتْ الثَّنِيَّةُ ثَنِيَّةَ العَسَلِ، ودخلَ المنهزمون هَمْدَانَ، والمسلمون في آثارهم، فنزلوا عليها، وأخذوا ما حولها، فلَمَّا رأى ذلك خسرشونوم استأمنهم^(١).

ولَمَّا تَمَّ الظُّفَرُ للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم التُّعمانَ، فقال لهم أخوه مَعْقِلٌ: قد أَقَرَّ اللَّهُ عينَهُ بالفتح وَخَتَمَ له بالشَّهادة، فَاتَّبِعُوا حذيفةَ، ودخلَ المسلمون نَهَاوُنْدَ يومَ الوقعة بعد الهزيمة واخْتَوَوْا على ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأَسْلَابِ والأثاث وجمعوه إلى صاحب الأقباض، وهو السائب بن الأقرع.

وانتظروا إخوانَهُمُ الَّذِينَ على هَمْدَانَ مع نُعَيْمٍ والقَعْقَاعِ، فَأَتَاهُمُ الهَزْبُذُ صاحبُ بيت النَّارِ، وقال لحذيفة: أَتُؤَمِّنُنِي وَمَنْ شئتَ، على أَنْ أَخْرِجَ لَكَ ذَخِيرَةً لكسرى تُرِكَتْ عندي لنوائب الزَّمانِ؟ قال نعم، فأحضر جَوْهَرًا نفيسًا في سَفْطَيْنِ^(٢)، فأرسلوهما مع الأخماس إلى عمر رضي الله عنه بعد أن ثَقَّلَ حذيفةَ منها، وأرسلَ ما بقي مع السائب بن الأقرع التَّقْفِيَّ.

قال السائب: فلَمَّا فرغت القسمةُ احتملتُ السَّفْطَيْنِ، وجئتُ بهما إلى عمر، فإذا هو قد خَرَجَ يتوقَّعُ الأخبارَ، وكان قد رأى الواقعة فباتَ يَتَمَلَّلُ، فقال ما وراءك؟ فقلتُ: فتحَ اللَّهُ على المسلمين، واستشهدَ التُّعمانُ بْنُ مَقْرَنٍ، فأعظمَ الفتحَ، واسترجَعَ على التُّعمانِ وبكى حتى نَشَجَ^(٣)، ثم أخبرته بالسَّفْطَيْنِ فقال لي: أَدْخِلْهُمَا بَيْتَ المَالِ حَتَّى نَنْظَرَ في شَأْنِهِمَا، والحقُّ بِجُنْدِكَ.

قال: ففعلتُ، وخرجتُ مسرعًا إلى الكوفةِ، وباتَ عمرُ، فلَمَّا أصبحَ بعثَ في أثري رسولاً، فما أدركني حتى دخلتُ الكوفةَ، فَأَنخْتُ بعيري، وَأَنَاخَ بعيرُهُ على عرقوب بعيري، وقال: الحقُّ بِأَمِيرِ المؤمنين.

(١) استأمنه: استجاره وطلب حمايته، والمراد هنا: طلب منه الأمان.

(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

(٣) نشج: غص بالبكاء من غير انتحاب.

قال: فركبتُ معه، وقَدِمْتُ على عمرَ، فلَمَّا رَأَيْتُ قال: ما لي وللسائب! قلت: وماذا؟ قال: ويحك، والله ما هو إلا أن نَمَتْ اللَّيْلَةُ التي خَرَجْتَ فيها، فَأَتَتْ الملائكة تستحْثُنِي إلى السَّفَطَيْنِ يشتعلان نارًا، يقولون: لَنُكْوِيَنَّكُ بهما، فأقول: إني سَأُقْسِمُهما بين المسلمين، فخذُهما عَنِّي في أعْطِيَةِ المسلمين وأرزاقِهِم.

قال: فخرجتُ بهما فوضعتُهما في مسجدِ الكوفةِ، فابتاعهُما مِنِّي عمرو بن حُرَيْثُ المَخْزُومِيُّ بِأَلْفِ درهم، ثم خرج بهما إلى أرضِ الأعاجم فباعهُما بأربعة آلافِ ألف، فما زال أكثرُ أهلِ الكوفة مالا.

قال: وكان سَهُمُ الفارسِ نَهاوَنْدَ سَتَّةَ آلافٍ، والرَّاجِلُ ألفين. ولَمَّا قَدِمَ سَبْيُ نَهاوَنْدِ المدينة، جَعَلَ أبو لؤلؤة غُلامُ المَغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ لا يَلْقَى منهم صَغِيرًا إِلَّا مَسَحَ رَأْسَهُ وَبَكَى، وقال: أَكَلَّ عَمْرُ كَيْدِي، وكان مِن نَهاوَنْدَ، فَأَسْرَثَهُ الرُّومُ، وَأَسْرَهُ المسلمونَ.

وكان المسلمون يسمُّون فَتَحَ نَهاوَنْدَ فَتَحَ الفُتُوح؛ لَأَنَّهُ لم يكن لِلْفُرْسِ بَعْدَهُ اجْتِمَاعٌ، وَمَلَكَ المسلمون بلادَهُم. والله سبحانه وتعالى أعلمُ والحمد لله وحده.

ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرهما

لَمَّا أَنْصَرَفَ أَبُو موسى الأشْعَرِيُّ مِن نَهاوَنْدَ، وكان قد جاء مَدَدًا على بعثِ أَهْلِ البصرة، فَمَرَّ بِالذَّيْنُورِ^(١)، فَأَقَامَ عَلَيْهَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ، وَصَالَحَهُ أَهْلُهَا على الْجِزْيَةِ، وَمَضَى، فَصَالَحَهُ أَهْلُ الشَّيْروانِ على مِثْلِ ضَلْحِهِم، وَبَعَثَ السَّائِبَ الْأَقْرَعَ إلى الصَّيْمَرَةِ وهي مَدِينَةُ مَهْرَجَانَ قَذَقَ فَفَتْحَهَا ضَلْحًا، وَالْحَمْدُ لله وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ.

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لَمَّا أَتَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِن نَهاوَنْدَ دَخَلَ مَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ هَمْدَانَ، فَحَاصَرَهُمْ تُعَيْمُ بْنُ مَقْرُونٍ وَالْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَسِرَ شُؤْمُ اسْتَأْمَنَهُمْ، وَقَبِلَ الْجِزْيَةَ على أَنْ يَضْمَنَّ هَمْدَانَ وَدَسْتَبِي، وَأَلَّا يُؤْتَى الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَمَّنُوهُ هُوَ وَمَنْ

(١) دينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين دينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان، وهي كثيرة الثمار والزرع ولها مياه ومستشرف، وأهلها أجود طبعًا من أهل همذان... (معجم البلدان).

معه من الفُرس، وأقبل كلُّ من كان هَرَبَ، وبلغَ الخبرُ أهلَ الماهنين، فاقتَدَوْا بخسرشونوم، وراسلوا حَذِيفَةَ، فأجابهم، ودخل مَاه دِينَار، وَيَهْرَازَان على مثل ذلك. وكان قد وَكَّلَ التُّسَيْرَ بْنَ ثَوْرٍ بقلعةٍ قد لجأ إليها قومٌ، فحاصَرَهُم وأَفْتَحَهَا، فنسبت إلى التُّسَيْرِ.

ولما رجع نُعَيْمٌ والقَعْقَاعُ، كَفَرَ أَهْلُ هَمْدَانَ مع خسرشونوم، فخرج نعيمُ بْنُ مَقْرَنٍ إليها في سنة اثنتين وعشرين، واستولى على جميع بلادها وحاصرها، فسأله أهلها الصلح ففعل، وفتحها الثانية، وقبل منهم الجزية. وقيل إن فتحها كان في سنة أربع وعشرين، بعد وفاة عمرَ بَسْتَةَ أشهرٍ. والله أعلم.

قال: وبينما نُعَيْمٌ بهَمْدَانَ في الفتح الثاني، وهو في اثْنَيْ عَشَرَ ألفاً من الجند، فكتب الديلم، وأهل الرِّيِّ، وأَذْرَبِجَانَ، إذ خرج مُوتَى في الدَّيْلَمِ، ونَزَلَ بَوَاجِ الرُّوذِ، وأقبل الزَّيْنَبِيُّ أَبُو الفُرْخَانَ في أهلِ الرِّيِّ وأقبل إسفنديار أخو رُسْتَمِ في أهلِ أَذْرَبِجَانَ، فأجتمعوا وتحصَّن منهم أمراءُ المَسَالِجِ، وبعثوا إلى نُعَيْمٍ بالخَبَرِ، فأستخلف يزيدُ بْنُ قَيْسِ الهَمْدَانِيِّ، وخرج إليهم، فأقتتلوا بَوَاجِ الرُّوذِ قتالاً شديداً، وكانت وقعةٌ عظيمةٌ تعدلُ وقعةَ نَهاوند، فأنهزم الفُرسُ أَقْبَحَ هَزِيمَةٍ، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأرسل نُعَيْمٌ إلى عمرَ بقصد الرِّيِّ، وقاتلَ مَنْ بِهَا، والمُقَامُ بها بعد فَتْحِهَا.

وقيل: إن المغيرةَ بْنَ شُعْبَةَ، وهو عامل الكوفة أرسل جريرَ بْنَ عبدِ اللَّهِ إلى هَمْدَانَ، فقاتله أهلُهَا، وَأُصِيبَ بِسَهْمٍ فِي عَيْنَيْهِ، فقال: أَحْتَسِبُهَا عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي رَزَى بِهَا وَجْهِي.

وقيل: كان فَتَحَهَا على يد المغيرة نفسه. وقيل: فَتَحَهَا قَرْظَةُ بْنُ كَغِبِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل.

ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان^(١)

وفي سنة إحدى وعشرين بعث عمرُ رضي الله عنه عبدَ اللَّهِ بْنَ عبدِ اللَّهِ بْنِ عِثْبَانَ إلى أَصْبَهَانَ، وكان شجاعاً من أشرفِ الصَّحَابَةِ، ووجوهِ الْأَنْصَارِ، وأمدّه بأبي موسى الأشعري، وجعل على مجتَبِيهِ عبدَ اللَّهِ بْنَ وَزْقَاءِ الرِّياحِيِّ وعصمة بن عبد الله، فسار إلى

(١) قاشان: بالشن المعجمة، وآخره نون: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني، والعامية تقول القاشي، وأهلها كلهم شيعة إمامية... وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخاً، وبين قاشان وأصبهان ثلاث مراحل... (معجم البلدان لياقوت).

نَهَاوَنَدَ وَرَجَعَ حَذِيفَةُ إِلَى عَمَلِهِ عَلَى مَا سَقَتْ دِجْلَةُ وَمَا وَرَاءَهَا . وَسَارَ عَبْدُ اللَّهِ فِيمَنْ كَانَ مَعَهُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ جُنْدِ الثُّعْمَانِ الَّذِينَ يَنْهَاوَنَدَ نَحْوَ أَصْبَهَانَ ، وَعَلَى جُنْدِهَا الْأَسْبِيدَانِ ، وَعَلَى مَقْدَمَتِهِ شَهْرِيَارُ بْنُ جَادَوِيهِ (شَيْخٌ كَبِيرٌ) فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ ، فَالتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَمَقْدَمَةُ الْمَشْرِكِينَ بَرَسْتَاقٍ لِأَصْبَهَانَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ، فَبَرَزَ الشَّيْخُ وَدَعَا إِلَى الْبِرَازِ ، فَبَرَزَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَرْقَاءَ فَقَتَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَانْهَزَمَ الْفَرَسُ ؛ فَسُمِّيَ ذَلِكَ الرُّسْتَاقُ بَرَسْتَاقِ الشَّيْخِ ، وَصَالَحَهُمُ الْأَسْبِيدَانِ عَلَى الرُّسْتَاقِ ، وَهُوَ أَوَّلُ رُسْتَاقٍ أُخِذَ مِنْ أَصْبَهَانَ .

ثُمَّ سَارَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى مَدِينَةِ جَبِيٍّ ، وَهِيَ مَدِينَةُ أَصْبَهَانَ ، وَالْمَلِكُ بِأَصْبَهَانَ الْقَادُوسْفَانَ ، فَتَزَلَّ بِهَا ، وَحَاصَرَهَا ، فَصَالَحَهُ الْمَلِكُ عَلَيْهَا ، عَلَى الْجِزْيَةِ عَلَى مَنْ أَقَامَ ، وَأَنْ يُجْزَى مَنْ أُخِذَتْ أَرْضُهُ عَنُوةً مَجْزَاهُمْ وَمَنْ أَبِي وَذَهَبَ كَانَتْ أَرْضُهُ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَقَدِمَ أَبُو مُوسَى عَلَى عَبْدِ اللَّهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَهْوَازِ ، وَقَدْ صَالَحَ الْقَوْمَ ، فَدَخَلَ الْقَوْمَ فِي الذِّمَّةِ إِلَّا ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ لَحَقُوا بِكَرْمَانَ ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ الْمَدِينَةَ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَنْ سِزَ حَتَّى تَقْدَمَ عَلَى سُهَيْلِ بْنِ عَدِيٍّ ؛ حَتَّى تَكُونَ مَعَهُ عَلَى قِتَالِ مَنْ بِكَرْمَانَ . فَاسْتَخْلَفَ عَلَى أَصْبَهَانَ السَّائِبُ بْنُ الْأَفْرَعِ ، وَلَحِقَ بِسُهَيْلٍ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى كَرْمَانَ ، وَافْتَتَحَ أَبُو مُوسَى قَمَ وَقَاشَانَ .

ذكر فتح قزوين وأبهر وزنجان^(١)

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ بَعَثَ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فِي جَيْشٍ إِلَى قَزْوِينَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ فَتَحَهَا أَنْ يَغْزُو الدَّيْلَمَ .

فَسَارَ حَتَّى أَتَى أَبْهَرَ ، وَهُوَ حَصْنٌ ، فَقَاتَلُوهُ ، ثُمَّ طَلَبُوا الْأَمَانَ ، فَأَمَّنَهُمْ وَصَالَحَهُمْ ، ثُمَّ غَزَا قَزْوِينَ ، فَأَرْسَلَ أَهْلَهَا إِلَى الدَّيْلَمِ يَطْلُبُونَ النُّصْرَةَ مِنْهُمْ ، فَوَعَدُوهُمْ ، فَوَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجُوا لِقَاتَالِهِمْ وَالْدَّيْلَمَ وَقَوْفَ عَلَى الْعَجَلِ لَا يَمْدُون يَدًا ، فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ قَزْوِينَ ذَلِكَ طَلَبُوا الصُّلْحَ ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى مِثْلِ صُلْحِ أَبْهَرَ . وَغَزَا الدَّيْلَمَ حَتَّى أَدَا إِلَى الْإِتَاوَةِ ، وَغَزَا جِيلَانَ وَالطَّيْلَسَانَ ، وَفَتَحَ زَنْجَانَ عَنُوةً .

وَلَمَّا وَلَّى الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ الْكُوفَةَ ، غَزَا الدَّيْلَمَ ، وَجِيلَانَ ، وَمُوقَانَ ، وَالْبِيرَ وَالطَّيْلَسَانَ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير من نواحي الجبال بني أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون زنكاف؛ وقد خرج منها جماعة من أهل الأدب والحديث... (معجم البلدان).

ذكر فتح الري^(١)

قال: وسار نعيم بن مقرن من واج الروذ بأمر عمر حتى قدم الري، وخرج الزينبي أبو الفرخان منها، فلقي نعيمًا طالبًا ومسالماً ومحالفاً لملك الري وهو سياوخش بن مهران بن بهرام بن جوبين، فاستمد سياوخش أهل دُنبَاوَنَد وطبرستان وقوميس، وجرجان، فأمدوه، والتقوا مع المسلمين في سفح جبل الري الذي بجانب مدينتها، فأقتلوا.

وكان الزينبي قال لنعيم: إن القوم قد كثروا وأنت في قلة، فابعث معي خيلاً لأدخل بها مدينتهم من مدخل لا يشعرون به، ونأهذهم أنت، فإذا خرجنا نحن عليهم فإنهم لا يشتنون لك. فبعث معه خيلاً من الليل، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة، والقوم لا يشعرون، وبيتهم نعيم، فشغلهم عن مدينتهم، واقتتلوا وضربوا حتى سمعوا التكبير من ورائهم، فأنهزموا، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأفاء الله تعالى على المسلمين بالري نحرًا مما في المدائن، وصالحهم الزينبي على الري، وأخرب نعيم مدينتهم، وهي التي يقال لها: العتيقة. فأمر الزينبي فبنى مدينة الري، وكتب نعيم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس، وراسله المضمغان في الصلح على شيء يفتدى به منه على دُنبَاوَنَد، فأجابه إلى ذلك.

وقد قيل: إن فتح الري كان على يد قُرظَة بن كعب بن ثعلبة الخزرجي في سنة ثلاث وعشرين، حكاه أبو عمر بن عبد البر.

وقيل: في سنة إحدى وعشرين. وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر فتح قومس^(٢) وجرجان وطبرستان

قال: لما أرسل نعيم بن مقرن إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالفتح والأخماس كتب إليه عمر رضي الله عنه بإرسال سُوَيْد بن مقرن ومعه هند بن عمرو

(١) الري: بفتح أوله وتشديد ثانيه... هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوین سبعة وعشرون فرسخًا ومن قزوین إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) قومس: هي كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور، ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار...

وغيره إلى قُومِس، فسارَ سُوَيْدٌ نحوَهَا، فلم يَقَمْ له أحد، فأخذَهَا سِلْمًا، وَعَسَكَرَ بِهَا، وكَاتَبَهُ الَّذِينَ لَجَّؤُوا إِلَى طَبْرِسْتَانِ مِنْهُمْ، وَالَّذِينَ أَخَذُوا الْمَفَاوِزَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى الصَّلْحِ وَالْجُزْيَةِ، وكتبَ لَهُمْ بِذَلِكَ.

ثم سارَ سُوَيْدٌ إِلَى جُزْجَانَ، فَعَسَكَرَ بِبِسْطَام، وكتبَ إِلَى مَلِكِ جُزْجَانَ وَهُوَ رُزْبَانَ صُول، فصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ وكَفَايَةِ حَرْبِ جُزْجَانَ، وَأَنْ يَعِيَنَهُ سُوَيْدٌ إِنْ غَلِبَ، فَأَجَابَهُ سُوَيْدٌ إِلَى ذَلِكَ، وتَلَقَّاهُ رُزْبَانَ قَبْلَ دُخُولِهِ جُزْجَانَ، ودخلَ مَعَهُ، وَعَسَكَرَ سُوَيْدٌ بِهَا حَتَّى جَبَى الْخَرَاجَ، وَسَدَّ فُرُوجَهَا بِتُرْكٍ دِهِسْتَانَ، وَرَفَعَ الْجِزْيَةَ عَمَّنْ قَامَ مَعَهُ بِمَنْعِهَا، وَأَخَذَهَا مِنَ الْبَاقِينَ.

وقيل: كَانَ فَتَحَهَا فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ. وقيل: فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ فِي خِلَافَةِ عِثْمَانَ.

قال: وَأَرْسَلَ الْإِصْبَهَيْدَ صَاحِبَ طَبْرِسْتَانَ إِلَى سُوَيْدٍ فِي الصَّلْحِ، عَلَى أَنْ يَتَوَادَعَ بِهَا وَيَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ نَضْرٍ وَلَا مَعُونَةٍ عَلَى أَحَدٍ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ.

ذكر فتح أذربيجان^(١)

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعَثَ بُكَيْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى أَذَرْبَيْجَانَ، وَأَمَرَ نُعَيْمَ بْنَ مَقْرُونٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِسِمَاكِ بْنِ خَرْشَةَ، فَأَمَدَهُ بِهِ بَعْدَ فَتْحِ الرَّيِّ، فَسَارَ بُكَيْرٌ حَتَّى طَلَعَ بِجِبَالِ جَرْمِيدَانَ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ إِسْفَنْدِيَارُ بْنُ الْفَرَخَزَادِ مَهْزُومًا مِنْ وَاجِ الرُّودِ، فَأَقْتَتَلُوا، فَهَزَمَ اللَّهُ الْفُرْسَ وَأَخَذَ إِسْفَنْدِيَارَ أَسِيرًا، فَقَالَ لَهُ إِسْفَنْدِيَارُ: الصَّلْحُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْحَرْبُ؟ قَالَ: بَلِ الصَّلْحُ. قَالَ: أَمْسِكْنِي عِنْدَكَ؟ فَإِنَّ أَهْلَ أَذَرْبَيْجَانَ إِنْ لَمْ أَصَالِحْ عَلَيْهِمْ، أَوْ أَجِءَ لَهُمْ لَمْ يَقُومُوا لَكَ، وَجَلَّوْا إِلَى الْجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهَا، وَمَنْ كَانَ عَلَى التَّحْصِينِ تَحْصُنْ لِيَوْمٍ مَا، فَأَمْسَكْهُ عِنْدَهُ وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْبِلَادُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ حِصْنٍ. وَقَدِمَ عَلَيْهِ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ، وَإِسْفَنْدِيَارُ فِي أَسْرِهِ، وَقَدْ افْتَتَحَ مَا يَلِيهِ، وَافْتَتَحَ عُتْبَةُ بْنُ قَرْقَدٍ مَا يَلِيهِ.

(١) أذربيجان: حَدُّ أذربيجان من برزعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز... وخوي، وسلماس، وأرمية، وأردبيل، ومرند، وغير ذلك. وهو صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال؛ وفيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمّة... (معجم البلدان).

وكتب بُكَيْر إلى عمرَ يستأذنه في التَّقَدُّم، فأذن له أن يتقدَّم نحو الباب، وأن يستخلفَ على ما افتتَحَه، فاستخلفَ عتبةَ بنَ فرقد، فأقرَّ عتبةُ سَمَّاكَ بنَ خِرْشَةَ على عمل بُكَيْر الَّذي كان أفتتَحَه، وجمع عمرُ أذريجانَ كُلِّها لعتبةَ بن فرقد. وكان بهرام بن الفرخزاد قصد طريق عُتْبَةَ، فاقتتلوا، فأنهزمَ بهرامُ، فلمَّا بلغ خبره إسفنديار وهو في الإِسار عند بُكَيْر، قال: الآن تمَّ الصُّلح، وطِفَّت نيران الحرب، فصالحه وأجاب أهل أذريجانَ إلى ذلك، وعادت سِلْمًا، وكتب بكيرٌ وعتبةُ بذلك إلى عمرَ، وبعثا بالخُمس.

ولمَّا جمع عمرُ لعتبةَ عَمَلَ بُكَيْر، كَتَبَ لِأهلِ أذريجانَ كتابًا بالصُّلح.

ذكر فتح الباب (١)

كان فتح الباب في سنة اثنتين وعشرين، وكان عمرُ رضي الله تعالى عنه ردًّا أبا موسى الأشعريَّ إلى البَصْرة، وبعثَ سُرَاقَةَ بنَ عمرو، وكان يُدعى ذا الثور إلى الباب، وجعل على مقدَّمته عبدُ الرحمن بن ربيعة، وكان يُدعى ذا الثور أيضًا، وعلى مجنبتيه حذيفة بن أسيد الغفاريُّ وبُكَيْر بن عبد الله الليثي، وكان بكير قد سبقه إلى الباب عند منصرفه من أذريجان، وجعل على المقاسم سَلْمَانَ بنَ ربيعة الباهلي.

وكان عمر قد أمدَّ سُرَاقَةَ بحبيب بن مَسْلَمَةَ من الجزيرة، وجعل مكانه زياد بن حنظلة، فسار سُرَاقَةُ وعبدُ الرحمن بن أُمَامَةَ، فلمَّا أَطْلَّ عبدُ الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهریار، (من ولد شهریار المَلِك)، واستأمنه على أن يأتيه، ففعل، فاتاه فقال له: إني نازلٌ بإزاءِ عدوِّ كَلْب، وأُمَمٌ مختلفةٌ ليس لهم أحساب، ولا ينبغي لذي الحَسَب والعَقْل أن يعينهم على ذي الحَسَب، وأنتم قد غلبتم على بلادِي وأنا منكم، ويدي في أيديكم، وجزيتي إليكم، والنَّصْرُ لكم، والقيام بما تُحبُّون، فلا تَسُومُونَا الجِزْيَةَ، فتوهُّنونا لعدوكم، فسيِّره عبدُ الرحمن إلى سُرَاقَةَ، فلقىَه بِمَثَلِ ذلك، وقال: لا بدَّ من الجِزْيَةِ مِنَّن يقيمُ ولا يحاربُ العدو، فاتفقا على ذلك، وأجازَه عمرُ رضي الله عنه وأرضاه وأستحسنه.

(١) الباب: أو باب الأبواب: وهو الدربند دربند شروان؛ قال الإصطخري: هي مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وفي وسطها مرسى السفن، وهذا المرسى من البحر قد بني على حافتي البحر سدين، وجعل المدخل ملتويًا، وعلى هذا الفم سلسلة محدودة فلا مخرج للمركب ولا مدخل إلا بإذن، وهذا السدان من صخر ورصاص، وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر... (معجم البلدان).

ذكر فتح موقان^(١)

ولما فرغ سراقه من الباب أرسل بُكَيْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وسَلْمَانَ بْنَ رِبِيعَةَ، وحَبِيبَ بْنَ مُسْلِمَةَ وحذيفة بن أسيد إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأزمينية، فوجه بُكَيْرًا إلى موقان، وحَبِيبًا إلى تفلّيس، وحذيفة إلى جبال اللان، وسَلْمَانَ إلى الوجه الآخر، وكتب سراقه بالفتح ويارسالهم إلى عمر، فسُرَّ بذلك.

ثم مات سراقه بعد أن استوثق له الأمر، وأستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، ولم يفتتح أحد من القواد إلا بكير بن عبد الله؛ فإنه صالح أهل موقان على الجزية؛ على كل مُحْتَلَمٍ^(٢) دينار، وذلك بعد أن قضى أهل موقان، ثم تراجعوا.

وقيل: كان الفتح في سنة إحدى وعشرين، وأقر عمر عبد الرحمن على قرَج الباب، وأمره بغزو الترك. والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر غزو الترك

قال: ولما أمر عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك خرج بالناس حتى قطع الباب فقال له شَهْرِيَار: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد بلنجر والترك. قال: إننا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. قال عبد الرحمن: لكننا لا نرضى حتى نغزوهم في ديارهم، وتالله إن معنا أقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الرّوم. قال: وما هم؟ قال: أقوامٌ صحبوا رسولَ الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمرِ بنيةٍ فلا يوالُّ النُّصْرُ معهم، فغزوا بلنجر، فقالوا: ما أجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهربوا وتحصنوا، ورجع بالغنيمة والظفر. وقد بلغت خيلُه البيضاء على رأس مائتي فرسخ^(٣) من بلنجر، وعاد ولم يُقتل منهم أحد، ثم غزاها أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه غزواتٍ، فَظْفِرَ كما كان يظفر.

(١) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال...

(٢) المحتلم: الذي بلغ مبلغ الرجال.

(٣) الفرسخ: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعًا، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض... (معجم البلدان).

ثم غزاهم بعد أن كان من أهل الكوفة في حق عثمان رضي الله عنه ما نذكره، فتذامرت الثرك واجتمعوا في الغياض، فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين بسهم على غرة، فقتله، وهرب الرامي عن أصحابه، فلما نظر الثرك إلى المسلم وقد قُتل خرجوا على عبد الرحمن ومن معه، وأقتتلوا أشد قتال، ونادى مناد من الجوّ: صَبْرًا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وموعدكم الجنة! فقاتل حتى قُتل، وانكشف أصحابه، وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة، فنادى مناد من الجوّ: صَبْرًا سَلْمَان. فقال سلمان: أو ترى جزعاً! وخرج بالناس على جيلان إلى جرجان، ولم تمنعهم هذه الحزب من اتخاذ جسد عبد الرحمن، فهم يستسقون^(١) به حتى الآن. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده.

ذكر غزو خراسان

وفي سنة اثنتين وعشرين غزا الأحنف بن قيس خراسان، على قول بعضهم. وقيل: بل كان في سنة ثمان عشرة، وسبب ذلك أن يزْدَجَرْدَ لما سار إلى الرّي بعد هزيمة أهل جَلُولَاءَ، انتهى إليها، وبها أبان جاذونه، فوثب أبان عليه وأخذه. فقال يزْدَجَرْدُ: يا أبان، تغدير بي! قال: لا؛ ولكن قد تركت مُلْكَكَ، فصار في يد غيرك، فأحببت أن أكتب على ما كان لي من شيء، وأخذ خاتم يزْدَجَرْدَ وَاكْتَتَبَ الصُّكَّاكَ بكل ما أعجبه، وختم عليها وردّ الخاتم، ثم أتى بعد ذلك سعداً فردّ عليه كل شيء في كتابه. وسار يزْدَجَرْدُ من الرّي إلى أصبهان، ثم إلى كَرْمَانَ والثَّارِ معه، ثم قصد خُراسَانَ والثَّارِ معه، فنزل مَزَوَ، وبنى للثَّارِ بيتاً، وأطمأن وأمن أن يؤتى، وذان له من بقي من الأعاجم.

وكتب الهُزْمَان، وأثار أهل الجبال والفيروزان، فنكثوا، فأذن عمر رضي الله عنه للمسلمين فدخلوا بلاد الفُرس، فسار الأحنف إلى خُراسان فدخلها من الطَّبْسِين^(٢)، فافتتح هَرَاةَ عَثَوَةَ، واستخلف عليها صَحَارَ بن صَخْرَ العبدي. وقيل فيه: صَحَارُ بن عَبَّاسَ بن شراحبيل، ثم سار نحو مَزَوَ الشاهيجان، فأرسل إلى نَيْسَابُورَ مطرّف بن عبد الله بن الشَّخِير، وإلى سَرْخَسَ الحارث بن حسان.

(١) استسقى: طلب السقيا.

(٢) الطبسان: قسبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، لإحداهما طبس العناب، والأخرى طبس التمر... (معجم البلدان).

فلَمَّا دنا الأحنفُ من مَرَوْ، خرجَ يَزْدَجَرْدُ منها إلى مَرَوْ الرُّوذُ^(١)، ونزل الأحنفُ مَرَوْ الشَّاهِجَانِ.

وكتب يزدجرد إلى خاقانِ التُّركِ وإلى مَلِكِ الصُّغْدِ وإلى مَلِكِ الصِّينِ يستمُدُّهم.

وخرج الأحنفُ من مَرَوْ الشَّاهِجَانِ، واستخلفَ عليها خالدُ بن الثُّعْمانِ البَاهِلِيِّ بعد أن لحقته أمدادُ الكُوفَةِ. فلَمَّا سمع به يَزْدَجَرْدُ سار من مرو الرُّوذِ إلى بَلْخِ، ونزلها الأحنفُ، والتقى أهلُ الكُوفَةِ وَيَزْدَجَرْدُ ببَلْخِ، فَأَنهَزَمَ يَزْدَجَرْدُ، وَعَبَّرَ النَّهْرَ، ولحق الأحنفُ بأهل الكُوفَةِ، وقد فتح الله عليهم، وأفتتح ما بين نَيْسابور إلى طَخَارِيسْتَانَ، وعاد إلى مَرَوْ الرُّوذِ، واستخلفَ على طَخَارِيسْتَانَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ، وكتب إلى عمرَ بالفتح. فقال عمر: وددت أن بيننا وبينها بحرًا مِنْ نَارٍ. فقال عليٌّ: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لَأَنَّ أهلها سَيَنْقُضُونَ منها ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وكتب إلى الأحنف أن يقتصرَ على ما دون النَّهْرِ ولا يَجُوزَهُ.

قال: وَلَمَّا عَبَرَ يَزْدَجَرْدُ مَهْزُومًا، أَتَجَدَّه خاقانُ التُّركِ، وأهل فَرغَانَةِ والصُّغْدِ، فَرَجَعَ يَزْدَجَرْدُ وخاقان إلى خُرَاسَانَ، فَتَزَلَّأَ بَلْخَ. ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الرُّوذِ، فنزل المشركون عليه بها، وكان الأحنف لما بلغه خبرُ عبور يزدجرد وخاقان النَّهْرِ إليه، خرج ليلًا يَتَسَمَّعُ؛ لَعَلَّهُ يَسْمَعُ برأيٍ يَنْتَفِعُ به، فمرَّ برجلين يُنْقِيَانِ عِلْفًا، وأحدهما يقولُ لصاحبه: أَسَدَدْنَا الأَمِيرُ إلى هذا الجبلِ؛ فكان النَّهْرُ بيننا وبين عدونا حَنْدَقًا، وكان الجبلُ في ظُهُورِنَا، فلا يأتونا من خَلْفِنَا، وكان قتالُنا من وجهِ واحدٍ رَجَوْتُ أن يَنْصُرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فرجع، فلَمَّا أَصْبَحَ جَمَعَ النَّاسَ وَرَحَلَ بِهِمْ إلى سَفْحِ الجبلِ، وكان معه من البَصْرَةِ عَشْرَةُ آلَافٍ، ومن الكُوفَةِ نَحْوَ مِائَةٍ مِنْهُمْ.

وأقبلتِ التُّركُ وَمَنْ معها فنزلوا بهم، وجعلوا يُنَادُونَهُمْ ويرأِحُونَهُمْ وَيُنَجِّحُونَ في اللَّيْلِ. فخرج الأحنفُ ليلَةً طليعةً لأصحابه؛ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ عَسْكَرِ خاقانٍ وَقَفَ، فلَمَّا كَانَ وَجْهُ الصُّبْحِ خرج فارسٌ من التُّركِ وهو مُطَوَّقٌ^(٢)، ففُضِرَ بِطَبْلِهِ، ثم وقف، فحمل عليه الأحنفُ، فأقْتَتَلَا، فَقَتَلَهُ الأحنفُ، وأخذَ طَوْقَهُ، ووقف واحد آخر وآخر بعده، ففعل بهما كذلك، ثم أنصرفت إلى عسكره.

(١) مرو الرُّوذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلها سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى؛ خرج منها خلق من أهل الفضل مروروذي، ومروذي... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المطوق: الذي يلبس الطوق.

وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من رجالهم أكفاء، كلهم يضرب بطنه، ثم يخرجون بعدهم، فلما خرجوا وجدوا فرسانهم، فتطير خاقان من ذلك، وقال: قد طال مقامنا، وأصيب فرساننا، وليس لنا في قتال هؤلاء القوم خير، ورجع.

وارتفع النهار ولم ير المسلمون أحدا، وأتاهم الخبر بأنصراف الترك إلى بلخ، وكان يزدجرد ترك خاقان يقابل بمزو الروذ، وانصرف إلى مزو الشاهجان، فلما وصلها تحصن حارثة بن الثغمان ومن معه، فحصرهم، واستخرج خزائنه من موضعتها.

وأراد أن يلحق خاقان لما بلغه أنصرافه عن مزو الروذ إلى بلخ؛ فأشار عليه أهل فارس بمصالحة المسلمين، فأبى ذلك، فاعتزلوه وقتلوه، فأنهزم، وأستولوا على خزائنه، وتوجه هو نحو خاقان وعبر النهر إلى فرغانة^(١)، وأقام ببلك الترك مدة خلافة عمر رضي الله عنه إلى أن كفر أهل خراسان في زمن عثمان، فكتبوه وكتبهم، ثم قتل على ما سنذكره - إن شاء الله تعالى - في خلافة عثمان.

قال: ثم أقبل أهل فارس بعد أنهزام يزدجرد على الأحنف، وصالحوه ودفعوا له الخزائن، وتراجعوا إلى بلادهم، وأغتبوا بالمسلمين، فأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية.

وسار الأحنف إلى بلخ ونزلها، ثم رجع إلى مزو الروذ، وكتب بهذا الفتح إلى عمر.

قال: ولما عبر خاقان ويزدجرد إلى النهر، لقيا رسول يزدجرد الذي كان أرسله إلى ملك الصين، فأخبره أن ملك الصين قال له: صف لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإنني أراك تذكر قلة منهم، وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم. فقال: سألني عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد؟ قال: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل القتال؟ قال: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم فإن أحببنا أجرونا مجراهم، أو الجزية، أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم في أمرائهم؟ قلت: أطوع قوم لرشيدهم^(٢). قال: فما يحلون وما

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق... (معجم البلدان).

(٢) رشيد القوم: مرشدهم.

يَحْرُمُونَ؟ فأخبره. قال: هل يُجِلُّون ما حُرِّمَ عليهم، أو يَحْرُمُونَ ما أُجِلَّ لهم؟ قال: لا. قال: هؤلاء القوم لا يزالون على الظُّفْرِ حتى يُجِلُّوا حَرَامَتَهُمْ وَيُحْرَمُوا حَلَالَهُمْ، ثم قال: أَخْبِرْنِي عن لِبَاسِهِمْ، فأخبره، وعن مَطَايَاهُمْ. قال: الخَيْلُ الْعِرَابُ، ووصفها لهم. قال: نِعَمَ الْحُصُونُ! ووصف له الإبلَ وَبَزَكُهَا وَقِيَامَهَا. فقال: هذه صِفَةُ دَوَابِّ طَوَالِ الْأَعْنَاقِ.

وكتب معه إلى يَزْدَجَرْد: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُبْعَثَ إِلَيْكَ بِجُنْدٍ أَوَّلُهُ بَمَرْوَ وَآخِرُهُ بِالصُّيْنِ الْجَهَالَةَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيَّ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ وَصَفَ لِي رَسُولُكَ لَوْ يَحَاوِلُونَ الْجِبَالَ لَهْدُوها، وَلَوْ خَلَا لَهُمْ سَبِيلُهُمْ^(١) أَزَالُونِي مَا دَامُوا عَلَى مَا وَصَفَ، فَسَالِمُهُمْ وَارْضَ مِنْهُمْ بِالسُّلَامَةِ، وَلَا تَهْجِهِمْ مَا لَمْ يَهْجَوْكَ.. فَأَقَامَ يَزْدَجَرْدُ بِقَرْغَانَةَ وَمَعَهُ آلُ كَسْرَى بَعْدَ عَهْدٍ مِنْ خَاقَانَ.

قال: وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُ الْفَتْحِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَمَعَ النَّاسَ وَخَطَبَهُمْ، وَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ، وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى إِنْجَازِ وَعْدِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَإِنَّ مَلِكَ الْمَجُوسِيَّةِ قَدْ هَلَكَ، فَلَيْسُوا يَمْلِكُونَ مِنْ بِلَادِهِمْ شَيْئًا يَضُرُّ بِمُسْلِمٍ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَلَا تَبَدَّلُوا فَيَسْتَبْدِلَ اللَّهُ بِكُمْ غَيْرَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مِنْ قَبْلِكُمْ.

وقيل: إِنَّ فَتْحَ خُرَاسَانَ كَانَ فِي زَمَنِ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَسَنَدَّكَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مَوْضِعِهِ.

ذِكْرُ فَتْحِ شَهْرَزُور^(٢) وَالصَّامَغَانَ^(٣)

وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ كَانَ فَتْحُ شَهْرَزُورٍ؛ فَتَحَهَا عُثْبَةُ بْنُ فَرْقَدٍ ضُلْحًا عَلَى مِثْلِ ضُلْحِ حُلَوَانَ بَعْدَ قِتَالٍ، وَصَالَحَ أَهْلَ الصَّامَغَانِ، وَدَارَابَاذَ عَلَى الْجَزِيَّةِ وَالْخَرَاجِ، وَقَتَلَ خُلُقًا كَثِيرًا مِنَ الْأَكْرَادِ، وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ: إِنَّ قُتُوحِي قَدْ بَلَغَتْ أَذْرَبِيَّجَانَ، فَوَلَّاهُ إِيَّاهَا، وَوَلَّى هَزْرَمَةَ بْنَ عَرْفَجَةَ الْمُؤَصِّلَ، وَلَمْ تَزَلْ شَهْرَزُورُ وَأَعْمَالُهَا مَضْمُومَةً إِلَى الْمُؤَصِّلِ حَتَّى أَفْرَدَتْ عَنْهَا فِي آخِرِ خِلَافَةِ الرَّشِيدِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ، نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

(١) الشُّرْبُ: الطَّرِيقُ وَالْوَجْهَةُ.

(٢) شهرزور: مدينتان وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها... يقال لها نيم أراي وأهلها عصاة على السلطان... وقيل: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراذ... (معجم البلدان).

(٣) صامغان: كورة من كور الجبل في حدود طبرستان، واسمها بالفارسية بيمان.

ذكر فتح تَوْج^(١)

كان فَتَحَهَا في سنة ثلاثٍ وعشرين؛ وذلك أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا إِلَى بِلَادِ فَارَسَ أُمَرَاءَ عَلَيْهَا، كَانَ مَعَهُمْ سَارِيَةُ بْنُ زَيْيَمٍ، فَسَارُوا، وَأَهْلُ فَارَسَ مُجْتَمِعُونَ بِتَوْجٍ، فَلَمْ يَقْصِدْهُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَتَوَجَّهَ كُلُّ أَمِيرٍ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا، وَبَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ فَارَسَ، فَافْتَرَقُوا إِلَى بُلْدَانِهِمْ، كَمَا افْتَرَقَ الْمُسْلِمُونَ، فَكَانَتْ تِلْكَ هَزِيمَتُهُمْ وَتَشَتَّتْ أُمُورُهُمْ، فَقَصَدَهُمْ مَجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ بِسَابُورَ وَأَزْدَشِيرَ فَالْتَقَوْا بِتَوْجٍ، وَأَقْتَتَلُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَنْهَزَمَ الْفُرسُ وَقَتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ شَرًّا قِتْلَةً، وَغَنِمُوا مَا فِي عَسْكَرِهِمْ، وَحَصَرُوا تَوْجَ فَأَقْتَتَحُوهَا، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَغَنِمُوا مَا فِيهَا.

وتَوْجٌ هِيَ الَّتِي اسْتَفْذَنْتَهَا جِيُوشُ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضَرَمِيِّ أَيَّامَ طَاوُسَ، ثُمَّ دُعُوا إِلَى الْجَزِيَةِ فَرَجَعُوا وَأَقْرَبُوا بِهَا، وَأَرْسَلَ مَجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ بِالْبَشَارَةِ وَالْأَخْمَاسِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

ذكر فتح اصْطَخَر وَجُور وَكَازُرُونَ^(٢) وَالتَّوْبِنْدَجَانُ^(٣)

ومدينة شِيرَاز وَأَرْجَانُ وَسِينِيز وَجَنَابَا وَجَهْرَمَ

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ قَصَدَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ إِصْطَخَرَ فَالْتَقَى هُوَ وَأَهْلُهَا بِجُورٍ، فَأَقْتَتَلُوا، وَأَنْهَزَمَ الْفُرسُ، وَفَتَحَ الْمُسْلِمُونَ جُورَ، ثُمَّ إِصْطَخَرَ، وَقَتَلُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَفَرَّ مِنْهُمْ مَنْ فَرَّ. فَدَعَاهُمْ عُثْمَانُ إِلَى الْجَزِيَةِ وَالذَّمَّةِ، فَأَجَابَهُ الْهَزِيدُ إِلَيْهَا، وَتَرَا جَعُوا.

وَكَانَ عُثْمَانُ قَدْ جَمَعَ الْغَنَائِمَ وَخَمْسَهَا، وَبِعَثَ الْخُمْسَ إِلَى عُمَرَ، وَفَتَحَ كَازُرُونَ وَالتَّوْبِنْدَجَانُ وَغَلَبَ عَلَى أَرْضِهَا.

(١) تَوْجٌ: مَدِينَةٌ بِفَارَسٍ قَرِيبَةً مِنْ كَازُرُونَ شَدِيدَةِ الْحَرِّ لِأَنَّهَا فِي غُورٍ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ نَخْلٍ، وَبِنَاوَهَا بِاللَّبَنِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ شِيرَازَ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ فَرَسَخًا، وَيَعْمَلُ فِيهَا ثِيَابَ كَتَانٍ تَنْسَبُ إِلَيْهَا، وَأَكْثَرُ مَنْ يَعْمَلُ هَذَا الصَّنْفَ بِكَازُرُونَ... (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ لِيَاقُوتَ).

(٢) كَازُرُونَ: بَلَدَةٌ عَامِرَةٌ كَبِيرَةٌ وَهِيَ دِمِيَاطُ الْأَعَاجِمِ، وَذَلِكَ أَنَّ ثِيَابَ الْكَتَانِ الَّتِي عَلَى عَمَلِ الْقَصَبِ وَشَبْهِ الشُّطُوبِ وَإِنْ كَانَتْ حَطْبًا تَعْمَلُ بِهَا وَتَبَاعُ بِهَا إِلَّا مَا يَعْمَلُ بِتَوْجٍ... (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ).

(٣) نَوْبِنْدَجَانُ: مَدِينَةٌ مِنْ أَرْضِ فَارَسَ مِنْ كُورَةِ سَابُورٍ قَرِيبَةً مِنْ شَعْبِ بَوَانَ الْمُوصُوفِ بِالْحَسَنِ وَالتَّزَاهَةِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْجَانِ سِتَّةَ وَعَشْرُونَ فَرَسَخًا...

وَفَتَحَ هُوَ وَأَبُو مُوسَى مَدِينَةَ شِيرَازَ، وَأَرْجَانَ، وَفَتَحَا سِينَيزَ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَالْخَرَجِ. وَقَصَدَ عَثْمَانُ أَيْضًا جَنَابًا فَفَتَحَهَا، وَفَتَحَ هُوَ وَأَبُو مُوسَى مَدِينَةَ شِيرَازَ، وَلَقِيَهُ جَمْعٌ مِنَ الْفُرسِ بِنَاحِيَةِ جَهْرَمَ فَهَزَمَهُمْ وَفَتَحَهَا. وَقِيلَ: إِنَّ فَتْحَ إِصْطَخَرِ كَانَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر فتح فسا ودرا بجرذ

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ أَيْضًا قَصَدَ سَارِيَةَ بَنُ زُنَيْمِ الدَّيْلِيِّ فَسَا وَدَرَابِجَرْدَ، وَأَنْتَهَى إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَحَاصَرَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ اسْتَمَدُوا وَتَجَمَّعُوا، وَتَجَمَّعَتْ إِلَيْهِمُ الْأَكْرَادُ مِنَ فَارَسَ، فَذَهَمَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَأَتَاهُمُ الْفُرسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَرَأَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعْرَكَتَهُمْ وَعَدَدَهُمْ فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، فَنَادَى مِنَ الْعَدَاةِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي رَأَى فِيهَا مَا رَأَى خَرَجَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ قَدْ رَأَاهُمْ وَالْعَدُوُّ فِي صَحْرَاءٍ، إِنْ أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا أُحِيطَ بِهِمْ، وَإِنْ اسْتَدَّوْا إِلَى الْجَبَلِ لَمْ يُؤْتُوا إِلَّا مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ.

فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ الْجَمْعَيْنِ... وَأَخْبَرَ بِحَالَهُمَا، وَصَاحَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَخْطُبُ: يَا سَارِيَةَ، الْجَبَلُ الْجَبَلُ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: إِنَّ لِلَّهِ جُنُودًا؛ وَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ.

فَسَمِعَ سَارِيَةُ وَمَنْ مَعَهُ الصَّوْتِ، فَلَجُّوْا إِلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ. وَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مَغَانِمَ، وَأَصَابُوا سَقَطًا فِيهِ جَوْهَرٌ، فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْهُمْ سَارِيَةُ، وَبَعَثَ بِهِ وَبِالْفَتْحِ مَعَ رَجُلٍ إِلَى عُمَرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَقَصَّةَ الْجَوْهَرِ، فَصَاحَ بِهِ عُمَرُ وَقَالَ: لَا وَلَا كَرَامَةَ! ااقْسِمَ بَيْنَ الْجُنْدِ، وَطَرَدَهُ، وَرَدَّ السَّقَطَ.

وَسَأَلَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ الرَّسُولَ، هَلْ سَمِعُوا يَوْمَ الْوَقْعَةِ شَيْئًا؟ قَالَ: سَمِعْنَا: «يَا سَارِيَةُ الْجَبَلُ». وَقَدْ كَدْنَا نَهْلِكَ، فَلَجَأْنَا إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْنَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

ذكر فتح كَرَمَانَ^(١)

وَفِيهَا قَصَدَ سُهَيْلُ بْنُ عَدِيٍّ كَرَمَانَ، وَلَحِقَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْبَانَ، وَخَشِدَ لَهُ أَهْلُهَا وَاسْتَعَانُوا بِالْقُقُصِ، فَأَقْتَتَلُوا فِي أَدْنَى أَرْضِهِمْ، فَقَتَلَ التُّسَيْرُ بْنُ عَمْرٍو الْعِجْلِيَّ مَرْزُبَانَهَا، وَفَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ.

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس

ومكران وسجستان وخراسان...

وقيل: إِنَّ الَّذِي فَتَحَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُذَيْلٍ بْنُ وَزْعَاءِ الْخَزَاعِي فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ، ثُمَّ أَتَى الطَّبَسِينَ مِنْ كَرْمَانَ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ: أَقِطْغَنِي الطَّبَسِينَ، وَأَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ. فَقِيلَ: إِنَّهَا رُسْتَاقٌ، فَأَمْتَعَ.

ذكر فتح سجستان^(١)

فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ أَيْضًا قَصَدَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ سَجِسْتَانَ، وَلَحِقَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَيْرٍ، فَأَسْتَقْبَلَهُمْ أَهْلُهَا فَالْتَقَوْا فِي أَدْنَى أَرْضِهِمْ، فَهَزَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَاتَّبَعُوهُمْ حَتَّى حَاصَرُوهُمْ بِزَرْجِجٍ، فَطَلَبُوا الصُّلْحَ عَلَى زَرْجِجٍ وَمَا سَادُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِينَ، وَأَضْطَلَحُوا عَلَى الْخَرَجِ، فَكَانَتْ سَجِسْتَانُ أَعْظَمَ مِنْ خُرَاسَانَ وَأَبْعَدَ فُرُوجًا، يُقَاتِلُونَ الْفُنْدَهَارَ وَالتُّرْكَ، وَأَمَّا كَثِيرَةٌ.

وقيل في فتح سَجِسْتَانَ غَيْرُ هَذَا، وَنَسْكَرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعِهِ.

ذكر فتح مُكَرَانَ^(٢)

وَفِيهَا قَصَدَ الْحَكَمُ بْنُ عُمَرَ التَّغْلِبِيَّ مُكَرَانَ، وَلَحِقَ بِهِ شَهَابُ بْنُ الْمُخَارِقِ وَسَهِيلُ بْنُ عَدِيٍّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِثْبَانَ، فَانْتَهَوْا إِلَى دُوْنِ النَّهْرِ، وَأَهْلُ مُكَرَانَ عَلَى شَاطِئِهِ، فَاسْتَمَدَّ مَلِكُهُمْ مَلِكُ السُّنْدِ، فَأَمَدَهُ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ، فَالْتَقَوْا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَهَزَمُوا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَاتَّبَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَهُمْ أَيَّامًا؛ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى النَّهْرِ، وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُكَرَانَ فَأَقَامُوا بِهَا، وَكَتَبَ الْحَكَمُ إِلَى عُمَرَ بِالْفَتْحِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَخْمَاسِ مَعَ صُحَارِ الْعَبْدِيِّ. فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ مُكَرَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هِيَ أَرْضٌ سَهْلٌهَا جَبَلٌ، وَمَاؤُهَا وَشَلٌ^(٣)، وَتَمْرُهَا دَقْلٌ، وَعَدْوُهَا بَطْلٌ، وَخَيْرُهَا قَلِيلٌ، وَشَرُّهَا طَوِيلٌ، وَالكَثِيرُ مِنْهَا قَلِيلٌ، وَالْقَلِيلُ بِهَا ضَائِعٌ، وَمَا وَرَاءَهَا شَرٌّ مِنْهَا.

فَقَالَ عُمَرُ: أَسْجَاغُ أَنْتَ أَمْ مُخْبِرٌ! لَا وَاللَّهِ لَا يَغْزُوها لِي جَيْشٌ أَبَدًا، وَكُتِبَ إِلَى سُهَيْلٍ وَالْحَكَمِ أَلَّا يَجُوزَنَّ مُكَرَانَ أَحَدٌ مِنْ جُنُودِكُمَا، وَأَمْرُهُمَا بَيْنَ الْفِيلَةِ الَّتِي عَنْمَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَقَسَمَ أَمَانَهَا عَلَى الْغَانِمِينَ.

(١) سجستان: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة... أرضها سبخة ورمال حارة، بها نخيل ولا يقع بها الثلج، وهي أرض سهلة لا يرى فيها جبل، وأقرب جبال منها من ناحية فره...

(٢) مكران: ... وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي معدن الفانيد ومنها ينقل إلى جميع البلدان وأجوده الماسكاني أحد مدنها... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.

ذكر فتح بيروذ من الأهواز

وهي بفتح الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من أسفل، وضَمُّ الراء وسكون الواو وذال معجمة.

قال: لما فصلت الخيول إلى الكور اجتمع بيروذ جمع كثير من الأكراد وغيرهم، وكان عمر رضي الله عنه قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى ذمة البصرة كما ذكرنا؛ حتى لا يؤتى المسلمون في أعقابهم. فسار أبو موسى وألتقى معهم في شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين ببيروذ من بين نهر تيرى ومناذر، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط^(١)، فقاتل حتى قُتل، واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر، وعظم عليه فقده، فرق له أبو موسى وأستخلفه على جُنده.

وخرج أبو موسى حتى بلغ أذربيجان، وكان مع المسلمين بها حتى فُتحَتْ، ثم رجع إلى البصرة، وفتح الربيع بن زياد بيروذ، وغنم ما كان تجمع بها.

وأوفد أبو موسى وفدًا إلى عمر بالأخماس، وطلب ضبة بن مخصن الغنوي أن يكون في الوفد، فلم يُجِبْهُ أبو موسى، وكان أبو موسى قد اختار من سبي بيروذ ستين غلامًا. فانطلق ضبة إلى عمر شاكيًا، وكتب أبو موسى إلى عمر يُخبره، فلما قدم ضبة على عمر سلم عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبره، فقال: لا مرحبًا ولا أهلًا! فقال: أما الرُحْبُ فمن الله، وأما الأهل فلا أهل. ثم سأله عمر عن حاله فقال: إنَّ أبا موسى أنتقى ستين غلامًا من أبناء الدهاقين لنفسه، وله جارية تُعْدي جفنة^(٢)، وتُعْشي جفنة تُدعى عقيلة، وله قفيزان^(٣)، وله خاتمان؛ وفوض إلى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، وأجاز الحطيئة بألف.

فاستدعى عمر أبا موسى، فلما قَدِم عليه حجَّبه أيامًا، ثم استدعاه، فسأل عمر ضبة عما قال: فقال: أخذ ستين غلامًا لنفسه. فقال أبو موسى: دلت عليهم، وكان لهم فداء، ففديتهم وقسمته بين المسلمين، فقال ضبة: ما كَذَب ولا كَذِبْتُ، وقال: له قفيزان، فقال أبو موسى: قفيز لأهلي أقوتهم به، وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم. فقال ضبة: ما كَذَب ولا كَذِبْتُ.

(١) تحنط: أي جعل عليه المنوط، وهو كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذرة وصندل وعنبر وغير ذلك.

(٢) الجفنة: القصعة.

(٣) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جرامًا.

فلَمَّا ذَكَرَ عَقِيلَةَ سَكَتَ أَبُو مُوسَى وَلَمْ يَعْتَذِرْ، فَعَلِمَ أَنَّ ضِبَّةً قَدْ صَدَقَهُ. قَالَ: وَوَلَّى زِيَادًا، قَالَ: رَأَيْتُ لَهُ رَأْيًا وَثْبَلًا فَأَسْتَدْتُ إِلَيْهِ عَمَلِي. قَالَ: وَأَجَازَ الْحَطِيطَةَ بِالْفَلْبِ، قَالَ: سَدَدْتُ فَمَهُ بِمَالِي أَنْ يَشْتِمَنِي، فَرَدَّهُ عَمْرُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُزِيلَ إِلَيْهِ زِيَادًا وَعَقِيلَةَ، فَفَعَلَ.

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ زِيَادٌ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَعَطَائِهِ وَالْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ، وَالْقُرْآنَ، فَرَأَاهُ فَقَبِيحًا، فَرَدَّهُ، وَأَمَرَ أَمْرَاءَ الْبَصْرَةِ أَنْ يَسِيرُوا بِرَأْيِهِ، وَحَبَسَ عَقِيلَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَ عُمَرُ: أَلَا إِنَّ ضِبَّةً غَضِبَ عَلَى أَبِي مُوسَى وَرَدَّهُ مُرَاعِمًا، أَنْ فَاتَهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ، وَكَذَبَ فَأَفْسَدَ كَذِبُهُ صَدَقَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ.

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

قَالَ: كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَمَرَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَيْشٌ، فَبِعَثَ عَلَيْهِمْ سَلَمَةَ بْنَ قَيْسِ الْأَشْجَعِيِّ وَقَالَ لَهُ: سِرْ بِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ كَفَرٍ بِاللَّهِ؛ فَإِذَا لَقَيْتُمْ عَدُوَّكُمْ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوا وَأَقَامُوا بِدَارِهِمْ فَعَلَيْهِمُ الرِّكَاءُ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْفَنَاءِ نَصِيبٌ، وَإِنْ سَارُوا مَعَكُمْ فَلَهُمْ مِثْلُ الَّذِي لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْكُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُوهُمْ إِلَى الْحِزْبِ، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ، وَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلُوهُمْ، وَإِنْ تَحَصَّنُوا مِنْكُمْ وَسَلُّوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَا تَجْبِيهِوهُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا حَكَمُ اللَّهِ رَسُولَهُ، وَذِمَّتُهُمَا فِيهِمْ، وَلَا تُغْدِرُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَلَا تُمَثِّلُوا.

فَسَارُوا حَتَّى لَقُوا عَدُوًّا مِنَ الْأَكْرَادِ الْمُشْرِكِينَ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوْ الْحِزْبِ، فَأَبَوْا فَقَاتَلُوهُمْ وَهَزَمُوهُمْ، وَقَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَّوْا الذَّرِيَّةَ فَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ، وَرَأَى سَلَمَةُ جَوْهَرًا فِي سَقَطٍ، فَاسْتَرْضَى عَنْهُ الْمُسْلِمِينَ وَبَعَثَهُ إِلَى عَمْرٍ، فَغَضِبَ وَوَجَّاهُ^(١) فِي عُتُقِ رَسُولِهِ وَأَعَادَهُ، فَبَاعَهُ سَلَمَةُ، وَقَسَمَ ثَمَنَهُ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ الْقَصْدُ يَبَاعُ بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ، وَقِيمَتُهُ عَشْرُونَ أَلْفًا.

ذكر فتوح مصر وما والاها

كَانَ فَتْحُ مِصْرَ عَلَى يَدِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَدْ اخْتَلِفَ فِي السَّنَةِ الَّتِي فَتَحَتْ مِصْرَ فِيهَا، فَقِيلَ: فِي سَنَةِ عَشْرِينَ. وَقِيلَ: سَنَةِ سِتٍّ عَشْرَةٍ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا فُتِحَتْ قَبْلَ عَامِ الرَّمَادَةِ، وَكَانَ عَامُ الرَّمَادَةِ فِي سَنَةِ ثَمَانِي

(١) وَجَّاهُ: دَفَعَهُ بِجَمْعِ كَفَهُ فِي الصَّدْرِ أَوْ الْعُنُقِ. أَوْ ضَرَبَهُ.

عشرة؛ فَإِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ حَمَلَ مِنْهَا الطَّعَامَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي بَحْرِ الْقُلُزْمِ عَلَى مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَوَادِثِ السَّنِينَ.

وقد اختلف أيضًا في سبب مسير عمرو إليها، واختلف في كيفية الفتح، وكيف كان.

وقد رَوَى الشَّيْخُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ^(١) - رحمه الله - فِي فُتُوحِ مِصْرَ أَخْبَارًا بِأَسَانِيدَ مُتَّصِلَةً إِلَى جَمَاعَةٍ مِمَّنْ شَهِدُوا الْفَتْحَ وَغَيْرَهُمْ، اخْتَصَرْنَا ذِكْرَهَا، مَدَارُهَا عَلَى ابْنِ لَهْيَعَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ وَعِيَّاشِ بْنِ عَبَّاسٍ الْعَتَبَانِيِّ وَعَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَغَيْرِهِمْ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي حَدِيثِ بَعْضٍ. وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

ذكر مسير عمرو إلى مصر

قالوا: لَمَّا قَدِمَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْجَابِيَةِ، قَامَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَخَلَا بِهِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَدُنُّ لِي أَنْ أُسِيرَ إِلَى مِصْرَ، وَحَرَّضَهُ عَلَيْهَا وَقَالَ: إِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهَا كَانَتْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ وَعَوْنًا لَهُمْ، وَهِيَ أَكْثَرُ الْأَرْضِ أَمْوَالًا، وَأَعْجَزُ عَنِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ. فَتَخَوَّفَ عَمْرُو عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَكَرِهَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلْ عَمْرُو يَعْظُمُ أَمْرَهَا عِنْدَهُ، وَيَهْوُوْنَ عَلَيْهِ فَتَحَهَا، حَتَّى رَكَنَ لَذَلِكَ، فَعَقَدَ لَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ رَجُلٍ كُلُّهُمْ مِنْ عَكٍّ^(٢)، وَيُقَالُ: ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَخُمْسُمِائَةٍ. وَقِيلَ: ثَلَاثُ مِائَةٍ مِنْ غَافِقٍ^(٣)، وَقَالَ لَهُ: سِرْ وَأَنَا مُسْتَخِيرُ اللَّهِ فِي مَسِيرِكَ، وَسَيَأْتِيكَ كِتَابِي سَرِيعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِذَا أَدْرَكَكَ كِتَابِي بِالْأَنْصِرَافِ عَنْ مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَهَا، أَوْ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا فَانْصَرَفْ، وَإِنْ أَنْتَ وَصَلْتَهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَأَمْضِ لَوَجْهِكَ، وَأَسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَاسْتَنْصِرْهُ.

فسار عمرو من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله تعالى، فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك.

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري، المالكي (أبو القاسم) محدث، مؤرخ فقيه، من أهل مصر توفي في المحرم من سنة ٢٥٧ هجرية.. من مؤلفاته: فتوح مصر وأخبارها.. (وفي هدية العارفين فتوح مصر والمغرب) (معجم المؤلفين ١٥٠:٥).

(٢) عك: بفتح أوله: هي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك..

(٣) غافق: حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط..

فكتب إلى عمرو أن ينصرف بمن معه، فأذركه الكتاب وهو برّح^(١)، فتخوّف إن هو أخذ الكتاب، وفتحه أن يجد فيه الأنصراف، فلم يأخذه من الرسول، ودافعه حتى انتهى إلى قرية فيما بين رّح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنها من أرض مصر، فأخذ الكتاب وقرأه على المسلمين، وقال لمن معه: ألسنتم تعلمون أن هذه القرية من مضر؟ قالوا: بلى، قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني أن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع؛ ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وأمضوا على بركة الله عز وجل.

وقد قيل: إن عمرو بن العاص كان بفلسطين، فقدم بأصحابه إلى مصر بغير إذن عمر، وكتب إليه يُعلمه، فكتب عمر إليه، فأتاه كتابه وهو دون العريش، فلم يقرأ كتابه حتى بلغ العريش فقرأه، فإذا فيه:

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فإنك سرت إلى مصر ومن معك، وبها جُموع الرّوم؛ وإنما معك نفر يسير، ولعمري لو كانوا بكل أمتك ما كانوا لذلك، وما سرت بهم، فإن لم تكن بلغت مضر فأرجع.

فقال عمرو: الحمد لله، أيّة أرض هذه؟ قالوا: من مصر. فتقدّم كما هو. ويقال: بل كان عمرو في جندته بقيسارية، فكتب إلى عمر بن الخطاب، وعمر إذ ذاك بالجابية، وهو يستأذنه على المسير إلى مصر، وأمر أصحابه فتنحّوا من منزلتهم كأنهم يريدون أن يتحولوا من منزل إلى منزل، فسار بهم ليلاً، فلما فقده أمراء الأجناد استنكروا فعله، ورأوا أن قد غرّز، فرفعوا ذلك إلى عمر، فكتب إليه:

إلى العاصي ابن العاص، أما بعد، فإنك قد غرّرت^(٢) بمن معك، فإن أدركك كتابي ولم تدخل مصر فأرجع، وإن أدركك وقد دخلت فأمض، وأعلم أنني مُبدك.

ويقال: إن عمرو رضي الله عنه كتب إلى عمرو بعد فتح الشام: أن أندب الناس إلى المسير معك، فمن خف معك فسير به. وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة، فندبهم عمرو، وأسرع في الخروج، ثم دخل عثمان بن عفان رضي الله عنه على عمر، فأخبره عمر بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمراً فيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة؛ فيعرض المسلمين للتهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا!

(١) رفع: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد من مصر، وهو أول الرمل، ضرب الآن، تنسب إليه الكلاب، وله ذكر في الأخبار... وقيل: رفع مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) غرّز به: عرضه للهلكة.

فندِمَ عمرُ على كتابه إلى عمرو، وكتب إليه أن ينصرفَ إن كان لم يدخل أرضَ مصرَ على ما تقدّم.

قالوا: ونفرتَ راشدةٌ وقبائلُ من العربِ مع عمرو، فسارَ بهم، فأدركه عيدُ النحرِ بالعريش، فضحى هناك. ولَمَّا بلغَ المقوقسَ مسيرَ عمرو إلى مصرَ، توجهَ إلى الفسطاط، وكان يجهّزُ الجيوشَ على عمرو، وكان على القصرِ رجلٌ من الرومِ، يقال له: الأعيرج واليا تحت يد المقوقس.

وتقدّم عمرو فكان أولَ موضعٍ قُوتِلَ به الفَرَمَا^(١)، قاتَلَهُ الرومُ هناك قتالاً شديداً.

قال: وكان بالإسكندرية أسقفٌ للقبطِ يقال له: أبو ميامين، فلَمَّا بلغه قدومُ عمرو كَتَبَ إلى القبطِ يُعلمُهُم أنه لا يكونُ للرومِ دولةٌ، وأنَّ ملكَهُم قد انقطع، ويأمرُهُم بتلقّي عمرو.

فيقال: إنَّ القبطَ الذين كانوا بالفَرَمَا كانوا يومئذٍ لعمرو أعواناً، ثم سار عمرو من الفَرَمَا لا يدافعُ إلا بالأمرِ الخفيف، حتّى نزلَ بليّس^(٢) فقاتلوه بها نحواً من شهرٍ حتّى فتح الله عليه، ثم مضى حتّى أتى أمّ دُنين^(٣) فقاتلوه بها قتالاً شديداً، وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمرَ يستمده، فأمدّه بأربعةِ آلافٍ تمامَ ثمانيةِ آلافٍ، فقاتلهم، وجاء رجلٌ من لُحَمٍ - قيل: هو خارجةُ بنُ حُذافة - إلى عمرَ، فقال له: أندُبُ معي خيلاً حتّى آتيني من ورائهم عند القتال فأخرجَ معه خمسمائةِ فارسٍ، فسارَ بهم من وراء الجبلِ حتّى دَخَلُوا مُغَارَ بني وائلٍ قُبيل الصبحِ، وكانت الرومُ قد خَنَدُوا خَنَدَقاً، وجعلوا له أبواباً، وبثوا في أفنيئتها حَسَكَ الحديدِ، فالتقى القومُ حين أضبحُوا، وخرجت الخيلُ من ورائهم فأنهزَموا حتّى دخلوا الحصنَ، وهو القصرُ الذي يقال له: بابليون.

(١) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر... وقيل: الفرما حصن على ضفة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء وخمه لأنه من كل جهة حوله سباح تتوحد فلا تكاد تنضب صيفاً ولا شتاءً وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر يخزن في الجباب... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بليّس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، يسكنها عبس بن بغض...

(٣) أم دنين: هي قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل رضى القاهرة...

ذكر حصار القصر وما قيل في كيفية الاستيلاء عليه وانتقال الروم والقبط إلى الجزيرة

قال: ولما انهزموا إلى القصر حَصَرَهُم عمرو بن العاص ومن معه حينًا، وقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا صَبَاحًا، ثم كتب إلى عمر يستمده، فأمدّه بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل وكتب إليه: قد أمددتك بأربعة آلاف على كل ألف رجل: الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، وعُبادَة بن الصّامت، وسَلَمَةُ بن مَخْلَد، ومنهم من جَعَلَ بَدَل سَلَمَةَ خَارِجَةً بن خُذَافَةَ.

وقال عُمر له في كتابه: اعلم أن مَعَكَ اثني عشر ألفًا، ولا يُغلب أثنا عشر ألفًا من قِلَّة. وقيل: إنّه لما أَشْفَقَ عمر، أرسل الزبير في اثني عشر ألفًا، فلما قدم تلقاه عمرو، ثم أَقْبَلَا، فركب الزبير وطاف بالخندق، وفَرَّقَ الرِّجَالَ حوله، وألحَّ عمرو إلى القصر، ونَصَبَ عليه المَنْجَنِقَ، وأبطأ الفتح. فقال الزبير: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سُلْمًا إلى جانب الحِصْنِ من ناحية سوق الحمام، ثم صَعِدَ، وأمرهم أنَّهُمْ إذا سمِعُوا التَّكْبِيرَ أن يجيئوه جميعًا، فلم يشعر الروم إلا والزبير على الحصن يكبر ويبيد السيف، وتحامل الناس على السلم حتى خشي عمرو أن ينكسر بهم، فنهاهم، ولما صاروا بأعلى الحصن كبروا جميعًا، وأجابهم المسلمون من خارج الحصن، فما شك أهل الحصن أن العرب قد أَقْتَحَمُوا جميعًا، فهربوا، فعَمَدَ الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففَتَحُوهُ، واقتحمه المسلمون؛ فحينئذ سأل المقوقس الصُّلَحَ على نفسه ومن معه؛ على أن يقرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم، فأجابهم عمرو إلى ذلك.

وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر، والله تبارك وتعالى أعلم.

قال ابن عبد الحكم: وقد سمعت في فتح القصر وجها آخر، ورواه بسنده إلى خالد بن يزيد، عن جماعة من التابعين، يزيد حديث بعضهم على حديث بعض، قالوا: لما حصر المسلمون بايليون، وبه جماعة من الروم، وأكابر القبط وعليهم المقوقس، فقاتلهم شهرًا، فلما رأى القوم الجِدَّ من المسلمين تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ورؤسائهم، وخرجوا من باب القصر القبلي، ودوّنهم جماعة يقاتلون العرب، فلجّحوا بالجزيرة.

قال: وهي موضعُ الصَّنَاعَةِ اليوم، وأمروا بقطع الجِسْرِ، وذلك في زَمَنِ زيادة النِّيلِ، وتخلَّفَ الأعْجِرَجُ بالقَصْرِ بعدَ المقوقسِ، ثم تحوَّلَ إلى الجزيرة في السُّفُنِ. والله أعلم.

ذكر إرسال المقوقس إلى عمرو في طلب الصلح وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصَّامت وما وقع بينهما من الكلام وقبول المقوقس الجزية

قال: وأرسل المقوقسُ إلى عمرو يقول: إنَّكم قد وَلَجْتُمْ^(١) بلادنا، وألححتُم على قِتَالِنَا، وطالَ مُقَامُكُمْ في أرضنا؛ وإنَّما أنتم غُضْبَةٌ سِيرَةٌ، وقد أَظْلَثْتُمُ الرُّومَ ومعهم من العُدَدِ والسَّلاحِ، وقد أحاط بكم هذا النِّيلُ، وإنَّما أنتم أَسَارَى في أيدينا، فأبعثوا إلينا رجالاً منكم نَسْمَعُ منهم؛ فلعله أن يَأْتِيَ الأمرُ فيما بيننا وبينكم على ما تُحِبُّونَ ونُحِبُّ، وينقطعَ عَنَّا وعنكم هذا القِتَالُ قبل أن تَغْشَاكم جُمُوعُ الرُّومِ؛ فلا يَنْفَعَنَا الكلام ولا تَقْدِرَ عليه، ولعلَّكُمْ أن تَنْدَمُوا. . ونحو ذلك من الكلام.

فلما أتَتْ رُسُلُ المقوقسِ عَمراً حَبَسَهُمْ عنده يومين وليلتين؛ حتى خافَ عليهم المقوقسُ وقال لأصحابه: أَتَرَوْنَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الرُّسُلَ وَيَحْبِسُونَهُمْ، ويستحلُّونَ ذلك في دينهم؟ وإنَّما أرادَ عمرو بذلك أن يَرَوْا حالَ المسلمين، ثم رَدَّهُمْ عَمْرُو. وأجابه مع رُسُلِهِ: إِنَّهُ ليس بيني وبينكم إلاَّ إحدى ثلاث خِصال: إمَّا أن دخلتُم في الإسلام وكنتُم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإنَّ أُبَيَّتُمْ فَأَعْطَيْتُمُ الجزيةَ عَنْ يَدٍ وأنتم صاغِرُونَ. وإمَّا أن جاهدناكم بالصبر والقتالِ حتى يحكُمَ اللَّهُ بيننا وبينكم، وهو خيرُ الحاكمين.

فلما جاءت رُسُلُ المقوقسِ إليه، قال: كَيْفَ رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنَا قَوْمًا، المَوْتُ أَحَبُّ إلى أحدهم من الحياة، والتَّواضُعُ أَحَبُّ إليهم من الرَّفْعَةِ، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبة ولا نَهْمَةٌ^(٢)؛ إنَّما جلوسهم على التُّرابِ، وأكْلُهُمْ على الرُّكَبِ، وأميرهم كواحدٍ منهم، ما يُعْرِفُ رَفِيعُهُمْ مِنحَ وضييعَهُمْ، ولا السَّيِّدُ فيهم من العَبْدِ، وإذا حضرتِ الصَّلَاةُ لم يتخلَّفَ عنها منهم أحدٌ، يَغْسِلُونَ أطرافَهُمْ بالماءِ، ويتخشَّعونَ في صلاتهم.

(١) ولجتم بلادنا: دخلتموها.

(٢) النهمة: الحاجة؛ أو الشهوة في الشيء.

فقال المقوقس: والذي يُحَلَفُ به، لو أن هؤلاء أَسْتَقْبَلُوا الجبالَ لأزالوها، وما يَشَوِي على قتال هؤلاء أحد؛ ولئن لم نَغْتَنِمْ ضُلُحَهم اليومَ وهم مَحْصُورُونَ بهذا الثَّيْلِ لم يُجِيبُونَا بعد اليوم، إذا أَمَكَّتْهُمْ الأرضُ وَقَوُوا على الْخُرُوجِ مِنْ مَوْضِعِهِمْ. ثم رَدَّ رُسُلَهُ إلى المسلمين، أن أَعْبَثُوا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْكُمْ، نُعَامِلَهُمْ وَنَتَدَاعَى نَحْنُ وَهُمْ إِلَى مَا عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ صَلاَحٌ لَنَا وَلَكُمْ.

فَبَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَشْرَةَ نَفَرٍ، أَحَدَهُمْ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَأَمْرٌ أَنْ يَكُونَ مَتَكَلِّمَ الْقَوْمِ، وَالْأُخْرَى يُجِيبُهُمْ إِلَى شَيْءٍ دَعَاهُ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَى إِخْدَى هَذِهِ الثَّلَاثِ خِصَالٍ.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى الْمَقُوقِسِ تَقَدَّمَ عِبَادَةُ، فَهَابَهُ الْمَقُوقِسُ لِسَوَادِهِ، فَقَالَ: نَحْنُو عَنِّي هَذَا الْأَسْوَدَ، وَقَدَّمُوا غَيْرَهُ يَكَلِّمُنِي، فَقَالُوا جَمِيعًا: إِنَّ هَذَا الْأَسْوَدَ أَفْضَلُنَا رَأْيًا وَعِلْمًا، وَهُوَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا، وَالْمَقْدَمُ عَلَيْنَا، وَإِنَّمَا نَرْجِعُ جَمِيعًا إِلَى قَوْلِهِ وَرَأْيِهِ، وَقَدْ أَمَرَهُ الْأَمِيرُ دُونَنَا بِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَأَمَرْنَا أَلَّا نَخَالَفَ رَأْيَهُ وَقَوْلَهُ، قَالَ: وَكَيْفَ رَضِيتُمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَسْوَدُ أَفْضَلَكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ دُونَكُمْ. قَالُوا: إِنَّهُ وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ كَمَا تَرَى، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِنَا مَوْضِعًا، وَأَفْضَلِنَا سَابِقَةً وَعَقْلًا وَرَأْيًا، وَلَيْسَ يُنْكَرُ السَّوَادُ فِينَا.

فَقَالَ الْمَقُوقِسُ لِعِبَادَةِ: تَقَدَّمَ يَا أَسْوَدَ وَكَلِّمْنِي بَرَفِقٍ، فَإِنِّي أَهَابُ سَوَادَكَ، وَإِنْ اشْتَدَّ كَلَامُكَ عَلَيَّ أَرَدَدْتُ لِدَلِكْ هَيْبَةً، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عِبَادَةُ فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَكَ، وَإِنْ فِيمَنْ خَلَفْتُ مِنْ أَصْحَابِي أَلْفَ رَجُلٍ كُلُّهُمْ أَشَدُّ سَوَادًا مِنِّي، وَأَفْظَعُ مَنْظَرًا؛ وَلَوْ سَمِعْتَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ لَكُنْتُ أَهْيَبُ لَهُمْ مِنْكَ لِي، وَأَنَا قَدْ وَائِثْتُ وَأَدْبَرْتُ شَبَابِي، وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَعَ ذَلِكَ مَا أَهَابُ مَائَةَ رَجُلٍ مِنْ عَدُوِّي لَوْ أَسْتَقْبَلُونِي جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ أَصْحَابِي؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا رَغِبْنَا وَهِمَّمْنَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتْبَاعِ رِضْوَانِهِ، وَلَيْسَ غَزَوْنَا مِمَّنْ حَارَبَ اللَّهُ لِرَغْبَةٍ فِي دُنْيَا وَلَا طَلِبًا لِلْاِسْتِكْثَارِ مِنْهَا؛ إِلَّا أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ ذَلِكَ لَنَا، وَجَعَلَ مَا غَنِمْنَا مِنْ ذَلِكَ حَلَالًا، وَمَا يُبَالِي أَحَدُنَا أَكَانَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ ذَهَبٍ أَمْ كَانَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا دِرْهَمًا؛ لِأَنَّ غَايَةَ أَحَدِنَا مِنَ الدُّنْيَا أَكْلُهُ يَسُدُّ بِهَا جُوعَتَهُ لِلَّيْلِ وَنَهَارِهِ، وَشَمْلَةٌ^(١) يَلْتَحِفُهَا. فَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَا يَمْلِكُ إِلَّا ذَلِكَ كِفَاةً؛ وَإِنْ كَانَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ ذَهَبٍ أَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَقْتَصَرَ عَلَى هَذَا الَّذِي بِيَدِهِ، وَبَلَغَهُ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِنَعِيمٍ، وَرَخَاوُهَا لَيْسَ بِرِخَاءٍ، وَإِنَّمَا التَّعْيِيمُ وَالرِّخَاءُ فِي الْآخِرَةِ؛ وَبِذَلِكَ أَمَرْنَا رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرْنَا بِهِ نَبِيَّنَا، وَعَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا تَكُونَ هِمَّةُ أَحَدُنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يَمْسِكُ جُوعَتَهُ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ، وَتَكُونُ هِمَّتُهُ وَشُغْلُهُ فِي رِضَا رَبِّهِ، وَجِهَادِ عَدُوِّهِ.

(١) الشَّمْلَةُ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعْرٍ يَتَغَطَّى بِهِ وَيَتَلَفَفُ بِهِ.

فلَمَّا سَمِعَ الْمُقَوْقِسُ ذَلِكَ مِنْهُ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: هَلْ سَمِعْتُمْ مِثْلَ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ؟ فَقَدْ هَبْتُ مَنَظَرَهُ، وَإِنَّ قَوْلَهُ لَأَهْبَيْتُ عِنْدِي مِنْ مَنَظَرٍ، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ لَخَرَابِ الْأَرْضِ، مَا أَظُنُّ مَلَكُهُمْ إِلَّا سَيَغْلِبُ عَلَى الْأَرْضِ كُلِّهَا.

ثم أَقْبَلَ عَلَى عِبَادَةِ فَقَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ، وَمَا ذَكَرْتَ عَنْكَ وَعَنْ أَصْحَابِكَ، وَلَعَمْرِي مَا بَلَغْتُمْ مَا بَلَغْتُمْ إِلَّا بِمَا ذَكَرْتُ، وَمَا ظَهَرْتُمْ عَلَى مَنْ كَانَ إِلَّا لِحُبِّهِمُ الدُّنْيَا وَرَغْبَتِهِمْ فِيهَا، وَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَيْنَا لِقِتَالِكُمْ مِنْ جَنَاحِ الرُّومِ مَا لَا يُخْصِي عَدْدَهُ، قَوْمٌ مَعْرُوفُونَ بِالنَّجْدَةِ وَالشَّدَةِ، لَا يُبَالِي أَحَدُهُمْ مَنْ لَقِيَ وَلَا مَنْ قَاتَلَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقُورُوا عَلَيْهِمْ وَلَنْ تُطِيقُوهُمْ لَضَعْفِكُمْ وَقَلَّتِكُمْ، وَقَدْ أَقَمْتُمْ بَيْنَ أَظْهَرِنَا أَشْهُرًا، وَأَنْتُمْ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ مِنْ مَعَاشِكُمْ وَحَالِكُمْ، وَنَحْنُ نَرُوقُ عَلَيْكُمْ لَضَعْفِكُمْ وَقَلَّتِكُمْ، وَقَلَّةٌ مَا بِأَيْدِيكُمْ، وَنَحْنُ تَطِيبُ أَنْفُسُنَا أَنْ نَصَالِحَكُمْ، عَلَى أَنْ نَفْرِضَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ دِينَارَيْنِ، وَلَأَمِيرِكُمْ مِائَةَ دِينَارٍ، وَلِخَلِيفَتِكُمْ أَلْفَ دِينَارٍ، تَقْبِضُونَهَا وَتَنْصَرِفُونَ إِلَى بِلَادِكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَغْشَاكُمْ مَا لَا قِيَامَ لَكُمْ بِهِ.

فَقَالَ عُبَادَةُ: يَا هَذَا، لَا تَعْرُوقُ نَفْسَكَ وَلَا أَصْحَابَكَ، أَمَّا مَا تَخَوَّفْنَا بِهِ مِنْ جَنَاحِ الرُّومِ وَعَدِيدِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ، وَأَنَا لَا تَقْوَى عَلَيْهِمْ؛ فَلَعَمْرِي مَا هَذَا بِالَّذِي تَخَوَّفْنَا بِهِ، وَلَا بِالَّذِي يَكْسِرُنَا عَمَّا نَحْنُ فِيهِ؛ إِنْ كَانَ مَا قُلْتُمْ حَقًّا؛ فَلذَلِكَ وَاللَّهِ أَرْغَبُ مَا يَكُونُ فِي قِتَالِهِمْ، وَأَشَدُّ تَحْرِيطًا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَعْدَرُ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا إِذَا قَدِمْنَا عَلَيْهِ؛ إِنْ قُتِلْنَا عَنْ آخِرِنَا كَانَ أَمَكُنَ لَنَا فِي رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِيهِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَقَرُّ لَأَعْيُنِنَا وَلَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّا مِنْكُمْ حَيْثُ لَعَلَّى إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ:

إِمَّا أَنْ تَعْظُمَ لَنَا بِذَلِكَ غَنِيمَةُ الدُّنْيَا إِنْ ظَفِرْنَا بِكُمْ، أَوْ غَنِيمَةُ الْآخِرَةِ إِنْ ظَفِرْتُمْ بِنَا؛ وَإِنَّا لَأَحَبُّ الْخَصْلَتَيْنِ إِلَيْنَا بَعْدَ الْأَجْتِهَادِ مِثْنًا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَنَا فِي كِتَابِهِ:

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وَمَا مِثْلَ رَجُلٍ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو رَبَّهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ الشَّهَادَةَ وَالْأَيُّدِيَّ إِلَى بَلَدِهِ، وَلَا إِلَى أَرْضِهِ، وَلَا إِلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِثْلَ هُمْ فِيمَا خَلَقَهُ، وَقَدْ اسْتَوْدَعَ كُلُّ مِثْلٍ رَبَّهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ؛ وَإِنَّمَا هُمْنَا مَا أَمَانَا.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ مِنْ مَعَاشِنَا وَحَالِنَا، فَنَحْنُ فِي أَوْسَعِ السَّعَةِ؛ لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَنَا مَا أَرَدْنَا مِنْهَا لَا نَفْسِنَا أَكْثَرَ مِمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَانْظُرْ الَّذِي تُرِيدُ فَبَيْنَهُ لَنَا؛ أَفَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ خَصْلَةٌ نَقْبَلُهَا مِنْكَ وَلَا نَجْبِيكَ إِلَيْهَا إِلَّا خَصْلَةٌ مِنْ ثَلَاثٍ، فَاخْتَرِ أَيُّهَا شَتَّتْ، وَلَا تُطِيعْ نَفْسَكَ بِالْبَاطِلِ؛ بِذَلِكَ أَمَرَنِي أَمِيرِي، وَبِهَا أَمَرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِ إِلَيْنَا.

إِنَّمَا أَجَبْتُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَعَالَى غَيْرَهُ، وَهُوَ دِينُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَمَلَائِكَتِهِ. أَمَرْنَا اللَّهَ أَنْ نَقَاتِلَ مَنْ خَالَفَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ؛ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ، فَإِنْ فَعَلَ فَإِنَّ لَهُ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَكَانَ أَخَانًا فِي دِينِ اللَّهِ. فَإِنْ قَبِلْتَ ذَلِكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ فَقَدْ سَعَدْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَرَجَعْنَا عَنْ قِتَالِكُمْ، وَلَمْ نَسْتَحِجْ أَذَاكُمْ، وَلَا التَّعَرُّضَ لَكُمْ، وَإِنْ أُبَيِّتُمْ إِلَّا الْجِزْيَةَ، فَأَدُّوا إِلَيْنَا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، نُعَامِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ تَرْضَى بِهِ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ عَامٍ أَبَدًا، مَا بَقِينَا وَبَقَيْتُمْ، وَنَقَاتِلُ مَنْ نَاوَأَكُمْ وَعَرَضَ لَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَنَقُومُ بِذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ فِي ذِمَّتِنَا، وَكَانَ لَكُمْ بِهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَيْنَا، وَإِنْ أُبَيِّتُمْ فَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا الْمَحَاكِمَةُ بِالسَّيْفِ حَتَّى نَمُوتَ عَنْ آخِرِنَا، أَوْ نَصِيبَ مَا نَرِيدُ مِنْكُمْ، هَذَا دِينُنَا الَّذِي نَدِينُ اللَّهَ تَعَالَى بِهِ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ غَيْرُهُ، فَأَنْظَرُوا لَأَنْفُسِكُمْ.

فَقَالَ لَهُ الْمَقْرُقِسُّ: هَذَا مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا، مَا تُرِيدُونَ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُونَا خَوَلَاءَ أَوْ نَكُونَ لَكُمْ عِبِيدًا مَا كَانَتْ الدُّنْيَا.

فَقَالَ عُبَادَةُ: هُوَ ذَاكَ، فَأَخْتَرُ مَا شِئْتُ. قَالَ: أَفَلَا تَجِيبُونَنَا إِلَى خَصْلَةٍ غَيْرِ هَذِهِ الْخِصَالِ؟ فَرَفَعَ عُبَادَةُ يَدَيْهِ فَقَالَ: لَا وَرَبِّ هَذِهِ السَّمَاءِ، وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَرَبِّنَا وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، مَا لَكُمْ عِنْدَنَا خَصْلَةٌ غَيْرَهَا، فَأَخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ.

فَالْتَفَتَ الْمَقْرُقِسُّ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: قَدْ فَرَّغَ الْقَوْمُ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَقَالُوا: أَوْ يَرْضَى أَحَدٌ بِهَذَا الدَّلَالِ! أَمَّا مَا أَرَادُوا مِنْ دُخُولِنَا فِي دِينِهِمْ فَهَذَا مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا؛ أَنْ نَتْرَكَ دِينَ الْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ، وَنَدْخُلَ فِي دِينِ غَيْرِهِ وَلَا نَعْرِفَهُ وَأَمَّا مَا أَرَادُوا مِنْ أَنْ يَسْبُونَا وَيَجْعَلُونَا عِبِيدًا أَبَدًا، فَالْمَوْتُ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ، لَوْ رَضُوا مِنَّا أَنْ نُضْعِفَ^(١) لَهُمْ مَا أَعْطَيْنَاهُمْ مَرَارًا كَانُوا أَهْوَنَ عَلَيْنَا.

فَقَالَ الْمَقْرُقِسُّ لِعُبَادَةَ: قَدْ أَبَى الْقَوْمُ، فَمَا تَرَى؟ فَرَاغَ صَاحِبُكَ عَلَى أَنْ نَعْطِيَكُمْ فِي مَرْتَكَمِ هَذِهِ مَا تَمْنُونُ وَتَنْصَرِفُونَ.

فَقَامَ عُبَادَةُ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ الْمَقْرُقِسُّ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَطِيعُونِي وَأَجِيبُوا الْقَوْمَ إِلَى خَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ، فَوَاللَّهِ مَا لَكُمْ بِهِمْ طَاقَةٌ، وَلَئِنْ لَمْ تَجِيبُوا إِلَيْهَا طَائِعِينَ لَتَجِيبُنَّهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ كَارِهِينَ.

قَالُوا: وَأَيُّ خَصْلَةٍ تَجِيبُهُمْ إِلَيْهَا؟ قَالَ: إِذَا أَخْبَرَكُمْ؛ فَأَمَّا دُخُولُكُمْ فِي غَيْرِ دِينِكُمْ فَلَا أَمْرُكُمْ بِهِ، وَأَمَّا قِتَالُهُمْ فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَنْ تَقُوتُوا عَلَيْهِمْ، وَلَنْ تَصْبِرُوا صَبْرَهُمْ،

(١) ضعف الشيء: جعله ضعفين.

ولا بُدَّ من الثالثة. قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا! قال: نعم، تكونون عبيدًا مسلمين في بلادكم، آمنين على أنفسكم، وأموالكم وذرائعكم، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيدًا تُباعون وتمزقون في البلاد، مستعبدين أبدًا في البلاد. أنتم وأهلوكم وذرائعكم.

قالوا: فالموت أهون علينا. فأمرُوا بقطع الجسر بين الفسطاط والجيزة^(١)، وبالقصر من القبط والرُّوم جمع كثير، فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال؛ حتى ظفروا بمن في القصر، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأسروا من أسروا، وانحازت السفن كلها إلى الجزية.

هذا والمسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه، لا يقدرون على أن يتقدموا نحو الصعيد ولا غيره من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون؟ فوالله لنجيئهم إلى ما أرادوا طوعًا، أو لنجيئهم إلى ما هو أعظم منه كَرْهًا، فأطيعوني من قبل أن تندموا؛ فعند ذلك أذعنوا إلى الجزية، ورَضُوا بها على صلح يكون بينهم يعرفونه.

فأرسل المقوقس إلى عمرو يقول له: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خضلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها، فأبى ذلك علي من حَضْرَني من الرُّوم والقبط، فلم يكن لي أن أفئات^(٢) عليهم في أموالهم، وقد عَرَفُوا نُصْجي لهم، وحبِّي صلاحهم، ورَجَعُوا إلى قولي، فأعطيني أمانًا اجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي وأصحابك؛ فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنَّا عليه.

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا: لا تُجبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا، وتَصِيرَ كلها لنا فَيْئًا وغنيمَةً كما صار القصر لنا وما فيه.

فقال عمرو: قد علمتم ما عهد إلي أمير المؤمنين في عهده، فإن أجابوا إلى خضلة من الخصال الثلاث التي عهد إلي فيما أجبتهم إليها، وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فأجتمَعُوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يُفْرِضَ على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس:

(١) الجيزة: بلدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور

مصر...

(٢) يقال: أفئات عليه فيه: إذا لم يفعل الأمر دون مشورته.

شريفهم ووضيعهم وضعيفهم، وَمَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ مِنْهُمْ، ليس على الشيخ الفاني، ولا على الصَّغِيرِ الذي لم يبلغ الحُلُمَ، ولا النساء شيء، وعلى أَنْ للمسلمين عليهم التُّزُلُ بجماعتهم حيث نزلوا، وَمَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ ضَيْفٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أَيَّامٍ، مُفْتَرَضٌ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ لَهُمْ أَرْضُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ لَا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، فَشَرِطَ هَذَا كُلَّهُ عَلَى الْقَبْطِ خَاصَّةً، وَأَخْصَوْا عِدَدَ الْقَبْطِ يَوْمئِذٍ خَاصَّةً مَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ الْجُزْيَةَ، وَفُرِضَ عَلَيْهِ الدِّينَارَانِ، رَفَعَ ذَلِكَ عِرْفَاؤُهُمْ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ، فَكَانَ جَمِيعٌ مِنْ أَحْصَى مِنْهُمْ بِمِصْرَ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ آلَافِ أَلْفِ نَفْسٍ، فَكَانَتْ فَرِيضَتُهُمْ يَوْمئِذٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ.

وَرُوِيَ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَيْمُونٍ الْحَضْرَمِيِّ، قَالَ: بَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ أَلْفٍ.

قَالَ: وَشَرِطَ الْمُقَوْسُ لِلرُّومِ أَنْ يُخَيَّرُوا، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْهُمْ أَنْ يَقِيمَ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ أَقَامَ عَلَى ذَلِكَ لَازِمًا لَهُ، مُفْتَرَضًا عَلَيْهِ مِمَّنْ أَقَامَ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَمَا حَوْلَهَا مِنْ أَرْضٍ مِصْرَ كُلِّهَا، وَمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْهَا إِلَى أَرْضِ الرُّومِ خَرَجَ، وَعَلَى أَنْ لِلْمُقَوْسِ الْخِيَارَ فِي الرُّومِ خَاصَّةً، حَتَّى يَكْتُبَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ يُعْلِمُهُ مَا فَعَلَ، فَإِنْ قَبِلَ ذَلِكَ وَرَضِيَهُ جَازَ عَلَيْهِمْ، وَإِلَّا كَانُوا جَمِيعًا عَلَيْهِ، وَكُتِبُوا بِهِ كِتَابًا، وَكُتِبَ الْمُقَوْسُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ كِتَابًا يُعْلِمُهُ بِالْأَمْرِ كُلِّهِ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ يَقْبَحُ رَأْيُهُ وَيَعْجِزُهُ وَبِرْدٌ عَلَيْهِ مَا فَعَلَ، وَأَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالرُّومِ إِنْ أَبَى الْقَبْطُ الْقِتَالَ، وَكُتِبَ إِلَى جَمَاعَةِ الرُّومِ بِمِثْلِ ذَلِكَ.

فَجَمَعَ الْمُقَوْسُ الرُّومَ وَقَالَ: ااعْلَمُوا يَا مَعْشَرَ الرُّومِ أَنِّي وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِمَّا دَخَلْتُ فِيهِ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ لَهُمْ شَجَاعَةَ الْعَرَبِ وَصَبْرَهُمْ وَجَلْدَهُمْ وَحُبَّهُمُ الْمَوْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَالِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَتَرْجِعُونَ غَدًا إِلَى قَوْلِي وَرَأْيِي، وَتَتَمَثَّلُونَ أَنْ لَوْ كُنْتُمْ أَطْعَمْتُمُونِي؛ وَذَلِكَ أَنِّي قَدْ عَايَنْتُ وَرَأَيْتُ، وَعَرَفْتُ مَا لَمْ يُعَايِنِ الْمَلِكُ، وَلَمْ يَرَهُ وَلَمْ يَعْرِفَهُ. أَمَّا يَرْضَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا فِي ذَهْرِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ بِدِينَارَيْنِ فِي السَّنَةِ!

ثُمَّ أَقْبَلَ الْمُقَوْسُ عَلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ لَهُ: إِنْ الْمَلِكُ قَدْ كَرِهَ مَا فَعَلْتُ، وَعَجِزْتَنِي، وَكُتِبَ إِلَيَّ وَإِلَى جَمَاعَةِ الرُّومِ إِلَّا نَرْضَى بِمِصَالِحَتِكَ، وَأَمَرُهُمْ بِقِتَالِكَ حَتَّى يَظْفَرُوا بِكَ، أَوْ تَظْفَرَ بِهِمْ، وَلَمْ أَكُنْ أَخْرُجُ مِمَّا دَخَلْتُ فِيهِ، وَعَاقِدَتُكَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا سُلْطَانِي عَلَى نَفْسِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، فَقَدْ تَمَّ صَلَاحُ الْقَبْطِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَلَمْ يَأْتِ مِنْ قَبْلِهِمْ نَقْصٌ.

وأما الرومَ فأنا منهم بريء، وأنا أطلبُ إليك أن تُعطيني ثلاثَ خِصَالٍ، قال عمرو: وما هي؟ قال:

لا تنقض بالقَبْط، وأدخلني معهم، وألْزمني ما أَلْزَمْتَهُمْ، وقد أَجْتَمَعْتَ كَلِمَتِي وَكَلِمَتَهُمْ على ما عاهدْتُكَ عليه، فهم مقيمون لك على ما تُحِبُّ.

وأما الثانية، فإن سَأَلْتُكَ الرومَ بعد اليوم أن تصالِحَهُمْ فلا تصالِحَهُمْ حَتَّى تجعلَهُمْ قَيْئًا^(١) وعبيدًا؛ فإنَّهُم أهلُ ذلك؛ فَإِنِّي نصَحْتُهُمْ فَأَسْتَعْشُونِي.

وأما الثالثة: فأطلبُ إليك إن أنا مِتُّ أن تأمرهم يدفنوني في أبي يُحَسِّنَ بالإسْكَندَرِيَّةِ.

فأجابه عمرو إلى ما طَلَبَ على أن يقيموا له الجُسُورَينِ جميعًا، والجُسُورَ ما بين القُسْطَاط إلى الإسْكَندَرِيَّةِ، ويقيموا لهم الأَنْزَالَ والضِّيَافَةَ والأسواقَ، ففعلوا ذلك، وسارت القَبْطُ أعوانًا للمسلمين على الروم.

ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان من الحروب بينهم إلى أن فتحت الإسْكَندَرِيَّة

قال: واستعدت الرومَ واستجاشت، وقدمت عليهم مراكبُ كثيرةٌ من أرضِ الروم، فيها جمعٌ من الرومِ عظيمٌ بِالْعُدَّةِ والسَّلاحِ، فخرج إليهم عمرو بنُ العاصِ، ومَنْ معه، وذلك حين أمكنه الخروجُ، وخرجَ معه جماعةٌ من رؤساءِ القَبْطِ وقد أصلحوا لهم الطُّرُقَ، وأقاموا الجُسُورَ والأسواقَ، وخرجَ عمرو فلم يَلْقَ من الرومِ أحدًا حَتَّى بلغ تَرْنُوطَ^(٢)، فلَقِيَ بها طائفةً من الرومِ، فقاتلوه قتالًا خفيفًا، فهزَمَهُمْ، ومضى بَمَنْ معه حتى لَقِيَ جمعَ الرومِ بكومِ شَرِيكٍ، فَأَقْتَتَلُوا به ثلاثةَ أَيَّامٍ، ثم فتح اللهُ على المسلمين، وانهزم الروم.

وقيل: بل لما انهزموا مِنْ تَرْنُوطَ، بعثَ عمرو بنُ العاصِ شَرِيكَ بنَ سُمَيٍّ في آثارِهِمْ، وكان على مقدمةِ عمرو، فأدركَهُمْ شَرِيكٌ عند الكومِ^(٣)، فقاتلَهُمْ، فمِنَ النَّاسِ من يقول: إِنَّهُ هَزَمَهُمْ، ومنهم من يقول: إِنَّهُ قَاتَلَهُمْ إلى الكومِ، فَأَعْتَصَمَ به، وأحاطت به الرومُ، فأمر شَرِيكُ أبا ناعمةَ مَالِكِ بنِ ناعمةَ الصَّدْفِيِّ، وهو صاحبُ الفَرَسِ الأشَقَرِ

(١) الفَيء: الغنيمة تنال بلا قتال. (٢) تَرْنُوط: قرية بين مصر والإسْكَندَرِيَّة.

(٣) الكوم: اسم لمواضع بمصر تضاف إلى أربابها أو إلى شيء عرفت به، منها كوم الشفاف.. وكوم علقام.. وكوم شريك أقرب الإسْكَندَرِيَّة.. (معجم البلدان لياقوت).

الذي يقال له: أشقر صَدِف، وكان لا يُجَارَى، فأنحطَّ عليهم من الكوم، وطلبته الرُّومُ فلم تدرِكُهُ، فأَتَى عَمْرًا فَأَخْبَرَهُ، فأقبل عمرو نحو الروم فأنهزموا، وبالفَرَسِ الأشقر هذا سُمِّيَتْ خَوْخَةُ الْأَشْقَرِ الَّتِي بِمِصْرَ؛ وذلك أَنَّهُ نَفَقَ^(١) فدفقته صاحبه هناك، فسُمِّيَ المكان به.

قال: ثُمَّ أَلْتَقَى عَمْرُو وَالرُّومَ بِسُلَيْطَسَ، فَأَقْتَتَلُوا بِهَا قِتَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ هَزَمَهُمُ اللَّهُ. ثُمَّ التَّقُوا بِالْكَرِيزُونَ فَأَقْتَتَلُوا هُنَاكَ بِضَعَةَ عَشْرِ يَوْمًا، وَكَانَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَلَى الْمَقْدُمَةِ، فَفَشَتْ فِيهِ الْجِرَاحَةُ وَصَلَّى عَمْرُو بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ. ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلُوا مِنَ الرُّومِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَاتَّبَعُوهُمْ حَتَّى بَلَّغُوا الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ فَتَحَصَّنَ بِهَا الرُّومُ، وَكَانَتْ عَلَيْهِمْ حِصُونٌ مَنِيْعَةٌ، حِصْنٌ دُونَ حِصْنٍ، فَنَزَلَ الْمُسْلِمُونَ مَا بَيْنَ حُلُوةَ إِلَى قَصْرِ فَارَسَ، إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَمَعَهُمْ رُؤَسَاءُ الْقَبْطِ، يَمْدُونَهُمْ بِمَا أَحْتَاجُوا مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَعْلَافِ.

هَذَا وَرَسُولُ مَلِكِ الرُّومِ تَخْتَلِفُ إِلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ فِي الْمَرَاقِبِ، وَالْأَمْدَادُ تَأْتِيهِمْ مِنْ قِبَلِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: لَئِنْ ظَهَرَتْ الْعَرَبُ عَلَى الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ كَانَ ذَلِكَ انْقِطَاعُ مُلْكِ الرُّومِ وَهَلَاكُهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلرُّومِ كُنَائِسٌ أَعْظَمُ مِنْ كُنَائِسِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَنَجْهَرُ الْمَلِكِ لِيَبَاشَرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، وَأَمَرَ الْأَيْتَخْلَفَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الرُّومِ، وَقَالَ: مَا بَقَاءُ الرُّومِ بَعْدَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ! فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ جَهَازِهِ أَهْلَكَهُ اللَّهُ فَمَاتَ وَكَفَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مُؤْتَهُ.

وَكَانَ مَوْتُهُ فِي سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةٍ، فَكَسَرَ اللَّهُ بِمَوْتِهِ شَوْكَةَ الرُّومِ، وَرَجَعَ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِمَّنْ كَانَ تَوَجَّهَ لِإِعَانَةِ أَهْلِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، فَاسْتَأْذَنَتْ الْعَرَبُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَالْحَثُّ بِالْقِتَالِ، فَقَاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَبَرَزَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ، وَبَرَزَ لَهُ مَسْلَمَةُ بْنُ مَخْلَدٍ، فَضَرَعَهُ الرُّومِيُّ وَالْقَاهِ عَنْ فَرَسِهِ، وَأَهْوَى إِلَيْهِ لِيَقْتُلَهُ حَتَّى حَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ مَسْلَمَةُ لَا يُقَامُ لَهُ؛ وَلَكِنْ غَلِبَتْهُ الْمَقَادِيرُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ مَسْلَمَةُ ثَقِيلَ الْبَدَنِ، كَثِيرَ اللَّحْمِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ عَمْرٍو، وَقَالَ: مَا بَالُ الرَّجُلِ الْمُسْتَهْ^(٢) الَّذِي يُشَبِّهِ النِّسَاءَ يَتَعَرَّضُ إِلَى مَدَاخِلِ الرِّجَالِ وَيَتَشَبَّهُ بِهِمْ! فَغَضِبَ مَسْلَمَةُ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرَاغِفْهُ، ثُمَّ اشْتَدَّ الْقِتَالُ حَتَّى أَقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ حِصْنَ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ، وَقَاتَلُوا فِيهِ، ثُمَّ جَاشَتْ الرُّومُ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ جَمِيعًا مِنَ الْحِصْنِ، إِلَّا أَرْبَعَةً، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَمَسْلَمَةُ بْنُ مَخْلَدٍ، فَأَغْلَقُوا الْحِصْنَ عَلَيْهِمْ، وَالتَّجَوَّأُوا

(١) نفق الفرس: مات.

(٢) المسته: الذي عظم عجزه.

إلى ديماس^(١) من حمامات الروم، فأنزل الروم رُومياً يتكلم بالعربية، فقال لهم: إنكم قد سبّرتُم أسارى في أيدينا، فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم.

ثم قال لهم: إن في أيدي أصحابكم مئاً رجلاً أسروهم، ونحن نعطيكم العهود ونفادي بكم أصحابنا، ولا نقتلكم، فأبوا عليهم.

ثم قال لهم الرومي: فهل لكم إلى خصلة وهي نصف فيما بيننا وبينكم، أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله؛ على أن يبرز مئاً رجل، ومنكم رجل، فإن غلب أصحابنا صاحبكم استأسرتُم لنا، وأمكنتمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم، فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه.

فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدهته، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال: أنا أكفيك إن شاء الله. فقال عمرو: دُونَكَ؛ فربما فرجها الله بك. فبرز مسلمة للرومي فتجاوزا ساعة، ثم أعان الله مسلمة فقتله، وكبر أصحابه، ووثى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن، فخرجوا، والروم لا يذرون أن أمير القوم فيهم، ثم بلغهم ذلك، فأسفوا على ما فاتهم منه، ونذم عمرو وأستحيا من مقالته لمسلمة ما قال، فاستغفر له عمرو.

قال: ولما أبطأ الفتح على عمر، كتب إلى عمرو:

أما بعد، فقد عجب لإبطائكم عن فتح مصر، وأنكم تقاتلونهم منذ ستين؛ وما ذاك إلا لما أخذتم وأخبتُم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم. وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتُك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف؛ إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنيّة، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناس جميعاً أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة نزول الرحمة، ووقت الإجابة، وليعج^(٢) الناس إلى الله ويسألوه النضر. ففعلوا ففتح الله عليهم.

قال: ويقال: إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد في قتال الروم، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيكه. فقال عمرو: ومن ذاك؟

(١) الديماس: الحمام، جمع دياميس ودماميس.

(٢) عَج: رفع صوته وصاح.

قال: عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ. فدعا عمرو عُبَادَةَ، فَأَتَاهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسِهِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَرَادَ التَّزُولَ، فَعَزَمَ عَمْرُو عَلَيْهِ أَلَّا يَفْعَلَ، وَقَالَ: نَاوِلْنِي سِنَانًا رُمَحَكَ، فَنَاوَلَهُ عُبَادَةُ إِيَّاهُ، فَتَزَعَ عَمْرُو عِمَامَتَهُ عَنْ رَأْسِهِ وَعَقَدَ لَهُ وَوَلَّاهُ قِتَالَ الرُّومِ.

فَتَقَدَّمَ عُبَادَةُ فَصَافٌ^(١) الرُّومَ وَقَاتَلَهُمْ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ الإسْكَندَرِيَّةَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَكَانَ حِصَارُهُمُ الإسْكَندَرِيَّةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، خَمْسَةَ أَشْهُرٍ فِي حَيَاةِ هِرَقْلَ، وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَفُتِحَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُسْتَهْلُ الْمُحَرَّمِ، سَنَةَ عَشْرِينَ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الإسْكَندَرِيَّةِ فِي طُولِ هَذِهِ الْمُدَّةِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ رَجُلًا.

ذكر الفتح الثاني وما وجد بالإسكندرية

وعدة من ضربت عليه الجزية

قال: وَلَمَّا فُتِحَتْ، الإسْكَندَرِيَّةَ هَرَبَ الرُّومُ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَخَلَفَ عَمْرُو مِنْ أَصْحَابِهِ بِهَا أَلْفَ رَجُلٍ، وَمَضَى فِي طَلَبِ مَنْ انْهَزَمَ مِنَ الرُّومِ فِي الْبَرِّ، فَارْجَعَ مَنْ كَانَ هَرَبَ مِنْهُمْ فِي الْبَحْرِ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ، فَقَتَلُوا مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ هَرَبَ مِنْهُمْ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرًا، فَكَرَّرَ رَاجِعًا إِلَيْهَا، فَأَتَاهُ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ ابْنُ بَسَامَةَ، كَانَ بَوَابًا بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَسَأَلَ عَمْرًا أَنْ يُؤْمِنَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَرْضِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَيَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ، فَأَجَابَهُ عَمْرُو إِلَى ذَلِكَ، فَفَتَحَ لَهُ ابْنُ بَسَامَةَ، فَدَخَلَ عَمْرُو، وَكَانَ مَدْخَلُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْقَنْطَرَةِ الَّتِي يَقَالُ لَهَا قَنْطَرَةُ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ مَدْخَلُهُ الْأَوَّلُ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ الَّذِي مِنْ نَاحِيَةِ كَنِيسَةِ الذَّهَبِ، وَوَقَّى عَمْرُو لِابْنِ بَسَامَةَ.

وَبَعَثَ عَمْرُو إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ مُعَاوِيَةَ بْنَ حُذَيْجٍ بِشِيرًا بِالْفَتْحِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَلَا تَكْتُبُ مَعِيَ كِتَابًا؟ فَقَالَ عَمْرُو: وَمَا أَصْنَعُ بِالْكِتَابِ! أَلَسْتُ رَجُلًا عَرَبِيًّا تُبَلِّغُ الرِّسَالَةَ، وَمَا رَأَيْتُ وَحَضَرْتُ! فَقَدِمَ عَلَى عَمْرِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَخَرَّ سَاجِدًا، وَجَمَعَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ، ثُمَّ كَتَبَ عَمْرُو بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَمْرِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ فَتَحْتُ مَدِينَةَ لَا أَصِفُ مَا فِيهَا؛ غَيْرَ أَنِّي أَصْبْتُ فِيهَا أَرْبَعَةَ آلَافِ بَنِيَّةٍ، بِأَرْبَعَةِ آلَافِ حَمَامٍ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةُ، وَأَرْبَعِمِائَةَ مَلْهُيٍّ لِلْمُلُوكِ.

قال ابن عبد الحكم: لَمَّا فَتَحَ عَمْرُو الإسْكَندَرِيَّةَ وَجَدَ فِيهَا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ بَقَالٍ يَبِيعُونَ الْبَقَالَ الْأَخْضَرَ.

(١) صاف الروم: قاتلهم صفوفاً.

قال: ورحل منها في الليلة التي دَخَلَ فيها عمرو بنُ العاصِ، أو في اللَّيْلَةِ التي خَافُوا فيها دَخُولَهُ سبعونَ ألفَ يهوديٍّ.

قال: وقال حسين بن شُفَيِّ بن عبيد: كان بالإسكندرية فيما أُخْصِي من الحَمَامَاتِ اثنا عشر ديماسًا، أصغرُ ديماس منها يسعُ ألفَ مجلسٍ، كلُّ مجلسٍ منها يَسعُ جماعةَ نفرٍ. وكان عدَّةٌ من الإسكندرية من الرُّومِ مائتي ألفٍ من الرُّجال، فلحق بأرض الرُّومِ أهلُ القوَّة، وَرَكِبُوا السُّفُنَ، وكان بها مائةُ مَرَكَبٍ مِنَ المراكبِ الكبارِ، فَحُمِلَ فيها ثلاثون ألفًا مع ما قَدَرُوا عليه من المالِ والمتاعِ والأهلِ، وبقيَ مَنْ بقيَ من الأسارى مِمَّنْ بلغ الخَراجُ، فأُخْصِي يومئذٍ ستمائة ألفٍ سوى النساءِ والصُّبيانِ، فاختلَفَ النَّاسُ على عمرو في قَسْمِهِمْ، وكانَ أَكْثَرُ النَّاسِ يريدون قَسْمَهَا.

فكتبَ عمرو إلى عمرَ يَسْتَأْذِنُهُ في ذلك، فكتبَ إليه عمرُ: لا تُقْسِمَها، ودَّزَمَ يكون خَراجُهم قِيْنًا للمسلمين وقوَّةَ لهم على جهادِ عدوِّهم، فأقرَّها عمرو، وكانت مصرُ كُلُّها صُلْحًا بفريضة دينارَينِ دينارَينِ على كلِّ رجلٍ لا يُزَادُ على أَحَدٍ مِنْهم في جِزْيَةِ رأسِهِ أَكْثَرُ من ذلك؛ إِلَّا أَنَّهُ يُلْزَمُ بقدر ما يتوسَّعُ فيه من الأرضِ والزُّرعِ، إِلَّا الإسكندريةَ، فَإِنَّهُمْ كانوا يؤدُّون الجِزْيَةَ والخَراجَ على قدر ما يُرَى من وليِّهم؛ لأنَّ الإسكندريةَ فُتِحَتْ عَنوةً مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ ولا عَقْدٍ، ولم يكن لهم صُلْحٌ ولا ذِمَّةٌ.

قال: وكانت قُرَى مِنْ مِصْرَ قاتلت المسلمين، وظاهروا الرُّومَ عليهم، وهي: بَلْهَب^(١)، وقرية الخيس^(٢)، وسُلْطَنيس^(٣)، وقَرْسَطَا، وسَخَا^(٤). فَسُبُوا، فوَقَعَتْ سَبَايَاهُمْ بالمدينة، فردَّهم عمرو بنُ الخطَّابِ إلى قُرَاهِم، وصَيَّرَهُمْ وجماعةَ القَبْطِ ذِمَّةً، وكتبَ برَدَّهم.

(١) بلهيب: بالفتح ثم السكون، وكسر الهاء، وياء ساكنة: من قرى مصر، ينسب إليها أبو المهاجر

عبد الرحمن البلهبي من تابعي أهل مصر...

(٢) خيس: بفتح أوله ويكسر، وسكون ثانيه، وسين مهملة: من كور الحوف الغربي بمصر... وإليها ينسب البقر الخيسية...

(٣) سلطيس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الطاء، وياء ساكنة، وسين مهملة: من قرى مصر القديمة، وكان من أبناء السلطيسيات عمران بن عبد الرحمن بن جعفر بن ربيعة وأم عون بن خارجة القرشي ثم العدوي...

(٤) سخا: مقصور، بلفظ السخاء: كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي الآن قصبة كورة الغربية ودار الوالي بها، ذكر أن في جامع سخا حجرًا أسود عليه طلسم يعلم إذا أخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العاصفير فإذا أعيد إلى الجامع خرجت منه كما ذكر... (معجم البلدان لياقوت).

وقيل: إنما كتب عمر في أهل سُلَطِينَس خاصةً يقول: من كان منهم في أيديكم، فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن أختار دينه فخلّوا بينه وبين قريته، وأن تُجْعَلَ الْقَرْى التي ظهرت مع الإسكندرية ذِمَّةً للمسلمين، يَضْرِبُونَ عليها الخَراج.

ذكر من قال إن مصر فتحت عنوة

قال: وقد ذهب آخرون إلى أن مصرَ فُتِحَتْ عَنْوَةً بغير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ.
رُوِيَ عن سُفْيَانَ بْنِ وَهَبٍ الْخَوْلَانِيِّ، قال: لَمَّا فَتَحْنَا مِصْرَ بغير عَهْدٍ قام الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، فقال: أَقْسِمُهَا يَا عَمْرُو، فقال عَمْرُو: والله لا أَقْسِمُهَا حتى أَكْتُبَ إلى أمير المؤمنين. فَكَتَبَ إلى عَمْرٍو، فَأَجَابَهُ أَنْ أَقْرِأَهَا حَتَّى يَغْزَوْا مِنْهَا حَبْلَ الْحَبْلَةِ^(١).
وقيل: إِنَّ الزُّبَيْرَ صَوَّلَحَ على شيءٍ أَرْضِي بِهِ.

وَرَوَى ابْنُ لَهْيَعَةَ بِسَنَدِهِ إِلَى عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ قَعَدْتُ مَقْعِدِي هَذَا وَمَا لِأَحَدٍ مِنْ قَبْطٍ مِصْرَ عَلَيَّ عَهْدٌ، إِنَّ شَيْئًا قَتَلْتُ، وَإِنْ شَيْئًا خَمَسْتُ، وَإِنْ شَيْئًا بَغْتُ إِلَّا أَهْلَ أَنْطَابُلُسِ^(٢)؛ فَإِنْ لَهُمْ عَهْدًا نُوفِي لَهُمْ بِهِ.

وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن عمرو بن العاص فتح مصرَ بغير عهدٍ ولا عَقْدٍ، وأنَّ عَمْرُ بْنَ الْخَطَّابِ حَبَسَ دَرَّهَا وَضَرَعَهَا؛ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ نَظَرًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

وعن عروة بن الزبير: أَنَّ مِصْرَ فُتِحَتْ عَنْوَةً.

وعن عبد الملك بن جُنَادَةَ قَالَ: كَتَبَ حَيَّانُ بْنُ شُرَيْحٍ - وَكَانَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ - مِنْ مَوَالِي قُرَيْشٍ - إِلَى عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَ جَزِيَةَ مَوْتَى الْقَبْطِ عَلَى أَحْيَائِهِمْ. فَسَأَلَ عَمْرٌو عِرَاكَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ عِرَاكَ: مَا سَمِعْتُ لَهُمْ بِعَهْدٍ وَلَا عَقْدٍ.
فَكَتَبَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى حَيَّانٍ، أَنْ يَجْعَلَ جَزِيَةَ مَوْتَى الْقَبْطِ عَلَى أَحْيَائِهِمْ.

وعن عبد الله بن بُكَيْرٍ قَالَ: خَرَجَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَرِيدُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِي سَفِينَةٍ، فَأَحْتَاجَ إِلَى رَجُلٍ يُجَدِّفُ بِهِ، فَسَخَّرَ رَجُلًا مِنَ الْقَبْطِ، فَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَبِيدِ إِنْ أَحْتَجْتُ إِلَيْهِمْ.

(١) حبله: قرية من قرى عسقلان؛ ينسب إليها حاتم بن سنان بن بشر الحبلي.

(٢) أنطابلس: معناه بالرومية خمس مدن؛ وهي مدينة بين الإسكندرية وبرقة؛ وقيل: هي مدينة ناحية برقة.

وعن ابن شهاب أنه قال: كان فتح مصر، بعضها بعهد وذمة، وبعضها عتوة، فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة، وحملهم على ذلك، ومضى ذلك فيهم إلى اليوم.

ذكر أخبار الإسكندرية وبنائها وما اتفق في ذلك من الأعاجيب

لَمَّا رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ اقْتَصَرُوا فِي أَخْبَارِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ عِنْدَ ذِكْرِهِمْ لِفَتْوحِهَا عَلَى مَا ذَكَرْتُ أَوْ نَحْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَ ذَلِكَ، وَاقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ الْفَتْحِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا إِلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَخْبَارِهَا، آثَرْتُ أَنْ أَضِمَّ إِلَى مَا شَرَحْتُهُ مِنْ أَخْبَارِ فَتْحِهَا ذِكْرَ أَخْبَارِ بَنَائِهَا، وَسَبَبِهِ وَمَا شَاهَدُوهُ بِأَبْنِيَّتِهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، وَكَيْفَ تُحِيلُ عَلَى وَضْعِهَا حَتَّى تَمُتَ، وَدَفَعَ ظِلْمَةَ الضَّرَرِ عَنْ سُكَّانِهَا لَمَّا اذْلَهَمْتُ^(١)، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الثُّغْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي شَاعَ فِي الْآفَاقِ ذِكْرُهُ وَأَشْتَهَرَتْ، وَحَمِدَ مَنْ أَلْتَجَأَ إِلَيْهِ مِمَّنْ نَبَتْ بِهِ الْعُرْبَةُ وَعَاقِبَةُ السَّفَرِ، وَحَقَّقَ بِاخْتِيَارِهِ صِدْقَ الْخَبَرِ عَنْهُ وَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ، لَا يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الثُّبُودِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَاللُّمْعَةُ الَّتِي أوردناها؛ بَلْ يَتَعَيَّنُ بِسَطُ الْقَوْلِ فِيهِ، وَأَنْ يَتَكَلَّمَ الْمُؤَلِّفُ إِذَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بِمِلءٍ فِيهِ. وَرَبَّمَا اعْتَرَضَ عَلَيَّ مُعْتَرِضٌ لَمْ يُطَالِعْ مُجْمُوعَ مَا أُلْفْتُ، وَلَا وَقَفَ عَلَى جُمْلَةٍ مَا صُنِّفْتُ، فَيَقُولُ: كَيْفَ اقْتَصَرَ عَلَى فَتُوحِ مِصْرَ عَلَى مُجَرَّدِهِ وَهِيَ أَضَلُّ بِلَادَةٍ، وَقَاعِدَةُ عِبَادَةٍ، وَبَسَطُ الْقَوْلِ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ مِضَافَاتِهَا، وَوَلَايَةٍ مِنْ جُمْلَةٍ وَلَايَاتِهَا! وَقَدْ تَجَوَّلَ فِيهِ خَيْلُ الْأَعْتِرَاضِ، وَيَعْدُلُ عَنِ الْأَنْشِرَاحِ إِلَى الْإِنْقِبَاضِ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ عَجْزٍ أَوْ قِصَرٍ، وَإِنْ بَسَطَ الْعُدْرَ فَيَقُولُ: عَنْ مَلَالٍ وَضَجَرٍ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - كَذَلِكَ؛ لِأَنَّا ذَكَرْنَا أَخْبَارَ مِصْرَ فِي كِتَابِنَا هَذَا فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ سَلَفَتْ مِنْهُ، فَذَكَرْنَا خِصَائِصَهَا وَمَا فَضَّلْتُ بِهِ عَلَى غَيْرِهَا فِي الْبَابِ الثَّانِي مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الْأَوَّلِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ الْأَوَّلِ مِنْ كِتَابِنَا فِي خِصَائِصِ الْبِلَادِ، وَذَكَرْنَا أَخْبَارَ نِيلِهَا فِي الْبَابِ السَّابِعِ مِنَ الْقِسْمِ الرَّابِعِ مِنَ الْفَنِّ الْأَوَّلِ فِي الْأَنْتَهَارِ، وَذَكَرْنَا أَخْبَارَ مَا بَهَا مِنَ الْمَبَانِي الْقَدِيمَةِ وَالْآثَارِ الْعَظِيمَةِ، فِي الْبَابِ الثَّلَاثِ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الْأَوَّلِ. وَذَكَرْنَا أَخْبَارَ مَنْ مَلَكَهَا مِنْ مَلُوكِ الْأُمَمِ قَبْلَ الطُّوْقَانِ وَبَعْدَهُ، وَمَا بَنَوْهُ بِهَا مِنَ الْمُدُنِ، وَمَا أَقَامُوهُ مِنَ الْمَنَارَاتِ وَالْأَهْرَامِ

(١) اذلهمت الظلمة: كثفت؛ وادلهم الليل: اشتد ظلامه.

والبرابي^(١) وغير ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائب والطلّسمات^(٢) والحجّم، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصّنعَةِ وما شقّوه وأنبطّوه^(٣) من الأنهار، وغير ذلك من أخبارها وعجائبها، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو في السّفر الثاني عشر، والثالث عشر من هذا الكتاب، فلا اعتراض بعد ذلك عليّ ولا تقصير تنسب إليه.

ولنأخذ الآن في أخبار الإسكندرية، قال أبو الحسن عليّ بن عبد الله المسعودي رحمه الله في كتابه المترجم «بمروج الذهب».

ذَكَرَ جماعةٌ مِنْ أهل العلم أَنَّ الإسكندر المَقْدُونِيّ لَمَّا اسْتَقَامَ مُلْكُهُ فِي بِلَادِهِ، سَارَ يَخْتَارُ أَرْضًا صَحِيحَةً الْهَوَاءِ، وَالتُّرْبَةِ وَالْمَاءِ، فَانْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَأَصَابَ فِي مَوْضِعِهَا آثَارَ بُنْيَانٍ وَعُمْدًا كَثِيرَةً مِنَ الرُّخَامِ، وَفِي وَسْطِهَا عَمُودٌ عَظِيمٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِالْقَلَمِ الْمَسْنَدِ وَهُوَ الْقَلَمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَقْلَامِ جَمِيْعِ مُمْلُوكِ عَادٍ: «أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ، شَدَّدْتُ بِسَاعِدَيَّ الْبِلَادَ، وَقَطَعْتُ عَظِيمَ الْعِمَادِ، مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ^(٤)، وَأَنَا بَنَيْتُ لِرَمِّ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا كِبَارَمَ، وَأَنْقُلَ إِلَيْهَا كُلَّ ذِي قَدَمٍ وَكَرَمٍ، مِنْ جَمِيعِ الْعَشَائِرِ وَالْأُمَمِ، وَذَلِكَ إِذْ لَا خَوْفَ وَلَا هَرَمٍ، وَلَا اهْتِمَامَ وَلَا سَقَمٍ، فَأَصَابَنِي مَا أَعْجَلَنِي، وَعَمَّا أَرَدْتُ إِلَيْهِ قَطْعَنِي مَعَ وَقُوعِ مَا أَطَالَ هَمِّي وَشَجَنِي، وَقُلْتُ نَوْمِي وَسَكْنِي، فَارْتَحَلْتُ بِالْأَمْسِ عَنْ دَارِي، لَا لِقَهْرٍ مَلِكٍ جَبَّارٍ، وَلَا خَوْفٍ جَبِيْشٍ جَرَّارٍ، وَلَا عَنْ رَغْبَةٍ وَلَا صَغَارٍ^(٥)؛ وَلَكِنْ لَتِمَامِ الْأَقْدَارِ، وَأَنْقِطَاعِ الْآثَارِ؛ وَسُلْطَانِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ، فَمَنْ رَأَى أَثْرِي، وَعَرَفَ خَبْرِي، وَطَوَّلَ عُمْرِي، وَنَفَاذَ بَصْرِي، وَشِدَّةَ حَدْرِي، فَلَا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا بَعْدِي» وَكَلَامٌ كَثِيرٌ يُرَى فِيهِ فَنَاءُ الدُّنْيَا، وَيَمْنَعُ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهَا، وَالسُّكُونِ إِلَيْهَا، لَمْ يَذْكُرْهُ الْمَسْعُودِيّ.

(١) البرابي: جمع بربا، كلمة قبطية، وأظنه اسمًا لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع الحسر . . . قيل: وبيوت هذه البرابي في عدة مواضع من صعيد مصر في إخميم وأنصنا وغيرها باقية إلى الآن والصور الثانية في الحجارة موجودة . . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الطّلمس: (في علم السحر): خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطباع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالالغاز والأحاجي . . .

(٣) أنبطوه: استخرجوه.

(٤) الطود: الجبل العظيم الذاهب صعدًا في الجو . . . أو الهضبة، أو المشرف من الرمل كالهضبة.

(٥) الصغار: الرضى بالذل والضعّة.

قال: فتَنَزَّلَ الإسكندرُ مفكرًا يتدبَّرُ هذا الكلامَ وَيَعْتَبِرُ، ثم بعثَ بِحُشْرِ الصُّنَّاعِ من البلاد، وخطَّ الأساس، وجعل طُولُهَا وَعَرْضُهَا أُمَيَّالًا، وأمرَ بِنَقْلِ الرِّخَامِ وَالْمَرْمَرِ^(١) والأحجارِ من جزيرةِ صِقْلِيَّةَ، وبلادِ إفريقيةَ، وأفريقيةَ^(٢)، وأقاصي بحر الرُّومِ، وجزيرةِ رودس وغيرها، فَثَقِلَتْ فِي الْمَرَائِبِ، وأمرَ الصُّنَّاعَ وَالْفَعْلَةَ أَنْ يَدُورُوا بِمَا رَسَمَ لَهُمْ مِنْ أَسَاسِ الْمَدِينَةِ، وَعَمِلَ عَلَى كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ خَشْبَةً قَائِمَةً، وجعل من الخشبةِ إِلَى الخشبةِ جِبَالًا مَنُوطَةً بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ، وَأَوْصَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ بِعَمُودٍ مِنَ الرِّخَامِ كَانَ أَمَامَ مَضْرِيهِ، وَعُلِّقَ عَلَى الْعَمُودِ جَرَسًا عَظِيمًا مَصُوتًا، وَأَمَرَ النَّاسَ وَالْقَوَامَ عَلَى الصُّنَّاعِ وَالْبَنَائِينَ وَالْفَعْلَةَ، أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا صَوْتَ ذَلِكَ الْجَرَسِ أَنْ يَضَعُوا أَسَاسَ الْمَدِينَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِهَا. وَأَحَبَّ الْإِسْكَانْدَرُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي وَقْتٍ يَخْتَارُهُ، وَطَالَعَ سَعْدٌ يَأْخُذُهُ، فَخَفَّقَ^(٣) الْإِسْكَانْدَرُ يَوْمًا بِرَأْسِهِ، فَأَخَذَتْهُ سِنَّةٌ فِي حَالِ ارْتِقَابِهِ لِلْوَقْتِ. فَجَاءَ غَرَابٌ فَجَلَسَ عَلَى حَبْلِ الْجَرَسِ الْكَبِيرِ فَحَزَّكَ، وَخَرَجَ صَوْتُ الْجَرَسِ، وَتَحَرَّكَتِ الْجِبَالُ، وَخَفَّقَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَجْرَاسِ الصَّغَارِ، وَكَانَ قَدْ عَمِلَ ذَلِكَ بِحَرَكَاتٍ فَلَسْفِيَّةٍ.

فَلَمَّا سَمِعَ الصُّنَّاعُ حَسَّ أَصْوَابَ الْجَرَسِ وَصَنَعُوا الْأَسَاسَ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَارْتَفَعَ الضَّجِيجُ بِالتَّحْمِيدِ وَالتَّقْدِيسِ، فَاسْتَيْقَظَ الْإِسْكَانْدَرُ مِنْ رَفَدَتِهِ، وَسَأَلَ عَنِ الْخَبَرِ، فَأَخْبِرَ بِهِ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَمْرًا وَاللَّهِ أَرَادَ غَيْرَهُ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا يُرِيدُهُ، أَرَدْتُ طَوْلَ بَقَائِهَا، وَأَرَادَ اللَّهُ سُرْعَةَ فَنَائِهَا وَخَرَابِهَا، وَتَدَاوَلَ الْمُلُوكُ إِيَّاهَا.

قال: وَلَمَّا أَحْكَمَ بِنَاؤُهَا، وَثُبَّتْ أَسَاسُهَا، وَجَنَّ اللَّيْلُ عَلَيْهِمْ، خَرَجَتْ دَوَابٌّ مِنَ الْبَحْرِ أَتَتْ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ الْبُنْيَانِ؛ فَقَالَ الْإِسْكَانْدَرُ حِينَ أَصْبَحَ: هَذَا بَدْءُ الْخَرَابِ فِي عُمْرَانِهَا، وَتَحَقُّقُ مَرَادِ الْبَارِئِ فِي زَوَالِهَا. وَتَطْيِيرُ مِنْ فِعْلِ الدَّوَابِّ، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الدَّوَابِّ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَالْإِسْكَانْدَرُ يُوَكِّلُ بِهِ مَنْ يَحْرُسُهُ، وَهُوَ يُضْبِحُ خَرَابًا، فَقَلِقَ لِذَلِكَ، وَرَاعَهُ مَا رَأَى، فَفَكَّرَ مَا الَّذِي يَضُنُّ! وَأَيُّ جِيلَةٍ يَعْمَلُ فِي رَفْعِ أَذَى الدَّوَابِّ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَسَنَحَتْ لَهُ الْفِكْرَةُ لَيْلَةً، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمَرَ الصُّنَّاعَ أَنْ يَتَّخِذُوا تَابُوتًا مِنَ الْخَشَبِ طَوْلُهُ عَشْرَةُ أَذْرُعٍ فِي عَرْضِ خَمْسَةِ أَشْبَارٍ، وَجَعَلَ فِيهِ جَامَاتٍ^(٤) مِنَ الرُّجَاجِ،

(١) المرمَر: الرخام.

(٢) إقريطش: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقيا لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء...

(٣) خفق: مال.

(٤) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة، جمع جامات.

وطلّيت بالقار وغيره من الأطلية التي تمنع الماء أن يدخل الثأبوت، وجعل فيه مواضع للجبال، ودخل فيه ومعه رجلان من كتّابه ممن له علم بإتقان التصوير، وأمر أن يستر عليه، وعليهم باب الثأبوت، ويطلّى بتلك الأطلية، وأمر بمزكبين، فعُلّق الثأبوت بينهما وجعل في أسفله من الخارج مقلات الرصاص والحديد، وشعدّ حباله إلى المزكبين، وأخرجهما إلى اللجة^(١)، وسمر بعضها بخشب إلى بعض لثلاً يفترقا، وأزخوا الثأبوت في البحر، فاستقرّ بقراره، فنظر من تلك الجامات إلى دواب البحر وحيواناته؛ فإذا بصور شياطين على أمثال الناس، رؤوسهم كرؤوس السباع، وفي أيديهم الفؤوس والمقامع^(٢) والمناشير، يحاكون بذلك صنّاع المدينة، فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور، وأحكموها في القراطيس على هيئاتها وأشكالها وقُدودها، ثم حرك الجبال، فرفعه من بالمركب.

فلما خرج أمر المصورين بتصوير تلك الصور، وصنّعها من النحاس والحديد والحجارة، فعملت تماثيلها، ثم نصبها على الأعمدة بشاطئ البحر، وأمر بالبناء فبني، فلما جنّ الليل، وظهرت تلك الدواب من البحر، نظرت إلى أشكال صورها على العمود فرجعت إلى البحر ولم تعد، فتم بناء الإسكندرية، وشيئت، فأمر أن يكتب على أبوابها: «هذه الإسكندرية، أردت أن أبينها على الفلاح والنجاح، واليمن والسرور، والثبات على الدهور، فلم يرد الباري ملك السموات والأرض ومفني الأمم أن أبينها كذلك، فبنيتها وأحكمتها، وشيئت سورها، وآتاني الله من كل شيء علماً وحكماً، وسهل لي وجوه الأسباب، فلم يتعذر عليّ في العالم شيء مما أردت، ولا امتنع عليّ شيء مما طلبته، لطفاً من الله عز وجل وصنعاً لي، وصلاًحاً لعباده من أهل عصري، والحمد لله رب العالمين، لا إله إلا الله هو رب كل شيء. ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث من العمران والخراب، وما يؤول أمرها إليه إلى آخر وقت دنور العالم.

وكان بناؤها طبقات، وتحتها قناطر مقنطرة تدورها، ويسير تحتها الفارس، ويده زمّح لا يطبق به حتى يدور جميع أبراجها وقناطرها، وعمل لتلك العقود والأبراج مخاريق^(٣) للضياء، ومنافذ للهواء.

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

(٢) المقمعة: خشبة أو حديدة معوجة الرأس يضرب بها رأس الفيل ونحوه ليزل ويهان.

(٣) مخاريق: ممرات للهواء.

قال: وكانت الإسكندرية تضيء بالليل من غير مضباح لشدة بياض الرخام والمزمر، وأسواقها وأزقتها وشوارعها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها المطر.

قال: وكان عليها سبعة أسوار من أحجار مختلفة الألوان، بينها خنادق، بين كل خندق وسور فصل^(١).

قال: وربما علّق فيها شقائق الحرير الأخضر لأختطاف بياض السور أبصار الناس لشدة بياضه، فلما سكنتها أهلها كانت آفات البحر تخطف أهل المدينة بالليل، فيصيحون وقد فقد منهم العدد الكثير، فأهم ذلك الإسكندر، فأتخذ الطلسمات على أعمدة هُنالك، تدعى المسال^(٢)، وهي باقية إلى هذا العصر، فامتنع الدواب من التعرض إلى أهلها بعد ذلك، فأمنوا.

وأما المنارة فقد ذكرناها في الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأول في السفر الأول، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها ثانيًا.



نعود إلى أخبار فتوح مصر إن شاء الله تعالى.

ذكر تحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية واختطاطه

قال ابن لهيعة: إن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناها، هم أن يسكنها، وقال: مساكن قد لقيناها. فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ إذا جرى النيل.

فكتب عمر إلى عمرو: إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول بيني وبينهم الماء في شتاء ولا صيف. فتحول عمرو من الإسكندرية إلى القسطنطينية؛ وإنما سميت القسطنطينية لأن عمرو بن العاص لما توجه إلى الإسكندرية، أمر بنزع قسطنطين، فإذا فيه يمام^(٣) قد قرّح. فقال عمرو: لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فأقبر في

(١) الفصل: المسافة بين الشيئين.

(٢) المسال: واحدها المسلة: الإبرة الضخمة؛ وتطلق على حجر مستطيل على هيئة المسلة، عليه كتابة أثرية للفراعنة.

(٣) اليمام: جنس طير من الفصيلة الحمامية ورتبة الحماميات: الحمام البري، واحده يمامة.

موضعه، وأوصى به صاحب القصر. فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط - يريدون فسطاط عمرو، وكان مضروباً في موضع دار عمرو ابن العاص التي عُمِرَتْ بعد - واختط عمرو المسجد الجامع العمري، وكان ما حوله حدائق وأعشاب، فنصبوا الجبال حتى استقامت لهم، ووضعوا أيديهم، فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة، وأخذ عمرو في المسجد منبراً.

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أما بعد، فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين، أو ما يحسبك أن تقوم قائماً، والمسلمون تحت قدميك! فعزمت عليك لما كسرت.

قال: واختط الناس بعد ذلك. فكتب عمرو إلى عمر: إنا قد أخططنا لك داراً عند المسجد الجامع.

فكتب إليه عمر: أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر! وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين، ففعل، فكان يباع بها الرقيق.

قال: ولما اختط المسلمون تركوا بينهم وبين البحر والحضن قضاء لتغريق دوابهم وإبادتها، فلم يزل كذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان، فاشترى دور قوم منهم، وأقطعهم من ذلك القضاء، فسُميت القطائع، وبناها أولئك دوراً لهم بدل دورهم.

قال: واختط همدان ومن والها الجزيرة، فكتب عمرو إلى عمر يعرفه أمر الخطط.

فكتب إليه عمر يقول له: كيف رضيت أن تُفَرَّق أصحابك! ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك، أن يكون بينك وبينه بحر لا تدري ما يفجؤهم. فلعلك لا تقدر على غيائهم حتى ينزل بهم ما تكره، فأجمعهم إليك، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم، فأبى عليهم من فيء المسلمين حضناً.

فعرض عمرو ذلك عليهم، فأبوا، وأعجبهم موضعهم بالجزيرة، فبنى لهم عمرو بن العاص الحضن الذي بالجزيرة، في سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنيه في سنة اثنتين وعشرين. والله سبحانه وتعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط وإبطال عمرو تلك العادة

قال ابنُ لهيعة: لما فتح عمرو بنُ العاصِ مصرَ أتاه أهلُها حين دخل بؤونة^(١) من أشهر القبط، فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لنيلنا هذا سئةً لا يجري إلَّا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمَدنا إلى جارية بكرٍ من أبونها فأرضيناهما، وجعلنا عليها من الحليِّ والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناهما في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إنَّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله.

فأقاموا بؤونة وأيب^(٢) ومسرى^(٣)، لا يجري كثيرًا ولا قليلًا؛ حتَّى همَّوا بالجلَاء، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه: قد أصبت، إنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدِم الكتابُ على عمرو فتَحَّ البطاقة؛ فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى نيل أهل مصر: أما بعدُ، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذي يُجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك.

فألقي عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيا أهل مصر للجلَاء، فأصبحوا وقد أجرى الله عز وجل النيل ستة عشر ذراعًا في ليلة، وانقطعت تلك السئة السيئة عن أهل مصر.

ذكر ما قرر في أمر الجزية من الخراج

قال: وكانت قريضة مصر لحفر خلجانها، وإقامة جسورها، وعمارة قناطرها، وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفًا، معهم الطور والمساجي والأداة يعقبون^(٤) ذلك لا يدعونه شتاء ولا صيفًا.

ثم كتب عمرو بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو أن يُختم على رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهِروا مناطقهم، ويجزؤا نواصيهم، ويؤكِّبوا على الأكف عرضًا،

(١) و(٢) و(٣) بؤونة وأيب ومسرى، هي الشهور الثلاثة الأخيرة من التقويم القبطي الذي يتبع النظام

المصري القديم... (الموسوعة العربية الميسرة - تقويم -).

(٤) اعتقب القوم عليه: تعاونوا. واعتقب القوم الشيء: تداولوه وتناوبوه.

والأُ يَضْرِبُوا الْجَزِيَّةَ إِلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي، وَلَا يَضْرِبُوا عَلَى النِّسَاءِ، وَلَا عَلَى الْوِلْدَانِ، وَلَا يَدْعُوهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبُوسِهِمْ.

قال: وَلَمَّا اسْتَوْسَقَ^(١) لَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْأَمْرُ، وَأَقْرَبَ قَبْطُ مِصْرَ عَلَى جِبَايَةِ الرُّومِ، وَكَانَتْ جِبَايَتُهُمْ بِالْعَدْلِ: إِذَا عُمِرَتِ الْقَرْيَةُ، وَكَثُرَ أَهْلُهَا زَيْدٌ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا قَلَّ أَهْلُهَا وَخَرِبَتْ تُقْصُوا. فَكَانُوا يَجْمَعُونَ خَرَاجَ كُلِّ قَرْيَةٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَرْضِ الْعَامِرَةِ. فَيُخْرِجُونَ^(٢) فَيُخْرِجُونَ مِنَ الْأَرْضِ قَدَائِينَ لِكُنَائِسِهِمْ وَحَمَامَاتِهِمْ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهَا عَدَدٌ لِضَيْفَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَنُزُولِ السُّلْطَانِ، فَإِذَا قَرَعُوا، نَظَرُوا إِلَى مَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الصَّنَاعِ وَالْأَجْرَاءِ فَقَسَمُوا عَلَيْهِمْ بِقَدَرِ أَحْتِمَالِهِمْ؛ فَإِنْ كَانَتْ فِيهَا جَالِيَةٌ قَسَمُوا عَلَيْهَا بِقَدَرِ أَحْتِمَالِهَا، وَقَلَّمَا كَانَتْ تَكُونُ إِلَّا لِلرَّجُلِ الْمُتَنَابِ^(٣) أَوْ الْمُتَزَوِّجِ، ثُمَّ يُنْظَرُ مَا بَقِيَ مِنَ الْخَرَاجِ فَيَقْسُمُونَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى عِدَدِ الْأَرْضِ، ثُمَّ يَقْسُمُونَ ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ يَرِيدُ الزَّرْعَ مِنْهُمْ عَلَى قَدَرِ طَاقَتِهِمْ، فَإِنْ عَجَزَ أَحَدٌ وَشَكَا ضَعْفًا عَنْ زَرْعِ أَرْضِهِ، وَزَعُوا مَا عَجَزَ عَنْهُ عَلَى الْإِحْتِمَالِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَرِيدُ الزِّيَادَةَ، أُعْطِيَ مَا عَجَزَ عَنْهُ أَهْلُ الضَّعْفِ؛ فَإِنْ تَشَاخَوْا قَسَمُوا ذَلِكَ عَلَى عِدَّتِهِمْ، وَكَانَتْ قِسْمَتُهُمْ عَلَى قَرَارِيضَ، الدِّينَارِ بِأَرْبَعَةِ وَعَشْرِينَ قِيرَاطًا، يَقْسُمُونَ هَذِهِ الْأَرْضَ عَلَى ذَلِكَ.

قال: وَكَذَلِكَ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا».

قال: وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ لِكُلِّ فِدَانٍ نِصْفَ إِرْدَبٍ^(٤) قَمْحًا، وَوَيْبَتَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ إِلَّا الْقُرْطَ فَلَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ ضَرِيَّةً، وَالْوَيْتَةُ يَوْمُئِذٍ سِتَّةُ أَمْدَادٍ كَأَنَّهُ يَرِيدُ بِذَلِكَ الْبِدَارَ.

قال: وَرَوَى عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ جَبَى مِصْرَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وقال غَيْرُ اللَّيْثِ: جَبَاها الْمُقَوَّقُسُ قَبْلَهُ بِسَنَةِ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. قال اللَّيْثُ: وَجَبَاها عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ حِينَ اسْتَغْمَلَهُ عَلَيْهَا عِثْمَانُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ.

فقال عِثْمَانُ لِعَمْرُو: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ: دَرَّتْ بَعْدَكَ اللَّقْحَةُ^(٥) بِأَكْثَرِ مِنْ دَرِّهَا الْأَوَّلِ. فقال عمرو: أَضْرَرْتُمْ بَوْلَدِهَا.

(١) استوسق الأمر: انتظم.

(٢) يقال: بدر إلى الزرع: أي بكر به أول الزمان. وبدر فلانًا بالشئ: إذا عاجله.

(٣) المتنب: الزائر. (٤) الإردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعًا.

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

وكتبَ عمرُ إلى عمرو أن يسألَ المقوقسَ عن مصرَ، من أي شيء تأتِي عِمَارَتُهَا وخَرَابُهَا؟ فسأله عمرو، فقال: تأتِي عِمَارَتُهَا وخَرَابُهَا من وجوه خمسة، أن يُسْتَخْرَجَ خراجها في إِيَّانٍ واحدٍ، عند فَرَاغِ أهلها مِن رَزْعِهِمْ، ويُزْفَعَ خراجُها في إِيَّانٍ واحدٍ عند فَرَاغِ أهلها من عَضْرِ كُرُومِهِمْ، وتُحْفَرُ في كُلِّ سنة خُلُجُها، وتُسَدُّ تَرْعُها وجسُورُها، ولا يُقْبَلُ محلُّ أهلها، يريد البَغْيُ، فإن فُعِلَ هذا فيها عَمِرَتْ، وإن فُعِلَ بخلاف هذا خَرِبَتْ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر المقطم^(١)

رُوي عن اللَّيْثِ بنِ سَعْدٍ، قال: سألَ المقوقسُ عمروَ بنَ العاصِ أن يبيِّعَه سفحَ المقطُمِ بسبعين ألفَ دينارٍ، فعَجِبَ عمرو من ذلك. وقال أكتب في ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتبَ بذلك إلى عمرَ، فكتبَ إليه، أسأله لِمَ أعطاك به ما أعطاك وهي لا تُزْرَعُ ولا يُسْتَنْبَطُ بها ماء ولا يُتَنَفَّعُ بها؟ فسأله، فقال: إِنَّا لنَجِدُ صِفَتَهَا في الكتبِ، أن فيها غِرَاسَ الجَنَّةِ. فكتبَ بذلك إلى عمرَ فكتبَ عمر إلى عمرو: أَنَا لا نعلم غِرَاسَ الجَنَّةِ إلاَّ للمؤمنين، فأقبِرْ فيها من مات قَبْلَكَ من المسلمين، ولا تبغِه بشيء، فكان أول رجلٍ دُفِنَ فيها رجلٌ من المعافِرِ يقال له: عامر.

قالوا: والمقطم ما بين القُصَيرِ إلى مَقْطِيعِ الحِجَارَةِ، وما بعد ذلك فَمِنْ اليَحْمُومِ.

وقد اخْتَلِفَ في القُصَيرِ، فقال ابنُ لَهِيعة: ليس بقُصَيرِ موسى النبي عليه السلام؛ ولكِنَّه موسى السَّاحِرِ.

وقال كعبُ الأحبارِ: هو قُصَيرُ عَزِيزِ مصرَ، كان إذا جرى النيلُ يترَفَّعُ فيه. ويقال: بل كان موقدًا يُوقَدُ فيه لفرعون إذا هو رَكِبَ مِنْ مَنَفٍ^(٢) إلى عَيْنِ شَمْسٍ، وكان على المقطُمِ موقدٌ آخر؛ فإذا رأوا النارَ عَلِمُوا بِرُكُوبِهِ، فأَعْدُوا له ما يُريدُ، وكذلك إذا انصَرَفَ.

والله تعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) المقطم: هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى... (معجم البلدان).

(٢) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر.

ذكر خبر خليج أمير المؤمنين

وهذا الخليج كانت السفن تسير فيه من مصر إلى بحر القلزم^(١)، تحمل الطعام والأصناف إلى مكة والمدينة.

وكان من خبره على ما روي عن الليث بن سعد أن الناس بالمدينة أصابهم جَهْدٌ شديدٌ في خلافة عمر بن الخطاب في عام الرَّمَادَةِ، فكتب إلى عمرو:

من عبد الله أمير المؤمنين، إلى العاصي ابن العاص.

سلام عليك، أما بعد؛ فلعمري يا عمرو ما تُبالي إذا شبت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه! يردد قوله.

فكتب إليه عمرو:

لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عمرو بن العاص.

أما بعد. فيا لبنيك ثم يا لبنيك، وقد بعثت إليك بغير أولها عندك وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله.

وبعث إليه بغير عظيمة، فكان أولها بالمدينة، وآخرها ببصر يتبع بعضها بعضاً، فلما قَدِمَتْ على عُمر وَسَّعَ بها على الناس، ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بغيراً بما عليه من الطعام. وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص أن يقسموها على الناس، ويدفعوا إلى أهل كل بيت بغيراً بما عليه، وأن يأكلوا الطعام، وينخروا البعير فيأكلوا لحمه، ويأتمدوا شحمه، ويحتدوا جلده، ويتنفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام لما أرادوا. فوسع الله بذلك على الناس، فلما رأى ذلك عمر حمداً لله، وكتب إلى عمرو أن يقدّم عليه، هو وجماعة أهل مصر، فقدموا عليه.

فقال عمر: يا عمرو، إن الله تعالى قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقني في روعي لما أحببت من الرقي بأهل الحرمين والتوسعة عليهم، أن أخفر خليجاً من نيل مصر حتى يسيل في البحر؛ فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حملته على الظهر^(٢) يتعذر، ولا تبلغ منه ما

(١) بحر القلزم: يعرف الآن بالبحر الأحمر. قيل: سمي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه من ركبته وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله...

(٢) الظهر: الدابة التي تحمل الأثقال، أو يركب عليها.

نريد. فأنطلق أنت وأصحابك، فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم، فأنطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم، وقالوا: نخوف أن يدخل في هذا ضرر على مصر، فترى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: إن هذا الأمر لا يعتدل ولا يكون، ولا نجد إليه سبيلاً.

فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فلما رآه ضحك وقال: والذي نفسي بيده لكأني أنظر إليك يا عمرو، وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرت به، فثقل ذلك عليهم، وقالوا لك كذا وكذا. للذي كان منهم. فقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت.

فقال عمر: يا عمرو، انطلق بعزيمة مني حتى تجد في ذلك، ولا يأتي عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى. فانصرف عمرو، ثم احتفر الخليج الذي كان في حاشية الفسطاط الذي يقال له: خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، ففتح الله بذلك أهل الحرمين، وسمي خليج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام إلى زمن عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع، فصارت متهاة إلى ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم.

قال: ويقال: إن عمرو بن العاص قال لعمر بن الخطاب. لما قديم عليه: يا أمير المؤمنين، قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج، وأستد، وتركته الثجاء؛ فإن شئت أن تحفره فتنشئ^(١) به سفناً يحمل فيها الطعام إلى الحجاز فعلته. فقال له عمر: نعم، فأفعل.

فلما ذكر عمرو ذلك لأصحابه كرهوه على ما تقدم، فعزم عمر على عمرو أن يحفره فحفره.

ويقال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كتب إلى عمرو بما كتب واستغاثه، كتب عمرو إليه:

أما بعد، فيا لبيك ثم يا لبيك، أتتك غير أولها عندك وآخرها عندي، مع أنني أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحمل إليك في البحر. ثم إن عمراً ندم على كتابه في الحمل إلى المدينة، وقال: إن أمكنك عمر من هذا خرب مصر ونقلها إلى المدينة، فكتب إليه: إني نظرت في أمر البحر، فإذا هو عسر لا يلتأم ولا يستطيع. فكتب إليه

(١) نشيء: نحدث ونوجد.

عُمَرُ: إلى العاصي ابنِ العاص: قد بَلَغَنِي كتابُكَ، تعتلُّ في الَّذي كُنْتَ كُتِبْتَ إِلَيَّ به من أمرِ البحرِ، وأَيُّمُ الله لَتَفْعَلَنَّ أو لَأَقْلَعَنَّكَ بأُذُنِكَ ولَأَبْعَثَنَّ من يَقَعَلُ ذلك.

فعرَفَ عَمْرُو أَنَّهُ الجَدُّ من عُمَر، ففعل، فبعث إليه عُمَرُ ألا تدع بمصرَ شيئاً من طعامِها وكِسوتِها وبَصْلِها وَعَدَسِها وَخَلِّها إلَّا بَعَثْتَ إلينا منه.

ويقال: إِنَّمَا دَلَّ عَمْرُو بَنَ العاصِ على الخَليجِ رجلٌ من قِبطِ مصر، أَناه فقال له: أَرَأَيْتَ إِنْ دَلَّلْتُكَ على مكانٍ تَجْرِي فيه السُّفُنُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إلى المَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَتَضَعُ عَنِّي الجِزْيَةَ. وعن أَهلِ بَيْتِي؟ قال: نَعَمْ، وَكُتِبَ إلى عَمْرٍ، فقال: افْعَلْ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الخبر عن فتح الفيوم^(١)

روي عن سَعِيدِ بْنِ عُفَيْرٍ وَغَيْرِهِ، قالوا: لما تَمَّ الفَتْحُ للمسلمين، بعثَ عَمْرُو بَنُ العاصِ جَرَانِدَ الخَيْلِ إلى القَرَى الَّتِي حَوْلَهَا، فأقامت بالفيوم سنةً لم يَعْلَمْ المسلمون بمكانها؛ حَتَّى أَنَاهُمْ رَجُلٌ فَذَكَرَهَا لَهُمْ، فَبَعَثَ عَمْرُو مَعَهُ رِبِيعَةَ بَنَ حُبَيْشِ بْنِ عُرْفُطَةَ الصَّدْفِيِّ، فَلَمَّا سَلَكَوا في المَجَابَةِ لَمْ يَرَوْا شَيْئاً، فَهَمُّوا بِالْأَنْصِرَافِ فقال: لَا تَعْجَلُوا، سِيرُوا، فَلَمْ يَسِيرُوا إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى طَلَعَ لَهُمْ سَوَادُ الْفَيُومِ، فَهَجَمُوا عَلَيْهَا، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَهْلِهَا قِتَالٌ، وَالْقَوَا بِأَيْدِيهِمْ.

قال: وَيُقَالُ: بَلْ خَرَجَ مَالِكُ بْنُ نَاعِمَةَ الصَّدْفِيِّ - وَهُوَ صَاحِبُ الْفَرَسِ الْأَشَقَرِّ على فَرَسِهِ - يَنْفُضُ^(٢) المَابَةَ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِمَا خَلْفَهَا مِنَ الْفَيُومِ، فَلَمَّا رَأَى سَوَادَهَا رَجَعَ إلى عَمْرُو، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ.

ويقال: بَلْ بَعَثَ عَمْرُو بَنُ العاصِ قَيْسَ بَنَ الْحَارِثِ إلى الصَّعِيدِ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى الْقَيْسَ، فَتَزَلَّ بِهَا، وَبِهِ سُمَيْثٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَمْرُو.

فقال رِبِيعَةُ بْنُ حُبَيْشٍ: كُفَيْتَ، فَركِبَ فَرَسَهُ، فَأَجَازَ عَلَيْهِ الْبَحْرَ، وَكَانَتْ أُنْثَى، فَأَتَاهُ بِالْخَبَرِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ أَجَازَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ حَتَّى أَتَتْهُ إلى الْفَيُومِ. والله تعالى أعلم، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين وهي في منخفض الأرض كالدارة...

(٢) ينفض المكان: ينظر جميع ما فيه حتى يعرفه.

ذكر فتح زويلة^(١) وطرابلس الغرب وبرقة^(٢) وحصن سبرت

كان فتح زويلة في سنة إحدى وعشرين؛ وذلك أن عمرو بن العاص بعث عتبة بن نافع الفهري إليها، فافتتحها صلحاً، وما بين برقة وزويلة سلماً للمسلمين. وقيل: فتحتها في سنة عشرين، والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله وحده.

ثم سار عمرو بن العاص من مضر في سنة اثنتين وعشرين إلى برقة، فصالح أهلها على الجزية، وأن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا بيعه، فلما فرغ من برقة سار إلى طرابلس الغرب، فحاصرها شهراً، فلم يظفر بها، وكان قد نزل شريقها، فخرج رجل من بني مذليج يتصيد في سبعة نفر فسلكوا غرب المدينة، فلما رجعوا أشد عليهم الحر، فأخذوا على جانب البحر ولم يكن السور متصلاً بالبحر، وكانت سفن الروم في مرساها تقابل بيوتهم، فرأى المذليجي وأصحابه مسلماً في البحر إلى البلد، فدخلوا منه، وكبروا، فلجأ الروم إلى سفنهم؛ لأنهم ظنوا أن المسلمين قد دخلوا المدينة، فنظر عمرو ومن معه، فرأى السيوف في المدينة، وسمعوا الصياح، فأقبل الجيش حتى دخل المدينة، فلم يفلت من الروم إلا بما خف حملته في مراكبهم.

وكان أهل حصن سبرت قد اطمأنوا، فجهز إليهم جيشاً كثيفاً، فصبحوها وقد فتح أهلها الباب، وسرحوا مواشيهم فدخلها المسلمون مغالبةً وغنموا ما في الحصن، وعادوا إلى عمرو.

ثم سار عمرو إلى برقة وبها لواتة، وهم من البربر، فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية، وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا بيعه من أولادهم في جزيتهم.

قال المؤرخ: وكان سبب مسير البربر إليها وإلى غيرها من بلاد الغرب؛ أنهم كانوا بنوaji فلسطين، فلما قتل ملكهم جالوت، ساروا نحو الغرب، وتفرقوا، فسارت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، فسكنوا الجبال، وسكنت لواتة برقة،

(١) زويلة: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان، وفيها جامع وحمام وأسواق تجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم... وبزويلة قبر دعبيل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن..

وَتُعْرِفُ قَدِيمًا بِأَنْطَابُلُس - وَقِيلَ فِيهَا: أَنْطَابُلُس - وَانْتَشَرُوا فِيهَا حَتَّى بَلَّغُوا الشُّوسَ، وَنَزَلُوا وَنَزَلَتْ هَوَارَةُ مَدِينَةَ لَبْدَةَ، وَنَزَلَتْ ثُقُوسَةُ مَدِينَةَ سَبْرَتَ، وَجَلَا مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرُّومِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَأَقَامَ الْأَفَارِقُ وَهُمْ خَدَمَ الرُّومِ عَلَى صَلَاحٍ يُوَدُّونَهُ لِمَنْ غَلَبَ عَلَى بِلَادِهِمْ.

انتهت الفتوحات في خلافة عمر رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر الغزوات إلى أرض الروم

كَانَ أَوَّلُ مَنْ غَزَا أَرْضَ الرُّومِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبُو بَحْرَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ فِي سَنَةِ عَشْرِينَ، وَقِيلَ: أَوَّلُ مَنْ دَخَلَهَا مَيْسَرَةُ بْنُ مَسْرُوقٍ الْعَبْسِيُّ، فَسَلِمَ وَغَنِمَ، ثُمَّ غَزَاهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ، وَدَخَلَهَا فِي عَشْرَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ غَزَا مُعَاوِيَةُ الصَّائِفَةَ، وَمَعَهُ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَأَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ وَأَبُو دَرَّ وَشَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ. وَفِيهَا فَتَحَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَسْقَلَانَ عَلَى صُلَحٍ.

ذكر ما اتفق في خلافة عمر بن الخطاب غير الفتوحات والغزوات

سنة ثلاث عشر

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، تُوفِيَ الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ يَوْمَ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا بِدَارِهِ بِمَكَّةَ أَوَّلَ مَا أُرْسِلَ ﷺ.

سنة أربع عشرة

فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْقِيَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْمَسَاجِدِ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَكَتَبَ إِلَى الْأَمْصَارِ بِذَلِكَ.

وفيها، ضرب عمر رضي الله عنه ابنه عبد الله وأصحابه في شراب^(١) شربوه، وضرب أيضاً أبا مخجن الثقفي في الشراب.

وفيها حج عمر رضي الله عنه بالناس.

وكان العمال على مكة: عتاب بن أسيد في قول، وعلى اليمن يعلى بن مثنى، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، وعلى البحر عثمان بن أبي العاص. وقيل: العلاء بن الحضرمي، وعلى عمارة حذيفة بن مخصن. وفيها مات أبو قحافة، والد أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، ومات سعد بن عبادة الأنصاري، وكان أسن من أسلم من بني هاشم رضي الله عنه.

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

سنة خمس عشرة

وفي هذه السنة فرض عمر رضي الله عنه للمسلمين الفروض، ودون الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة في الإسلام لا على البيوت.

قال: ولما فرض العطايا أعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو في أهل الفتح أقل مما أعطى من قبلهم، فامتنعوا من أخذه، وقالوا: لا نعرف أن يكون أحد أكرم منا، فقال: إني إنما أعطيتهم على السابقة في الإسلام لا في الأحساب، فقالوا: نعم إذن، وأخذوا.

وخرج الحارث وسهيل بأهليهما نحو الشام، فلم يزالا مجاهدين حتى أصيبا في بعض تلك الدروب. وقيل: ماتا في طاعون عمواس.

وقيل: لما أراد عمر وضع الديوان، قال له علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم: ابتدأ بنفسك. فقال: لا، بل أبدأ بعمر رسول الله ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب، ففرض للعباس، وبدأ به، وجعل له خمسة وعشرين ألفاً، وقيل: فرض له اثني عشر ألفاً ثم فرض لأهل بذر لكل منهم خمسة آلاف، وألحق بهم أربعة لم يكونوا منهم، وهم: الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان رضي الله تعالى عنهم.

(١) الشراب: ما شرب من أي نوع والمراد هنا الخمر.

وَفَرَضَ لِمَنْ بَعْدَ بَدْرٍ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ لِكُلِّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَفَرَضَ لِمَنْ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ إِلَى قِتَالِ الرُّدَّةِ، لِكُلِّ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ، كَانَ مِنْهُمْ مَنْ شَهِدَ الْفَتْحَ.

وَفَرَضَ لِأَهْلِ الْأَيَّامِ قَبْلَ الْقَادِسِيَّةِ، وَأَهْلِ الشَّامِ، فِي أَلْفَيْنِ أَلْفَيْنِ.

وَفَرَضَ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ فِي أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ أَلْحَقْتَ أَهْلَ الْقَادِسِيَّةِ بِأَهْلِ الْأَيَّامِ! قَالَ: لَمْ أَكُنْ لِأَلْحَقَهُمْ بِدَرَجَةٍ مِنْ لَمْ يُذْرِكُوا. وَقِيلَ لَهُ: قَدْ سَوَّيْتَ مَنْ بَعْدَتْ دَارُهُ بِمَنْ قَرَّبَتْ دَارَهُ، وَقَاتَلَهُمْ عَنْ فَنَائِهِ، فَقَالَ: مَنْ قَرَّبَتْ دَارَهُ أَحَقُّ بِالزِّيَادَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا رِذَاءًا لِلْحَتُوفِ، وَشَحَى^(١) لِلْعُدُوِّ، فَهَلَّا قَالَ الْمُهَاجِرُونَ مِثْلَ قَوْلِكُمْ حِينَ سَوَّيْنَا بَيْنَ السَّابِقِينَ مِنْهُمْ وَالْأَنْصَارِ! فَقَدْ كَانَتْ نَصْرَةُ الْأَنْصَارِ بِفَنَائِهِمْ، وَهَاجَرَ إِلَيْهِمُ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ بَعْدِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَفَرَضَ لِمَنْ بَعْدَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْيَزْمُوكِ أَلْفًا أَلْفًا.

وَفَرَضَ لِلرُّوَادِفِ الَّتِي فِي خَمْسِمِائَةِ خَمْسِمِائَةٍ، وَلِلرُّوَادِفِ الثَّلَاثِ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ، سَوَّى كُلَّ طَبَقَةٍ فِي الْعَطَاءِ، قَوِيَّهِمْ وَضَعِيفَهُمْ، عَرَبِيَّهِمْ وَعَجَمِيَّهِمْ. وَفَرَضَ لِلرُّوَادِفِ الرَّبْعَ فِيهَا فِي مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ.

وَفَرَضَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَهُمْ أَهْلُ هَجَرَ وَالْعِبَادِ عَلَى مِائَتَيْنِ.

وَأَعْطَى نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ عَشْرَةَ آلَافٍ عَشْرَةَ آلَافٍ إِلَّا مَنْ جَرَى عَلَيْهَا الْمَلِكُ. فَقَالَ نِسْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْضِلُنَا عَلَيْهِنَ فِي الْقِسْمَةِ، فَسَوَّيْنَاهُ؛ فَفَعَلَ، وَفُضِّلَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِأَلْفَيْنِ لِمَحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهَا، فَلَمْ تَأْخُذْهَا.

وَجَعَلَ لِنِسَاءِ أَهْلِ بَدْرٍ خَمْسِمِائَةَ خَمْسِمِائَةٍ، وَنِسَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْبَعِمِائَةَ أَرْبَعِمِائَةٍ، وَنِسَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى الْأَيَّامِ ثَلَاثِمِائَةَ ثَلَاثِمِائَةٍ، وَنِسَاءَ أَهْلِ الْقَادِسِيَّةِ مِائَتَيْنِ مِائَتَيْنِ، ثُمَّ سَوَّى نِسَاءَ بَدْرٍ ذَلِكَ.

وَجَعَلَ الصَّبِيَّانِ سَوَاءً عَلَى مِائَةِ مِائَةٍ، ثُمَّ جَمَعَ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَأَطْعَمَهُمُ الْخُبْزَ، فَأَحْصَوْا مَا أَكَلُوا، فَوَجَدُوهُ يَخْرُجُ مِنْ جَرِيْبَيْنِ، فَفَرَضَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَلِغِيَالِهِ جَرِيْبَيْنِ فِي الشَّهْرِ.

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ مَوْتِهِ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْعَطَاءَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، أَلْفٌ يَجْعَلُهَا الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ، وَأَلْفٌ يَتَزَوَّدُهَا مَعَهُ، وَأَلْفٌ يَتَجَهَّزُ بِهَا، وَأَلْفٌ يَزْنِفُ^(٢) بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ.

(١) شحى: أوسع في الخطو وأسرع.

(٢) ارتفق به: انتفع واستعان.

وقال له رجل عند فرض العطاء: يا أمير المؤمنين، لو كنت تركت في بيوت الأموال عدّة لكون إن كان فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرّها، وهي فتنة لمن بعدي، بل أعدّ لهم ما أعدّ الله ورسوله، طاعة الله ورسوله، هما عدتنا التي بها أفضيتنا إلى ما تروون؛ فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتكم.

وقال عمر رضي الله عنه للمسلمين: إنني كنت أماً تاجراً يُغني الله عيالي بتجارتني، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما تروون أنه يحلّ لي في هذا المال؟ فأكثر القوم، وعليّ رضي الله عنه ساكت، فقال: ما تقول يا عليّ؟ فقال: ما أصلحك وأصلحك عيالك بالمعروف، ليس لك غيره. فقال القوم: القول ما قال عليّ. فأخذ قوته، واشتدت حاجة عمر رضي الله عنه. فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، فقالوا: لو قلنا لعمر في زيادة يزيدها إياه في رزقه؟ فقال عثمان رضي الله عنه: هلموا فلنستبرئ ما عنده من وراء وراء. فأتوا حفصة أبنته فأعلموها الحال، واستكتموها ألا تُخبر بهنّ عمر. فلقيت عمر في ذلك، فعُصِب وقال: من هؤلاء لأسؤنهم؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم. قال: أنت بيني وبينهم، ما أفضل ما أفتني رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشقين^(١) كان يلبسهما للوفد والجمع، قال: فأبي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خبزنا خبز شعير، فصَبَبْنَا عليه وهو حارٌّ أسفل عكّة^(٢) لنا، فجعلتها دسمة حلوة، فأكل منها. فقال: أي بسط كان يُسَطُّ عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء ثخين كنا نرقعه برقعة في الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا^(٣) بنصفه، قال: يا حفصة، فأبلغهم أن رسول الله ﷺ قدّر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ^(٤) بالترجية، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأتبلغن بالترجية؛ وإنما مثلي ومثل صاحبتي كثلثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل، وتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم أتبعه الثالث؛ فإن لزم طريقهما ورَضِيَ بزيادتهما لحق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يُجامِعهما.

(١) الثوب الممشق: الذي فيه أثر يشبه أثر الاحتراق. أو الثوب الممزق.

(٢) العكّة: إناء يوضع فيه السمن.

(٣) تدثر: لبس الدثار، أو تغطى به؛ والدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار، أو الغطاء.

(٤) تبلغ بكذا: اكتفى به. وتبلغ الشيء: تكلف البلوغ إليه حتى بلغه.

سنة ست عشرة

وفي هذه السنة حجَّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاس، وفيها غَرَبَ^(١) عمر رضي الله عنه أبا مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ إلى ناصع^(٢).

وفيها حَمَى الرِّبْذَةَ بخيل المسلمين.

وفيها ماتت ماريةُ أُمِّ إبراهيمَ ابنِ رسول الله ﷺ، وصَلَّى عليها عُمَرُ، ودَفَنَهَا بالبَقِيع؛ وذلك في المحَرَّم.

وفيها كتب عمرُ النَّارِخَ بمشورة عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

وفيها حجَّ عمرُ بالنَّاس، واستخلفَ على المدينة زَيْدَ بْنَ ثَابِت. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ذكر بناء الكوفة والبصرة

سنة سبع عشرة

في هذه السنة اخْتُطَّتْ الكوفةُ والبصرةُ، وتحول سعدُ بنُ أبي وقاصٍ من المدائن إلى الكوفة، وكان سببُ ذلك أنَّ سعدًا أرسل إلى عمر بما فتح الله عليه، فلما رأى الوفدَ سألهم عن تغيرِ ألوَانِهِمْ وحَالِهِمْ؛ فقالوا: وَخُومَةُ^(٣) الْبِلَادِ غَيَّرَتْنَا، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْتَادُوا مَنَزِلًا يَنْزِلُهُ النَّاسُ.

وقيل: بل كَتَبَ حُذَيْفَةُ إلى عُمَرَ: إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ نَزَفَتْ^(٤) بُطُونُهَا، وَخَفَّتْ أَعْضَاؤُهَا، وَتَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهَا. وكان مع سعدٍ، فكتب عمر إلى سَعْدٍ: أَخْبِرْنِي مَا الَّذِي غَيَّرَ أَلْوَانَ الْعَرَبِ وَلَحُومَهُمْ؟ فكتب إليه: إِنَّ الَّذِي غَيَّرَهُمْ وَخُومَةُ الْبِلَادِ، وَأَنَّ الْعَرَبَ لَا يُوَافِقُهَا إِلَّا مَا وَافَقَ إِبِلُهَا مِنَ الْبُلْدَانِ. فكتب إليه، أَنْ أبعثَ سَلْمَانَ وَحُذَيْفَةَ فَلْيَرْتَادَا مَنَزِلًا بَرِّيًّا بَحْرِيًّا، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ بَحْرٌ وَلَا جِسْرٌ، فَأَرْسَلَهُمَا سَعْدٌ.

(١) غَرَبَ: أَبْعَدَ.

(٢) ناصع: والناصع من كل لون: ما خُلص ووضح، وأكثر ما يستعمل في البياض. والمراد هنا موضع من بلاد الحبشة.

(٣) وخومة البلاد: أي أنها غير ملائمة لأن تسكن.

(٤) نزفت البطن: سال منها الدم من جرع أو علة.

فخرج سلمانٌ حتَّى أتَى الأنبارَ، فسار في غربيّ الفُراتِ لا يَرْضَى شيئاً حتَّى أتَى الكوفةَ، وخرج حذيفةُ في شرقيّ الفُراتِ لا يَرْضَى شيئاً حتَّى أتَى الكوفةَ - وكلَّ رملةً وحَضْبَاءَ مختلِطَيْنِ فهو كُوفَةٌ - فَأَتَيَا عليها وفيها دِيرَاتٌ ثَلَاثَةٌ: دَيْرُ حَرْقَةٍ، ودَيْرُ أُمِّ عَمْرٍو، ودَيْرُ سُلَيْسِلَةٍ وخصاصٍ^(١) خِلَالِ ذَلِكَ، فَأَعَجَبْتُهُمَا الْبَقْعَةُ، فَتَزَلَّأَ وَصَلَّيَا، ودَعَا اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهَا مَنْزَلاً مُبَارَكًا. فَلَمَّا رَجَعَا إِلَى سَعْدٍ بِالْخَبَرِ، وَقَدِمَ كِتَابُ عَمَرٍ أَيْضًا عَلَيْهِ، كَتَبَ سَعْدٌ إِلَى الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغْتَمِرِ، أَنْ يَسْتَخْلِفَا عَلَى جَنْدِهِمَا وَيَحْضُرَا عِنْدَهُ، فَفَعَلَا. فَأَرْتَحَلَ سَعْدٌ مِنَ الْمَدَائِنِ حَتَّى نَزَلَ الْكُوفَةَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةٍ، فَلَمَّا نَزَلَهَا سَعْدٌ كَتَبَ إِلَى عَمَرَ: إِنِّي قَدْ نَزَلْتُ بِكُوفَةٍ، مَنْزَلاً بَيْنَ الْحِيرَةِ وَالْفُرَاتِ، بَرِّيًّا بِحَرِيًّا، يُنْبِتُ الْحَلْفَاءُ^(٢) وَالنَّصِي^(٣)، وَخَيْرُتُ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدَائِنِ، فَمَنْ أَعْجَبَهُ الْمَقَامُ بِالْمَدَائِنِ تَرَكْتُهُ فِيهَا كَالْمَسْلُوحَةِ. وَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِهَا عَرَفُوا أَنْفُسَهُمْ، وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ مَا كَانُوا فَقَدُوا مِنْ قُوَّتِهِمْ. وَاسْتَأْذَنَ أَهْلُ الْكُوفَةِ فِي بُنْيَانِ الْقَصَبِ، وَاسْتَأْذَنَ فِيهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، فَاسْتَقَرَّ مَنْزِلُهُمْ فِيهَا فِي الشَّهْرِ الَّذِي نَزَلَ أَهْلُ الْكُوفَةِ بَعْدَ ثَلَاثِ نَزَلَاتٍ فِيهَا قَبْلَهَا. فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ عَمَرُ: إِنَّ الْعَسْكَرَةَ أَشَدُّ لَحْزَبِكُمْ، وَأَذْكَرُ لَكُمْ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَخَالَفَكُمُ، فَأَبْتَنَى أَهْلَ الْمِصْرَيْنِ بِالْقَصَبِ.

ثُمَّ إِنَّ الْحَرِيقَ وَقَعَ بِالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَكَانَتْ الْكُوفَةُ أَشَدَّ حَرِيقًا، وَكَانَ الْحَرِيقُ فِي شَوَالٍ. فَبَعَثَ سَعْدٌ نَفَرًا مِنْهُمْ إِلَى عَمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْبُنْيَانِ بِاللَّيْنِ، فَقَدِمُوا عَلَيْهِ بِخَبَرِ الْحَرِيقِ، وَاسْتَأْذَنُوهُ، فَقَالَ: افْعَلُوا، وَلَا يَزِيدُ بِنَاءُ أَحَدِكُمْ عَنْ ثَلَاثَةِ أَيْيَاتٍ، وَلَا تَطَّأُولُوا بِالْبُنْيَانِ، وَالزَّمُوا السُّتَّةَ تَلْزَمَكُمُ الدَّوْلَةُ.

فَرَجَعَ الْقَوْمُ إِلَى الْكُوفَةِ بِذَلِكَ، وَكَتَبَ عَمَرُ إِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَكَانَ عَلَى تَنْزِيلِ^(٤) الْكُوفَةِ أَبُو هِيَاجٍ بْنُ مَالِكٍ، وَعَلَى تَنْزِيلِ الْبَصْرَةِ عَاصِمُ بْنُ الذَّلْفِ أَبُو الْجَزْيَاءِ، وَقَدَّرَ الْمَنَاهِجَ^(٥) أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ عَشْرِينَ ذِرَاعًا، وَالْأَرْقَةُ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ، وَالْقَطَائِعُ سَبْعِينَ ذِرَاعًا. وَأَوَّلُ شَيْءٍ خُطَّ فِيهِمَا مَسْجِدَاهُمَا، وَقَامَ فِي وَسْطِهِمَا رَجُلٌ شَدِيدُ النَّزْعِ^(٦)، فَرَمَى فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ بِسَهْمٍ، وَأَمَرَ أَنْ يُبْنَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ. وَبُنِيَ

(١) الخصاصة: الفرجة أو الخلل، جمع خصاص.

(٢) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايب الماء.

(٣) النصي: نبت سبط من أفضل المراعي؛ واحده نصية.

(٤) التنزيل: إحلال المنازل وترتيبها.

(٥) المناهج: واحدها المنهج، وهو الطريق.

(٦) النزع: الإفساد وحمل بعض القوم على بعض، أو الطعن.

ظِلَّة^(١) في مقدّمة مسجد الكوفة على أساطين رُحام من بناء الأكاسرة في الحيرة، وجعلوا على الصّخر خندقاً لئلاً يقتحمه أحد بنيان، وبنوا لسعد داراً بحiale، وهي قصر الكوفة، بناه رُوْزبه من أجْر بُنيان الأكاسرة بالحيرة، وجعل الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعد فهو له، حتّى يقوم منه إلى بيته، ويُقرع من يّنه.

قال: وبلغ عمر أن سعداً قال: وقد سمع أصوات الناس من السوق: سكتوا عني التّصويت، وإنّ الناس يُسمّونه قصر سَعْدٍ. فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأمره أن يُحرّق باب القصر، ثم يرجع، ففعل. وبلغ سعداً ذلك، فقال: هذا رسول أرسل لهذا! فاستدعاه، فأبى أن يدخُل إليه، فخرج إليه سعد، وعرض عليه نفقة، فأبى أن يأخذها، وأبلغه كتاب عمر إليه وفيه:

بلغني أنّك اتّخذت قصراً جعلته حصناً، ويسمى قصر سَعْدٍ، وبينك وبين الناس باب، فليس بقصر؛ ولكنه قصر الخبال^(٢)، أنزل منه ممّا يلي بيوت الأموال، وأغلّفه، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله.

فحلف له سعد ما قال الذي قالوا، ورجع محمد، وأبلغ عمر قوله، فصدّقه.

وكانت تُغور الكوفة أربعة: حُلوان وعليها القعقاع بن عمرو، وماسبدان وعليها ضرار بن الخطّاب، وقرقيسياء وعليها عمرو بن مالك، أو عمرو بن عُقبة بن نوفل، والموصل وعليها عبد الله بن المعتير. وكان بها خلفاؤهم إذا غابوا عنها.

وولي سعد الكوفة بعدما اختطت ثلاث سنين ونصفاً، سوى ما كان بالمدائن قبلها. والله تعالى أعلم.

ذكر عزل خالد بن الوليد

وفي هذه السنة عُزل خالد بن الوليد عمّا كان عليه من التّقدّم على الجيوش، وسبب ذلك أنّه أذرب^(٣) هو وعياض بن غنم، فأصابا أموالاً عظيمة، وكانا توجّها من الجابية بعد رجوع عمر إلى المدينة.

وقيل: إنّ مسير خالد مع عياض كان لفتح الجزيرة، فبلغ الناس ما أصاب خالد، فانتجعه رجالاً وكان فيهم الأشعث بن قيس، فأجازه بعشرة آلاف، ودخل خالد الحمام؛ قيل: حمّام أمّ، فتدلّك بغسل فيه حمراً، فكتب إليه عمر:

(١) الظلة: ما أظلك من شجر وغيره. (٢) الخبال: الهلاك. أو صديد أهل النار.

(٣) أذرب القوم: أي دخلوا أرض العدو من بلاد الروم.

بلغني أنك تدلكت بخمر، والله قد حرّم ظاهر الخمر وباطنه منه، فلا تمسها أجسادكم. فكتب إليه: إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر. فكتب إليه عمر: إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء، فلا أمتكم الله عليه.

فلما فرّق خالد في الذين انتجعوه الأموال، سمع بها عمر، فكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح مع البريد أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث، أم من ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، وإن زعم أنها من إصابة، فقد أقر بخيانة. وأغزله على كل حال، وضمم إليك عمله.

وكان خالد على قنشرين من قبل أبي عبيدة، فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس على المنبر، وقام البريد قبالة خالد، فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث؟ فلم يجبه، وأبو عبيدة ساكت لا يتكلم.

فقال بلال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ونزع عمامته فلم يمتعه، ووضع قلنسوته، وأقامه وعقله بعمامته، وقال له: أم من مالك أجزت؟ أم من إصابة أصبتها؟ فقال: لا، بل من مالي، فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عممه بيده، ثم قال: نسمع ونطيع لولايتنا، ونفخ ونخدم موالينا.

قال: فأقام خالد متحيرًا لا يذري: أمعزول هو أم غير معزول! ولم يشافهه أبو عبيدة بذلك تكريمًا له.

فلما تأخر قدمه على عمر ظن الذي كان، فكتب إلى خالد بالإقبال إليه، فرجع خالد إلى قنشرين فخطب الناس، وودعهم، ثم رجع إلى جنص ففعل مثل ذلك، ثم سار إلى المدينة. فلما قدم على عمر شكاه وقال: شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري لغير مجمل، فقال له عمر: من أين هذا الشراء؟ فقال: من الأنفال والسهمان، ما زاد على ستين ألفًا فلك.

فقوم عمر ماله، فزاه عشرين ألفًا، فجعلها عمر في بيت المال، ثم قال: يا خالد، والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب.

وكتب إلى الأمصار: إنني لم أعزل خالدًا عن سخط ولا خيانة، ولكن الناس فخموه وفتيوا به، فخفت أن ياكلوا إني، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، ولا يكونوا بعرض فتنة، وعوضه عما أخذ منه. والله تعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر بناء المسجد الحرام

وفي هذه السنة اعتمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبني المسجد الحرام، ووسّع فيه، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على أقوام أبوا أن يبيعوا، ووضع أثمان دُورهم في بيت المال حتى أخذوا، وكانت عُمرته في شهر رجب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، واستأذنه فأذن لهم وشرط عليهم، أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

ذكر عزل المغيرة بن شعبة

وفي هذه السنة عزل عمر رضي الله عنه المغيرة بن شعبة عن البصرة، واستعمل عليها أبا موسى الأشعري، وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين أبي بكره مُناقرة، وكانا متجاورين بينهما طريق، وكانا في مشرتين، في كل واحدة منهما كوة مقابلة للأخرى، فأجتمع إلى أبي بكره نفر يتحدثون في مشرتيه، فهبّ الرّيح، ففتحت باب الكوة، فقام أبو بكره ليُرّده، فبصر بالمغيرة، وقد فتحت الرّيح باب كوته، وهو بين رجلَي امرأة، فقال للتفكير: قوموا وانظروا، فنظروا، وهم: أبو بكره ونافع بن كلفة، وزياذ ابن أبيه، وهو أخو أبي بكره لأُمّه، وشبل بن معبد البجلي، فقال لهم: اسهدوا. قالوا: ومن هذه؟ قال: أم جميل بنت الأفقم، وكانت من بني عامر بن صعصعة، وكانت تغشى المغيرة والأمرء، وكان بعض النساء يفعّلن ذلك في زمانها، فلما قمّت عرّفوها. فلما خرج المغيرة إلى الصلاة منعه أبو بكره.

وروى أبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني في كتابه بسند رفعه إلى أنس بن مالك وغيره: أن المغيرة بن شعبة كان يخرج من دار الإمارة وسط النهار، وكان أبو بكره يلقاه فيقول: أين يذهب الأمير؟ فيقول: آتي حاجة. فيقول له: حاجة ماذا! إن الأمير يزأر ولا يزور. قال: وكانت المرأة التي يأتيها جارة لأبي بكره. قال: فبينما أبو بكره في غرفة له مع أخويه نافع، وزياذ، ورجل آخر يقال له: شبل بن معبد، وكانت غرفة جارته تحت غرفة أبي بكره، فضربت الرّيح باب المرأة ففتحت، فنظر القوم؛ فإذا هم بالمغيرة يتكحها، فقال أبو بكره: هذه بليّة ابتليتم بها، فانظروا، فنظروا؛ فإذا أبو بكره نزل، فجلس حتى خرج إليه المغيرة من بيت المرأة، فقال له: إنه قد كان من أمرك ما قد علمت، فأعترنا.

قال: وذهب ليُصَلِّيَ بالنَّاسِ الظُّهْرَ، فَمَنَعَهُ أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا تُصَلِّي بِنَا وَقَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ. فَقَالَ النَّاسُ: دَعُوهُ فَلْيُصَلِّ، فَإِنَّهُ الْأَمِيرُ. ثُمَّ تَقَارَبُوا فِي الرُّوَايَةِ فَقَامُوا: وَكَتَبُوا إِلَى عُمَرَ، فَبَعَثَ أَبُو مُوسَى أَمِيرًا عَلَى الْبَصْرَةِ، وَأَمَرَهُ بِلِزْومِ السُّنَّةِ، فَقَالَ: أَعِنِّي بَعْدَهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَالْمَلْحِ. قَالَ: خُذْ مَنْ اخْتَرْتَ، فَأَخَذَ تِسْعَةً وَعَشْرِينَ رَجُلًا، مِنْهُمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَعُمَرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَهَشَامُ بْنُ عَامِرٍ، وَخَرَجَ بِهِمْ فَقَدِمَ الْبَصْرَةَ، وَدَفَعَ كِتَابَ إِمْرَتِهِ إِلَى الْمَغِيرَةِ وَفِيهِ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي نَبَأَ عَظِيمٍ، فَبَعَثْتُ أَبُو مُوسَى أَمِيرًا، فَسَلَّمَ إِلَيْهِ مَا فِي يَدِكَ، وَالْعَجَلَ.

فَرَحَلَ الْمَغِيرَةُ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرَةَ وَالشُّهُودُ، فَقَدِمُوا عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ: سَلْ هَؤُلَاءِ الْأَعْبُدَ كَيْفَ رَأَوْنِي، أَمَسْتَقْبِلُهُمْ أَمْ مَسْتَدْبِرُهُمْ؟ وَكَيْفَ رَأَوِ الْمَرْأَةَ فَعَرَفُوهَا؟ فَإِنْ كَانُوا مُسْتَقْبِلِيَّيْ فَكَيْفَ لَمْ أَسْتَبِرْ! وَإِنْ كَانُوا مَسْتَدْبِرِيَّيْ فَبَأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحْلَوْا النَّظَرَ فِي مَنَزِلِي عَلَى أَمْرَاتِي! وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُ إِلَّا أَمْرَاتِي، وَكَانَتْ تُشَبِّهُنَّ. فَشَهِدَ أَبُو بَكْرَةَ أَنَّهُ رَأَاهُ عَلَى أُمِّ جَمِيلٍ، يُدْخِلُهُ كَالْمِيلِ^(١) فِي الْمُكْحَلَةِ، وَأَنَّهُ رَأَاهُمَا مَسْتَدْبِرَيْنِ، وَشَهِدَ شَيْبَلُ وَنَافِعٌ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا زِيَادٌ فَإِنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُهُ جَالِسًا بَيْنَ رَجُلَيْ أَمْرَأَةٍ، فَرَأَيْتُ قَدَمَيْنِ مَخْضُوبَتَيْنِ تَخْفِقَانِ، وَأَسْتَيْنِ مَكْشُوفَتَيْنِ، وَسَمِعْتُ حَفْرَانَا^(٢) شَدِيدًا.

قَالَ: هَلْ رَأَيْتَ كَالْمِيلِ فِي الْمَكْحَلَةِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: هَلْ تَعْرِفُ الْمَرْأَةَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَشَبَّهَهَا.

قَالَ: فَفَتَحَ، وَأَمَرَ بِالْثَلَاثَةِ فَجَلِدُوا الْحَدَّ، فَقَالَ الْمَغِيرَةُ: أَشْفِينِي مِنَ الْأَعْبُدِ. قَالَ: اسْكُتْ، أَسْكُتَ اللَّهُ نَأْمَتَكَ^(٣)، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَمَّتِ الشَّهَادَةُ لَرَجَمْتُكَ بِأَحْجَارِكَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَزَوَّجَ عُمَرُ أُمَّ كُلْثُومَ بِنْتَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَهِيَ بِنْتُ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَخَلَ بِهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ.

وَحَجَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَسْلَمَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ.

وَفِيهَا، فِي ذِي الْحِجَّةِ حَوْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَقَامَ إِلَى مَوْضِعِهِ الْيَوْمَ، وَكَانَ مَلْصَقًا بِالْبَيْتِ.

(١) الميل: ما يجعل به الكحل في العين.

(٢) حفزه حفزانًا: دفعه من خلفه بالسُّوقِ أو غيره.

(٣) النامة: الصوت الخفي أيا كان.

سنة ثمان عشرة

وفيها استقضى عمرُ شريحَ بن الحارث الكِنْدِيّ على الكوفة، وكعبَ بن سورٍ على البصرة، وكعب هذا مِمَّنْ أسلم على عهدِ النَّبِيِّ ﷺ ولم يَرَهُ، وكان لولايته القضاء سببٌ نذكرُه.

سبب ولاية كعب بن سور قضاء البصرة

حكى عن الشعبي^(١)، أنه كان جالساً عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجاءت امرأةٌ فقالت: ما رأيتُ رجلاً قطُّ أفضلَ من زوجي، إنه ليبيتُ ليلَهُ قائماً، ونهارَهُ صائماً في اليوم الحارِّ ما يفطر، فاستغفرَ لها عمر، وأثنى عليها، وقال: مثلك أثنى بالخيرِ وقاله، فاستخيتَ المرأةُ وقامت راجعةً.

فقال كعبُ بنُ سور: يا أمير المؤمنين، هلاً أعذتَ المرأةَ على زوجها إذ جاءتك تستعديك^(٢)! فقال: أأذلكِ أرادك؟ قال: نعم، قال: ردُّوا عليَّ المرأةَ، فردَّت. فقال لها: لا بأسَ بالحقِّ أن تقوليه، إنَّ هذا زعمُ أنَّك جئته تستكين أنه يجتنب فراشك، قالت: أجل، إني امرأةٌ شابةٌ، وإني أبتغي ما تبتغي النساء، فأرسل إلى زوجها فجاء، فقال لكعب: اقضِ بينهما، فقال: أمير المؤمنين أحمقٌ أن يقضيَ بينهما، فقال: عزمتُ عليك لتقضيَ بينهما؛ فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم! قال: فإني أرى أنَّ لها يوماً من أربعة أيام؛ وكان زوجها له أربع نسوة، فإذا لم يكن له غيرها فإني أقضي لها بثلاثة أيام ولياليهنَّ يتعبُدُ فيهنَّ، ولها يومٌ وليلةٌ.

فقال عمر: واللَّهِ جاء رأيك الأولُ أعجب إليَّ من الآخر، اذهب فانت قاضٍ على أهلِ البصرة. فلم يزل قاضياً على البصرة إلى أن قتلَ يومَ الجملِ؛ وذلك أنه لما أصطفَ النَّاسُ للقتال خرج ويده المصحف فشره، وجال بين الصَّفيْنِ يناشِد النَّاسَ في دماهم، فأتاه سهمٌ غزب^(٣) فقتله.

وقد قيل: إنَّ المصحفَ كان في عُنقه، وعليه بُرُوسٌ وبِيده عَصَا وهو آخذٌ بِخَطَامِ^(٤) الجملِ، فأتاه سهمٌ فقتله.

(١) الشعبي: هو أبو عامر بن شراحيل (٦٤٠م - ٧٢٨م): محدث ومؤرخ وأحد شيوخ التابعين، يمني الأصل، ولد بالكوفة لأحد القراء، واتصل بالحجاج حين ولي الكوفة ٦٩٤م واختاره عارقاً لقبيلته همدان... (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) استعاده: استعانته واستنصره. (٣) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميهِ.

(٤) الخطام: الزمام؛ أو ما وضع على خطم الجمل ليقاد به.

وروى أبو عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رحمه الله بسنده إلى محمد بن سيرين، قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت: إِنَّ زَوْجِي يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، فقال: ما تُرِيدِينَ؟ أَتُرِيدِينَ أَنْ أَنْهَاهُ عَنْ صِيَامِ النَّهَارِ، وَقيامِ اللَّيْلِ! قال: ثم رَجَعْتُ إِلَيْهِ فقالت مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَجابها بِمِثْلِ جَوَابِهِ، ثم جاءت الثالثة فقالت له كما قالت، فَأَجابها بِمِثْلِ جَوَابِهِ. وكان عنده كعب بن سُرٍّ، فقال كعبٌ: إِنَّهَا امرأةٌ تَشْتَكِي زَوْجَهَا.

فقال عُمرُ: أَمَا إِذَا فَطِنْتُ لَهَا فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمَا، فقام كعب: وجاءت بزوجهما فقالت:

يَأْيُهَا الْقَاضِي الْفَقِيهُ أَرْشَدُهُ	أَلْهَى حَلِيلِي عَنْ فِرَاشِي مَسْجِدُهُ ^(١)
زَهْدُهُ فِي مَضْجَعِي وَتَعَبُّدُهُ	نَهَارَهُ وَلَيْلَهُ مَا يَرْزُقُهُ
وَلَسْتُ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ أَحْمَدُهُ	فَأَمْضِ الْقَضَا يَا كَعْبُ لَا تُرَدِّدُهُ

فقال الزَّوْجُ:

إِنِّي أَمْرٌ قَدْ شَقَّنِي مَا قَدْ نَزَلَ	فِي سُورَةِ الثُّورِ وَفِي السَّنْبَعِ الطُّوْلُ
وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَخْوِيفٌ جَلَلُ	فَرُدَّهَا عَنِّي وَعَنْ سُوءِ الْجَدَلِ

فقال كعبُ:

إِنَّ السَّعِيدَ بِالْقَضَاءِ مَنْ فَصَلَ	وَمَنْ قَضَى بِالْحَقِّ حَقًّا وَعَدَلَ
إِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا يَا بَعْلُ	مَنْ أَرْبَعَ وَاحِدَةً لِمَنْ عَقَلَ

* امضِ لَهَا ذَاكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعِلْلَ *

ثم قال: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ، فَلَكَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَلَأَمْرَاتِكَ هَذِهِ يَوْمٌ، وَمَنْ أَرْبَعَ لَيَالٍ لَيْلَةً، فَلَا تُصَلِّ فِي لَيْلَتِهَا إِلَّا الْفَرِيضَةَ. فَبَعَثَهُ عُمَرُ قَاضِيًا عَلَى الْبَصْرَةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر القحط وعام الرمادة

وفي هذه السَّنَةِ أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَذَبَ وَقَحَطَ، وَهُوَ عَامُ الرَّمَادَةِ، وَكَانَتِ الرِّيحُ تَسْفِي تَرَابًا كَالرَّمَادِ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ عَامُ الرَّمَادَةِ، وَأَشْتَدَّ الْجَوْعُ حَتَّى كَانَ

(١) الحليل: الجار؛ وحليل المرأة: زوجها.

الوحشُ يَأْوِي إلى الإنس، وكان الرجلُ يَذْبَحُ الشاةَ فيعَافِها من فَنَيجِها^(١)، وأقسَمَ عُمَرُ لا يذوقُ سَمَنًا ولا لَبَنًا، ولا لَحْمًا؛ حَتَّى يَحْيَا النَّاسُ.

وكتب إلى الأمراء المقيمين بالأمصار يستغيثهم لأهل المدينة وَمَنْ حَوْلَهَا، فكان أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ أَبُو عبيدة بْنُ الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام، فولاهُ عُمَرُ قِسْمَتَهَا فيمن حَوْلَ المدينة، فَقَسَمَهَا وَأَنْصَرَفَ إلى عَمَلِهِ، وَتَتَابَعَ^(٢) النَّاسُ، وَأَسْتَغْنَى أَهْلُ الْحِجَازِ.

وَأَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ الطَّعَامَ من مِصرَ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَصَارَ الطَّعَامُ فِي الْمَدِينَةِ كَسِغَرِ مِصرَ.

وَأَسْتَسْقَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِ مِنْ مَرْيَنَةَ، قَالُوا لَصَاحِبِهِمْ وَهُوَ بِلَالٌ بْنُ الْحَارِثِ: قَدْ هَلَكْنَا، فَأَذْبَحْ لَنَا شاةً، فَقَالَ: لَيْسَ فِيهِنَّ شَيْءٌ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى ذَبَحَ فَسَلَخَ عَنْ عَظْمِ أَحْمَرَ، فَنَادَى: يَا مُحَمَّدَاهُ! فَأَرِي فِي الْمَنَامِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ، فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِالْحَيَاةِ، إِنَّ عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ مَنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إِنِّي عَهْدْتُكَ، وَأَنْتَ فِي الْعَهْدِ شَدِيدُ الْعَقْدِ، فَالْكَيْسَ الْكَيْسَ^(٣) يَا عُمَرُ.

فَجَاءَ بِلَالٌ حَتَّى أَتَى بَابَ عُمَرَ، فَقَالَ لِغُلَامِهِ: اسْتَأْذِنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَفَزِعَ وَقَالَ: رَأَيْتَ مَسًّا^(٤)؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَدْخِلْهُ، فَأَدْخَلْهُ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَخَرَجَ عُمَرُ فَنَادَى فِي النَّاسِ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، قَالَ: نَسَدْتُكُمْ اللَّهُ الَّذِي هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا، وَلِمَ ذَلِكَ؟ فَأَخْبَرَهُمْ فَفَطِنُوا وَلَمْ يَفْطِنْ عُمَرَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا اسْتَطَبَّانَاكَ فِي الْأَسْتِسْقَاءِ، فَأَسْتَسْقَى بَنَاءً. فَنَادَى فِي النَّاسِ، فَخَرَجَ وَخَرَجَ مَعَهُ الْعَبَّاسُ مَاشِيًا، فَخَطَبَ وَأَوْجَزَ، وَصَلَّى، ثُمَّ جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَجَزَتْ عَنَّا أَنْصَارُنَا، وَعَجَزَ عَنَّا حَوْلُنَا وَقُوَّتُنَا، وَعَجَزَتْ عَنَّا أَنْفُسُنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ، اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا، وَأَخِي الْعَبَادَ وَالْبِلَادَ.

وَأَخَذَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ، وَإِنَّ دُمُوعَ الْعَبَّاسِ تَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ، وَبَقِيَّةِ آبَائِهِ، وَأَكْبَرِ رِجَالِهِ، فَإِنَّكَ تَقُولُ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، فَحَفِظْتَهُمَا بِصِلَاحِ أَبِيهِمَا، فَاحْفَظْ اللَّهُمَّ نَبِيَّكَ فِي عَمِّهِ، فَقَدْ دَنَوْنَا إِلَيْكَ مُسْتَغْفِرِينَ وَمُسْتَغْفِرِينَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.

(٢) تتابع الناس: تباعدوا على حيرة وشدة.

(٤) المس: الجنون.

(١) الفحيح: انتشار الرائحة.

(٣) الكيس: العقل.

والعباسُ يقولُ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، وَلِحْيَتُهُ تَجُولُ عَلَى صَدْرِهِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي فَلَا تُهْمِلِ الضَّالَّةَ، وَلَا تَدَعِ الْكَبِيرَ بَدَارَ مَضِيْعَةٍ؛ فَقَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَزَقَّ الْكَبِيرُ، وَأَرْتَفَعَتِ الشُّكُوى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

اللَّهُمَّ فَأَغْنِهِمْ بِغِنَاكَ قَبْلَ أَنْ يَقْتَتُوا فِيهِلِكُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَيْئَسُ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.
فنشأت طُرَيْرَةُ^(١) من سحاب، فقال النَّاسُ: تَرَوْنِ، تَرَوْنِ! ثم مَسَّتْ فِيهَا رِيحٌ،
ثم هَدَرَتْ^(٢) ودرت، فوالله ما بَرِحُوا حَتَّى أَعْتَلَقُوا الْحِذَاءَ، وَقَلَّصُوا الْمَازِرَ، فَطَفِقَ^(٣)
النَّاسُ بِالْعَبَّاسِ يَمْسَحُونَ أَرْكَانَهُ، ويقولون: هَنِيئًا لَكَ سَاقِي الْحَرَمَيْنِ!

فقال الفضل بن العباس بن عُثْبَةَ بن أَبِي لَهَبٍ في ذلك: [من الطويل]
بَعْمِي سَقَى اللَّهَ الْحِجَازَ وَأَهْلَهُ عَشِيَّةً يَسْتَسْقَى بِشَيْبَتِهِ عُمَرُ
تَوَجَّهَ بِالْعَبَّاسِ فِي الْجَذْبِ رَاغِبًا إِلَيْهِ، فَمَا إِنْ رَامَ حَتَّى أَتَى الْمَطَرُ
وَمِنَّا رَسُولُ اللَّهِ فِينَا ثَرَاثُهُ فَهَلْ فَوْقَ هَذَا لِلْمُفَاجِرِ مُفْتَخَرُ

ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه

وفي هذه السنة كان طاعون عمواس بالشَّام، وعمواس قرية بين الرَّمْلة وبيت المقدس. قال ابن عبد البر: وقيل: إِنَّ ذَلِكَ لَقَوْلُهُمْ: عم واس. قال ذلك الأصمعي.

مات فيه خمسة وعشرون ألفًا، منهم: أبو عبيدة بن الجراح، وأسمه عامر بن الجراح. وقيل عبد الله بن عامر بن الجراح.

قال أبو عمر: والصَّحِيحُ أَنَّ اسْمَهُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ بْنِ هَلَالِ بْنِ أَهْيَبِ بْنِ ضَبَّةِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فَهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ الْقُرَشِيِّ الْفَهْرِيِّ. شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد كُلِّهَا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ وهاجر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة، وكان نحيفًا معروقًا^(٤) الوجه، طَوَالًا أَجْنَأًا^(٥).

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وكان رضي الله عنه من كبار الصحابة وفضلائهم، وأهل السابقة منهم.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ.

(٢) هدرت: انتفخت، أو سقطت.

(٤) المعروق: القليل اللحم.

(١) الطريرة: الطريقة من السحاب.

(٣) طفق: جعل.

(٥) رجل أجنأ: أشرف كاهله على صدره.

وقد تقدّم في أثناء السيرة النبوية خبرُ وفد نجران، وسؤالهم أن يبعثَ معهم مَنْ يحكمُ بينهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «اتنوني العشيّة أبعثَ معكم القويّ الأمين»، فبعثه معهم.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهلَ اليمنَ قدِموا على رسولِ الله ﷺ، فقالوا: ابعثَ معنا رجلاً يعلمُنّا. فأخذَ بيدَ أبي عُبَيْدة، وقال: هذا أمينُ هذه الأمة.

وقال أبو بكر رضي الله عنه يومَ السقيفة: قد رضىتُ لكم هذين الرجلين، يعني عُمَرَ وأبا عُبَيْدة.

وقال له عُمَرُ رضي الله عنهما؛ إذ دخل عليه الشام، وهو أميرها: كُلُّنا غَيْرُهُ الدنيا غيرك.

وكانت سيّته يومَ تُوْفِّي ثمانيناً وخمسين سنة، وكانت وفاته رضي الله عنه بالأردن، وصلى عليه مُعَاذُ بْنُ جَبَل، ونزل في قبره هو وعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، والضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ.

وقبرُ أَبِي عُبَيْدة بالقربِ من قرية عَمَيّا من غُورِ الشّامِ معروفٌ هناك، قد رُزّته أنا غيرَ مرّة رضي الله عنه.

ومنهم^(١): مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وهو أبو عبدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بنِ عمرو بنِ أَوْسِ بنِ عَائِذِ بنِ عَلِيٍّ بنِ كَعْبٍ بنِ عمرو بنِ إِدِي بنِ سَعْدِ بنِ عَلِيٍّ بنِ أَسَدِ بنِ شَارَةَ بنِ يَزِيدِ بنِ جُشَمِ بنِ الْخَزْرَجِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيِّ ثُمَّ الْجُشَمِيِّ.

وقد نسبَهُ بعضهم في نَسَبِ بني سَلِمةَ بنِ سَعْدِ بنِ عَلِيٍّ، قال ابنُ إِسْحاقَ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ من بني جُشَمِ بنِ الْخَزْرَجِ، وإنّما ادّعته بنو سَلِمةَ، لأنّه كان أخاً سَهْلَ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ الْجَدِّ بنِ قَيْسٍ لِأُمِّهِ.

قال الواقدي وغيره: كان مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ طَوَالاً، حَسَنَ الشَّعْرِ عَظِيمَ الْعَيْنَيْنِ، أبيض، بَرَّاقُ الثَّنَائِيَا، لم يُولَدْ له قطُّ.

وقال ابنُ الكلبي، عن أبيه: إنّه ولد له عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُعَاذٍ. مات بالشّام في الطّاعون أيضاً، فانقرض بنو إِدِي بموته.

(١) المراد بقوله: «ومنهم» أي ومن توفّي في هذه السنة.

وقيل: إنَّ عبدَ الرحمنِ قاتَلَ مع أبيه يومَ اليزْموكِ. ومعاذ بن جبلٍ أحدُ السَّبعين الذين شَهِدُوا بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ، وآخَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بينَهُ وبين عبدِ اللَّهِ بنِ مسعود، قاله الواقدي، وقال: هذا ما لا خلافَ عندنا فيه.

وقال ابنُ إسحاق: آخَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بينَهُ وبين جعفر بن أبي طالب.

شهد معاذُ بَذْرًا والمشاهدَ كُلَّهَا، وبعثَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ قاضيًا إلى الجَنْدِ من أرضِ اليَمَنِ، يعلِّمُ النَّاسَ القرآنَ وشرائعَ الإسلام، وَيَقْضِي بينهم، وجعل إليه قُبْضَ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْعَمَالِ الَّذِينَ بِالْيَمَنِ، وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ قد قَسَمَ اليمنَ على خمسةِ رجالٍ: خالد بن سعيد على صَنْعَاءَ، والمُهَاجِرِ بنِ أَبِي أُمَيَّةَ على كِنْدَةَ، وزِيَادِ بنِ لَيْيَدٍ على حَضْرَمَوْتِ، ومعاذ بن جبلٍ على الجَنْدِ، وأبي موسى الأشعري على زَبِيدٍ وزَمْعَةَ وَعَدَنَ والسَّاحِلِ.

وقال له رسولُ اللَّهِ ﷺ حينَ وَجَّهَهُ إلى اليمن، بَمَ تَقْضِي؟ قال: بما في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. قال: فإنَّ لم تجده؟ قال: بما في سُنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، قال: فإنَّ لم تجد؟ قال: أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الحمد لله الذي وفق رسولَ اللَّهِ لما يحبُّ رسولُ اللَّهِ».

وروى أبو عُمَرَ بن عبد البر بسنده عن كعب بن مالك، قال: كان معاذُ بنُ جبلٍ شابًّا جميلًا، من أَفْضَلِ شَبَابِ قَوْمِهِ، سَمَحًا، لَا يُمْسِكُ؛ فلم يَزَلْ يَدَانُ حَتَّى أَغْلِقَ مَالَهُ كُلَّهُ مِنَ الدِّينِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ غُرْمَاءَهُ أَنْ يَضَعُوا لَهُ، فَأَبَوْا، ولو تركوا لِأَحَدٍ مِنْ أَجْلِ أَحَدٍ لتركوا لمعاذ بن جبلٍ من أَجْلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَاغَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مَالَهُ كُلَّهُ فِي دِينِهِ، حَتَّى قَامَ مَعَاذٌ بِغَيْرِ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ، بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ لِيَجْبِرَ فَمَكْتُ مَعَاذَ بِالْيَمَنِ أَمِيرًا.

وكان أَوَّلُ مَنْ أَتَجَرَ فِي مَالِ اللَّهِ هُوَ، فَمَكْتُ حَتَّى أَصَابَ وَحَتَّى قُبِضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا قَدِمَ قال عمرُ لأبي بكرٍ: أَرْسَلُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِدْعٌ لَهُ مَا يَعْيشُهُ، وَخُذْ سَائِرَهُ مِنْهُ، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إِنَّمَا بَعَثَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ لِيَجْبِرَهُ، وَلَسْتُ بِأَخِذٍ مِنْهُ شَيْئًا؛ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَنِي. فانطلق عمر إليه إذ لم يُطْعَمْ أَبُو بَكْرٍ، فذكر ذلك لمعاذ، فقال معاذٌ: إِنَّمَا أَرْسَلَنِي رسولُ اللَّهِ ﷺ لِيَجْبِرَنِي، وَلَسْتُ بِفَاعِلٍ، ثُمَّ أَتَى مَعَاذَ عُمَرَ وَقَالَ: قَدْ أَطْعَمْتُكَ، وَأَنَا فَاعِلٌ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي فِي حَوْمَةِ مَاءٍ؛ قَدْ خَشِيتُ لَغْرَقَ فُخِّلَصْتَنِي مِنْهُ يَا عُمَرَ.

فأتى معاذُ أبا بكرٍ، فذكر ذلك له، وحلف له أنه لا يكتُمه شيئاً فقال أبو بكر: لا آخذ منك شيئاً، قد وهبته لك، فقال: هذا خير حلٍّ، وطاب، فخرج معاذ عند ذلك إلى الشام. قال أبو عمر: كان عمر قد استعمله في الشام حين مات أبو عبيدة ولما مات أبو عبيدة، استعمل عمر بن الخطاب معاذ بن جبل على الشام، فمات من عامه؛ وذلك في الطاعون، فاستعمل موضعه عمرو بن العاص. وقال المدائني^(١): مات معاذُ بناحية الأردن في طاعون عمّواس في سنة ثمانٍ عشرة، وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين.

وقال غيره: كان سنُّه يوم مات ثلاثاً وثلاثين سنة.

وقبر معاذ بغور الشام، بالقرب من قرية القصير من شريقها معروف هناك، قد زُرته غير مرّة، وبينه وبين قبر أبي عبيدة نحو من مَرَحَلَة.

ومنهم يزيد بن أبي سُفيان بن حَزْب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، كان أفضل بني أبي سُفيان، وكان يقال له يزيد الخير. أسلم يوم فتح مكّة، وشهد حُنيّنا، واستعمله أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأوصاه، وخرج يشيعة راجلاً.

وروى أبو بشر الدولابي^(٢): أنه مات سنة تسع عشرة بعد أن افتتح قيسارية.

ومنهم الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، وهو أخو أبي جهل لأبويه.

أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وشهد حُنيّنا، وأعطاه رسول الله ﷺ مائة من الإبل، وأعطى المؤلفة قلوبهم، ثم خرج إلى الشامه في خلافة عمر رضي الله عنه راغباً في الرباط^(٣) والجهاد فتبعه أهل مكّة يبكون فراقه، فقال: إنها الثقلّة إلى الله تعالى، وما كنت لأؤثر عليكم أحداً، فلم يزل بالشام يجاهد حتّى مات في طاعون عمّواس.

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، المدائني (أبو الحسن)، مؤرخ، إخباري، راوية للشعر. ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، وروى عن الزبير بن بكار وغيره، وتوفي بها سنة ٢٢٥ هجرية وكانت ولادته سنة ١٣٥ هجرية. (معجم المؤلفين لعمر كحالة).

(٢) الدولابي: هو أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعد، الأنصاري بالولاء، الوراق الرازي الدولابي، كان عالماً بالحديث والأخبار والتواريخ، سمع الأحاديث بالعراق والشام وروى عن محمد بن بشار وأحمد بن عبد الجبار العطاردي وخلقا كثير؛ وروى عنه الطبراني وأبو حاتم ابن حبان البستي... (وفيات الأعيان ٤: ٣٥٢).

(٣) الرباط: المواظبة على الأمر وملازمته.

وقال المدائني: إِنَّهُ قُتِلَ يَوْمَ الْيَزْمُوكِ، فِي شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ خَمْسِ عَشْرَةَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ومِنْهُمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ وَدٍّ بْنِ نَضَرَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَبَلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبِ الْقُرَشِيِّ الْعَامِرِيِّ. يُكْنَى أَبَا يَزِيدٍ، وَكَانَ أَحَدَ الْأَشْرَافِ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَادَتِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي عَاقَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ وَقَاضَاهُ كَمَا تَقَدَّمَ.

أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو: «دَعْنِي أَنْ يَقُومَ مَقَامًا نَحْمَدُهُ»، فَكَانَ الْمَقَامَ الَّذِي قَامَهُ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَمَّا مَاجَ^(١) أَهْلُ مَكَّةَ عِنْدَ وِفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَارْتَدَّ مِنْ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ، قَامَ سُهَيْلٌ خَطِيبًا فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ سَيَمْتَدُّ امْتِدَادُ الشَّمْسِ مِنْ طُلُوعِهَا إِلَى غُرُوبِهَا، فَلَا يَغْرَتُكُمْ هَذَا عَنْ أَنْفُسِكُمْ، - يَعْنِي أَبَا سَفْيَانَ - فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَا أَعْلَمُ؛ وَلَكِنَّهُ قَدْ جِئْتُ عَلَى صَدْرِهِ بِحَسَدِ بَنِي هَاشِمٍ.

وَأَتَى فِي خُطْبَتِهِ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْمَدِينَةِ.

وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ^(٢) عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: حَضَرَ النَّاسُ بَابَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، وَفِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَأُولَئِكَ الشِّيْخُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَخَرَجَ أَذْنُهُ فَجَعَلَ يَأْذُنُ لِأَهْلِ بَذْرِ، لِصُهَيْبِ وَبِلَالٍ. فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ؛ إِنَّهُ لَيُؤْذَنُ لَهُؤُلَاءِ الْعَبِيدِ وَنَحْنُ جُلُوسٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْنَا! فَقَالَ سُهَيْلٌ: أَيُّهَا الْقَوْمُ: إِنِّي وَاللَّهِ قَدْ أَرَى الَّذِي فِي وُجُوهِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ غَضَابًا فَاغْضَبُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، دُعِيَ الْقَوْمُ وَدُعِيتُمْ، فَأَسْرَعُوا وَأَبْطَأْتُمْ.

أَمَّا وَاللَّهِ لَمَّا سَبَقُوكُمْ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ أَشَدُّ عَلَيْكُمْ قُوَّتًا مِنْ بَابِكُمْ هَذَا الَّذِي تَنَافَسُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ سَبَقُوكُمْ بِمَا تَرَوْنَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَا سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ، فَانظُرُوا هَذَا الْجِهَادَ فَالزَّمُوهُ، عَسَى أَنْ اللَّهُ يَرْزُقَكُمْ شَهَادَةً ثُمَّ نَقُضَ ثَوْبُهُ فَقَامَ وَلَجَّقَ بِالشَّامِ.

وقال المدائني: إِنَّهُ قُتِلَ بِالْيَزْمُوكِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) ماج القوم: اختلفت أمورهم واضطربت.

(٢) ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك (أبو عبد الرحمن) بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة كان قد جمع بين العلم والزهد، تفقه على سفیان الثوري ومالك بن أنس رضي الله عنهما، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محباً للخلوة شديد التورع، وكذلك كان أبوه... (وفيات الأعيان ٣: ٣٢).

ومنهم: عُبَيْدُ بْنُ سُهَيْلٍ، وعامرُ بْنُ غَيْلَانَ الثَّقَفِيُّ، مات وأبوه حَيٌّ، ومات غير هؤلاء، رحمهم الله تعالى.

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون

قال: لما هلك النَّاسُ بالطاعون، كتب أمراء الأجنادِ إلى عمر رضي الله عنه بما في أيديهم من المَوارِثِ، فَجَمَعَ النَّاسَ واستشارَهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوفَ على المسلمين في بُلدانهم؛ لأنظرَ في آثارهم، فأشيروا عليّ، وكان أراد أن يَبْدَأَ بالعِراقِ، فصرف كعبُ الأَحبارِ رأيه عن ذلك، فخرج إلى الشَّامِ، واستخلفَ على المدينة عليّ بن أبي طالب، وجعل طريقه على أَيْلَةَ، فلما دنا منها رَكِبَ بغيره وعلى رَحْله فزُوْ مقلوبٌ، وأعطى غلامه مَرَكَبَهُ، فلما تلقاه النَّاسُ قالوا: أين أميرُ المؤمنين؟ قال: أمامكم - يعني نفسه - فساروا أمامه، وانتهى هو إلى أَيْلَةَ فَنَزَلَهَا.

وقيل للمتلقين: قد دَخَلَ أمير المؤمنين، فرجعوا، وأعطى عُمَرُ الْأَسْقَفُ^(١) بها قَمِيصَهُ وقد تَخَرَّقَ ظَهْرُهُ؛ لِيَغْسِلَهُ ويرَفَعَهُ، ففعل، وأخذه وَلَبَسَهُ، وخاطَ له الْأَسْقَفُ قَمِيصًا غيره، فلم يأخذه.

فلما قَدِمَ إلى الشَّامِ قَسَمَ فيها لأرزاق، وَسَمَّى الشَّوَاتِي والصَّوَائِفَ، وسَدَّ فُرُوجَ الشَّامِ ومَسَالِحَهَا، وأخذ يَدُورُ بها، واستعمل عبيد الله بن قيس على السَّوَاهِلِ من كُلِّ كُورَةٍ، واستعمل معاوية على دِمَشْقَ وخَرَّاجَهَا بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سُفْيَانَ، وعزل شرحبيلَ ابْنَ حَسَنَةَ، وقام بعذرهِ في النَّاسِ، وقال: إني لم أعزِلْهُ عن سَخَطَةٍ، ولكنِّي أريدُ رجلاً أقوى مِنْ رَجُلٍ، وكان شُرْحَبِيلُ على خَيْلِ الْأُرْدَنِ، فضمَّ ذلك إلى معاوية.

قال: ولما قَدِمَ عمر رضي الله تعالى عنه تلقاه معاوية في موكبٍ عظيم، فلما رآه عمر قال: هذا كِسْرَى الْعَرَبِ، فلما دنا منه قال: أنت صاحبُ الموكبِ العظيم! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: مع ما يَبْلُغُنِي مِنْ وقوفِ ذوي الحاجاتِ ببابِكَ! قال: مع ما يَبْلُغُكَ من ذلك، قال: وَلِمَ تفعل هذا؟ قال: نحن بأرض، جَوَاسِيسُ العدوِّ بها كثيرةٌ، فيجبُ أَنْ نُظْهِرَ مِنْ عِزِّ السُّلْطَانِ ما يُرْهِبُهُمْ، فَإِنْ أَمَرْتَنِي فَعَلْتُ، وَإِنْ نَهَيْتَنِي انْتَهَيْتُ. فقال عُمَرُ: يا معاوية، ما أسألك عن شيءٍ إِلَّا تركتَنِي في مثل

(١) الْأَسْقَفُ: هو عند النصارى القسيس، وهو دون المطران.

رواجِب^(١) الفرس، لئن كان ما قلت حقاً، إنَّه لرأيي لبيب، وإنَّ كان باطلاً إنَّها لخدعةٌ أريب. قال: فمَرَّني يا أمير المؤمنين. قال: لا آمرك ولا أنْهاك.

قال عمرو بنُ العاص: يا أمير المؤمنين، ما أحسنَ ما صدرَ هذا الفتى عما أردته فيه. قال: لحسن مَصَادِرِهِ ومَوَارِدِهِ جَسَمًا^(٢) ما جَسَمَتَاه.

وَرَوَى أبو عمر بنُ عبد البر: أنَّ عمر بن الخطاب رَزَقَ معاوية على عمله بالشَّام عشرة آلاف دينار في كُلِّ سنة.

قال المؤرِّخ: واستعمل عمر رضي الله عنه عمرو بن عبسة على الأهراء، وقسم موارِث أهل عَمَواس، فورثَ بعضُ الورثة من بَغْضٍ، وأخرجها إلى الأحياء، من ورثة كُلِّ منهم، ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة من السنة.

قال: ولَمَّا كان بالشَّام وحضرت الصلاة قال له النَّاس: لو أمَرْتَ بِلَالاً فأذُن! فأمره، فأذُن، فما بقي أحدٌ مِمَّنْ أدرك النبي ﷺ وبِلالٌ يؤذُن إلا بكى حتَّى بَلَ لِحِيَّتِهِ، وعمر أشدهم بُكَاءً، وبكى مَن لَمْ يذُرْكُهُ لُبْكَائِهِم.

وحجَّ عمر رضي الله عنه بالنَّاس في هذه السنة.

سنة تسع عشرة

في هذه السنة سالت حرة^(٣) ليلى وهي بالقُرْب من المدينة نازاً، فأمرَ عمرُ بالصدقة، فتصدَّق النَّاس، فانطفأت. وفيها مات أبيُّ بن كعب. وقيل: مات سنة عشرين، وقيل اثنتين وعشرين. وقيل: اثنتين وثلاثين، والله تعالى أعلم.

وحجَّ عمر رضي الله تعالى عنه بالنَّاس في هذه السنة.

(١) الرواجِب: مفاصل أصول الأصابع. (٢) جَسَمَهُ أمراً: كلفه إياه.

(٣) حرة ليلى: الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. . . وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة . . . (معجم البلدان لياقوت).

سنة عشرين من الهجرة

في هذه السنة عَزَلَ عمر رضي الله عنه قدامةَ بنَ مظعون عن البحرين، ووَلَّى عثمانَ بنَ أبي العاص. وقيل: بل استعملَ أبا هريرة على البحرين، واليمامة، وقيل: استعمل أبا بكرَ على البحرين واليمامة.

وكان سببُ عَزْلِ قدامة، أَنَّ الجارودَ بنَ المعلَى سَيِّدَ عبد القيسِ قَدِمَ على عمرَ من البحرين، فقال: يا أمير المؤمنين، إِنَّ قدامةَ شَرِبَ فَسَكِرَ، وإِنِّي رَأَيْتُ حَدًّا من حَدودِ اللَّهِ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَيْكَ. فقال عمرُ: مَنْ يَشْهَدُ مَعَكَ؟ فقال: أبو هريرة، فدعا أبا هريرة فقال: بِمَ تَشْهَدُ؟ قال: لَمْ أَرَهُ يَشْرَبُ، وَلَكِنْ رَأَيْتُهُ سَكِرَانَ يَقِيءُ. فقال عمرُ: لَقَدْ تَنَطَّعْتَ^(١) فِي الشَّهَادَةِ.

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى قُدَامَةَ أَنْ يَقْدِمَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَدِمَ، فَقَالَ الْجَارُودُ: أَقِمْ عَلَى هَذَا حَدَّ كِتَابِ اللَّهِ. فَقَالَ عُمَرُ: أَخْضَمُّ أَنْتَ أَمْ شَهِيدٌ؟ فَقَالَ: شَهِيدٌ. فَقَالَ: قَدْ أَذَيْتَ شَهَادَتَكَ.

فَصَمَّتِ الْجَارُودُ، ثُمَّ عَدَا عَلَى عُمَرَ فَقَالَ: أَقِمْ عَلَى هَذَا حَدَّ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا خَضَمًا، وَمَا شَهِدَ أَحَدٌ بَعْدَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا.

فَقَالَ الْجَارُودُ: إِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ! فَقَالَ عُمَرُ: لَتُمْسِكَنَّ عَنِّي لِسَانَكَ وَإِلَّا سَوَّيْتُكَ. فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَاكَ بِالْحَقِّ أَنْ يَشْرَبَ ابْنُ عَمِّكَ الْخَمْرَ وَتَسْوِئَنِي! ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، إِنْ كُنْتُ تَشْكُ فِي شَهَادَتِنَا فَارْسِلْ إِلَى ابْنَةِ الْوَلِيدِ فَسَلِّهَا، وَهِيَ امْرَأَةٌ قُدَامَةٌ.

فَارْسَلَ عُمَرُ إِلَى هِنْدِ ابْنَةِ الْوَلِيدِ يَنْشُدُهَا، فَأَقَامَتْ الشَّهَادَةَ عَلَى زَوْجِهَا، فَقَالَ عُمَرُ لِقُدَامَةَ: إِنِّي حَادُّكَ، فَقَالَ: لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَحْدُونِي، فَقَالَ عُمَرُ: لِمَ؟ قَالَ قُدَامَةُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا...﴾ [المائدة: ٩٣] الْآيَةَ.

فَقَالَ عُمَرُ: أَخْطَأْتُ التَّأْوِيلَ، إِنَّكَ إِذَا اتَّقَيْتَ اللَّهَ اجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ قُدَامَةَ؟ فَقَالُوا: مَا نَرَى أَنْ تَجْلِدَهُ مَا كَانَ مَرِيضًا، فَسَكَتَ عَلَى ذَلِكَ أَبَاطًا، ثُمَّ أَصْبَحَ يَوْمًا قَدْ عَزَمَ عَلَى جَلْدِهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ قُدَامَةَ؟ فَقَالُوا: مَا نَرَى أَنْ تَجْلِدَهُ مَا كَانَ وَجِعًا^(٢)، فَقَالَ عُمَرُ: لِأَنَّ يَلْقَى اللَّهَ تَحْتَ السَّيَاطِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَاهُ وَهُوَ فِي عُقْفِي. اثْنُونِي بِسَوْطِ تَامٍ، وَأَمْرُ

(١) تَنَطَّعَ فِي الشَّيْءِ: غَالَى وَتَكَلَّفَ فِيهِ. (٢) الْوَجَعُ: الَّذِي أَحْسَسَ بِالْأَلَمِ.

بِقُدَامَةِ فُجُلَيْدٍ، فغَاضِبَ قَدَامَةَ عُمَرَ وَهَجَرَهُ، فلم يزل كذلك حَتَّى حَجَّ عمر وقَدَامَةُ معه، فَلَمَّا قَفَلَا مِنْ حَجَّهِمَا، ونزل عمر بالسُّقْيَا^(١) نام، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ قال: عَجَلُوا عَلَيَّ بِقُدَامَةِ، فواللَّهِ لَقَدْ أَتَانِي آتٍ فِي مَتَامِي فَقَالَ: سَالِمٌ قُدَامَةُ فَإِنَّهُ أَخُوكَ.

فَلَمَّا أَتَوْهُ أَبِي أَنْ يَأْتِي، فَأمر عمرُ به إِنْ أَبِي أَنْ يَجْرُوهُ إِلَيْهِ، فجاءه فاستغفرَ له عمرُ وكَلَّمَهُ، فكان ذلك أَوَّلَ صَلَاحِهِمَا.

حكاه أبو عُمَرَ. قال: وكان قَدَامَةُ خَالَ عبد الله وحفصة ابْنَي عمر رضي الله عنهم.

ذكر إجلاء يهود خيبر منها

وفي هذه السَّنَةِ أَجْلَى عمرُ رضي الله عنه يهودَ خَيْبَرٍ، وكان رسولُ الله ﷺ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْبَرَ، دَعَا أَهْلَهَا فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ شِئْتُمْ دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ عَلَى أَنْ تُعْمِلُوهَا، وَتَكُونَ ثِمَارُهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَأَقْرُكُمْ عَلَى مَا أَقْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَبِلُوا ذَلِكَ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ، أَنَا مَتَى شِئْنَا أَنْ نَخْرِجَكُمْ أَخْرَجْنَاكُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَكَرُ ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، فِي غَزَاةِ خَيْبَرٍ.

فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى مَا أَقْرَهُمْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْرَهُمْ عمرُ رضي الله عنه بَعْدَهُ إِلَى هَذِهِ السَّنَةِ.

ثُمَّ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَبِضَهُ اللَّهُ فِيهِ: «لَا يَجْتَمِعَنَّ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ»، فَفَحَصَ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى أَتَاهُ الثَّبْتُ، فَأَرْسَلَ إِلَى يَهُودٍ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي إِجْلَائِكُمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَا يَجْتَمِعَنَّ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانٌ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَأْتِنِي بِهِ أَنْفِذْهُ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ فَلْيَتَجَهَّزْ لِلْجَلَاءِ، فَأَجْلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقال ابنُ إِسْحَاقَ^(٢): حَدَّثَنِي نَافِعٌ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ

(١) السُّقْيَا: الحَسِيلُ الَّذِي يَفْرُغُ فِي عُرْفَةٍ وَمَسْجِدِ إِبْرَاهِيمَ... وَقِيلَ: السُّقْيَا بَرَكَةٌ وَأَحْسَاءٌ غَلِيظَةٌ دُونَ سَمِيرَاءَ لِلْمَصْعَدِ إِلَى مَكَّةَ، وَبَيْنَ السُّقْيَا وَسَمِيرَاءَ أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ... وَقِيلَ السُّقْيَا: بَثْرٌ بِالْمَدِينَةِ... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ابنُ إِسْحَاقَ: هُوَ أَبُو بَكْرٍ، وَقِيلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ بْنِ خِيَارٍ، وَقِيلَ يَسَارُ بْنُ كُوْثَانَ، الْمُطَّلِبِيُّ بِالْوَلَاءِ، الْمَدِينِيُّ، صَاحِبُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ... كَانَ ثُبَّتًا فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ، وَأَمَّا فِي الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ فَلَا تَجْهَلُ إِمَامَتَهُ فِيهَا... (وفيات الأعيان ٢٧٦: ٤).

قال: خَرَجْتُ أَنَا وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَالْمَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ إِلَى أَمْوَالِنَا بِخَيْبَرٍ نَتَعَهَّدُهَا، فَلَمَّا قَدِمْنَا تَفَرَّقْنَا فِي أَمْوَالِنَا.

قال عبد الله: قَدَا عَلَيَّ تَحْتَ اللَّيْلِ شَيْءٌ وَأَنَا نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِي، فَتَزَعْتُ يَدَايَ مِنْ فَرْقِي^(١)، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اسْتَضَرَحْتُ عَلِيَّ صَاحِبَايَ، فَأَتَيْانِي فَسَأَلَانِي: مَنْ صَنَعَ بِكَ هَذَا؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي، فَأَصْلَحَانِي ثُمَّ قَدِمَا بِي عَلَى عَمْرٍ، فَقَالَ: هَذَا عَمَلُ الْيَهُودِ.

ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَامِلَ يَهُودِ خَيْبَرٍ عَلَى أَنَّا نَخْرِجُهُمْ إِذَا شِئْنَا، وَقَدْ عَدُّوا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ، فَقَدَعُوا^(٢) يَدَيْهِ كَمَا بَلَّغَكُمْ، مَعَ عَدُوَّتِهِمْ عَلَى الْأَنْصَارِيِّ قَبْلَهُ، لَا نَشْكُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهُ، لَيْسَ هُنَاكَ عَدُوٌّ غَيْرُهُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ بِخَيْبَرٍ فَلْيَلْحَقْ بِهِ؛ فَإِنِّي مَخْرُجُ الْيَهُودِ، فَأُخْرِجُهُمْ.

قال: وَرَكِبَ عَمْرٌ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَأَخْرَجَ مَعَهُ جِبَارَ بْنَ صَخْرٍ بِنَ أُمِّيَّةٍ - وَكَانَ خَارِصَ^(٣) أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَحَاسِبَهُمْ. وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَهُمَا قَسَمَا خَيْبَرَ عَلَى أَهْلِهَا عَلَى أَصْلِ جَمَاعَةِ السُّهْمَانِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا. وَفِيهَا أَيْضًا أَجْلِيَّ نَصَارَى نَجْرَانَ إِلَى الْكُوفَةِ.

وفيهما بعث عمر علقمة بن معزز المدلجي إلى الحبشة، وكانت تطرفت بلاد الشام، فَأَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ، فَجَعَلَ عَمْرٌ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَحْمَلَ فِي الْبَحْرِ أَحَدًا أَبَدًا - يَعْنِي لِلْعَزْوِ -.

وقيل: كَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذكر عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة ومن ولي بعده في هذه السنة

سنة إحدى وعشرين

وفي هذه السنة عزل عمرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ الْكُوفَةِ؛ حِينَ شَكَاهُ أَهْلُهَا، وَوَلَّى عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ الصَّلَاةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ بَيْتَ الْمَالِ، وَعُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ مَسَاحَةَ الْأَرْضِ، ثُمَّ عَزَلَ عَمَّارًا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَكَّوْهُ، فَاسْتَعْفَى.

(٢) قدع: كف ومنع.

(١) الفرق: الجزع واشتداد الخوف.

(٣) الخارص: الذي يقطع النخل.

وأعاد سَعْدًا على الكوفة ثانية، ثم عَزَلَهُ، وولَّى جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ، ثم عَزَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهَا، وكان سَبَبُ عَزْلِهِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلاَهُ، وقال له: لا تَذْكُرْهُ لأحد، فسمع المغيرةُ بْنُ شُعْبَةَ أَنَّ عُمَرَ خَلَا بِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، فَأَرْسَلَ أَمْرَأَتَهُ إِلَى امْرَأَةِ جُبَيْرٍ لَتَعْرِضَ عَلَيْهَا طَعَامَ السَّفَرِ، فقالت: نعم، جِئْتِنِي بِهِ.

فلَمَّا عَلِمَ المغيرةُ جَاءَ إِلَى عُمَرَ، فقال: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فَيَمُنْ وَلَيْتَ. وأخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَعَزَلَهُ، وولَّى المغيرةُ بْنُ شُعْبَةَ الْكُوفَةَ، فلم يَزَلْ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ قُتِلَ عُمَرُ.

وقيل: إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُعَيِّدَ سَعْدًا إِلَى الْكُوفَةِ أَبَى عَلَيْهِ، وقال: أَنَا مُرْنِي أَنْ أَعُودَ إِلَى قَوْمٍ يَزْعُمُونَ أَنِّي لَا أَحْسِنُ أَنْ أَصْلِي، فَتَرَكَهُ وَولَّى خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ.

وقيل: فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ، قيل: كانت وفاته بِحَمَصٍ، وَدُفِنَ فِي قَرْيَةٍ عَلَى مِيلٍ مِنْهَا. وقيل: بَلْ تُوفِّيَ بِالْمَدِينَةِ.

ولَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: لَقَدْ شَهِدْتُ مَائَةَ زَحْفٍ أَوْ زُهَاءِهَا وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ شِبِيرٍ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ، ثُمَّ هَا أَتَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَيْرُ! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ.

حَكَى أَبُو عُمَرَ: أَنَّهُ لَمْ تَبْقَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ إِلَّا وَضَعَتْ لِمَتِّهَا عَلَى قَبْرِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، أَيْ حَلَقَتْ رَأْسَهَا.

قال المؤرخ: وكان الأمراء في هذه السَّنة على الأمصار، عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى دِمَشْقٍ وَحُورَانٍ وَحِمَصٍ وَقُتَيْسَرِينَ وَالْجَزِيرَةَ. وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى الْبَلْقَاءِ وَالْأَزْدَنَ وَفِلَسْطِينَ وَالسَّوَاهِلَ وَأَنْطَاكِيَةَ وَقَلْقِيَةَ وَمَعَرَةَ مَصْرِينَ، وَالْعَمَالَ عَلَى بَقِيَةِ الْأَمْصَارِ مَنْ ذَكَرْنَا.

وفِيهَا وُلِدَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ^(١) وَالشَّعْبِيُّ. وَفِيهَا مَاتَ الْعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ أَمِيرُ الْبَحْرِينَ، فَاسْتَعْمَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَكَانَهُ أَبَا هُرَيْرَةَ.

وَحَجَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاسِ، وَأَسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ.



(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة... (وفيات الأعيان ٢: ٦٩).

سنة اثنتين وعشرين

في هذه السنة وُلِدَ يزيدُ بنُ معاوية، وعبدُ الملك بنُ مروان، وكان عمّالهُ على الأمصار مَنْ دَكَّرْنَا إِلَّا الكوفةَ والبَصْرَةَ؛ فَإِنَّ عامِلَهُ على الكوفةِ المغيرةُ بنُ شعبة، وعلى البصرةِ أبو موسى.

* * *

سنة ثلاث وعشرين

وفي هذه السنة حجَّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاسِ، وحجَّ معه أزواجُ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وهي آخرُ حَجَّةٍ حجَّها. وفيها كان مَقْتَلُ عمرُ رضي الله عنه وأرضاهُ بمَنِّه وكرمه.

ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب ومدة خلافته

قد اختلف في تاريخ مَقْتَلِهِ رضي الله عنه، فقال الواقدي: لثلاثِ بَقِينٍ من ذي الحِجَّةِ سنة ثلاثٍ وعشرين. وقال الزبير: لأربعِ بَقِينٍ من ذي الحِجَّة. وروى عَنْ مَعْدَانَ بنِ أَبِي طلحة اليغمري، قال: قَتِلَ عمرُ يومَ الأربعاءِ لأربعِ بَقِينٍ مِنْ ذي الحِجَّة.

وكانت خلافتُهُ رضي الله تَعَالَى عَنْهُ عَشْرَ سِنِينَ ونصفًا وخمسةَ ليالٍ، وعمرُهُ ثلاثٌ وسِتُونَ سنةً على الصَّحِيح.

وقَتَلَهُ أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بنِ شعبة؛ وذلك أَنَّ عمرَ رضي الله عنه خرَجَ يومًا يطوفُ في الأسواق، فلَقِيَهُ أبو لؤلؤة فَيُرُوز - وكان نصرانيًا، وقيل: مَجُوسِيًا - وقد دَكَّرْنَا ما كان يقوله لما قَدِمَ سَبِيَّ نَهَاوْنَد: أَكَلَ عمرُ كَبِدِي، فلَمَّا لَقِيَهُ قال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعْدِنِي^(١) على المغيرة بنِ شعبة؛ فَإِنَّهُ يَكْلِفُنِي خَرَاஜًا كَثِيرًا، قال: كم يَحْمِلُكَ؟ قال: مائة درهم في الشهر. وقيل: إِنَّهُ قال: درهمان في كُلِّ يوم، قال: وما صناعتُكَ؟ قال: نَجَّارٌ نَقَّاشٌ حَدَّادٌ. قال: فما أرى خَرَاجَكَ كَثِيرًا على ما تَصْنَعُ من الأَعْمَالِ، وقد بلغني أَنَّكَ تقولُ: لو أردتُ أَنْ أَصْنَعَ رَحًا تَطْحَنُ بِالرَّيْحِ لَفَعَلْتُ. قال: نعم، قال: فاعمل لي رَحًا. قال: إِنَّ سِلْمَتَ لَأَعْمَلَنَّ لَكَ رَحًا يَتَحَدَّثُ بِهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

(١) أَعْدِنِي: أَعْتِي.

فقال عمر: قد أُوْعِدَنِي الْعِلْجُ الْآنَ، ثم أنصرفَ عمر إلى منزله.

فلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ جَاءَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ إِلَى عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اعْهَدْ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ فِي ثَلَاثٍ، قَالَ: وَمَا يُذِيرُكَ؟ قَالَ: أَجِدُهُ فِي كِتَابِ التَّوْرَةِ، قَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ لَتَجِدُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا؛ وَلَكِنِّي أَجِدُ صِفَتَكَ وَجِلَّتِكَ. قَالَ: وَعُمَرُ لَا يَجِدُ وَجَعًا، ثُمَّ جَاءَهُ مِنَ الْعَدِ وَقَالَ: بَقِيَ يَوْمَانِ، ثُمَّ جَاءَهُ مِنَ الْعَدِ وَقَالَ: قَدْ مَضَى يَوْمَانِ، وَقَدْ بَقِيَ يَوْمٌ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَ عُمَرُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَكَانَ يُوَكَّلُ بِالصَّفُوفِ رَجُلًا، فَإِذَا اسْتَوَتْ كَبُرَ، وَدَخَلَ أَبُو لَوْلُؤَةَ فِي النَّاسِ، وَفِي يَدِهِ خَنْجَرٌ لَهُ رَأْسَانِ، نَصَابُهُ فِي وَسْطِهِ، فَضَرَبَ عُمَرَ سِتَّ ضَرْبَاتٍ، إِحْدَاهُنَّ تَحْتَ سُرَّتِهِ، وَهِيَ الَّتِي قَتَلَتْهُ، وَقِيلَ مَعَهُ كُلِّبُ بْنُ الْبُكَيْرِ اللَّيْثِيُّ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُ.

رُوي أَنَّهُ طُعِنَ مَعَهُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَقِيلَ: ثَلَاثَةَ عَشَرَ، مَاتَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، فَلَمَّا وَجَدَ عُمَرُ حَرَ السَّلَاحِ سَقَطَ، وَأَمَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَصَلَّى بِالنَّاسِ وَهُوَ طَرِيحٌ، فَاحْتَمَلَ، فَأَدْخَلَ بَيْتَهُ وَدَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْهَدْ إِلَيْكَ، قَالَ: أَتَشِيرُ عَلَيَّ بِذَلِكَ؟ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ لَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَدْخُلُ فِيهِ أَبَدًا. قَالَ: فَهَبْنِي صَمْتًا؛ حَتَّى أَعْهَدْ إِلَى الثَّقَفِ الَّذِينَ تُؤَفِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَسَعْدًا، وَقَالَ: انْتَظِرُوا أَحَاكِمَ طَلْحَةَ ثَلَاثًا، فَإِنْ جَاءَ وَإِلَّا فَاقْضُوا أَمْرَكُمْ.

أَنْشَدَكَ اللَّهُ يَا عَلِي، إِنْ وَلَيْتَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا عَلَى الْأَ تَحْمِلَ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ.

أَنْشَدَكَ اللَّهُ يَا عُثْمَانُ، إِنْ وَلَيْتَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا إِلَّا تَحْمِلَ بَنِي أَبِي مُعَيْنٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ.

أَنْشَدَكَ اللَّهُ يَا سَعْدُ إِنْ وَلَيْتَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا إِلَّا تَحْمِلُ أَقَارِبَكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ.

فُومُوا فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَقْضُوا أَمْرَكُمْ، وَلِيَصِلَ بِالنَّاسِ صُهَيْبٌ، ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيَّ فَقَالَ: قُمْ عَلَى بَابِهِمْ فَلَا تَدْخُ أَحَدًا يَدْخُلُ إِلَيْهِمْ، وَأَوْصِ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَغْدِي بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ، أَنْ يُخْسِنَ إِلَى مُخْسِنِهِمْ، وَأَنْ يَغْفُوَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَأَوْصِ الْخَلِيفَةَ بِالْعَرَبِ؛ فَإِنَّهُمْ مَادَّةُ الْإِسْلَامِ، أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ صِدْقَاتِهِمْ حَقًّا، فَتَوْضِعَ فِي فُقَرَائِهِمْ، وَأَوْصِ الْخَلِيفَةَ بِذِمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُؤَفِّيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ.

اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ! لقد تركتُ الخليفةَ من بَعْدِي على أُنْقَى من الرَّاحَةِ، ثم قال لأَبْنِه عبدَ الله: انظرْ مَنْ قَتَلَنِي؟ فقال: قَتَلَكَ أَبُو لَوْلُؤَة، فقال: الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي لم يجعلْ مِنِّي على يَدِ رَجُلٍ ما سَجَدَ لله سَجْدَةً واحدةً، وأرسلَ عبدَ الله أَبَنَه إلى عائِشَةَ، فاستأذَنَها أَنْ يُدْفَنَ مع النَّبِيِّ ﷺ وأبي بكرٍ رضي الله عنه، ثم قال: يا عبدَ اللَّهِ، إنْ اختلفَ القومُ فكنْ مع الأَكْثَرِ، فَإِنْ تساوَوْا فكنْ مع الحِزْبِ الَّذِي فيه عبدُ الرَّحْمَنِ بِنُ عَوْفٍ.

يا عبدَ اللَّهِ، ائذَنْ للنَّاسِ، فدخلَ عليه المهاجِرُونَ والأنصارُ، فجعلوا يَسْلُمُونَ عليه، فيقولُ لهم: هذا عن مَلَأٍ مِنْكُمْ؟ فيقولون: معاذُ الله! ودخلَ كعبُ الأحبارِ مع النَّاسِ، فلما رآه عمرُ رضي الله تعالى عنه قال: [من الطويل]

وأوعَدَنِي كَعْبٌ ثَلَاثًا أَعُدُّهَا ولا شَكَّ أَنَّ القَوْلَ ما قالَهُ كَعْبُ
وما بي حذارُ الموتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ ولكن حذارِ الذَّنْبِ يَتَّبِعُهُ الذَّنْبُ

قال: ولَمَّا طعنَ أبو لَوْلُؤَة عمرَ، وَمَنْ طعنَ معه، رَمَى عليه رَجُلٌ من أهلِ العراقِ بُزْنَسًا^(١)، ثم نزلَ عليه، فلَمَّا رأى أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَرَّكَ، وجَأَ نَفْسَهُ فَقَتَلَهَا.
قال أبو عُمَرَ بِنُ عبدِ البَرِّ: ومن أَحْسَنِ شَيْءٍ يُرَوَى في مَقْتَلِ عمرَ وأَصْحِهِ ما رواه بسنِّهِ إلى عمرو بنِ ميمونٍ، قال: شَهِدْتُ عُمَرَ يَوْمَ طُعِنَ وماتَ، وما منعني أَنْ أَكُونَ في الصَّفِّ المَقْدَمِ إِلَّا هَيْبَتُهُ - وكان رَجُلًا مَهِيْبًا - فكنْتُ في الصَّفِّ الَّذِي يليه، فأقبلَ عمرَ، فعَرَضَ له أبو لَوْلُؤَة غلامٌ المَغِيرَةَ بِنِ شُعْبَةَ، ففاجأَ عمرَ قبلَ أَنْ تَسْتَوِيَ الصَّفُوفُ، ثم طَعَنَهُ ثَلَاثَ طَعَنَاتٍ، فسمعتُ عمرَ وهو يقولُ: دُونَكُمْ الكَلْبُ فَإِنَّهُ قد قَتَلَنِي، وماجَ النَّاسُ وأسْرَعُوا إليه، فجرحَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فانكفأَ عليه رَجُلٌ من خَلْفِهِ فاحتَضَنَهُ، وحُمِلَ عمرُ، فماجَ النَّاسُ بعضهم في بَعْضٍ حَتَّى قال قائلٌ: الصَّلَاةُ يا عبادَ اللَّهِ، طلعتِ الشمسُ.

فقدَّموا عبدَ الرَّحْمَنِ بِنُ عَوْفٍ فصلَّى بنا بأَقْصَرِ سورَتَيْنِ في القرآنِ، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، واحتَمِلَ عمرُ، ودخلَ النَّاسُ عليه، فقال: يا عبدَ اللَّهِ بِنُ عَبَّاسٍ، اخرجْ فنادِ في النَّاسِ: أَعن مَلَأٍ مِنْكُمْ هذا؟ فخرجَ ابنُ عَبَّاسٍ، فقال: أَيُّها النَّاسُ، إِنَّ أميرَ المؤمنين يقولُ: أَعن مَلَأٍ مِنْكُمْ هذا؟ فقالوا: معاذُ الله! والله ما علَمْنَا ولا أَطْلَعْنَا. وقال: ادْعُوا

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به؛ أو القلنسوة الطويلة؛ أو رداء ذو كمين يلبس بعد الاستحمام.

إلي الطبيب فدعي الطبيب فقال: أي الشراب أحب إليك؟ فقال: النبيذ، فسقي نبيذاً فخرج من بعض طعناته، فقال الناس: هذا دم، هذا صديد^(١)، فقال: اسقوني لبناً، فسقي لبناً، فخرج من الطعنة، فقال له الطبيب: لا أرى أن تُمسي، فما كنت فاعلاً فافعل.

وروى أبو عمر أيضاً بسنده إلى عوف بن عوف بن مالك الأشجعي: أنه رأى في المنام، كأن الناس جُمعوا، فإذا فيهم رجل قرعهم فهو فوقهم بثلاثة أذرع. قال: فقلت: من هذا؟ فقالوا: عمر. قلت: ولم؟ قالوا: لأن فيه ثلاث خصال، لأنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأنه خليفة مستخلف، وأنه شهيد مُستشهد.

قال: فأتى أبو بكر فقصها عليه، فأرسل إلى عمر فدعاه ليشهره، فجاء عمر فقال لي أبو بكر: اقصص، قال: فلما بلغت خليفة مستخلف، زبرني^(٢) عمر وانتهرني، وقال: اسكت، تقول هذا وهو حي!

قال: فلما كان هذا بعد، وولي عمر، مررت بالمسجد وهو على المنبر، فدعاني وقال: اقصص علي رؤياك، فقصصتها، فلما قلت: إنه لا يخاف في الله لومة لائم قال: إنني لأرجو أن يجعلني الله منهم، قال فلما قلت: «خليفة مُستخلف» قال: قد استخلفني الله، وأسأله أن يعينني على ما ولاني، فلما أن ذكرت: «شهيد مُستشهد»، قال: أتني لي بالشهادة وأنا بين أظهركم تغزون ولا أغزوا ثم قال: بلى يأتي الله بها إن شاء، يأتي الله بها إن شاء.

وقد روى معمر عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم: أن النبي ﷺ رأى على عمر قميصاً أبيض، فقال: أجديد قميصك هذا، أم غسيل؟ قال: بل غسيل. قال: «البس جديداً، وعش حميداً، ومث شهيداً، ويرزقك الله قرّة عين في الدنيا والآخرة»، قال: وإياك يا رسول الله.

وروي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ناحت الجن على عمر قبل أن يقتل بثلاث، فقالت: [من الطويل]

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت له الأرض تهتر العضاء بأسوق^(٣)
جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

(١) الصديد: القيح يفسد به الجرح.

(٢) زبره: منعه ونهاه وزجره.

(٣) العضاء: كل شجر له شوك صغر أو كبر.

فَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَزْكَبَ جَنَاحِي نِعَامَةٍ
لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضَيْتُ أُمُورًا ثُمَّ غَادَزْتُ بَعْدَهَا
بَوَائِقَ مِنْ أَكَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ^(١)
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ وَفَاتِهِ
بَكْفٍ سَبَنْتَنِي أَرْزَقِ الْعَيْنِ مُطْرِقِ^(٢)
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر قصة الشورى

قال: وقيل لعمر: لو استخلفت يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، وقلت لربي إن سألني: سمعتك وسمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًا لاستخلفته، وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: «إن سالمًا شديد الحب لله».

فقال له رجل: أذلك على عبد الله بن عمر؟ فقال: قاتلك الله! ما أردت بهذا ويحك! كيف استخلف من عجز عن طلاق امرأته! لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيرًا قد أصبنا منه، وإن كان شرًا قد صرف عنا، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمة محمد! أما لقد جاهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافًا لا أجر ولا وزر، إني لسعيد. أنظر فإن استخلفت، فقد استخلف من هو خير مني، وإن أثرتك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

فخرجوا، ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهدًا فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي رجلاً أمركم، وهو أخراكم^(٣) أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علي - فرهقتني غشية، فرأيت رجلاً دخل الجنة، فجعل يقطف كل غضة ويأنعه فيضمه إليه، ويصيره تحته، فعلمت أن الله بالغ أمره، فما أردت أن أتحملها حيًا وميتًا.

عليكم هؤلاء الزهط الذين قال رسول الله ﷺ: إِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وهم: علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فلتختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا واليا فأخسبوا موازرتة وأعينوه، وخرجوا.

(١) الكم: برعم الثمرة؛ أو وعاء الطلع. وتفثق: تشقق.

(٢) السبتي: النمير.

(٣) الأخرى: الأفضل والأجدر.

فقال العباسُ لعلِّي: لا تدخل معهم، إني أكره الخلافَ، قال: إذن ترى ما تكره، فلما أصبحَ عمرُ دعا عليًا، وعثمانَ، وسعدًا، وعبدَ الرحمنَ، والزبيرَ، فقال: إني نظرتُ فوجدتُكم رؤساءَ الناسِ وقادتهم، ولا يكون هذا الأمرُ إلا فيكم، وقد قبضَ رسولُ الله ﷺ وهو عنكم راضٍ. إني لا أخاف الناسَ عليكم إن استقمتم؛ ولكنني أخافكم فيما بينكم، فيختلف الناسُ، فانهضوا إلى حُجرة عائشة بإذنها، فتشاوروا فيها. ووضعَ رأسه وقد نَزَفَه الدَّمُ، فدخلوا فتناجوا^(١)؛ حتى ارتفعت أصواتهم.

فقال عبدُ الله بن عمر: سبحان الله! إن أميرَ المؤمنين لم يمُتْ بعد، فسمعه عمر: فانتبه، وقال: أعرضوا عن هذا، فإذا أنا ميتٌ فتشاوروا ثلاثةَ أيام، وليصلُ بالناسِ صُهيْبٌ، ولا يأتينَ اليومَ الرابعُ إلا وعليكم أميرٌ منكم، ويحضرُ عبدُ الله بنُ عمرَ مُشيئًا، ولا شيءَ له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإنْ قدمَ في الأيام الثلاثةَ فأخضرُوه، وإنْ مضتْ الأيام الثلاثةُ قبلَ قدومه فأمضوا لأمركم. ومن لي بطلحة؟ فقال سعدُ بنُ أبي وقاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله تعالى.

فقال عمرُ رضي الله عنه: أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يليَ هذا الأمرَ إلا أحدَ هذينِ الرجلين: عليٌّ أو عثمان.

فإن وُلِّيَ عثمانُ، فرجل فيه لين، وإن وُلِّيَ عليٌّ ففيه دُعابة وآخر به أن يحيلهم على الحق، وإن تُولُوا سعدًا فأهلها هو وإلا فليستن به الوالي؛ فإنني لم أغزله عن ضَعْفٍ ولا جِنَاية، ونعم ذو الرأي عبدُ الرحمن بن عوف! فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله تعالى طالما أعزَّ بكم الإسلام، فاختَرْ خمسينَ رجلًا من الأنصار، فاستحِثْ هؤلاء الرَهْطَ حتَّى يختاروا رجلًا منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتُموني في حُفرتي، فاجمع هؤلاء الرَهْطَ في بيتٍ حتَّى يختاروا رجلًا.

وقال لصُهيْب: صلُ بالناسِ ثلاثةَ أيام، وأدخل هؤلاء الرَهْطَ بيتًا، وقُم على رؤوسهم، فإن اجتمعَ خمسةٌ وأبى واحدٌ فأشَدِّخ^(٢) رأسه بالسيف، وإن اتَّفَقَ أربعةٌ وأبى اثنانَ فأضربْ رأسيهما، وإن رضيَ اثنانَ رجلًا، واثنانَ رجلًا، فحكموا عبدُ الله بن عمر، فإن لم ترضوا بحكمه فكونوا مع الذينَ فيهم عبدُ الرحمن بن عوف، واقتلوا

(١) تناجى القوم: تَسَارَوْا.

(٢) شَدِّخ: شَجَّ.

الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس، فخرجوا، فقال عليّ لقوم معه من بني هاشم: أن أطع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً، وتلقاه عمه العباس فقال: عدلتُ عنّا، قال: وما علمك؟ قال: قرن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيوليها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني.

فقال له العباس: لم أدفعك في شيء إلا رجعت إليّ مستأجراً لما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر، فأبيت، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سمّك عمر في الشورى ألا تدخل معهم فأبيت.

احفظ عني واحدة، كلما عرّض عليك القوم، فقل: لا، إلا أن يُولوك، واحذر هؤلاء الرُفط؛ فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا حتى يقوم به لنا غيرنا. وأيم الله لا تناله إلا بشر لا ينفع معه خير.

فلما مات عمر ودُفن، جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وقيل: في بيت المال. وقيل: في حجرة عائشة بإذنها، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم.

وجاء عمر بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما^(١) سعد وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولاً: حضرنا وكنا في أهل الشورى! فتنافس القوم في أمر وكثر بينهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها، لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمر، ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون.

فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن نوليها أفضلكم، فلم يجبه أحد، فقال: أنا أنخليع منها.

قال عثمان: أنا أول من رضي، قال القوم: قد رضينا، وعليّ ساكت، فقال ما تقول أبا الحسن؟ قال: أعطني مؤثقالاً لتؤثر الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رجم لرحمه، ولا تألوا الأمة، فقال: أعطوني موائككم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله ألا أخص ذا رجم لرحمه ولا أكر المسلمين قال: فأخذ منهم ميثاقاً، وأعطاهم مثله.

(١) حصبه: رماه بالحصباء ونحوها.

فقال لعلي: تقول: إني أحقُّ مَنْ حَضَرَ هذا الأمر، لِقُرَابَتِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وسابقتك وحُسنِ أثرك في الدِّين، ولم تُبْعِدْ؛ ولكن رأيت لو صُرف هذا الأمرُ عنك ولم تحضُرْ إلى هؤلاء الرُّفُط، من تراه أحقُّ به؟ قال: عثمان، وخلا بعثمان فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل، فأين يُصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر، أي هؤلاء أحقُّ به؟ قال علي. ولقي علي سَعْدًا فقال: اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، أَسَأَلْتُكَ بِرَجْمِ ابْنِي هذا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وبِرَجْمِ عَمِّي حمزة ألا تكون مع عبد الرحمن ظهيرًا لعثمان علي. ودار عبد الرحمن ليلقى أصحاب رسول الله وَمَنْ وَافَى المدينة من أمراء الأجنادِ وأشرفِ النَّاسِ يشاورُهُمْ؛ حتَّى إذا كانت اللَّيْلَةُ الَّتِي صَبِيحَتُهَا يُسْتَكْمَلُ الْأَجَلُ، أَتَى مَنْزَلَ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ فَأَيَّقَظَهُ وَقَالَ لَهُ: لَمْ أَذُقْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ كَثِيرَ غَمُضٍ، انْطَلِقْ فَادْعُ الزُّبَيْرَ وَسَعْدًا؛ فدعاهما، فبدأ بالزُّبَيْرِ فقال له: خُلْ عَبْدُ بَنِي مَنَافٍ، وهذا الأمر، قال: نصيب لي. وقال لسعد: اجعل نصيبك لي، فقال: إِنْ أَخْخَرْتَ نَفْسَكَ فَتَنَمَ، وَإِنْ أَخْخَرْتَ عُثْمَانَ فَعَلِي أَحَبُّ إِلَيَّ، أَيُّهَا الرَّجُلُ، بَايِعْ لِنَفْسِكَ وَأَرْخُنَا وَارْفَعْ رُؤُوسَنَا.

فقال: قد خَلَعْتُ نَفْسِي عَلَى أَنْ أَخْتَارَ، وَلَوْ لَمْ أَفْعَلْ لَمْ أَرُدْهَا، إِنْ رَأَيْتُ رَوْضَةً خَضْرَاءَ كَثِيرَةَ الْعُشْبِ، فَدَخَلَ فَحَلَ مَا رَأَيْتُ أَكْرَمَ مِنْهُ، فَمَرَّ كَأَنَّهُ سَهْمٌ لَمْ يَلْتَمِثْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا؛ حَتَّى قَطَعَهَا، لَمْ يُعْرِجْ. وَدَخَلَ بَعِيرٌ يَتْلُوهُ، فَاتَّبَعَ أَثَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا، ثُمَّ دَخَلَ فَحَلَ عَبْقَرِيَّ يَجْرُ خَطَامُهُ وَمَضَى قَصْدَ الْأَوَّلَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ بَعِيرٌ رَابِعٌ فَوَقَعَ فِي الرَّوْضَةِ، وَلَا وَاللَّهِ لَا أَكُونُ الرَّائِعَ الرَّابِعَ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ بَعْدَهُمَا أَحَدٌ فَيَرْضَى النَّاسُ عَنْهُ.

قال: وأرسل المسور، فاستدعى عليًا فناجاه طويلاً وهو لا يشكُّ أَنَّهُ صَاحِبُ الْأَمْرِ، ثُمَّ نَهَضَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عُثْمَانَ فَتَنَاجَى حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الصُّبْحُ، فَلَمَّا صَلُّوا الصُّبْحَ جَمَعَ الرُّفُطَ، وَبَعَثَ إِلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَأَهْلِ السَّابِقَةِ وَالْفَضْلِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَإِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ، فَاجْتَمَعُوا حَتَّى أَلْتَحَمَ الْمَسْجِدُ بِأَهْلِهِ، فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَحْبَبُوا أَنْ يَرْجِعَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ إِلَى أَمْصَارِهِمْ، وَقَدْ عَلِمُوا مَنْ أَمِيرِهِمْ، فَأُشِيرُوا عَلَيَّ.

فقال عمار بن ياسر: إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا يَخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فَبَايِعَ عَلِيًّا.

فقال المقداد بن الأسود: صَدَقَ عَمَارٌ إِنْ بَايَعْتَ عَلِيًّا، قُلْنَا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

وقال ابن أبي سرح: إِذَا أَرَدْتَ أَلَّا تَخْتَلَفَ قَرْنُشُ فَبَايِعَ عُثْمَانَ.

فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صَدَقْتَ، إِنْ بَايَعْتَ عُثْمَانَ قُلْنَا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

فَسَتَمَ عَمَارُ بْنُ أَبِي سَرْحٍ، وَقَالَ: مَتَى كُنْتُ تَنْصَحُ الْمُسْلِمِينَ! فَتَكَلَّمَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو أُمَيَّةَ، فَقَالَ عَمَارُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَنَا بِنَبِيِّهِ، وَأَعَزَّنَا بِدِينِهِ، فَأَنَّى تَصْرِفُونَهُ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ!

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: لَقَدْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ يَا بَنَ سُمَيَّةَ، وَمَا أَنْتَ وَتَأْمِيرُ قُرَيْشٍ لِأَنْفُسِهَا!

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، افْرُغْ قَبْلَ أَنْ يَفْتَتِنَ النَّاسُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ وَشَاوَرْتُ، فَلَا تَجْعَلُنَّ فِيهَا أَيُّهَا الزَّهْطُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا، وَدَعَا عَلِيًّا، فَقَالَ: عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ، لِتَعْمَلَنَّ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَسِيرَةِ الْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ؟ فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ أَفْعَلَ، فَأَعْمَلَ بِمَبْلَغِ عِلْمِي وَطَاقَتِي.

وَدَعَا عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِعَلِيِّ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى سَقْفِ الْمَسْجِدِ وَيَدُهُ فِي يَدِ عُثْمَانَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَاشْهَدْ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ مَا فِي رَقَبَتِي مِنْ ذَاكَ فِي رَقَبَةِ عُثْمَانَ، فَبَايَعُهُ.

وَقِيلَ: وَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَلَيْهِ عِمَامَتُهُ الَّتِي عَمَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَقَلِّدًا سَيْفَهُ؛ حَتَّى رَكِبَ الْمَنْبِرَ، فَوَقَفَ وَقُوفًا طَوِيلًا، ثُمَّ دَعَا دَعَاءَ لَا يَسْمَعُهُ النَّاسُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ سَأَلْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا عَنْ إِمَامِكُمْ، فَلَمْ أَجِدْكُمْ تَعْدِلُونَ بِأَحَدٍ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: إِمَا عَلِيٍّ، وَإِمَا عُثْمَانَ.

فَقُمَ إِلَيَّ يَا عَلِيُّ، فَقَامَ إِلَيْهِ فَوَقَفَ تَحْتَ الْمَنْبِرِ، وَأَخَذَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ مُبَايِعِي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَفَعَلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَكِنْ عَلَى جَهْدِي مِنْ ذَاكَ وَطَاقَتِي.

قَالَ: فَأَرْسَلَ يَدَهُ ثُمَّ نَادَى: قُمْ إِلَيَّ يَا عُثْمَانُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَهُوَ فِي مَوْقِفِ عَلِيٍّ الَّذِي كَانَ فِيهِ، فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ مُبَايِعِي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَفَعَلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى سَقْفِ الْمَسْجِدِ وَيَدُهُ فِي يَدِ عُثْمَانَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَأَشْهَدْ ثَلَاثًا، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ مَا فِي رَقَبَتِي مِنْ ذَلِكَ فِي رَقَبَةِ عُثْمَانَ، قَالَ: فَازْدَحَمَ النَّاسُ يَبَايِعُونَ عُثْمَانَ حَتَّى غَشَوْهُ عِنْدَ الْمَنْبِرِ، فَقَعَدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مَقْعَدَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَنْبِرِ، وَأَعْقَدَ عُثْمَانُ عَلَى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَبَايِعُونَهُ، وَتَلَكَأَ عَلِيٌّ.

فقال عبد الرحمن: ﴿فَمَنْ تَكْتَفَاتِمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع عثمان وهو يقول: خدعة، وأتي خدعة!
وقيل: لما بايع عبد الرحمن عثمان قال عليّ: ليس هذا أول يوم تظاهرتُم فيه علينا، فصبر جميل، واللّه المستعان على ما تصفون، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، واللّه كل يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمن: يا عليّ، لا تجعل على نفسك حجة ولا سبيلاً، فخرج عليّ وهو يقول: سيلغ الكتاب أجله.

فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما واللّه لقد تركته، وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

فقال: يا مقداد، والله لقد أجتهدت للمسلمين، قال: إن كنت أردت الله فأنا بك الله ثواب المحسنين.

وقال المقداد: ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً، لا أقول ولا أعلم أن رجلاً أفضى بالعدل، ولا أعلم منه، أما والله لو أجد أعواناً عليه!

فقال عبد الرحمن: يا مقداد، اتق الله؛ فإنني خائف عليك الفتنة.

فقال رجل للمقداد: رحمك الله! من أهل هذا البيت؟ ومن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل علي بن أبي طالب.

فقال عليّ: إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر بينها فتقول: إن وليّ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وإن كانت في غيرهم تداولتموها بينكم.

قال: وقديم طلحة في اليوم الرابع الذي بويح فيه عثمان، ف قيل له: بايعوا لعثمان، فقال: كل قريش راض به؟ قالوا: نعم. فأتى عثمان فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، إن أبيت ردّها. قال: أتردّها؟ قال: نعم. ثم قال أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيت، لا أرغب عما أجمعوا عليه، وبايعه.

حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل، عن عمرو بن ميمون. وفيه زيادة عن الطبري.

وروى أبو جعفر الطبري رحمه الله في قصة الشورى، عن المسور بن مخرمة نحو ما تقدّم؛ إلا أنه ذكر زيادات ذكرنا بعضها في أثناء هذه القصة، ونذكر بقيتها الآن.

قال: لما دُفِنَ رضي الله عنه جَمَعَهُمُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَخَطَبَهُم، وَأَمَرَهُمُ بِالاجْتِمَاعِ وَتَرْكِ التَّفَرُّقِ.

فتكلم عثمان رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي اتخذ محمداً نبياً وبعثه رسولاً، وصدقته ووعده، وهب له نصره على كل من بعد نبياً، أو قرب رجماً، صلى الله عليه، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو لنا نور ونحن بأمره نقوم، عند تفرق الأهواء، ومجادلة الأعداء، جعلنا الله بفضلِهِ أئمةً، ويطاعته أمراء، لا يخرج أمرنا منّا، ولا يدخل علينا غيرنا إلا من سَفِهَ الحقَّ، ونكَل عن القصد، وأخرى بها يا بن عوف أن تُترك، وأجدر بها أن تكون إن حُولِفَ أمرك، وتُرك دعاؤك، فأنا مُجِيبٌ وداعٍ إليك، وكفيلٌ بما أقول زعيم، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم الزبير بعده، فقال: أما بعد، فإن داعي الله لا يُجهل ومُجيبه لا يُخذل، عند تفرق الأهواء، ولّي الأعناق، ولن يُقصر عما قُلت إلا عوي، ولن يترك ما دعوت إليه إلا شقي، ولولا حدودُ الله فرضت، وفرائضُ الله حدثت، تراح على أهلها، وتحيا لا تموت؛ لكان الموت من الإمارة نجاةً، والفرار من الولاية عصمة، ولكن لله علينا إجابة الدعوة، وإظهار السنة، لئلا نموت موتة عمية، ولا نغمى غمى جاهلية، فأنا مُجِيبُك إلى ما دعوت، ومُعِينُك على ما أمرت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأستغفر الله لي ولكم.

ثم تكلم سعد فقال: الحمد لله بديناً، بمحمد ﷺ أنارت الطُرُق، واستقامت السُّبُل، وظهر الحق، ومات كل باطل، إناكم أيها الثَّغرُ وقول الزُّور، وأمينية أهل الغرور! فقد سلبت الأمانني قوماً قبلكم، ورثوا ما ورثتم، ونالوا ما نلتم، فاتخذوا الله عدواً، ولعنهم لعناً كثيراً، قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

إني نكبتُ قرني^(١) وأخذتُ سهمي الفالَج^(٢)، وأخذتُ لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيتُ لنفسي، فأنا كفيلٌ به، وبما أعطيتُ عنه زعيم، والأمر إليك يا بن عوف، بجهد النفس، وقصد النصح، وعلى الله قصد السبيل وإليه الرجوع، وأستغفر الله لي ولكم، وأعوذُ بالله من مخالفتكم.

(١) المراد بالقرن هنا الجعبة، ونكب قرنه: نثر ما فيه من السهام.

(٢) الفالَج: المتصر.

ثم تكلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي بعث محمداً مئاً نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب؛ لنا حق إن نعطه نأخذه، وإن نمنعه نركب أعجازاً^(١) الإبل، ولو طال السرى^(٢). لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهدَهُ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق، وصلة رحم، ولا قوة إلا بالله.

اسمعوا كلامي، وغوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجتمع تنتضي فيه السيوف، وتُخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة.

ثم قال:

فإن تك جايماً هلك فإني بما فعلت بنو عبد بن ضخم
مطيع في الهواجر كل عي بصير بالنوى من كل نجم^(٣)

فقال عبد الرحمن: أيكم يطيب نفساً أن يخرج نفسه من هذا الأمر، ويؤليه غيره؟ قال: فأمسكوا عنه. وذكر نحو ما تقدم.

فلنرجع إلى بقية أخبار عمر رضي الله عنه.

قال: ومات عمر لأربع بقين من ذي الحجة، قاله الواقدي.

وقال غيره: يوم الاثنين لليلتين بقيتا منه، وقيل: طعن يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، وذو يوم الأحد هلال المحرم، سنة أربع وعشرين في حجرة عائشة رضي الله عنها، ورأسه قبالة كتفي أبي بكر رضي الله عنهما، وصلى عليه ضهيب الرومي. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

(١) ركب في الطلب أعجاز الإبل: أي ركب الذل والمشقة.

(٢) السرى: عامة الليل. والمراد هنا احتمال المشقة والصبر.

(٣) العي: العاجز. والنوى: البعد.

ذكر أولاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم وأزواجه

تزوج رضي الله عنه في الجاهلية زينب بنت مَظْعُون بن حبيب بن وهب بن خذافة بن جُمَح، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين رضي الله عنهم.

وتزوج مُلَيْكَة بنت جَزُولِ الخُزَاعِي في الجاهلية فولدت له عبيد الله ففارقها في الهدنة، وقيل: كانت أم عبد الله وأم زيد الأصغر أم كلثوم بنت جَزُولِ الخُزَاعِي. وكان الإسلام فزق بينها وبين عمر.

وتزوج قُرَيْبَة بنت أبي أمية المَخْزُومِي في الجاهلية، ففارقها في الهدنة أيضًا، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقُرَيْبَة أخت أم سلمة زوج النبي ﷺ.

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المَخْزُومِي في الإسلام، فولدت له فاطمة، فطلقها، وقيل: لم يطلقها.

وتزوج جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأوسي في الإسلام، فولدت له عاصمًا فطلقها، وقيل: لم يطلقها.

وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأصدقها أربعين ألفًا فولدت رُقَيَّة وزيدا.

وتزوج لُهيَّة، امرأة من اليمَن، فولدت له عبد الرحمن الأوسط، وقيل الأصغر. وقيل: كانت أم ولد، وكانت عنده فُكَيْهَة أم ولد فولدت له زَيْنَب، وهي أصغر ولد عمر.

وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وقد تقدّم خبرها عند ذكر عبد الله بن أبي بكر.

ومن أولاده رضي الله عنه: عبد الرحمن، وكنيته أبو شحمة؛ وقيل: إنه كان له ولد يقال له: مجبر.

ولنفصل هذا الفصل بذكر شيء من أخبار مَنْ أدرك رسول الله ﷺ من أولاد عمر، وَمَنْ وُلِدَ في حياته أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فإنه أسلم مع أبيه، وهو صغير لم يبلغ الحلم وكان أول مشاهيده الخندق. وقيل: أحد؛ لأن رسول الله ﷺ رده يوم بدر لصغر سنه، وشهد الحديبية، وكان رضي الله عنه من أهل الورع والعلم، كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ، شديد التحري والاحتياط في فتواه. وكان لا يتخلف عن السرايا على عهد رسول الله ﷺ، ثم كان بعد رسول الله ﷺ كثير الحج. وقال رسول الله ﷺ لحفصة بنت عمر: إن أخاك عبد الله رجل صالح لو كان يقوم من الليل، فما ترك بعدها قيام الليل. وقعد عن حرب علي لما أشكلت عليه لورعه، ثم ندم على ذلك حين حضرته الوفاة، فقال: ما أجذ في نفسي من أمر الدنيا شيئاً إلا أنني لم أقاتل مع علي الفئة الباغية.

قال ميمون بن مهران: ما رأيت أروع من ابن عمر، ولا أعلم من ابن عباس. وأفتى في الإسلام ستين سنة، ونشر نافع عنه علماً جمًا.

وروي عن يوسف بن الماجشون، عن أبيه وغيره: أن مزوان بن الحَكَم دخل في نفر على عبد الله بن عمر بعدما قُتل عثمان، فعرضوا عليه أن يبايعوا له، فقال: كيف لي بالناس؟ قال: تقابلهم وتقاتل معك، قال: والله لو اجتمع علي أهل الأرض، إلا أهل فذك ما قاتلتهم فخرجوا من عنده ومروان يقول:

إني أرى فتنة تغلي مراحِلها والمُلك بعد أبي ليلى لمن غلباً^(١)

قال: وكانت وفاة عبد الله بمكة سنة ثلاث وسبعين، بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر أو نحوها، وقيل: ستة أشهر، وأوصى أن يُدفن في الجبل، فلم يُقدَر على ذلك من أجل الحجاج، فدفن بذي طوى، بمقبرة المهاجرين.

وكان الحجاج قد أمر رجلاً فسمَّ رُج^(٢) رُمجِه، ورَحَمَه في الطريق، ووضع الرُج في ظهر قدمه؛ وذلك أن الحجاج خطب يوماً، وأخر الصلاة، فقال ابن عمر: إن الشمس لا تنتظرك، فقال الحجاج: لقد هممت أن أضرب الذي فيه عيناك. فقال: إن تفعل فإنك سفيه سَلَط^(٣). وقيل: إنه أخفى قوله ذلك عن الحجاج فلم يُسمعه.

(١) المرحل: القدر من الطين المطبوخ؛ والمراد بقوله: تغلي مراحِلها: أي تشتد الفتنة.

(٢) الزج: الحديدية في أسفل الرمح. (٣) السلط: الطويل اللسان.

وكان عبدُ الله يتقدّم في المواقف بعرفة وغيرها إلى المواضع التي كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يقف فيها، فكان ذلك يعزُّ على الحجّاج، فأمر الحجّاج رجلاً معه خزينة مسمومة، فلما دفع الناس من عرفة، لصق به ذلك الرجل، فأمر الحرّبة على قَدَميه وهو في غَزَزٍ^(١) راحلته، فمَرَضَ منها أيّاماً، فدخلَ عليه الحجّاج يَعُوْده، فقال: مَنْ فَعَلَ ذلك بك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: وما تصنعُ به؟ قال: قتلتني الله إن لم أقتله. قال: ما أراك فاعِلاً، أنت الذي أمرت الذي نَحْسَنِي بالحرّبة. قال لا تفعل يا أبا عبد الرحمن وخرَجَ عنه. وقيل: إنّه قال للحجّاج: إذ قال له: مَنْ فَعَلَ ذلك بك؟ قال: أنت الذي أمرت بإدخال السلاح في الحرم، فلبثَ أيّاماً ثم مات رضي الله عنه، وصَلَّى عليه الحجّاج.

وأما عبدُ الرحمن الأكبر، فإنّه أدركَ لسنّة رسولِ اللَّهِ ﷺ ولم يحفظْ عنه.

وعبدُ الرحمن الأوسط وهو أبو شخمة هو الذي ضربه عمرو بنُ العاص بمصر في الخمر، ثم حَمَلَهُ إلى المدينة فضربه أبوه أدبَ الوالد، ثم مَرَضَ وماتَ بعدَ شهر. كذا رواه مَعَمَرُ عن الزُّهري^(٢)، عن سالم، عن أبيه، وأهلُ العراق يقولون: إنّه مات تحت سياطِ عُمر.

قال ابن عبد البَر: وذلك غلط. وقال الزُّبير: أقام عليه عمر حدَّ الشراب، فمَرَضَ ومات.

وعبدُ الرحمن الأصغر، هو أبو المجبّر، واسمُ المجبّر عبدُ الرحمن بن عبد الرحمن بن عمر، سُمِّيَ المجبّر لأنّه وَقَعَ وهو غُلَامٌ فتكسّر، فأتى به إلى عمته حفصة أم المؤمنين، فقيل لها: انظري إلى ابن أخيك المكسّر فقالت: ليس بالمكسّر ولكنّه المجبّر.

وقال الزُّبير: هَلَكَ عبدُ الرحمن الأصغر، وترك ابناً صغيراً، أو حَمَلاً، فسَمَّته حفصة: عبدُ الرحمن، ولَقَّبته المجبّر، وقالت: لعلَّ الله يجبره.

(١) غرز الراحلة: ركاها، وهو مصنوع من جلد محزوز، يعتمد عليه في الركوب.

(٢) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين في المدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة: منهم مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري... وتوفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ١٢٤ هجرية... (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

وعبيد الله بن عمر وُلِدَ على عهد رسولِ اللَّهِ ﷺ، ولم يُنْقَلْ أَنَّهُ رُوي عنه، ولا سُمِعَ منه، وهو الَّذِي حَدَّثَهُ عُمَرُ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ، وهو الَّذِي وَثَبَ عَلَى الْهُزْمَانَ فَقَتَلَهُ، وقتل معه نصرانيًا اسمه جُفَيْنَةَ من أهل الحيرة، وقد آتاهما أُنْغَرِيَا أبا لؤلؤة بِقَتْلِ عُمَرَ. وقتل أيضًا ابنةً لأبي لؤلؤة طفلة، ولما ضَرَبَ الْهُزْمَانَ بِالسَّيْفِ قال: لا إله إلا الله، فلما قَتَلَ هؤلاء أَخَذَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَحَبَسَهُ فِي دَارِهِ، وأحضره عند عثمان. وكان عبيد الله يقول: وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّ رَجُلًا يَمُنُّ شِرْكَ فِي دَمِ أَبِي، يُعَرِّضُ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

قالوا: وَإِنَّمَا قَتَلَ هَؤُلَاءِ، لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ غَدَاةً قَتَلَ عُمَرَ: رَأَيْتُ عَشِيَّةَ أَمْسِ الْهُزْمَانَ، وَأَبَا لَوْلُؤَةَ، وَجُفَيْنَةَ، وَهُمْ يَتَنَاجَوْنَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي ثَارُوا، وَسَقَطَ مِنْهُمْ خِنْجَرٌ لَهُ رَأْسَانٌ، نَصَابُهُ فِي وَسْطِهِ، وَهُوَ الْخِنْجَرُ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ عُمَرَ، فَقَتَلَهُمْ عُبَيْدُ اللَّهِ.

فَلَمَّا أَحْضَرَهُ عُثْمَانُ قَالَ: أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي هَذَا الَّذِي فَتَقْتُ^(١) فِي الْإِسْلَامِ مَا فَتَقْتُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَرَى أَنْ تَقْتُلَهُ. فَقَالَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ: قُتِلَ عُمَرُ أَمْسَ، وَنُقِلَ أَبْنُهُ الْيَوْمَ! فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْفَاكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ هَذَا الْحَدَثُ، وَلَكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ سُلْطَانٌ. فَقَالَ عُثْمَانُ: أَنَا وَلِيُّهُ، وَقَدْ جَعَلْتُهَا دِيَّةً، وَأَحْتَمِلْتُهَا فِي مَالِي. وَقِيلَ فِي فِدَاءِ عُبَيْدِ اللَّهِ غَيْرَ ذَلِكَ.

قال الْقُمَازِيَانُ بْنُ الْهُزْمَانَ: كَانَتْ الْعَجَمُ بِالْمَدِينَةِ يَسْتَرُوحُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَمَرَّ فَيُرُوزُ بِأَبِي، وَمَعَهُ خِنْجَرٌ لَهُ رَأْسَانٌ، فَتَنَاولَهُ مِنْهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: أَسُنُّ بِهِ، فَرَأَاهُ رَجُلٌ، فَلَمَّا أُصِيبَ عُمَرُ قَالَ: رَأَيْتُ الْهُزْمَانَ دَفَعَهُ إِلَى فَيُرُوزَ، فَأَقْبَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَتَلَهُ.

فَلَمَّا وَلَّى عُثْمَانُ أَمَكَنِي مِنْهُ، فَخَرَجْتُ بِهِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا مَعِي، إِلَّا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ إِلَيَّ فِيهِ، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَلَيْ قَتَلَهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَسَبُّوا عُبَيْدَ اللَّهِ، قُلْتُ: أَفَلَكُمْ مَنَعُهُ؟ قَالُوا: لَا، وَسَبُّوهُ، فَتَرَكْتُهُ لِلَّهِ وَلَهُمْ، فَحَمَلُونِي، فَوَاللَّهِ مَا بَلَغْتُ الْمَنْزَلَ إِلَّا عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ.

وَالأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَشْهَرُ؛ لِأَنَّ عَلِيًّا لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ أَرَادَ قَتْلَ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَهَرَبَ مِنْهُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بِالشَّامِ، وَلَوْ كَانَ إِطْلَاقُهُ بِأَمْرِ وَلِيِّ الدِّمِّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فتق: أوقع الخلاف بين الجماعة وصدع الكلمة.

قال أبو عمر: وكان عبيدُ الله من أنجادِ قريشٍ وفُزسانِهِمْ، قُتِلَ بِصِفِّينَ مع معاويةَ، وكان يومئذ على الحَئِلِ، فرماه أبو زُبَيْد الطائِي.

وقيل: كان قد خرج في اليوم الذي قُتِلَ فيه، وجعل امرأتين له بحيث تنظران إلى فعله وهما: أسماء بنتُ عَطَارِد بن حَاجِب التَّمِيمِي، وبحرية بنت هانئ بن قبيصة، فلما برز شدت عليه ربيعة فنشِب^(١) بينهم فقتلوه، وكان على ربيعة يومئذ زيادُ بنُ خَصْفة التَّمِيمِي، فقيل له: إن هذه بحرية، فسقط عبيدُ الله مَيِّتًا قُرْبَ فُسْطَاطِهِ، وقد بَقِيَ طُنْبٌ من طِنْبَةِ الفُسْطَاطِ لا وَتَدَ له، فجزَّوه، وشدُّوا الطُّنْبَ بِرِجْلِهِ، وأقبلتُ امرأته حتى وقفنا عليه، فبَكَّنا وصاحتنا، فخرج زيادُ بنُ خَصْفة فقيل له: إن هذه بحرية بنت هانئ، فقال: ما حاجتك يا بنت أخي؟ فقالت: رُؤِجِي قُتِلَ، تَدْفَعُهُ إِلَيَّ، قال: نعم، فَحَذِيهِ، فحملته على بَعْلٍ، فذكر أنَّ يديه ورجليه خَطَّتَا على الأرض من فَوْقِ البَعْلِ. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد.

ذكر عمال عمر رضي الله عنه وعنهم على الأمصار

قد ذكرنا عُمَّالَهُ في حوادث السنين، ورأينا أنَّ نجمَهُمْ في هذا الموضع فنقول: كان عُمَّالُهُ رضي الله عنهم: على مَكَّة عَثَابُ بنُ أَسِيد، وعلى اليَمَن والطائف يَعْلَى بن مُثَنَّى، وعلى البَحْرَيْن واليَمَامَةِ العَلَاءُ بنُ الحَضْرَمِي، ثم عثمان بن أبي العاص، ثم قدامة بن مظعون، ثم أبا بَكْرَةَ، وعلى عُمان حُدَيْفَةُ بن مِخْصَن، وعلى البَصْرَةِ - أول من كان بها - قُطَيْبَةُ بن قَتَادَةَ السَّدُوسِي، يَغْزُو بتلك الناحية، كما كان المثنى يفعل بناحية الحيرة. ثم كتبَ إلى عمر يُعَلِّمُهُ بمكانه، ويستمدُّهُ، فوجَّه إليه شُرَيْحُ بنَ عامر، أحد بني سعد بن عمرو بن بكر، فسار إلى الأهواز، فقتله الأعاجمُ بدارس، فاستعمل عمرُ عُثْبَةَ بنَ غَزْوَانَ، ففتح الأبلَّةَ، ثم سار إلى عمر، فأعاده إلى عَمَلِهِ، فمات في الطريق، فكانت إمارتُهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فاستعمل بعده أبا سَبْرَةَ بن أبي رُهم على أحد الأقوال، ثم المغيرة بن شُعْبَةَ، ثم عزَّله كما تقدَّم بيانه، فاستعمل أبا موسى الأشعري، ثم صَرَفَهُ إلى الكوفة، واستعمل عمرَ بنَ سُراقَةَ، ثم صَرَفَهُ إلى الكوفة، وصرف أبا موسى إلى البصرة فعمل عليها ثانية، ثم صَرَفَهُ وأعاده ثالثة.

(١) نشب بينهم: علق.

وعلى مضافات البصرة جماعة فكان على مناذر غالب الوائلي، وعلى نهر تيرى حرملة بن مريطة، وعلى سوق الأهواز حرقوص بن زهير. وعلى الكوفة وما يليها، أول من استعمل عليها سعد بن أبي وقاص، فكان عليها إلى سنة عشرين، فعزله لشكاية أهلها، وأقر خليفته على الكوفة، وهو عبد الله بن عبد الله بن عثمان، ثم استعمل عمر بن عمار بن ياسر بن مسعود كما تقدم، ثم المغيرة بن شعبة.

وعلى ثغور الكوفة من قدمنا ذكره، وعلى الجزيرة وما يليها عياض بن غنم، ثم ضمّه عمر إلى أبي عبيدة، واستعمل حبيب بن مسلمة على خراج الجزيرة وعجمها، والوليد بن عتبة على عربها، وعلى الموصل من كان على حزبها ربعي بن الأفكل، وعلى خراجها عرفة بن هزيمة؛ وذلك في سنة ست عشرة.

وقيل: كان على الحرب والخراج بها عتبة بن فرقد، وقيل كان ذلك إلى عبد الله بن مغنم، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، وكانت تحت يده جماعة على الأعمال، فكان خالد بن الوليد على قنسرين، وحمص، ويزيد بن أبي سفيان على دمشق ومعاوية على الأردن، وعلقمة بن مجزز على فلسطين وعبد الله بن قيس على السواحل. فلما مات أبو عبيدة استعمل عمر معاذ بن جبل فمات من عامه، فاستعمل يزيد بن أبي سفيان، فمات، فاستعمل معاوية على دمشق والأردن، ثم استقر في سنة إحدى وعشرين عمير بن سعد على دمشق وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة، ومعاوية بن أبي سفيان على البلقاء والأردن، وفلسطين، والسواحل، وأنطاكية، وقلقية، ومعرفة مصرين.

وعلى مصر عمرو بن العاص، وكان العمال في سنة وفاته إلى آخر سنة ثلاث وعشرين.

وعلى مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن مثنى، وعلى الجند عبد الله بن أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبا موسى الأشعري، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى دمشق معاوية، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفي.

كُتَابُهُ

عبد الله بن خلف الخزاعي وزيد بن ثابت، وعلى بيت المال زيد بن أرقم.

قُضَاتُهُ

يزيد ابن أخت النُّمِر بالمدينة.

وأبو أمية شريح بن الحارث الكِنْدِي بالكوفة، ويقال: إِنَّ شُرَيْحًا أقام قاضيًا سِتِّينَ سنةً إلى أيام الحَجَّاج، فَعُطِّلَ ثلاثَ سنين، وامْتَنَعَ من الحكم، وذلك في أيام فتنة ابن الزُّبَيْر. ولَمَّا وَلِيَ الحَجَّاج استغفاه، فأعفاه، ومات سنة سبع وثمانين وله مائة وعشرون سنة.

وقيل: مائة سنة، وليس هو في عدادِ الصُّحابة رضي الله تعالى عنهم، بل من كبارِ التَّابعين.

وعلى قضاء البصرة كعب بن سور^(١).

وعلى قضاء مِصر قيسُ بنُ العاص السَّهْمِي، ثم كعبُ بن سَيَّار بن ضَبَّة، ثم عثمان بن قيس بن أبي العاص.

وكان حاجبُهُ يَزْفًا مولاه، وخاتمه خاتم رسول الله ﷺ.

وقال أبو عمرو بن عبد البر: كان نفسُ خاتمه: «كَفَى بالموت واعظًا يا عمر».

ذكر خلافة عثمان بن عفان

رضي الله عنه

هو أبو عبد الله، وقيل: أبو عمرو، وقيل في تَكْنِيته بأبي عبد الله: إِنَّ رقيةَ بنت رسول الله ﷺ، ولدت له ابنًا فسمَّاه عبد الله، فاكنتي به، ومات، ثم ولد له عمرو، فاكنتي به إلى أن مات.

وقيل: إِنَّه كان يُكْنَى أبا ليلَى عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويجتمع مع نسب رسول الله ﷺ في عبد مناف، ولُقِّبَ بذي الثورين، لأنه تزوج ابنتي رسول الله ﷺ رقيةً وأمَّ كلثوم.

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: لم قيل: عثمان ذو الثورين؟ قال: لأنه لا نَعْلَم أن أحدًا أرسلَ سِترًا على أبتني نبيٍّ غيره.

(١) هو كعب بن سور بن بكر بن عبد بن ثعلبة بن سليم بن لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم، ولي القضاء بالبصرة لعمر وعثمان رحمهما الله. وخرج يوم الجمل وفي عنقه المصحف ليصلح بين الناس فجاءه سهم غرب فقتله... (الاشتقاق لابن دريد ص ٥٠٠).

وأُمُّه أُرْوَى بِنْتُ كُرَيْزِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا الْبَيْضَاءُ، أُمُّ حَكِيمِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.
 وُلِدَ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ عَامِ الْفِيلِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالْصُّوَابِ،
 وَهُوَ حَسْبِي وَنَعَمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ.

ذكر صفته ونبذة من فضائله

كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَوِيلَ الْقَامَةِ، حَسَنَ الْوَجْهِ وَقِيلَ: كَانَ رُبْعَةً، لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ، حَسَنَ الْوَجْهِ رَقِيقَ الْبَشَرَةِ، كَبِيرَ اللَّحْيَةِ، عَظِيمًا أَسْمَرَ اللَّوْنِ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ، بَعِيدًا مَا بَيْنَ الْمَنْكَبَيْنِ، وَكَانَ يَصْفُرُ لَحْيَتَهُ، وَلَمَّا كَبُرَ شَدُّ أَسْنَانِهِ بِالذُّهَبِ، وَهُوَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدُ الْعَشْرَةِ الَّذِينَ شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَمَاتَ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ.

وَلَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضَائِلُ وَمَآثِرُ وَسَابِقَةٌ فِي الْإِسْلَامِ.

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ عِثْمَانُ أَوْصَلَنَا لِلرَّحِمِ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

وَاشْتَرَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَثْرَ رُومَةَ^(١)، وَكَانَتْ زَكَاةً لِيَهُودِيٍّ، يَبِيعُ لِلْمُسْلِمِينَ مَاءَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بَثْرَ رُومَةٍ فَيَجْعَلُهَا لِلْمُسْلِمِينَ، يَضْرِبُ بِذُلُوهِ فِي دِلَالِهِمْ، وَلَهُ بِهَا مَشْرَبٌ فِي الْجَنَّةِ؟». فَاتَى عِثْمَانُ الْيَهُودِيَّ فَسَاوَمَهُ بِهَا، فَأَبَى أَنْ يَبِيعَهَا كُلَّهَا، فَاشْتَرَى مِنْهُ نِصْفَهَا بِاثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَجَعَلَهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُ عِثْمَانُ: «إِنْ شِئْتَ جَعَلْتُ عَلَى نَصِيبِي يَوْمَئِذٍ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَيَّ يَوْمٌ وَلَكَ يَوْمٌ»، قَالَ: لَا، بَلْ لَكَ يَوْمٌ وَلِي يَوْمٌ. فَكَانَ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِثْمَانَ اسْتَقَى الْمُسْلِمُونَ مَا يَكْفِيهِمْ يَوْمَئِذٍ، فَلَمَّا رَأَى الْيَهُودِيُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفْسَدْتُ عَلَيَّ زَكَاةً، فَاشْتَرَى النِّصْفَ الْآخَرَ، فَاشْتَرَاهُ بِثَمَانِيَةِ أَلْفٍ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَزِيدُ فِي مَسْجِدِنَا؟» فَاشْتَرَى عِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْضِعَ خَمْسِ سَوَارٍ، فزادَهُ فِي الْمَسْجِدِ.

وَجَهَّزَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ بِتِسْعِمَائَةِ وَخَمْسِينَ بَعِيرًا، وَأَتَمَّ الْأَلْفَ بِخَمْسِينَ فَرَسًا.

(١) بثر رومة: بضم الراء، وسكون الواو، وفتح الميم: وهي في عقيق المدينة... (معجم البلدان لياقوت).

وعن قتادة رضي الله عنه، قال: حملَ عثمانُ ما في جيش العُصرة على ألفِ بَعِيرٍ، وسَبْعِينَ فرساً.

وعن محمد بن بكير: أنَّ عثمانَ رضي الله عنه، كان يُحيي اللَّيْلَ بركعةٍ يقرأ فيها القرآنَ. وَرَوِيَ أَنَّهُ كان يصومُ الدَّهْرَ رضي الله عنه.

ذكر بيعة عثمان رضي الله عنه

بُوع له بالخلافة كما تقدّم في قصّة الشورى، وقد اختلف في يومِ بَيْعَتِهِ، وهو مُرتَّب على الخلاف في تاريخ وفاة عمر رضي الله عنهما، فقيل: في يوم السبتِ غرة المحرم، سنة أربع وعشرين. ولم يذكر أبو عمر بن عبد البر غيره.

وقيل: يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، فاستقبل بخلافته شهر المحرم، سنة أربع وعشرين، قاله أبو جعفر.

قال: وقيل: لعشر خلون من المحرم بعد مقتل عمر بثلاث ليالٍ.

قال: استُخْلِفَ وقد دخل وقت العصر، وقد أدن مؤذنٌ صُهَيْبٍ، واجتمعوا في ذلك بين الأذان والإقامة، فخرج فصلّى بالناس، وزادهم مائة مائة، ووَقَدَ أهل الأنصار، وهو أول من صنع ذلك.

قال: وقيل: لما بايع أهل الشورى عثمانَ رضي الله عنه، خرج وهو أشدهم كآبةً، فأتى منبر النبي ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال:

أيها الناس، إنَّكم في دارِ قُلعة^(١)، وفي بقيّة أعمارٍ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتُم صُبْحَتُم أو مُسِيَّتُم، ألا وإن الدنيا طُوِيَتْ على الغرورِ ﴿فَلَا تَعْرَنَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥] واعتبروا بمن مضى، ثم جدُّوا ولا تغفلوا؛ فإنه لا يغفل عنكم.

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أناروها وعمروها، ومتَّعُوا بها طويلاً! ألم تَلْفِظْهُمْ! رموا بالدنيا حيث رمى الله بها. واطلبوا الآخرة؛ فإن الله عز وجل قد ضرب لها مثلاً ولِلَّذِي هو خير، فقال: ﴿وَأَضْرَبَ لَهم مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ قَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

(١) المراد بقوله «دار قُلعة» أي ليست دار إقامة.

وكان أول كتاب كتبه إلى عماله:

أما بعد؛ فإن الله تعالى أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُباة، وأن صدر هذه الأئمة خُلِقُوا رعاة، ولم يُخْلَقُوا جُباة، وليوشِكَنَّ أئمتكم أن يصيروا جُباة، ولا يكونوا رعاة؛ فإذا عَادُوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء.

ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لَهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثبوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتأبون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء.

وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج^(١):

أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذاتهم، وقد وضع لكم عمر رضي الله عنه ما لم يغب عنا، بل كان عن ملائمتنا، ولا يبلغنا عن أحد منكم تغيير ولا تبدل، فيغير الله بكم، ويستبدل بكم غيركم. فانظروا كيف تكونون، فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه.

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عثمان

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

وفي سنة خمس وعشرين نقض أهل الإسكندرية الصلح؛ وذلك أن الروم حضروا إليهم من القسطنطينية، ونفذ منهم مئوبل الخصي، واتفقوا مع من بها من الروم، ولم يوافقهم المقوقس، وثبت على صلحه، فثبت لذلك.

وسار عمرو بن العاص إليهم، وسار إليه الروم، واقتتلوا أشد قتال، فأنهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية، وقتلوا منهم في البلدة مقتلة عظيمة، وقُتل مئوبل الخصي.

وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية أخذوا أموال أهل تلك القرى، من وافقهم ومن خالفهم، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعنرو بن العاص: إن الروم أخذوا أموالنا ودوابنا، ولم نخالف نحن عليكم، وكنا على الطاعة، فرد عليهم ما غرموا من أموالهم بعد إقامة البيعة.

وهدم عمرو سور الإسكندرية.

(١) الفروج: واحدها الفرج، وهو الثغر المخوف.

ذكر غزو أرمينية وغيرها وما وقع من الصلح

كان عثمان رضي الله عنه قد استعمل سعد بن أبي وقاص على الكوفة، ثم عزله، واستعمل الوليد بن عتبة بن أبي معيط - وهو أخو عثمان لأُمّه - فعزل الوليد عتبة بن فرقد عن أذربيجان^(١)، فنقضوا العهد فغزاهم الوليد في سنة خمس وعشرين، وجعل على مقدمته ابن شيبيل الأحمسي، وأغار على أهل موقان^(٢) وما جاورها، ففتح وغنم وسبى، وطلب أهل كور أذربيجان الصلح، فصالحهم على صلح خديفة، وهو ثمانمائة ألف درهم، فقبض المال ثم بث سراياه، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في أنني عشر ألفا فقتل وسبى وغنم، ثم انصرف وقد ملأ يده حتى أتى الوليد. وعاد الوليد وجعل طريقه على الموصل، ثم أتى الحديثة.

قال: ولما نزل الوليد بن عتبة الحديثة، أتاه كتاب عثمان رضي الله عنه يقول: إن معاوية كتب إلي أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة، وقد رأيت أن يمدّهم أخوانهم من أهل الكوفة. فابعث إليهم رجلاً له نجدة ويأس في ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه، والسلام.

فقام الوليد في الناس، وأعلمهم الحال، وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب معه ثمانية آلاف، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، فشؤوا الغارات، فأصاب الناس ما شاؤوا، وافتحوا حصوناً كثيرة.

وقيل: إن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة، كان سعيد بن العاص لما كان على الكوفة؛ وكان سبب ذلك أن عثمان كتب إلى معاوية يأمره أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية، فوجهه إليها، فأتى قايلاً فحصرها، وضيق على من كان بها، فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية، فجلا كثير منهم، فلحقوا ببلاد الروم، وأقام حبيب بها فيمن معه أشهراً، ثم بلغه أن بطريق أرمينية قس - وهي ملطية، وسيواس وقونية، وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية - وأسمه الموريان، قد توجه نحوه في ثمانين ألفاً من الروم. فكتب إلى معاوية بذلك، فكتب

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وباء ساكنة، وجيم: حدها من برذعة مشرقاً إلى أروزيان مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجل، والطرم... ومن مشهور مدائننا: تبريز، والمراغة، وخوي، وسلماس، وأرمية وغيرها... (معجم البلدان).

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال... (معجم البلدان).

معاوية إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص، يأمره بإمداد حبيب، فأمدّه بسلامان في ستة آلاف، فأجمع حبيب على تببيت الروم، فسمعت أمراؤه أم عبد الله بنت يزيد الكلبيّة، فقالت: أين موعذك؟ فقال: سُرّادقُ الموريان، ثم بيّتهم، فقتل من وقف له، ثم أتى السُرّادق فوجد أمراؤه قد سبقته إليه، ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى قَالِقْلَا، ثم سار فيها فنزل مربالا، فأناه بطريق خِلاط^(١) بكتاب عياض بن غنم بأمانه فأجراه عليه، وحمل إليه الطريق ما عليه من المال.

ونزل حبيب خِلاط، ثم سار منها، فلقيه صاحب مَكْس، وهي من البُسُفُرجان، فقاطعه على بلاده، ثم سار منها إلى أزدشاط وهي القرية التي يكون بها القُرْمِزُ^(٢) الذي يُصْنَعُ به، فنزل على نهر دَبِيل، وسرح الخيول إليها وحصرها، فتحصن أهلها، فنصب عليهم منجنيقا، فطلبوا الأمان، فأجابهم إليه، وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللُجْم؛ وإنما سُميت ذات اللُجْم لأن المسلمين أخذوا لُجْمَ خيلهم، فكَبَسَهم الروم قبل أن يلجموها، ثم ألجموها وقتلوهم فظفروا بهم.

ثم وجه سرية إلى سِراج طَيْر وبَغْرَوْنَد، فصالحه بطريقها على إتاوة، وقدم عليه بطريق البُسُفُرجان، فصالحه على بلاده، وأتى السَّيْسَبَان^(٣) فحازبه أهلها فهزمهم، وغلب على حصونهم. وسار إلى جُزْزَان، وفتح عدة حصون ومدن تجاوزها صلحا.

وسار سلمان بن ربيعة إلى أَرَان، ففتح البَيْلَقَان صلحا، على أن يؤمّتهم على دمائهم وأموالهم، وحيطان مدنيهم، واشترط عليهم الجزية والخراج، ثم أتى سلمان مدينة بَرْدَعَة فعسكر على الثُرثُور (نهر بينه وبينها نحو فرسخ) فقاتله أهلها أياما، وشن الغارات على قراها، فصالحوه على مثل صلح البَيْلَقَان، ودخلها، ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية، ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام، فقاتلوه فظفر بهم، فأقرهم على الجزية، وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل، ووجه سرية إلى شَمَكُور ففتحوها، وهي مدينة قديمة، ولم تزل معمورة حتى أخرجها السَّوَزْدِيَّة، وهم قوم تجمعوا لما انصرف يزيد بن أسيد عن أرمينية، فعظم أمرهم، ثم عمرها بغا في سنة أربعين ومائتين، وسمّاها المتوكّلية، نسبة إلى المتوكّل.

(١) خِلاط: هي قسبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة، والمياه الغزيرة، ويبردها في الشتاء يضرب المثل... (معجم ياقوت).

(٢) القرمز: صبغ لونه أحمر قان. يقال: إنه عصير نوع من الديدان الصخرية. ويقال: لون قرمزي... (المعجم الوسيط).

(٣) سيستان: بلدة من نواحي آراب، بينها وبين بيلقان أربعة أيام من ناحية أذربيجان... (معجم ياقوت).

وسار سلمان إلى مجمع الرّسّ والكُرّ، ففتح قَبْلَةً، وصالحه صاحبُ شَكِي وغيرها على الإتاوة، وصالحه مَلِكُ شَرْوَانَ، وسائر ملوك الجبال فأهلُ مَسْقَط والشَّابْران^(١)، ومدينة الباب. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر غزو معاوية الروم

وفي سنة خمس وعشرين، غزا معاوية بن أبي سفيان الروم، فبلغَ عَمُورِيَّة فوجد الحصونَ التي بين أنطاكيّة وطَرَسُوسَ خاليّة، فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشام والجزيرة؛ حتى أنصرف من غزائِهِ. ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحُرّ العبسيّ الصائفة وأمره أن يَفْعَلَ مثل ذلك، ولما خرجَ هدمَ الحصونَ إلى أنطاكيّة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح كابل

وفي سنة خمس وعشرين بعثَ عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه عبد الله بن عامر إلى كابل^(٢)، فبَلَّغَهَا في قول، وكانت أعظمَ مِنْ خُرَاسَانَ ولم يزلْ إلى أن مات معاوية، فامتنعَ أهلُهَا. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر غزو إفريقية وفتحها

وفيها بعثَ عمرو بنُ العاصِ عبدَ الله بنَ سعدِ بنِ أبي سَرْح إلى أطرافِ إفريقيّة غازيًا بأمرِ عُثمانَ فَعَنِمَ وعاد، وكتبَ إلى عُثمانَ يستأذنه في غَزَوِهَا، فأذن له، وعزلَ عمرو بنَ العاصِ عن خَرَاكِ مَضَرَ. واستعملَ عبدَ اللَّهِ بنَ سعد في سنة ست وعشرين، فَتَنَّا زَعَا الأَمْرَ.

فكتبَ عبدُ الله إلى عُثمانَ أَنَّ عَمْرًا كسرَ عليّ الخراجَ، وكتبَ عمرو إنَّ عبدَ اللَّهِ كسرَ عَلِيّ مَكِيدَةَ الحَرْبِ. فعزَلَ عثمانَ عَمْرًا واستقدمه، واستعملَ عبدَ اللَّهِ على حربِ مَصَرَ وخَرَاجِهَا، وأمره أن يغزو إفريقيّة وقال: إن فتحَ اللَّهُ عليكَ فلكَ خُمُسُ الخُمُسِ نَقْلًا^(٣).

(١) شابران: مدينة من أعمال أَران، استحدثها أنوشروان، وقيل: من أعمال دربند وهو باب الأبواب، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) كابل: بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور. وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... (معجم البلدان).

(٣) النفل: الغنيمة أو الهبة.

وأمر عثمانُ عبدَ اللَّهِ بنَ نافع بن عبد القيس وعبدَ اللَّهِ بنَ نافع بن الحارث على جُنْدٍ، وسَرَّحَهُمَا، وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سَعْدٍ على صاحب إفريقية، ثم يقيم عبد الله في عَمَلِهِ فخرجوا ووصلوا إلى أرض إفريقية في عشرة آلاف من شُجْعَانِ الإسلام، فصالحهم أهل إفريقية على مال يؤدونه، ولم يُقَدِّمُوا على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها.

ثم أرسل عبد الله إلى عثمان يستشيريه في قَصْدِ إفريقية، وفتحها، فجهز إليه عثمان جماعة من أعيان الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وغيره، فسار بهم ابن سعد إلى إفريقية.

فكان من أمر فتح إفريقية ما نذكره إن شاء الله تعالى في الباب السادس من القسم الخامس من هذا الفن في أخبار إفريقية، وبلاد المغرب بما هو أبسط من هذا القول، وهو السفر الثاني والعشرون من هذه السُخَّة.

قال: لما فُتِحَتْ سَبَيْطَلَة^(١) وهي دار الملك، وجِدَ فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سَهْمُ الْفَارِسِ ثلاثة آلاف دينار، وسهم الرّاجِل ألف دينار.

وبعث عبد الله بن سعد جُيُوشَهُ في البلاد، فبَلَعَتْ قَفْصَةً، فَسَبُّوا وَغَنِمُوا، وبعث عَسْكَرًا إلى حِصْنِ الْأَجَمِ، وقد أحتَمَى به أهل البلاد، فحَصَرَهُ وَفَتَحَهُ بِالْأَمَانِ، فصالحه أهل إفريقية على الفِءِ، ألف وخمسمائة ألف دينار.

وسار عبد الله بن الزبير إلى عثمان بالبشارة، وتنقّل بابنة الملك، ثم عاد عبد الله بن سعد من إفريقية إلى مِصْرَ، وكان مقامه بها سنة وثلاثة أشهر، ولم يفقد من المسلمين إلا ثلاثة عشر رجلًا، وحُيِّلَ خُمْسُ إفريقية إلى المدينة، فأبتاعه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار، فوضّعها عنه عثمان وهو مما أخذ عليه، وأنكره الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقال في ذلك عبد الرحمن بن حنبل أحد الصحابة رضي الله تعالى عنهم:

أحلف بالله جهّد اليمين	ما ترك الله أمرًا سدى
ولكن جعلت لنا فتنة	لكي تبلى بك أو تبلى
دعوت الطريد فأذنيته	خلافًا لما سئله المضطفي
ووليت قُرباك أمر العباد	خلافًا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خُمس الغنيم	آثرته وخميت الحمى

(١) سبَيْطَلَة: مدينة من مدن إفريقية؛ بينها وبين القيروان سبعون ميلًا... (معجم ياقوت).

وما لآ أتاني به الأشعري من ألقى أعطيته من دنأ
فلان الأميين قد بيئنا منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا غيلة دزهما ولا قسما دزهما في هوى^(١)

قال: ولما فتحت إفريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس أن يسير إلى الأندلس، فأتاها من البحر، ففتح الله تعالى على المسلمين.

وفي سنة سبع وعشرين فتحت إسطخر، وهو الفتح الثاني، وكان فتحها الآن على يد عثمان بن أبي العاص.

وقد ذكرنا الأول في خلافة عمر. وفيها غزا معاوية بن سفيان رضي الله تعالى عنه قبرس.

ذكر فتح جزيرة قبرس

كان فتحها على يد معاوية بن أبي سفيان، واختلف في وقته، فقيل: فتحت في سنة ثمان وعشرين، وقيل: في سنة تسع وعشرين، وقيل: في سنة ثلاث وثلاثين.

وكان قد ألح على عمر رضي الله عنه في غزو البحر، وذكر قزب الروم من جنص، وقال: إن قرية من قرى جنص ليسمع أهلها نبأ كلابهم وصيأح دجاجهم.

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: أن صيف لي البحر وراكبه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركذ خرق القلوب، وإن تحرك أزاع العقول، يزاد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق^(٢).

فلما قرأ كتاب عمرو، كتب إلى معاوية: والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض، فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، لمسلم أحب إلي مما حوت الروم. فإياك أن تعرض إلي، فقد علمت ما لقي الغلاء مني.

وترك ملك الروم الغزو، وكتب عمر وقاربه، فلما كان زمن عثمان كتب معاوية إليه يستأذنه في غزو البحر مرارا، فأجابته إلى ذلك وقال: لا تنتخب الناس ولا تفرغ بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعا، فاحمله وأعنه، ففعل.

(١) غيلة: أي على غفلة منه.

(٢) برق: أي فزع ودهش فلم يبصر.

واستعملَ عبدَ اللَّهِ بنَ قيسِ الحارثيَّ حليفَ بني قَرَازَةَ، وسارَ المسلمونَ إلى قُبرسَ، وسارَ إليها عبدُ اللَّهِ بنُ سعدٍ من مصرَ، فاجتَمَعُوا عليها فصالَحَهم أهلُها على جزيةٍ، وهي سبعة آلاف دينارٍ في كلِّ سنةٍ، ويؤدُّونَ للرُّومِ مثْلَها، لا يمنعُهم المسلمونَ مِنْ ذلكَ، وليسَ على المسلمينَ منهم مِمَّنْ أرادَهُمْ مِنْ ورائِهِم. وعليهم أن يؤدُّوا المسلمينَ بِمَسِيرِ عدوِّهم من الرُّومِ، ويكونَ طريقُ المسلمينَ إلى العدوِّ عليهم، فقبَلُوا ذلكَ منهم، وعادوا عنهم.

وشهدَ هذه الغزاةَ جماعةٌ من الصحابةِ، منهم: أبو ذَرَّ الغفاري، وعبادةُ بنُ الصَّامِتِ، ومعه زوجته أُمُّ حَرَامِ بنتُ مِلْحانَ، وأبو الدَّرْداءِ شَدَّادُ بنُ أوسَ.

وفي هذه الغزاة ماتت أُمُّ حَرَامِ، أَلْقَتْها بَغْلَتُها بجزيرة قُبرسَ فاندَقَ عنقُها، وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ أخبرَها أَنَّها مِنْ أوَّلِ من يَغزو في البحرِ.

قال: وبقيَ عبدُ اللَّهِ بنُ قيسَ على البحرِ، فغزا خمسينَ غَزاةً في البحرِ، من بَيْنِ شاتِيَةِ، وصائفةٍ، لم يَنْكَبْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ، وكان يدعو اللَّهَ أن يُعافِيَه في جُنْدِهِ، ثم خرَجَ هو في قاربٍ طليعةً، فانتَهى إلى المَرْفَأِ من أرضِ الرُّومِ، وعليه مساكينُ يسألونَ، فتصدَّقَ عليهم، فرجَعَتْ امرأةٌ منهم إلى قريتها، فقالت: هذا عبدُ اللَّهِ بنُ قيسَ في المَرْفَأِ فبادروا إليه، وهجموا عليه، فَقَتَلُوهُ، بعدُ أن قاتَلَهُم، فأصيبَ وخَدَه، ونجا المَلأَحُ حَتَّى أتى أصحابُه فأعلَمَهُم، فجاؤوا حَتَّى رَسَوْا بالمَرْفَأِ وعليهم سُفَيانُ بنُ عوفِ الأزدِيّ، فخرَجَ إليهم فقاتَلَهُم.

وقيلَ لتلك المرأةِ بعد ذلك: بأيِّ شيءٍ عَرَفْتَ عبدَ اللَّهِ بنَ قيسَ؟ قالت: كان كالثَّاجِرِ، فلَمَّا سألته أعطاني كالمَلِكِ، فعرَفْتُهُ بهذا.

ولَمَّا كانت سنة اثنتين وثلاثينَ أعانَ أهلُ قُبرسَ الرُّومَ على غَزوِ المسلمينَ بمراكِبَ أعطَوْهم إِيَّاهَا، فغزاهم معاوية في سنة ثلاث وثلاثينَ فَفَتَحَها عَثْوَةً، فَقَتَلَ وَسَبَى، ثم أقرَّهم على صُلَحِهِم، وبعثَ إليهم اثني عشرَ أَلْفًا فَبَنَوْا المساجِدَ، وبني بها مدينةً.

وقيل: كانت الغزوةُ الثانيةُ في سنة خمسٍ وثلاثينَ.

وفي سنة ثمانٍ وعشرينَ غزا حبيبُ بنُ مسلمةَ سوريةَ مِنْ أرضِ الرُّومِ. والله تعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيلُ.

ذكر نقض أهل فارس وغيرهم وفتح إصطخر ودراجزد

وفي سنة تسع وعشرين نقض أهل فارس بعُبيد الله بن معمر، فسار إليهم، فالتقوا على باب إصطخر، فقتل عبيد الله، وانهزم المسلمون. فبلغ الخبر عبد الله بن عامر أمير البصرة، فاستنفر أهل البصرة وسار إلى فارس، فالتقوا بإصطخر، واشتد القتال، فهزم المسلمون الفرس، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وفُتِحَتْ إصطخر عنوة، وأتى درابجرد، وقد غدر أهلها، ففتحها وسار إلى مدينة جور، فانتهضت إصطخر، فلم يرجع إليها، وتمم السير إلى جور^(١) فحاصرها، وكان هرم بن حيان محاصرًا لها، وكان المسلمون يحاصرونها وينصرفون عنها فيأتون إصطخر، ويغزون نواحي كانت تنتقض عليهم، فلم يزل عبد الله بن عامر عليها حتى فتحتها.

وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلي ذات ليلة، وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم، فجاء كلب فجره وعدا به حتى دخل المدينة من مدخل خفي، فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة، فلما فرغ ابن عامر منها عاد إلى إصطخر وفتحها عنوة بعد أن حاصرها ورماها بالمجانيق، وقتل بها خلقًا كثيرًا من الأعاجم، وأتت أكثر أهل البيوتات، ووجه الأساورة^(٢)، وكانوا قد لجؤوا إليها.

وقيل: إن أهل إصطخر لما نكثوا عاد إليها ابن عامر قبل وصوله إلى جور، فملكها عنوة، وعاد إلى جور، وأتى درابجرد فملكها، وكانت منتقضة أيضًا، ووطىء أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذلك. وكتب إلى عثمان بالخبر، فكتب إليه أن استعمل على بلاد فارس هرم بن حيان الشكري، وهرم بن حيان العبدي، والخربت بن راشد، والترجمان الهجيمي.

وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة، فيجعل الأحنف بن قيس على المروزي، وحبيب بن قرة اليزبوعي على بلخ، وخارجة بن عبد الله بن زهير على هراة^(٣)، وأمير بن أحمر على طوس، وقيس بن هبيرة وقيسا السلمي على نيسابور، والله أعلم.

(١) جور: مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وهي في الإقليم الثالث... والعجم تسميها كور، وكور اسم القبر بالفارسية، وهي مدينة نزهة طيبة... (معجم البلدان).

(٢) الأسوار: قائد الفرس؛ أو الجيد الرمي بالسهم وغيرها. والأصل أساورة الفرس وكانوا رماة الحدق.

(٣) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان.. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر غزو طبرستان

في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص عامل الكوفة طبرستان ومعه الحسن والحسين وابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان، وابن الزبير وغيرهم، ولم يغزها غيره أحد على أصح الأقوال.

وقد ذكرنا فيما تقدم في خلافة عمر رضي الله عنه فتحها، والخلاف فيه.

قال: فأتى سعيد جرجان، فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طميسة وهي كلها من طبرستان، متاخمة جرجان على البحر، فقاتله أهلها، فصلّى صلاة الخوف وحاصرهم، فسألوه الأمان فأعطاهم، على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً، واحتوى على ما في الحصن، وفتح سعيد نامية، وليست مدينة، هي صحارى. والله أعلم.

ذكر غزو الصواري

كانت هذه الغزوة في سنة إحدى وثلاثين، وقيل في سنة أربع وثلاثين، وكان سببها أن المسلمين لما فعلوا بأهل إفريقية ما فعلوا عند فتحها، عظم ذلك على قسطنطين بن هرقل، فخرج في جمع لم يجمع الروم مثله مذ كان الإسلام.

قيل: خرج في خمسمائة مركب، وقيل: في ستمائة، وخرج المسلمون، وعلى أهل الشام معاوية بن سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فالتقوا، وقربوا السفن بعضها إلى بعض، فاقتتلوا بالسيف والخنجر، فأنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم قسطنطين جريحاً، ولم ينج من الروم إلا الشريد، وأقام عبد الله بن سعيد بذات الصواري بعد الهزيمة أياً ما ورجع.

وأما قسطنطين فإنه وصل في مركبه إلى صقلية، فقال أهلها: أهلك التُّصْرانية، وأفئنت رجالها، لو أتانا أهل المغرب لم يكن عندنا من يمنعهم، ثم أدخلوه الحماة وقتلوه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر مقتل يزيدجرد آخر ملوك بني ساسان

قال: لما فتح عبد الله بن عامر بلاد فارس على ما قدمناه، هرب يزيدجرد إلى خراسان، فوجه عبد الله في طلبه مجاشع بن مسعود وقيل: غيره، فأتبعه إلى كزمان، وكثر الثلج والبرد، فهلك جيش مجاشع، ورجع هو.

واختلفَ في قتلِ يَزْدَجَرْدَ، ف قيل: هَرَبَ من كِزْمَانَ إلى مَرَوْ ومعه خُرَزَادُ أخو رُسْتَمَ، فرجعَ عنه إلى العراقِ، وأوصى به ماهَوْنَه مَرْزِيَانُ مَرَوْ، فسأله يَزْدَجَرْدَ مَالاً فمَنَعَهُ مخافةَ أهلِ مَرَوْ على أنفسهم فأرسلوا إلى التُّركِ يَسْتَنْصِرُونَهُم عليه، فأَتَوْهُ فبيَّتوه وقتلوا أصحابه، فخرج ماشياً إلى وَسَطِ المَرْغَابِ^(١)، فأوى إلى بيت رجل ينقرُ الأَرْحَاءَ^(٢)، فلما نام قَتَلَهُ.

وقيل: بل قَتَلَهُ أهلُ مَرَوْ، ولم يستنصروا بالتُّركِ. وقيل: غيرُ ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو حَسْبِي.

ذكر فتح خراسان

قال: كان أهلُ خُرَاسَانَ قد عَدَرُوا لَمَّا قُتِلَ عَمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله تعالى عنه، ونَقَضُوا، فلَمَّا افْتَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ بِلَادَ فَارَسَ عَادَ إلى البَصْرَةِ، واستخلفَ على إصْطَخَرَ شريكَ بَنِ الأَعْوَرِ الحَارِثِي، فبنى شريكَ مسجدَ إصْطَخَرَ، ثم تَجَهَّزَ ابْنُ عَامِرٍ مِنَ البَصْرَةِ، واستخلفَ عليها زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ، وسارَ إلى كِزْمَانَ واستعملَ عليها مجاشعَ بْنَ مسعودِ السُّلَمِي، وله صحبةٌ، وأمره بمحاربة أهلها، وكانوا قد نَكَّثُوا.

واستعملَ على سجستانَ الربيعَ بْنَ زِيَادِ الحَارِثِي، وكانوا قد أعدوا له أيضاً، ونَقَضُوا الصُّلْحَ.

وسارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ إلى نيسابورَ، وعلى مقدَّمته الأحنفُ بْنُ قيسَ، فأتى الطَّبْسَيْنَ، وهما حصنان، وهما بابَا خُرَاسَانَ، فصالحه أهلها، وسارَ إلى قُوهِسْتَانَ فقاتلَهُ أهلها، فقاتلَهُمْ حتَّى ألجأهم إلى حصنه، وقدم عليه ابْنُ عَامِرٍ، فصالحه أهلها على سِتْمِائَةِ ألفِ دَرْهَمٍ، وبِتُّ سَراياه فَفَتَحَتِ البِلَادَ، وفتحَ بهتَ، وبُشِتَ^(٣)، (وهي بالشَّيْنِ المعجمة)، وليست بُشِتَ المعروفة، ثم فتحَ نيسابورَ بَعْدَ أَنْ استولَى عَلَى أعمالها، وبعد أن حاصَرَهَا أَشْهُراً.

(١) المَرغَابُ: قرية من قرى هراة ثم من قرى مالىن...

(٢) الأَرْحَاءُ: واحدتها الرحى، وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) بُشِتَ: بالضم: بلد بنواحي نيسابور... وهي كورة قصبتها طريثت... وتشتمل على مائتين وست وعشرين قرية منها كندر التي منها الوزير أبو نصر الكندري... وقد ينسب إليها جماعة كثيرة في فنون العلم... (معجم البلدان لياقوت).

وكان لكل ربع منها مَرزبان من القرى يحفظه، فطلب أحدُهم الأمان والصلح على جميع نيسابور، فصالحه على ألف ألف درهم، وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمي، وسير جيشاً إلى نسا^(١)، وبيوزد ففتحوها صلحاً، وسير سرية أخرى إلى سرخس، فقاتل أهلها، ثم طلبوا الأمان والصلح على مائة رجل، فصالح مَرزبانها على ذلك، فأجيب إلى ذلك، وسمى مائة رجل، ولم يذكر نفسه، فقتله، ودخل سرخس عنوة، وأتى مَرزبان طوس إلى عبد الله، فصالحه على ستمائة ألف درهم.

وبعث جيشاً إلى هراة عليهم عبد الله بن خازم، وقيل غيره، فسار مَرزبانها إلى ابن عامر وصالحه على هراة، وبأذغيس وبوشنج على ألفي ألف درهم، ومائتي ألف درهم.

وكانت مَرزوة كلها صلحاً إلا قرية السنج^(٢)، (وهي بكسر السين المهملة)، فإنها فتحت عنوة.

وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فمر برُستاق يُعرف برُستاق الأحنف، فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم، ومضى إلى مَرزوة الرُود، فقاتله أهلها، فهزمهم، ثم صالحهم مَرزبانها على ستمائة ألف درهم.

فاجتمع أهل طخارستان والجوزجان والطالقان، والفارياب ومن حولهم، فلقوه في خلق كثير، فالتقوا واقتتلوا، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم قتلاً ذريعاً، وعاد إلى مَرزوة الرُود، ولحق بعض العدو بالجوزجان، فوجه إليهم الأحنف بن قيس الأقرع بن حابس التميمي في جيش، وقال: يا بني تميم، تحابوا وتبادلوا تعبدل أموركم، وابدؤوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا فيسلم لكم جهادكم.

فسار الأقرع فلقى العدو بالجوزجان^(٣)، فكانت بالمسلمين جولة، ثم عادوا

(١) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام... وهي مدينة وبثة جداً يكثر بها خروج العرق المدني حتى أن الصيف قل أن ينجو من أهلها...

(٢) سنج: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره جيم: وهي من أعظم قرى مرو الشاهجان على نهر هناك يكون طولها نحو الفرسخ إلا أن عرضها قليل جداً. بنيت دورها على النهر ثم صارت مدينة عظيمة جداً... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) جوزجان وجوزجانان واحد: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الرُود وبلخ، ويقال لقصبته اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار، وبها قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وقد نسب إليها جماعة كثيرة... (معجم البلدان).

فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوةً، وفتح الأحنف الطالقان صلحاً، وفتح الفارياب، وقيل: بل فتحها أمير بن أحمَر.

ثم سار الأحنف إلى بلخ، وهي مدينة طخارستان، فصالحه أهلها على أربعين ألف. وقيل: سبعمائة ألف.

فاستعمل على بلخ أسيد بن المُشَمْس، ثم سار إلى خوارزم، وهي على نهر جيحون، فلم يقدِر عليها، فعاد إلى بلخ.

ولما تم هذا الفتح لعبد الله بن عامر، قال الناس: ما فتح لأحد ما فتح عليك فارس، وكزمان، وسجستان، وخراسان، فقال: لأجعلن شكرِي لله على ذلك؛ أن أخرج محرمًا من موقفي هذا. فأحرم بعُمرَة من نيسابور.

وقدّم على عثمان، واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم، فسار قيس في أرض طخارستان، فلم يأت بلدًا منها إلا صالحه أهلها، وأدعوا له، إلا سمنجان^(١)، فإنه فتحها عنوةً. والله سبحانه وتعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر فتح كرمان

قال: لما سار عبد الله إلى خراسان استعمل مجاشع بن مسعود السلمي على كزمان كما ذكرنا، وأمره أن يفتحها، وكان أهلها قد نكثوا وغدروا، ففتح حميد عنوةً، واستبقى أهلها وأمنهم، وبنى بها قصرًا يُعرف بقصر مجاشع، وأتى السيرجان، وهي مدينة كزمان فأقام عليها أيامًا يسرةً، وقد تحصن أهلها فقاتلهم وفتحها عنوةً، فجلا كثير من أهلها.

وفتح جيرفت عنوةً، وسار في كرمان فدوخ أهلها، وأتى القفص^(٢) وقد تجمع له خلق كثير من الأعاجم الذين جَلَّوْا، فقاتلهم، فظفر بهم وظهر عليهم، وهرب كثير من أهل كزمان، فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران، وبعضهم بسجستان، فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم، واحتفروا لها القني في مواضع منها، وأدوا العشر منها. والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلّم.

(١) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان، وبها شعاب كثيرة، وبها طائفة من عرب تميم، ومن بلخ إلى خلم يومان، ومن خلم إلى سمنجان خمسة أيام...

(٢) القفص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزّه، ومجالس الفرح، تنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة...

ذكر فتح سجستان وكابل^(١) وغيرها

قد ذكرنا أنَّ عبدَ الله بنَ عامر استعمل على سجستان الربيعَ بن زياد الحارثي وسجستان من الفتوحات في خلافة عُمر، ولَمَّا نقض أهلُها؛ سار الربيعُ وقطعَ المفازَ حتى حصَّنَ زالق، فأغارَ على أهلِه في يومِ مِهْرَجَان وأخذ الدُهْقَان، فافتدى نفسه بأنَّ ركزَ عنزةً^(٢) وعمرها ذهبًا وفضَّةً، وصالحه على صلح فارس، ثم أتى بلدةً يُقال لها: كَرْكُوبِه فصالحه أهلُها، وسار إلى زرنج، فنزل على مدينة روست بقرب زرنج^(٣)، فقاتله أهلُها وأصيب رجالٌ من المسلمين، ثم انهزم المشركون، وقُتل منهم مقتلةٌ عظيمةٌ.

وأتى الربيعُ نَاشِرُودَ ففتحها، ثم شرواها فغلب عليها، وسار إلى زرنج فنازلَ أهلها، فهزَمَهم وحصرهم، فأرسلَ إليه مَرْزَبَانُها ليصالحه واستأمنه ليحضر عنده، فأمنه، وجلس الربيعُ على جَسَدٍ من أجساد القتلى، وأثكأ على آخر، وأمر أصحابه ففعلوا مثله، فلَمَّا رَأَهم المَرْزَبَانُ هالَه ذلك، فصالحه على ألف وصيف^(٤) مع كُلِّ وصيف جامٍ^(٥) من دَهَبٍ ودخل المسلمون المدينة.

ثم سار منها إلى سنارود، وهو وادٍ، فعبره، وأتى القرية التي بها مَرْبُط فرس رُسُثم الشديد، فقاتله أهلُها فظفر بهم، ثم عاد إلى زرنج وأقام بها نحوَ سنةٍ، وعاد إلى ابن عامر، واستخلفَ عليها عاملًا، فأخرج أهلُها العاملَ، وامتنعوا. فكانت ولايةُ الربيع سنةً ونصفًا، سبى فيها أربعين ألفَ رأسٍ.

وكان كاتبه الحسنُ البصري، فاستعمل ابنُ عامر عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ سَمُرة بن حبيب بن عبدِ شمس على سجستان، فسار إليها، فحصرَ زرنج، فصالحه مَرْزَبَانُها على ألفي ألفِ دِرْهم وألفِ وصيف.

وغلبَ عبدُ الرَّحْمَنِ على ما بين زرنج والكَشَّ^(٦) من ناحية الهند، وغلبَ من ناحية الرُّخْج على ما بينه وبين الداو، فلَمَّا انتهى إلى بلد الداو وحصرهم في جبلٍ

(١) كابل: قال ابن الفقيه: كابل من ثغور طخارستان، ولها من المدن: واذان وخواش، وخشك، وجزه... وبكابل عود ونارجيل وزعفران وإهليلج لأنها متاخمة للهند... (معجم البلدان).

(٢) العنزة: رميح بين العصا والرمح، فيه زج.

(٣) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلها.

(٤) الوصيف: الخادم، غلام كان أو جارية.

(٥) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها.

(٦) الكش: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل، ينسب إليها أبو زرعة محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الجنيد الكشي الجرجاني...

الزُّوز، ثم صَالَحَهُمْ ودَخَلَ الزُّوز، وهو صَنَمٌ من ذهب عِناهُ ياقُوتَتَانِ، فقطع يَدَهُ وأخذ الياقوتتين وقال لِلْمَرْزُبان: دُونَكَ الذَّهَبَ والجَوْهَرَ، وإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أُعْلِمَكَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

وفتح كابل، وزابلستان، وهي ولاية غزنة، ثم عادَ إلى زَرَنْج، فأقامَ بها حتى اضطرب أمرُ عثمان، فاستخلفَ عليها أميرَ بَنِ أَحمر، وانصرف فأخرجَ أهلُها أميرًا وامتنعوا.

وفي سنة اثنتين وثلاثين غزا معاويةُ بْنُ أَبِي سفيان مضيق القُسطنطينية ومعه زوجُته عاتكة بنتُ قَرْظَة، وقيل: فاختة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقته

في سنة اثنتين وثلاثين جَمَعَ قارن جمعًا كثيرًا من ناحية الطَّبَسِينَ وأهل باذغيس وهَرَاة وَفِهَسْتان، وأقبل في أربعين ألفًا.

وقال قيسُ بن الهيثم أميرُ خراسانَ من قَبْلِ ابنِ عامرٍ لعبد الله بن خازم: ما تَرَى؟ فقال: أرى أن تُخَلِّيَ البلادَ؛ فَإِنِّي أميرُها، ومَعِيَ عهدُ ابنِ عامرٍ؛ إن كانت حَرْبٌ بِخُراسانَ فأنا أميرُها، وأخرج كتابًا كان قد افْتَعَلَهُ، فكَرِهَ قيسُ منازَعَتَهُ وخَلَّاهُ والبلادَ.

وأقبلَ إلى ابنِ عامرٍ فلامَهُ، وقال: تركتَ البلادَ خرابًا، وأقبلتَ! فقال: جاءني تعهدك..

ولمَّا توجَّهَ قيسُ بْنُ خازمٍ إلى قارن في أربعة آلاف، أمرهم أن يحملوا الودَكَ^(١)، فلَمَّا قَرُبُوا من ذلك، وقَرَّبَ من الودَك، أمرَ النَّاسَ أن يَدْرَجَ كل رجل منهم على رُجٍّ رمحه خرقَةً أو قُطْنًا، ثم يَكْثُرُوا دَهْنَهُ، ثم سار حَتَّى أَمْسَى، فَقَدَّمَ أَمَامَهُ ستمائة من أصحابه، ثم اتَّبَعَهُمْ، وأمرَ النَّاسَ أَنْ يُشْعِلُوا النيرانَ في أطراف الرِّمَاح، وانتهتْ مَقْدَمَتُهُ إلى معسكر قارن نصفَ اللَّيْلِ فَنَاشَوْهُمْ، وهاج النَّاسُ على دَهَشٍ، وكانوا قد أَمِنُوا من البَيَّات، ودنا ابن خازم منهم، فرأوا النيرانَ يَمْنَةً وَيسرة تتقدَّم وتتاخَّرُ، وترتفعُ وتنخفضُ، فهاهَمَ ذلك وأهلُ المَقْدَمَةِ يقاتلونهم ثم غَشِيَهُمْ ابنُ خازم بالمسلمين، فَقَتَلَ قارنَ وانهزمَ المشركون، واتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا، وأصابوا سَيِّئًا كثيرًا.

(١) الودك: الدسم؛ أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه؛ أو شحم الألية والجنين في الخروف والعجل.

وكتبَ ابنُ خازمٍ بالفتحِ إلى ابنِ عامرٍ، فرضيَ وأقرَّه على خُرَاسَانَ، فكانَ عليها حتى انقضتْ حَرْبُ الجَمَلِ.

وقيل: لَمَّا جمعَ قارنٌ، استشارَ قيسَ بنَ عبدِ الله عبدَ الله بنَ خازمٍ فيما يصنعُ؟ فأشارَ عليه أن يلحقَ بابنِ عامرٍ، فيخبرَه بكثرةِ العدوِّ، وقالَ له: إنك لا تُطيقُ كثرةَ مَنْ قد أتاك، فأخرجَ بنفسك ونقيمتَ نحنُ بالحصونِ ونُطاولهم حتى يأتينا مددكم.

فخرجَ قيسٌ، فلَمَّا أبعدَ، أظهرَ ابنُ خازمٍ عَهْدًا، وقالَ: قد ولّاني ابنُ عامرٍ خُرَاسَانَ، وسارَ إلى قارنٍ فظفِرَ به كما تقدّمَ.

وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا معاويةَ حضنَ المرأةِ من أرضِ الرُّومِ، بناحيةِ مَلَطِيَّةَ^(١).

وفيها سارَ الأحنفُ بنُ قيسٍ إلى خُرَاسَانَ، وفتحَ المَروَينَ: مَروَ الرُّوذِ ومَروَ الشَّاهِجانَ.

انتهتْ الفتوحاتُ والغزواتُ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ بالصواب. وإليه المرجعُ والمآبُ، وحسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ وصلى اللهُ على سيدنا مُحَمَّدٍ.

ذكر ما وقع في خلافة عثمان غير الغزوات والفتوحات على حُكم السنين

سنة أربع وعشرين

في هذه السَّنة كَثُرَ الرُّعافُ بالنَّاسِ، فسَمِّيَ عامُ الرُّعافِ. وفيها استعملَ عثمانُ سعدَ بنَ أبي وقَّاصٍ على الكوفةِ، وعَزَلَ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ عنها، فعملَ سعدٌ عليها سنةً وبعضَ أخرى.

وقيل: بل أقرَّ عثمانُ عُمَالَ عمرَ رضي الله عنه سنةً؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه أوصى بذلك، ثم عزَلَ المغيرةَ، واستعملَ سعدًا. وحجَّ عثمانُ بالنَّاسِ.

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تناخا الشام وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

سنة خمس وعشرين

في هذه السنة عزل عثمان سعد بن أبي وقاص عن الكوفة في قول بعضهم، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمه، وسبب ذلك أن سعدا رضي الله عنه اقترض من عبد الله بن مسعود^(١) قرضا، فلما تقاضاه ابن مسعود رضي الله عنه لم يتيسر له قضاؤه، فارتفع بينهما الكلام.

فقال سعد: ما أراك إلا ستلقى شرا، هل أنت إلا ابن مسعود، عبد من هذيل! فقال: أجل، والله إنني لابن مسعود، وإنك لابن حمينة.

وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حاضرا فقال: إنكما لصاحب رسول الله ﷺ، ينظر إليكما. ثم ولّى عبد الله، فخرج واستعان بأناس على استخراج المال من سعد، واستعان سعد بأناس على إنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا.

فكان ذلك أول ما نزع^(٢) به الشيطان بين أهل الكوفة، وأول مصر نزع الشيطان بين أهله الكوفة.

وبلغ الخبر عثمان، فغضب وعزل سعدا، وأقر عبد الله، واستعمل الوليد بن عقبة مكان سعد، وكان على عرب الجزيرة عاملا لعمر، وعثمان بعده، فلما قدم الكوفة قال له سعد: أكنست^(٣) بعدنا أم حمقنا بعدك! قال: لا تجزعن أبا إسحاق، كل ذلك لم يكن؛ وإنما هو الملك يتعداه قوم ويتعشاه قوم آخرون. قال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكا.

وقيل: لما قدم الوليد أميرا على الكوفة، أتاه ابن مسعود فقال: ما جاء بك؟ فقال: جئت أميرا. قال ابن مسعود: ما أذري صلحت بعدنا أم فسد الناس! وفيها ولد يزيد بن معاوية، وقيل: في سنة اثنتين وعشرين وقد تقدم. وحج بالناس عثمان.

(١) عبد الله بن مسعود: من بني صاهلة، وهو من المهاجرين الأولين، وله فضائل كثيرة معروفة... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) نزع: أفسد، وحمل بعض القوم على بعض.

(٣) كاس: عقل وظرف وفطن.

سنة ست وعشرين

في هذه السنة زاد عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه في المسجد الحرام ووسعَه، وابتاعَ أملاكَ قَوْمٍ وامتنعَ آخرونَ، فهَدَمَ عليهم، ووضعَ الإيرادَ في بيت المال، فصاحوا بعُثمانَ فحبسهم، وقال: قد فَعَلَ بكم عمرُ هذا فلمَ تصيحُوا! فكلَّمَهُ فيهم عبدُ الله بنُ خالد بن أسيد فأطلقَهُم.

وفيها استعمل عثمانُ رضي الله عنه عبدَ الله بن أبي سَرْجٍ على مصر، وكان أخا عثمانَ مِنَ الرِّضَاعَةِ، وعزلَ عمرو بنَ العاص.

* * *

سنة سبع وعشرين

في هذه السنة حجَّ عثمانُ بالنَّاسِ.
وفيها من الغَزَوات ما تقدَّم بيانهُ.

* * *

سنة ثمان وعشرين

في هذه السَّنَةِ تزَوَّجَ عثمانُ نائلةَ بنت الفَرافِصَةِ، وكانت نصرانيَّةً، فأسلمت قبلَ أنْ يَدْخَلَ بها.

وفيها بَنَى عثمانُ رضي الله عنه الزَّوْراءَ.
وحجَّ بالنَّاسِ عثمانُ رضي الله عنه في هذه السَّنَةِ.

* * *

سنة تسع وعشرين

ذكر عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن العاص
عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بن عامر على ذلك

قيل: كان عزلُ أبي موسى الأشعريَّ عن البصرة، وعزلُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمانَ والبحرينَ، واستعمالُ عبد الله بن عامر على أعمالها في هذه السَّنَةِ.

وقيل: كان ثلاث سنينَ مضتَ من خلافة عثمانَ وكان سبب عزل أبي موسى أن

أهل إِيذَج^(١) والأكراد كَفَرُوا في السنة الثالثة من خلافة عثمان فنَادَى أبو موسى في النَّاسِ وحَضَّهُم على الجهاد، وَذَكَرَ من فَضْلِ الماشي للجهاد ما ذكر، فَحَمَلَ قَوْمٌ على دَوَابِّهِمْ، وَأَجْمَعُوا على أَنْ يَخْرُجُوا رَجَالَةً لِيَنَالُوا فَضْلَ الماشي.

وقال آخرون: لا نَعَجَل حَتَّى نَنْظُرَ ما يَصْنَع، فَإِنْ أَشْبَهَ قَوْلَهُ فَعَلَهُ فَعَلْنَا كما يَفْعَلُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَخْرَجَ ثَقْلَهُ على أَرْبَعِينَ بَغْلًا، فَعَلَقُوا بَعَنَانٍ دَابَّتَهُ، فَقَالُوا: احْمَلْنَا على بعض هذه الفضول، وارْعَبْ في المَشْيِ كما رَعَبْتَنَا، فَضَرَبَهُمْ بِسَوْطٍ، وَتَرَكُوا دَابَّتَهُ، وَأَتَوْا عَثْمَانَ فَاسْتَعَفَوْهُ مِنْهُ، وَقَالُوا: ما كُلُّ ما نَعْلَمُ نُحِبُّ أَنْ تَسْأَلَنَا عَنْهُ، فَأَبْدَلْنَا ما سِوَاهُ، فَقَالَ: مَنْ تَحِبُّونَ؟ فَقَالَ: غِيْلانُ بنُ خَرْشَةَ، وَفِي كُلِّ أَحَدٍ عَوْضٌ مِنْ هَذَا الْعَبْدِ الَّذِي قَدْ أَكَلَ أَرْضَنَا أَمَّا مِنْكُمْ خَسِيسٌ فَتَرْفَعُونَهُ! أَمَّا مِنْكُمْ فَقَئِيرٌ فَتَجْبِرُونَهُ. يا مَعْشَرَ قَرِيشٍ حَتَّى مَتَى يَأْكُلُ هَذَا الشَّيْخُ الْأَشْعَرِيُّ هَذِهِ الْبِلَادَ!

فَعَزَلَ عَثْمَانُ أَبَا مُوسَى؛ وَأَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَامِرٍ بنَ كُرَيْزٍ بنَ حَبِيبٍ بنَ عَبْدِ شَمْسٍ بنَ عَبْدِ مَنَافٍ بنَ قُصَيِّ الْقُرَشِيِّ الْعَبْشَمِيِّ، وَهُوَ ابْنُ خَالَ عَثْمَانَ، وَمِمَّنْ وُلِدَ على عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعَزَلَ أَيْضًا عَثْمَانُ عَثْمَانَ بنَ أَبِي الْعَاصِ عَنْ عُثْمَانَ وَابْنَيْهِ، وَاسْتَعْمَلَ عَبْدَ اللَّهِ على ذَلِكَ كُلِّهِ، وَكَانَ إِذْ ذَلِكَ ابْنُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً.

وَاسْتَعْمَلَ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على خُرَاسَانَ عُمَيْرَ بنَ عَثْمَانَ بنَ سَعْدٍ، فَأُتِخِنَ فِي خُرَاسَانَ حَتَّى بَلَغَ قَرْوَانَةَ، فَلَمْ يَدْعُ دُونَهَا كُورَةً إِلَّا أَصْلَحَهَا.

وَاسْتَعْمَلَ على سَجِسْتَانَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَيْرِ اللَّيْثِيِّ، فَأُتِخِنَ فِيهَا إِلَى كَابُلٍ.

وَبِعَثَ إِلَى مُكْرَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بنَ مَعْمَرٍ، فَأُتِخِنَ فِيهَا حَتَّى بَلَغَ الثُّهْرَ وَبِعَثَ على كَرْمَانَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عُيَيْسٍ.

ثُمَّ عَزَلَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عُمَيْرٍ عَنْ سَجِسْتَانَ. وَاسْتَعْمَلَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَامِرٍ فَأَقْرَهُ عَلَيْهَا سَنَةً ثُمَّ عَزَلَهُ. وَاسْتَعْمَلَ عَاصِمَ بنَ عَمْرٍو، وَعَزَلَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عُيَيْسٍ، وَأَعَادَ عَدِيَّ بنَ سَهْلٍ، وَصَرَفَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ مَعْمَرٍ إِلَى فَارَسَ، وَاسْتَعْمَلَ مَكَانَهُ عُمَيْرَ بنَ عَثْمَانَ، وَاسْتَعْمَلَ على خُرَاسَانَ أَمِيرَ بنَ أَحْمَرَ الْيَشْكُرِيِّ، وَاسْتَعْمَلَ على سَجِسْتَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عُمَرَانَ بنَ الْفَضْلِ الْبُرْجُمِيِّ.

(١) إِيذَج: الذال معجمة مفتوحة، وجيم: كورة وبلد بني خوزستان وأصبهان، وهي أجل مدن هذه الكورة.. وهي في وسط الجبال، يقع بها ثلج كثير يحمل إلى الأهواز والنواحي وشربهم من عين شعب سلمان، ومزارعهم على الأمطار، وولهم بطيخ كثير وهو في هوة؛ وقنطرة إِيذَج من عجائب الدنيا المذكورة لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر الزيادة في مسجد النبي ﷺ

وفي سنة تسع وعشرين أيضًا في شهر ربيع الأول، زاد عثمان رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ، فجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص. والله تعالى أعلم وهو حسبي.

ذكر إتمام عثمان الصلاة وما تكلم الناس به في ذلك

وفي هذه السنة حج عثمان رضي الله عنه بالناس، وضرب فسطاطه بمتى، وهو أول فسطاط ضرب بمتى، وأنتم الصلاة بها وبعرفة، فكان أول ما تكلم به الناس في عثمان ظاهرًا حين أنتمها، فعاب عليه ذلك غير واحد من الصحابة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما حدث أمر، ولا قدم عهد، ولقد عهدت النبي ﷺ، وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين، وأنت صذرًا من خلافتك. فقال: رأي رأيته.

وبلغ الخبر عبد الرحمن بن عوف، وكان معه، فجاءه وقال: ألم تصل في هذا المكان ركعتين مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وصلتيهما أنت! قال: بلى؛ ولكنني أخبرت من بعض الناس أن بعض من حج من اليمن وجفاة الناس قالوا: إن الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجوا بصلاتي، وقد اتخذت بمكة أهلًا ولي بالطائف مال.

فقال له عبد الرحمن: ما في هذا عذر، أما قولك: اتخذت بها أهلًا، فإن زوجك بالمدينة تخرج بها إذا شئت، وإنما تسكن بسكنائك. وأما مالك بالطائف فيبينك وبينه مسيرة ثلاث ليال. وأما قولك عن حاج اليمن وغيرهم فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي والإسلام قليل، ثم أبو بكر وعمر، فصلوا ركعتين، وقد ضرب الإسلام بجرائه^(١). فقال عثمان: هذا رأي رأيته.

وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين، والله أعلم.

(١) ضرب الإسلام بجرائه: أي ثبت واستقر.

سنة ثلاثين

ذكر عزّل الوليد بن عقبة عن الكوفة

وولاية سعيد بن العاص

في هذه السنة، عزّل عثمان رضي الله عنه الوليد بن عقبة عن الكوفة، وأستعمل عليها سعيد بن العاص، وكان سبب عزله أن أهل الكوفة نسبوه أنه يشرب الخمر، وذكروا ذلك لعثمان، فاستدعاه وطلب من ذكر ذلك عنه، فقال: أتشهدون أنه يشرب الخمر؟ فقالوا لا، قال: فكيف قلتم عنه إنه شربها؟ فقالوا اعتصمناها من إحيتيه، وهو يقيء الخمر، فأمر بجلده، فجلده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أربعين.

وقيل: إن الوليد سكر وصلى بأهل الصبح أربعاً، ثم التفت إليهم وقال: أزيدكم؟ فقال ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم، فقال الحطيئة: [من الكامل]

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعدر
نادى وقد تمت صلاتهم أزيدكم؟ سكرًا وما يذري
فأبوا أبا وهب ولو أذنوا لقرنت بين الشفيع والوثر^(١)

وقال أيضًا: [من الوافر]

تكلم في الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالتفاق
ومج الخمر في سنن المصلى ونادى والجميع إلى افتراق
أزيدكم على أن تحمدوني فما لكم وما لي من خلاق^(٢)!

قالوا: ولما استعمل سعيد بن العاص، قال بعض شعرائهم: [من الوافر]

فرزت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا^(٣)
يلينا من قريش كل يوم أمير محدث أو مستشار
لنا ناز نخوفها فنخشى وليس لهم ولا يخشون ناز

قال: واستعمل عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية وهو والد عمرو بن سعيد الأشدق، فسار إلى الكوفة ومعه من كان قد شخّص من أهل الكوفة مع الوليد، فلما وصلها صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: والله لقد بعثت

(١) الشفيع: ما شفع غيره وجعله زوجًا، وهو خلاف الوثر. والوثر: الفرد.

(٢) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير. (٣) بار: هلك.

إِلَيْكُمْ وَإِنِّي لَكَارَةٌ؛ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَمَّرَ. أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ قَدْ أَطْلَعْتُ خَطْمَهَا^(١) وَعَيْنَيْهَا، وَاللَّهِ لِأَضْرِبَنَّ وَجْهَهَا حَتَّى أَقْمَعَها أَوْ تُغَيِّبَنِي، وَإِنِّي لَرَائِدٌ نَفْسِي الْيَوْمَ. وَنَزَلَ.

وَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَعَرَفَ حَالَ أَهْلِهَا، فَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ: إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ قَدْ اضْطَرَبَ أَمْرُهُمْ، وَغَلِبَ أَهْلُ الشَّرَفِ مِنْهُمْ وَالْبُيُوتَاتِ وَالسَّابِقَةِ، وَالْغَالِبُ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ رَوَادِفُ قَدِمَتْ، وَأَعْرَابُ لَحَقَتْ حَتَّى لَا يُنْظَرُ إِلَى ذِي شَرَفٍ وَلَا بَلَاءٍ مِنْ نَازِلَتِهَا وَلَا نَابِتَتِهَا.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُثْمَانُ: أَمَّا بَعْدُ، فَفَضَّلَ أَهْلَ السَّابِقَةِ وَالْقَدِمَةِ، مِمَّنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ تِلْكَ الْبِلَادَ؛ وَلِيَكُنْ مِنْ نَزَلِهَا غَيْرُهُمْ تَبَعًا لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا تَنَاقَلُوا عَنِ الْحَقِّ، وَتَرَكُوا الْقِيَامَ بِهِ، وَقَامَ بِهِ هَؤُلَاءِ. وَاحْفَظْ لِكُلِّ مَنْزِلَتِهِ، وَأَعْطِهِمْ جَمِيعًا بِقِسْطِهِمْ مِنَ الْحَقِّ، فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ بِالنَّاسِ بِهَا يُصَابُ الْعَدْلُ.

فَأَرْسَلَ سَعِيدٌ إِلَى أَهْلِ الْأَيَّامِ وَالْقَادِسِيَّةِ، فَقَالَ: أَتُتَمَّ وَجُوهُ النَّاسِ، وَالْوَجْهَةُ يَنْبِئُ عَنْ الْجَسَدِ، فَأُبْلِغُونَا حَاجَةَ ذِي الْحَاجَةِ. وَأَدْخَلَ مَعَهُمْ مَنْ يَحْتَمِلُ مِنَ اللَّوَاخِقِ وَالرُّوَادِفِ، وَجَعَلَ الْقُرَاءَ فِي سَمَرِهِ، فَفَسَّتِ الْقَالَةُ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ.

فَكَتَبَ سَعِيدٌ إِلَى عُثْمَانَ بِذَلِكَ، فَجَمَعَ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَتَبَ، فَقَالُوا لَهُ: أَصَبْتَ لَا تُطْمِغُهُمْ، هُمْ لَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ؛ فَإِنَّهُ إِذَا نَهَضَ فِي الْأُمُورِ مَنْ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ لَهَا لَمْ يَحْتَمِلْهَا وَأَفْسَدَهَا.

فَقَالَ عُثْمَانُ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، اسْتَعِدُّوا وَاسْتَمْسِكُوا، فَقَدْ دَبَّتْ إِلَيْكُمْ الْفِتْنَةُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصُّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ.

ذكر جمع القرآن

كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ مَدَدًا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَبِيعَةَ لِحِصَارِ الْبَابِ، وَكَانَ مَعَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَامِلُ الْكُوفَةِ، فَخَرَجَ مَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ حَتَّى بَلَغَ أَدْرِيَجَانَ، فَأَقَامَ حَتَّى عَادَ حُذَيْفَةَ، فَلَمَّا عَادَا وَرَجَعَا، قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ: لَقَدْ رَأَيْتُ فِي سَفَرَتِي هَذِهِ أَمْرًا لَثَنَ نَزَلَ بِالنَّاسِ لِيَخْتَلِفُنَّ فِي الْقُرْآنِ، ثُمَّ لَا يَقُومُونَ عَلَيْهِ أَبَدًا.

(١) الخطام: الزمام، والمراد هنا أن الفتنة قد ظهرت.

قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حِمْص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرؤوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرؤوا على أبي موسى، ويسمون مصحفه لباب القلوب.

فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذّرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من التابعين.

فتفاوض حذيفة، وابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس وسار حذيفة إلى عثمان، وأخبره بما رأى، وقال: أنا النذير العريان، فأذكر الأمة.

فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه، فأرسل إلى حفصة بنت عمر رضي الله عنهما: أن أرسلي إلينا بالصّحيف لتنسخها وكانت هذه الصّحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر رضي الله عنه، وكانت عنده ثم عند عمر، ثم كانت عند حفصة، فأخذها عثمان منها، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وابن عباس وسعيد بن العاص وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان: إن اختلفتم فاكتبوا بلغة قريش؛ فإنما نزل بلسانها.

قال زيد: فجعلنا نكتب؛ فإذا اختلفنا في شيء جمعنا أمرنا على رأي واحد، فاختلفنا في الثابت، فقلنا: الثابت. وقال النفر القرشيون الثابت. فأبى أن يرجع إليهم، وأبوا أن يرجعوا إليّ فرفعنا ذلك إلى عثمان، فقال: اكتبوا الثابت.

قال زيد: وذكر آية كنت سمعتها من رسول الله ﷺ لم أجدها عند أحد حتى وجدتُها عند حُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصاري وهي: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

قال: وكتبت أربع نسخ، فبعث نسخة إلى الكوفة، وأخرى إلى البصرة، وأخرى إلى الشام، وأمسك واحدة لنفسه، وأعاد الصّحف إلى حفصة، وأمر أن يخرق ما سوى ذلك.

وقيل: إن النسخ كانت سبعة، وأنه وجه نسخة إلى مكة، وأخرى إلى اليمن، وأخرى إلى البحرين، والأول أصح.

قال: فعرفَ النَّاسُ فَضْلَ عُمَانَ إِلَّا أَهْلَ الْكُوفَةِ، فَإِنَّ الْمَصْحَفَ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ فَرِحَ بِهِ الصَّحَابَةُ، وَامْتَنَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. فَقَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ. فِيهِمْ فَقَالَ: وَلَا كُلَّ ذَلِكَ، فَإِنَّكُمْ قَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَيِّنًا، فَارْبِعُوا عَلَى ظُلْعِكُمْ^(١).
وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، وَعَابَ عُمَانَ بِجَمْعِهِ النَّاسَ عَلَى الصُّحُفِ، فَتَنَاهَا، وَقَالَ: لَوْ وَلِيْتُ مِنْهُ مَا وَلِيَ عُمَانُ سَلَكَتْ سَبِيلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَفِيهَا زَادَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّبَاءَ الثَّلَاثَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الزُّورَاءِ^(٢)، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر سقوط خاتم النبي ﷺ

وفِيهَا سَقَطَ خَاتَمُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَدِ عُمَانَ فِي بَثْرِ أَرِيَسَ^(٣) وَهِيَ عَلَى مِيلَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ، فَمَا أَذْرَكَ قَعْرُهَا بَعْدُ، وَلَمَّا سَقَطَ مِنْ يَدِهِ، نَزَحُوا مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ فَمَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنْهُ، صَنَعَ خَاتَمًا آخَرَ عَلَى مِثَالِهِ وَنَقَشَهُ، فَكَانَ فِي إِصْبَعِهِ حَتَّى قُتِلَ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ نَقَشَ عَلَيْهِ: «أَمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى».
وَقِيلَ: كَانَ عَلَيْهِ «لَتُنْصَرْنَ أَوْ لَتُنْذَمَنَّ»، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ذكر خبر أبي ذر الغفاري في إخراجهِ إلى الرَبْذَةِ وما تكلم الناس به في ذلك ووفاة أبي ذر رضي الله عنه

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ أَخْرَجَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَبَا ذَرَّ الْغِفَارِيَّ، وَأَسَمَهُ جُنْدُبَ بْنَ جُنَادَةَ.
وَقَدْ ذُكِرَ فِي سَبَبِ ذَلِكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا مَا أَوْرَدَهُ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ جَابِرِ الْبَلَاذُرِيِّ^(٤)، فِي كِتَابِ «جَمَلِ أُنْسَابِ الْأَشْرَافِ» وَغَيْرِهِ.

(١) يُقَالُ: أَرَبَعَ عَلَى ظِلْعِكَ: أَيِ إِنَّكَ ضَعِيفٌ فَارْفُقْ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِمَّا تَطِيقُ.
وَالْمِثْلُ نَفْسُهُ يُقَالُ لِلْمُتَوَعَّدِ، أَيِ لَا تَجَاوِزْ حَدَّكَ فِي وَعِيدِكَ.

(٢) الزُّورَاءُ: دَارُ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِالْمَدِينَةِ.

(٣) بَثْرُ أَرِيَسَ: بَثْرُ بِالْمَدِينَةِ ثُمَّ بَقِيَا مُقَابِلَ مَسْجِدِهَا.

(٤) الْبَلَاذُرِيُّ: هُوَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ جَابِرِ بْنِ دَاوُدَ الْبَغْدَادِيِّ الْبَلَاذُرِيِّ. أَدِيبٌ، شَاعِرٌ، مُؤَرِّخٌ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادٍ. سَمِعَ بِدَمَشْقَ، وَبِأَنْطَاكِيَّةِ، وَكَانَ أَحَدَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْفَارَسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ. لَهُ مِنَ الْكُتُبِ: كِتَابُ الْبُلْدَانِ الصَّغِيرِ، كِتَابُ الْبُلْدَانِ الْكَبِيرِ (لَمْ يَتِمَّ)، التَّارِيخُ فِي أُنْسَابِ الْأَشْرَافِ وَأَخْبَارِهِمْ وَفَتْوحِ الْبُلْدَانِ، الْاسْتِقْصَاءُ فِي الْأُنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ سُوْدُهُ فِي أَرْبَعِينَ مَجْلَدًا فَمَاتَ وَلَمْ يَكْمَلْهُ، وَلَهُ شُعْرٌ بِخَمْسِينَ وَرَقَةً. كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٢٧٩ هَجْرِيَّةً... (مَعْجَمُ الْمُؤَلِّفِينَ لِعَمْرِ كَحَالَةٍ ٢: ٢٠١).

قال البلاذري: لما أعطى عثمان رضي الله عنه مروان بن الحَكَم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحَكَم بن أبي العاص - وهو أخو مَروان - ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم، جعل أبو ذَرَّ يقول: بَشْر الكافرين بعذاب أليم: ويتلو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ [التوبة: ٣٤] الآية.

فَرَفَعَ مروان ذلك إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذَرٍّ، أن آتته عَمَّا يبلُغني عنك، فقال: أئينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعَيْب من تَرَك أمر الله! فوالله لأن أَرْضِيَ الله بِسَخَط عثمان أحب إلي من أن أَسْخِط الله بِرِضاه، فأغضب ذلك عثمان، وصَبَرَ وكَفَّ عنه، ثم قال عثمان يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا أيسر قَضَى؟ فقال كعبُ الأَحْبَار: لا بأس بذلك. فقا لأبو ذَرٍّ: يا بَنَ اليهوديين أتعلمنا ديننا! فقال عثمان: ما أَكْثَرَ ذاك لي وأولَعَكَ بأصحابي! الحق بِمَكْتَبِكَ، وكان مَكْتَبُهُ بالشَّام، إلا أَنَّهُ كان يقدمُ حاجاً، ويسأل عثمانَ الإِذْنَ له في مُجَاوَرَةِ قبر رسول الله ﷺ، فيأْذَن له في ذلك.

وقيل: إِنَّهُ إِنَّمَا صار إلى الشَّام لَأَنَّهُ رَأَى الْبِنَاءَ قد بلغ سَلْعاً، فقال لعثمان: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغ البناء سَلْعاً فَالْهَرَبُ»، فأذَن لي آتِيَ الشَّامَ فَأَغْزُو هناك. فأذَن له، فكان أبو ذَرٍّ يُنَكِّرُ على معاويةَ أَشْيَاءَ يَفْعَلُهَا، فبعثَ إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال: إِنْ كَانَتْ صَلَةٌ فلا حاجةَ لي فيها. وبنى معاويةَ الْخَضْرَاءَ بدمشق، فقال: يا مُعاويةُ، إِنْ كَانَتْ هذه من مالِ اللَّهِ فهي الْخِيَانَةُ، وإنْ كَانَتْ من مالِكَ فهي الْإِسْرَافُ، فَسَكَتَ معاويةُ.

وكان أبو ذَرٍّ يقول: وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ أَعْمَالاً ما أَعْرِفُهَا، والله ما هي في كتاب الله، ولا سُنَّةِ نَبِيِّهِ، والله إِنِّي لأرى حقاً يُطْفَأُ، وباطلاً يَحْيَا، وصادقاً مَكْذُوباً، وأثرَةً بغير نُقَى.

فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إِنْ أَبَا ذَرٍّ مُفْسِدٌ عَلَيْكَ الشَّامَ، فتداركْ أَهْلَهُ إِنْ كَانَتْ لَكَ بِهِمْ حَاجَةٌ.

فكتب معاوية إلى عثمان، فكتب إليه عثمان:

أما بعد، فأَحْمِلْ جُنْدِيَّاءَ إِلَيَّ عَلَى أَغْلَظِ مَرْكَبٍ وَأَوْعَرِهِ.

فوجه معاوية مع أبي ذَرٍّ من سار معه الليل والنهار، فلما قَدِمَ المدينة جعل يقول: تستعمل الصُّبَّيَّانَ، وَتَحْمِي الْحِمَى، وَتَقْرُبُ أَوْلَادَ الطُّلَقَاءِ!

فبعث إليه عثمان: الحق بأبي أرض شئت. فقال: بمكة؟ فقال: لا، قال: فينت المقدس؟ قال: لا، فباحد المضرين؟ قال: لا، قال: ولكنني مسيرك إلى الرَبْدَةِ، فسيره إليها، فلم يزل بها حتى مات.

وذكر البلاذري فيما حكاه كلاما كثيرا، وقّع بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما بسبب ذلك أغضيتا عن ذكره.

وحكي أن أبا ذر بلغه أن معاوية يقول: إن المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، وأنه يريد أن يحتجبه دون الناس، ويمحو اسم المسلمين: فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين. مال الله! فقال: يرحمك الله يا أبا ذر! ألسنا عباد الله، والمال ماله، قال: فلا تقله، قال: سأقول مال المسلمين.

وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته إلا شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم، ويأخذ بظاهر القرآن: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، وكان يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشروا الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع^(١) الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء.

وشكا الأغنياء ما يلقون منهم إلى معاوية، فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جُئح الليل، فأنفقها، فلما صلى معاوية الصبح دعا معاوية رسوله الذي أرسله إليه، فقال: اذهب إلى أبي ذر، فقل له: أتقذ جسدي من عذاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وأني أخطأت بك، ففعل ذلك. فقال له أبو ذر: يا بني، قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار، ولكن أخزنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها.

فلما رأى معاوية أن فعله صدق قوله كتب إلى عثمان: إن أبا ذر قد ضيق عليّ، وقد كان كذا وكذا، الذي يقوله الفقراء.

فكتب إليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها، ولم يبق إلا أن تيب، فلا تنكح القرح، وجهز أبا ذر، وابعث معه دليلا، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت.

(١) ولع به: أغراه.

فَبَعَثَ لَهُ أَبَا ذَرٍّ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَرَأَى الْمَجَالِسَ فِي أَصْلِ جَبَلٍ سَلَعَ قَالَ: بَشِّرْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِغَارَةِ شَعْوَاءَ، وَحَزْبِ مَذْكَارٍ^(١) وَدَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ: مَا بَالُ أَهْلِ الشَّامِ يَشْكُونَ دَرْبَ^(٢) لِسَانِكَ؟ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، عَلَيَّ أَنْ أَقْضِيَ مَا عَلَيَّ، وَأَنْ أَدْعُو الرِّعْيَةَ إِلَى الْأَجْتِهَادِ وَالْاِقْتِصَادِ، وَمَا عَلَيَّ أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَى الزُّهْدِ.

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَا تَرْضَوْا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ حَتَّى يَبْذُلُوا الْمَعْرُوفَ، وَيُخْسِنُوا إِلَى الْجِيرَانِ وَالْإِخْوَانِ، وَيَصِلُوا الْقَرَابَاتِ، فَقَالَ: كَعْبُ الْأَخْبَارِ - وَكَانَ حَاضِرًا: مَنْ أَدَّى الْفَرِيضَةَ فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، فَضَرَبَهُ أَبُو ذَرٍّ فَشَجَّهُ، وَقَالَ: يَا بَنَ الْيَهُودِيَّةِ، مَا أَنْتَ وَمَا هَاهُنَا!

فَاسْتَوْهَبَ عُثْمَانُ كَعْبًا شَجَّتَهُ، فَوَهَبَهُ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ لِعُثْمَانَ: تَأْذُنُ لِي فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ؟ فَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي بِالْخُرُوجِ مِنْهَا إِذَا بَلَغَ الْبِنَاءُ سَلْعًا؟ فَأَذِنَ لَهُ، فَبَلَغَ الرِّبْذَةَ^(٣)، وَبَنَى بِهَا مَسْجِدًا، وَأَقْطَعَهُ عُثْمَانُ صِرْمَةً^(٤) مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَاهُ مَمْلُوكَيْنِ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَطَاءً، وَكَذَلِكَ أَجْرَى عَلَى رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ أَيْضًا مِنَ الْمَدِينَةِ لَشَيْءٍ سَمِعَهُ.

قَالَ: وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَتَعَاهَدُ الْمَدِينَةَ مَخَافَةً أَنْ يَعُودَ أَعْرَابِيًّا، وَأَخْرَجَ مُعَاوِيَةَ إِلَيْهِ أَهْلَهُ، فَخَرَجُوا وَمَعَهُمْ جِرَابٌ يُثْقَلُ يَدُ الرَّجُلِ، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الَّذِي يُزْهَدُ فِي الدُّنْيَا مَا عِنْدَهُ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: وَاللَّهِ مَا هُوَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ وَلَكِنَّهَا فُلُوسٌ كَانَتْ إِذَا خَرَجَ عَطَاؤُهُ ابْتِغَاءً مِنْهُ فُلُوسًا لِحَوَائِجِنَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ إِلَى زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: مَرَرْتُ بِالرِّبْذَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مِنْ ذَلِكَ هَذَا؟ قَالَ: كُنْتُ فِي الشَّامِ، فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلْتُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقُلْتُ: نَزَلْتُ فِينَا وَفِيهِمْ، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ، وَكُتِبَ إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْكُونِي، فَكُتِبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ أَنْ أَقْدِمَ الْمَدِينَةَ، فَقَدِمْتُهَا، فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ حَتَّى كَانَتْهُمْ لَمْ يَرَوْني قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لِي: إِنْ شِئْتَ تَنْحَيْتُ فَكُنْتُ قَرِيبًا؛ فَذَلِكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا الْمَنْزِلَ، وَلَوْ أَمَرُوا عَلِيَّ حَبْشِيًّا لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ.

(١) حرب مذكارة: قوية.

(٢) ذرب اللسان: حدته.

(٣) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رجلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الصرمة: القطعة من الإبل، ما بين العشرين إلى الثلاثين.

وأقام أبو ذرٌّ بالرَّيْذَةِ إلى سنة اثنتين وثلاثين، فمات بها رضي الله عنه، ولما حضرته الوفاة قال لأبنته: استشرِفي^(١) يا بُنَيَّةُ، هل ترينَ أحداً؟ قالت: لا، قال: فما جاءك ساعتي بعدُ، ثم أمرها فذَبَحَتْ شاةً ثم طبختها، ثم قال: إذا جاءك الذين يَدْفُئُونَنِي - فَإِنَّهُ سَيَشْهَدُونِي قَوْمٌ صالحون - فقولِي لهم: يُقْسِمُ عليكم أبو ذرٌّ ألا تَرْكَبُوا حتى تَأْكُلُوا؛ فَلَمَّا نَضِجَتْ قِدْرُهَا قال لها: انظري، هل تَرَيْنَ أحداً؟ قالت: نعم، هؤلاء رَكَبَ. قال: اسْتَقْبِلِي الكَعْبَةَ، ففعلت. فقال: بِسْمِ اللَّهِ، وبِاللَّهِ، وعلى مِلَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ومات. فخرجت ابنته، فتلقتهن وقالت: رحمكم الله، اشهدوا أبا ذرٍّ قالوا: وأين هو؟ فأشارت إليه، قالوا: نَعَمْ، وَنَعْمَةً عَيْنٌ، لقد أكرمنا الله بذلك.

وكان فيهم ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه فبَكَى، وقال: صَدَقَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، قال «يَمُوتُ وَخَدَهُ، وَيُبْعَثُ وَخَدَهُ».

فغسلوه وكفنوه، وصلُّوا عليه ودَفَنُوهُ، فقالت لهم أخته: إِنَّ أبا ذرٍّ يقرأ عليكم السَّلامَ، وأقسَمَ ألا تَرْكَبُوا حتى تَأْكُلُوا، ففعلوا، وحملوا أهلَه معهم حتى أقدَمُوهم مَكَّةَ، ونَعَوْهُ إلى عُثْمَانَ، فضمَّ أخته إلى عياله.

وقيل: كانت وفاته في سنة إحدى وثلاثين.

وقيل: إِنَّ ابنَ مسعودٍ لم يحملَ أهلَ أبي ذرٍّ معه، إنما تركَهُم حتى قَدِمَ على عُثْمَانَ بِمَكَّةَ فأعلمه بمَوْتِهِ، فجعلَ عثمانُ طريقه عليهم، فحملَهُم معه.

سنة إحدى وثلاثين

فيها حجَّ عثمان رضي الله عنه بالنَّاسِ.

وفيها مات أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وصخر بن حزب، وهو ابنُ ثمانٍ وثمانين سنة.

سنة اثنتين وثلاثين

في هذه السَّنة مات العباس بن عبد المطلب، وكان قد كُفَّ بصره، وله من العمر ثمان وثمانون سنة.

(١) استشرَف الشيء: رفع بصره ينظر إليه.

ومات عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ، وصَلَّى عليه عَمَّارُ بنُ ياسرٍ، وقيل: عثمان.
وتُوفِّي عبدُ اللَّهِ بنُ زيد بن عبد ربِّه الَّذِي أُرِي أمرَ الأَذَانِ.
وتُوفِّي عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر وفاة عبد الرحمن بن عوف

وشيء من أخباره ونسبه

هو أبو محمَّد عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ.

وكان اسمُهُ في الجاهليَّة عبدَ عمرو، وقيل: عبد الكعبَّة، فسماه رسولُ الله ﷺ عبدَ الرَّحْمَنِ.

وأُمُّه الشفاء بنتُ عَوْفٍ بن عبدِ الحارث بن زهرة.

وُلِدَ بعد عام الفيلِ بعشرِ سنين، وأسلمَ قبلَ أن يدخلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأَرْقَمِ، وكان من المهاجرين الأولين، جَمَعَ الهَجْرَتَيْنِ جميعًا؛ إلى أرضِ الحَبَشَةِ، ثم قَدِمَ قبلَ الهجرة مهاجرًا إلى المدينة، وهو أحدُ العَشْرَةِ المشهودِ لهم بالجنَّةِ، وأحدُ الستَّةِ الَّذِينَ جَعَلَ عمرُ رضي الله عنه الشُّورَى فيهم.

وشهدَ عبدُ الرَّحْمَنِ بَذْرًا، والمشاهدَ كُلَّهَا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ، وبعَثَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى دُومَةِ الْجَنْدَلِ^(١)، وعَمَّمَهُ بيَدِهِ، وأسَدَلَهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وقال له: سِرْ بِأَسْمِ اللَّهِ، وأوصاه بوصايا الأمراء، ثم قال: إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَتْرُوجَ بِنْتِ مَلِكِهِمْ أَوْ شَرِيفِهِمْ.

وكان الأصْبَغُ بنُ ثعلبَةَ بن ضَمْضَم الكَلْبِيِّ شريفهم، فتزوَّجَ عبدُ الرَّحْمَنِ ابنته تماضِرَ بنتَ الأصْبَغِ، فهي أُمُّ أَبِي سَلَمَةَ الفقيه بن عبدِ الرَّحْمَنِ، وكان له من الولدِ سالمُ الأكبر، ماتَ قبل الإسلام، وإبراهيم، وحُمَيْد، وإسماعيل، وعُزْرَةُ قُتِلَ بِإِفْرِيقِيَّة، وسالمُ الأصغر، وأبو بكر، وعبدُ اللَّهِ الأكبر قُتِلَ بِإِفْرِيقِيَّة، والقاسمُ، وعبدُ اللَّهِ الأصغر، هو أبو سَلَمَةَ الفقيه، وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ، ومصعب، وعثمان، ومحمد، ومغن وزيد، وأُمُّ القاسم وُلِدَتْ في الجاهلية، وجُؤَيْرِيَّة، وهم لأُمَّهَاتِ أولادِ شَتَّى ذَكَرَهُنَّ الزُّبَيْرُ بنُ بَكَّارٍ.

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة من كلب...

ولعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فضائل كثيرة، ومناقب جمّة؛ منها أن رسول الله ﷺ صلى خلفه في سفر.

وروي عنه ﷺ. أنه قال: «عبد الرحمن بن عوف سيّد من سادات المسلمين».

وقال رسول الله ﷺ: «عبد الرحمن بن عوف أمين في السماء، وأمين في الأرض».

وكان رضي الله عنه رجلاً طويلاً، أجناً^(١)، أبيض مشرباً بخمرة، حسن الوجه، رقيق البشرة، لا يغيّر لحيته ولا رأسه.

وروي عن سهلة بنت عاصم زوجته قالت: كان عبد الرحمن أبيض أعين^(٢)، أهدب الأشفار^(٣)، أفتى^(٤)، طويل الثابن الأغلين، وربما أذميًا شفته، له جمّة^(٥)، ضخّم الكفّين، غليظ الأصابع، جرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة، وجرح في رجله، فكان يغرّج منها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: كان عبد الرحمن تاجراً مجدوداً^(٦) في التجارة وكسب مالا كثيرا، وخلف ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان يزرع بالجوف على عشرين ناضحا^(٧) فكان يأخذ من ذلك قوت أهل سنة، وخلف مالا كثيرا جدا.

روى عمرو بن دينار، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: صالحنا امرأة عبد الرحمن بن عوف التي طلقها في مرضه عن ثلث الثمن، بثلاث وثمانين ألفا.

وروى غيره أنها صولحت بذلك على ريع الثمن من ميراثه.

وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أوصى لكل رجل بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار، وكان عدّتهم يومئذ مائة رجل، وقسم ماله على ستة عشر سهما، فكان كل سهم ثمانين وألف دينار.

(١) الأجنا: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الأعين: الواسع العين.

(٣) الشفر: أصل منبت العين في الجفن.

(٤) الأفتى: الذي ارتفع أعلى أنفه واحذوب وسطه.

(٥) الجمّة: مجتمع الشعر.

(٦) المجدود: المحظوظ.

(٧) الناضح: البعير يستقى عليه.

وقال أبو عمر: ورُوِيَ أَنَّهُ أَعْتَقَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَلَاثِينَ عَبْدًا. وَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَكَى بَكَاءً شَدِيدًا، فَسُئِلَ عَنْ بُكَائِهِ فَقَالَ: إِنَّ مَصْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ كَانَ خَيْرًا مِنِّي، تُوفِّيَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكْفَنُ فِيهِ، وَإِنْ حَمْرَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ كَانَ خَيْرًا مِنِّي لَمْ نَجِدْ لَهُ كَفَنًا، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ عَجَّلَتْ لَهُ طَيِّبَاتُهُ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، أَوْ أَخَافُ أَنْ أُخْتَبَسَ عَنْ أَصْحَابِي بِكَثْرَةِ مَالِي.

وقد تقدّم أن هذا المال الذي اكتسبه كان ببركة دعاء رسول الله ﷺ.

وكانت وفاته رضي الله عنه بالمدينة في هذه السنة.

وقيل: في سنة إحدى وثلاثين، وصلى عثمان رضي الله عنه عليه بوصية منه، ودُفِنَ بالبقيع.

واختلف في مبلغ سنه، فقيل: توفي وهو ابن خمس وسبعين، وقيل: اثنتين وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين. والله أعلم.

سنة ثلاث وثلاثين

ذكر خبر من سار من أهل الكوفة إلى الشام وما كان من أمرهم

في هذه السنة سیر عثمان رضي الله عنه نفرًا من أهل الكوفة إلى الشام، وكان سبب ذلك أن سعيد بن العاص لما ولّاه عثمان الكوفة اختارَ وجوه الناس، وأهل القادسية، وقراء أهل الكوفة، فكان هؤلاء يدخلون عليه في منزله، وإذا خرج فكل الناس يدخلون عليه، فدخلوا عليه يومًا، فبينما هم يتحدثون، قال حُبَيْشُ بْنُ فُلانٍ: ما أجود طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد: إن من له مثل النشاستج^(١) لحقيق أن يكون جوادًا، والله لو كان لي مثله لأعاشكم الله به عيشًا رغدًا.

فقال عبد الرحمن بن حُبَيْش، وهو حدث: والله لو دِدْتُ أن هذا المِلطاط^(٢) لك، وهو ما كان للأكاسرة على جانب الفرات الذي يلي الكوفة، فقالوا: فُضَّ اللهُ فَاكًا، والله لقد هممنا بك، فقال أبوهُ: غلام فلا تجاوزهُ، فقالوا: يتمنى سوادنا،

(١) النشاستج: ضبعة أو نهر بالكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة المبشرة، وكانت عظيمة كثيرة الدخل، اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخير وعمرها معظم دخلها... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المِلطاط: قيل: هو طريق على ساحل البحر.. وقيل: كان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه المِلطاط...

وَيَتَمَنَّى لَكُمْ أَضْعَافَهُ. فَثَارَ بِهِ الْأَشْتَرُ وَجُنْدَبُ وَابْنُ ذِي الْحَنَكَةِ، وَصَغُصَعَةُ، وَابْنُ الْكَوَاءِ، وَكُمَيْلٌ، وَغَمَيْرُ بْنُ ضَبَابٍ، فَأَخَذُوهُ، فَثَارَ أَبُوهُ لِيَمْنَعَ عَنْهُ، فَضَرَبُوهُمَا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِمَا، وَجَعَلَ سَعِيدٌ يُنَاشِدُهُمْ وَيَأْتُونَ، حَتَّى قَضَوْا مِنْهُمَا وَطَرًا، فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ بَنُو أَسَدٍ، فَجَاؤُوا، وَفِيهِمْ طَلِيحَةُ، فَأَحَاطُوا بِالْقَصْرِ، وَرَكِبَتْ الْقَبَائِلُ فَعَاذُوا بِسَعِيدٍ، فَخَرَجَ سَعِيدٌ إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، قَوْمُ تَنَازَعُوا، وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ. فَرَدَّهُمْ، فَتَرَاجَعُوا. وَأَفَاقَ الرِّجَالُ، فَقَالَا: قَاتِلْنَا غَاشِيَتَكَ، فَقَالَ: لَا يَغُشُونِي أَبَدًا، فَكُفَّا أَلْسِنَتَكُمَا وَلَا تَجَرُّنَا النَّاسَ، فَفَعَلَا، وَقَعَدَ أُولَئِكَ النَّفَرُ فِي بُيُوتِهِمْ، وَأَقْبَلُوا يَقْعُونَ فِي عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل: بل كان السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَسْمُرُ عِنْدَ سَعِيدٍ وَجُوهُ أَهْلِ الْكُوفَةِ، مِنْهُمْ: مَالِكُ بْنُ كَعْبٍ الْأَرْحَبِيُّ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدٍ وَعَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسِ النَّخَعِيَّانِ، وَمَالِكُ بْنُ الْأَشْتَرِ، غَيْرِهِمْ.

فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّمَا هَذَا السَّوَادُ بُسْتَانُ قَرِيشٍ، فَقَالَ الْأَشْتَرُ: تَزْعُمُ أَنَّ السَّوَادَ الَّذِي أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِأَسْيَافِنَا بَسْتَانُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ! وَتَكَلَّمُ الْقَوْمُ مَعَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَسَدِيُّ، وَكَانَ عَلَى شُرْطَةِ سَعِيدٍ: أتردّون على الأمير مقالته! وأغلظَ لهم، فَقَالَ الْأَشْتَرُ: مَنْ هَاهُنَا لَا يَفُوتُكُمْ الرَّجُلُ، فَوُثِّبُوا عَلَيْهِ فَوُطِئُوهُ وَطُئًا شَدِيدًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَرُّوا بِرِجْلِهِ فَتَضَحَّ بِمَاءٍ فَأَفَاقَ، وَقَالَ: قَتَلَنِي مَنْ انْتَخَبْتُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَسْمُرُ عِنْدِي أَحَدٌ أَبَدًا، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ يَشْتُمُونَ عُثْمَانَ وَسَعِيدًا، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ حَتَّى كَثُرُوا.

فَكَتَبَ سَعِيدٌ وَأَشْرَافُ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى عُثْمَانَ فِي إِخْرَاجِهِمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُلْحِقُوهُمْ بِمُعَاوِيَةَ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: إِنَّ نَفَرًا قَدْ خُلِقُوا لِلْفِتْنَةِ، فَقُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْهَهُمْ، فَإِنَّ آنَسْتُ مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ وَإِنْ أَعْيُوكَ فَارُدَّهُمْ عَلَيَّ.

فَلَمَّا قَدَمُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ أَنْزَلَ لَهُمْ كَنِيْسَةً مَزِيْمًا، وَأَجْرَى عَلَيْهِمْ مَا كَانَ عَلَيْهِمْ بِالْعِرَاقِ بِأَمْرِ عُثْمَانَ وَكَانَ يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى مَعَهُمْ.

فَقَالَ لَهُمْ يَوْمًا: إِنَّكُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ لَكُمْ أَسْنَانٌ وَالسَّيْفُ، وَقَدْ أَدْرَكْتُمْ بِالْإِسْلَامِ شَرْقًا، وَعَلَبْتُمْ الْأُمَمَ، وَحَزَنْتُمْ مَرَاتِبَهُمْ وَمَوَارِيَهُمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ نَقَمْتُمْ قَرِيشًا؛ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ قَرِيشٌ كُنْتُمْ أَذَلَّةً، إِنَّ أَيْمَتَكُمْ لَكُمْ جُنَّةٌ^(١)، فَلَا تَفْتَرِفُوا عَنْ جُنَّتِكُمْ، وَإِنْ أَيْمَتَكُمْ يَضْرِبُونَ لَكُمْ عَلَى الْجَوْرِ، وَيَحْمِلُونَ عَنْكُمْ الْمَوُونَةَ، وَاللَّهِ لَتَنْتَهَنَّ أَوْ لَيَبْتَلِيَنَّكُمْ

(١) الجنة: كل ما وقى من سلاح وغيره.

اللَّهُ بِمَنْ يَسُومُكُمْ وَلَا يَحْمَدُكُمْ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ تَكُونُونَ شُرَكَاءَ هُمْ فِيمَا جَرَزْتُمْ عَلَى الرَّعِيَةِ فِي حَيَاتِكُمْ وَبَعْدَ وَفَاتِكُمْ.

فقال صغصعة: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر الناس، ولا أرفقها، ولا أمتعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة؛ فإن الجنة إن اخترقت خلص إلينا.

فقال معاوية: عرفتكم الآن، وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول؛ وأنت خطيبهم، ولا أرى لك عقلاً، أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرني الجاهلية! أخزى الله قوماً أعظموا أمركم.

افقهوا عني - ولا أظنكم تفقهون - أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى، لم تكن بأكثر العرب ولا بأشدهم؛ ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في جاهلية - والناس يأكل بعضهم بعضاً - إلا بالله، فبؤاهم^(١) حرماً آمناً، يُخطفُ الناس من حوزلهم، هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً، إلا وقد أصابه الدهر في بلده وحرمته؛ إلا ما كان من قريش؛ فإنهم لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خذه الأسفل؛ حتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم، واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله تعالى يحوطهم في الجاهلية، وهم على كفرهم، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه! أف لك ولأصحابك!

أما أنت يا صغصعة، فإن قريتك شر القرى، انتهت نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشر والأمها، الأم العرب القاباً وأصهاراً، نزع الأمم، وأنتم جيران الخط، وفعلت فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي ﷺ. فأنت شر قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتنزع إلى الذلة، ولا يضر ذلك قريشاً، ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر فأغرى بكم الناس وهو صارعكم، ولا تدركون بالشر أمراً أبداً؛ إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى.

ثم قام وتركهم، فتقاصرت إليهم أنفسهم.

(١) بؤاهم: أنزلهم مكاناً وأقامهم به.

فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنت فاذهبوا حيث شئتم، لا ينفع الله بكم أحدا أبدا ولا يضره، ولا أنتم برجالٍ منفعة ولا مَصْرَّةٌ فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم، ولا يبطركم الإنعام، فإنَّ البَطَرَ لا يغتري الخيار، فاذهبوا حيث شئتم، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

فلما خرجوا دعاهم وكلمهم نحو كلامه الأول، وكتب إلى عثمان أنه قدم علي أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة؛ إنما همهم الفتنة، وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكتون أحدا إلا مع غيرهم، فانه سعيدها ومن عنده عنهم؛ فإنهم ليسوا لأكبر من شغب أو نكير.

قال: ولما خرجوا من دِمَشْق قالوا: لا نرجع إلى الكوفة، فإنهم يشمتون بنا، ولكن ميلوا إلى الجزيرة، فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص، فدعاهم وقال: يا آله الشيطان، لا مرحبا بكم ولا أهلا! قد رجع الشيطان منحسورا، وأنتم بعد نشاط، خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، يا معشر من لا أذري، أعرب أم عجم! لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم قلتم لمعاوية: أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من عجمته^(١) العاجمات، أنا ابن فاقء الردة.

والله لئن بلغني يا صعصعة أن أحدا ممن معي دق أنفك، ثم أمضك^(٢)، لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى. وأقامهم شهرا، كلما ركب أمشاهم. فلما مر به صعصعة قال: يا بن الخطيئة، أعلمت أن من لم يضلحه الخير أصلحه الشر، ما لك لا تقول كما بلغني أنك قلت لسعيد ومعاوية! فيقولون: نتوب إلى الله، أفلنأ أقالك الله، فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم.

وسرح الأشر إلى عثمان، فقدم إليه ثانيا، فقال له عثمان: احلل حيث شئت، قال: مع عبد الرحمن بن خالد؟ فقال: ذاك إليك، فرجع إليه.

وقد حكى بعض المؤرخين من أخبارهم نحو ما تقدم، وزاد فيه: إن معاوية لما عاد إليهم من القابلة وذكرهم، كان مما قال لهم: والله إني لا أمركم بشيء إلا قد بدأت فيه بنفسي، وأهل بيتي، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها، وابن أكرمها؛ إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ، فإنه انتخبه وأكرمته، وإني لأظن أنا أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازما.

(١) المراد بقوله: عجمته العاجمات: أي امتحن واختبر ودرب.

(٢) أمضك: ألكم.

قال صَعْصعة: كذبت، لقد وَلَدَهم خيرٌ من أبي سُفْيَان، مَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، وَكَانَ فِيهِمُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْأَحْمَقُ وَالْكَيْسُ.

فخرجَ تلك الليلةَ من عندهم، ثم أتاهم من القابلة فتحدثَ عندهم طويلاً ثم قال: أيُّها القَوْمُ، رُدُّوا خَيْرًا أَوْ اسْكُتُوا، وَتَفَكَّرُوا وَانْظُرُوا فِيمَا يَنْفَعُكُمْ وَيَنْفَعُ أَهْلِيكُمْ الْمُسْلِمِينَ فَاطْلُبُوهُ.

فقال صَعْصعة: لستَ بأهلَ ذلك ولا كرامة، لك أن تُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ! فقال: أليس أول ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.

قالوا: بلى أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ.

قال: فَإِنِّي أَمَرُكُمْ الْآنَ، إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَمُرُكُمْ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَأَنْ تَوْفَرُوا أَيْمَنَكُمْ، وَتَذْلُوهُمْ عَلَى أَحْسَنِهِ مَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ.

فقال صَعْصعة: فَإِنَّا نَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ عَمَلَكَ؛ فَإِنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ؛ مَنْ كَانَ أَبُوهُ أَحْسَنَ قَدَمًا مِنْ أَبِيكَ فِي الْإِسْلَامِ وَهُوَ أَحْسَنَ قَدَمًا فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَبِيكَ.

فقال: والله إن لي في الإسلام قدماً، ولغيري كان أحسن قدماً مِنِّي، ولكن ليس في زمانِي أَحَدٌ أَقْوَى عَلَيَّ مَا أَنَا فِيهِ مِنِّي، وَلَقَدْ رَأَى ذَلِكَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَلَوْ كَانَ غَيْرِي أَقْوَى مِنِّي لَمْ تَكُنْ عِنْدَ عَمْرِ هَوَادَّةٌ لِي وَلَا لغيري، وَلَمْ أَحْدِثْ مِنَ الْحَدِيثِ مَا يَنْبَغِي أَنْ أَعْتَزَلَ عَمَلِي، وَلَوْ رَأَى ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَكَتَبَ إِلَيَّ فَاعْتَزَلْتُ عَمَلَهُ، فَمَهْلًا فَإِنَّ فِي ذَلِكَ وَأَشْبَاهِهِ مَا يَتِمَّنِي الشَّيْطَانُ وَيَأْمُرُ.

ولعمري، لو كانت الأُمُورُ تُقْضَى عَلَى رَأْيِكُمْ وَأَمَانِيَّتِكُمْ، مَا اسْتَقَامَتْ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ يَوْمًا وَلَيْلَةً، فَعَاوَدُوا الْخَيْرَ وَقَوْلُوهُ، وَإِنَّ لِلَّهِ لَسَطَوَاتٍ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَابَعُوا فِي مُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ، وَمَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ فَيُحِلَّكُمْ بِذَلِكَ دَارَ الْهَوَانِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

فَوَثَّبُوا عَلَيْهِ، وَأَخَذُوا رَأْسَهُ وَلَحِيَّتَهُ. فقال: مه! إِنَّ هَذِهِ لِبَارِضِ الْكُوفَةِ، وَاللَّهِ لَوْ رَأَى أَهْلُ الشَّامِ مَا صَنَعْتُمْ فِيَّ مَا مَلَكَتْ أَنْ أَنْهَاهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ، فَلَعَمْرِي إِنَّ صَنِيعَكُمْ لَيُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ قَامَ مِنْ عِنْدِهِمْ.

فَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ أَنْ يَرْدَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَرَدَّهُمْ، فَأُطْلِقُوا أَلَسْتَهُمْ، فَضَجَّ سَعِيدٌ مِنْهُمْ إِلَى عُثْمَانَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسِيرَهُمْ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ بِحَمَصَ، فَسِيرَهُمْ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَهُمْ وَأَجْرَى عَلَيْهِمْ رِزْقًا. وَكَانُوا: الْأَشْتَرُ، وَثَابِتُ بْنُ قَيْسِ الْهَمْدَانِي، وَكَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ، وَزَيْدُ وَصَّعْصَعَةَ ابْنًا صُوحَانَ، وَجُنْدُبُ بْنُ زُهَيْرِ الْغَامِذِيِّ، وَجُنْدُبُ بْنُ كَعْبِ الْأَزْدِيِّ، وَعُرْوَةُ بْنُ الْجَعْدِ، وَعُمَرُو بْنُ الْحِمَقِ الْخُزَاعِيُّ، وَابْنُ الْكَوَّاءِ.

وفيهما مات المقدادُ بْنُ عمرو، المعروفُ بابنِ الْأَسَدِ، وَثُوْقِيُّ الطُّفَيْلِ وَالْحَصِينُ ابْنَا الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ.
وحجَّ عُثْمَانُ بِالنَّاسِ.

سنة أربع وثلاثين

ذَكَرُ خَبَرِ يَوْمِ الْجَرَعَةِ وَعَزَلَ سَعِيدٌ وَخَرُوجُهُ عَنِ الْكُوفَةِ
وَأَسْتَعْمَالَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

وفي هذه السنة توجه سعيْدُ بْنُ الْعَاصِ أميرُ الكوفةِ إلى عُثْمَانَ، وقد استعمل على أعماله قبلَ مَسِيرِهِ بِسَنَةٍ وَبَعْضُ أُخْرَى عَلَى أَذْرَبِيْجَانَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، وَعَلَى الرَّيِّ سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ، وَعَلَى هَمْدَانَ النَّسِيرِ الْعَجَلِي، وَعَلَى أَصْبَهَانَ السَّائِبُ بْنُ الْأَقْرَعِ، وَعَلَى مَاهِ مَالِكُ بْنُ حَبِيبٍ، وَعَلَى الْمُؤَصِّلِ حَكِيمُ بْنُ سَلَامِ الْحَرَائِي، وَعَلَى قَرْقِيسِيَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى الْبَابِ سَلِيْمَانُ بْنُ رِبِيعَةَ، وَعَلَى حُلُوَانَ عُتَيْبَةُ بْنُ النَّهَّاسِ. وَجَعَلَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عُمَرُو عَلَى الْحَرْبِ، وَخَلَّتْ الْكُوفَةُ مِنَ الرُّؤْسَاءِ. فَخَرَجَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ وَهُوَ يَرِيدُ خَلَعَ عُثْمَانَ، وَمَعَهُ الَّذِينَ كَانَ ابْنُ السَّوْدَاءِ يَكَايَتُهُمْ، فَأَخَذَهُ الْقَعْقَاعُ بْنُ عُمَرُو فَقَالَ: إِنَّمَا نَسْتَغْفِي مِنْ سَعِيدٍ. فَتَرَكَهُ، وَكَاتَبَ يَزِيدُ الثَّقَفَ الَّذِينَ كَانُوا سَيَّرُوا مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى الشَّامِ فِي الْقَدُومِ عَلَيْهِ، فَسَارَ الْأَشْتَرُ وَالَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ، فَسَبَقَهُمُ الْأَشْتَرُ. فَلَمْ يَفْجَأِ النَّاسُ بِالْكُوفَةِ يَوْمَ جُمُعَةٍ إِلَّا وَالْأَشْتَرُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَقُولُ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ، وَتَرَكْتُ سَعِيدًا يُرِيدُهُ عَلَى نَقْصَانِ نَسَائِكُمْ عَلَى مِائَةِ دِرْهَمٍ، وَرَدَّ أُولِي الْبَلَاءِ مِنْكُمْ إِلَى الْفَقِيرِ، وَيزْعُمُ أَنَّ فِيكُمْ بُسْتَانَ قَرِيشٍ، فَاسْتَخْلَفَ النَّاسَ، وَجَعَلَ أَهْلُ الرَّأْيِ يَنْهَوْنَهُمْ فَلَا يَسْمَعُونَ مِنْهُمْ.

فخرج ييزد، وأمر مُناديًا ينادي: مَنْ شَاءَ أَنْ يَلْحَقَ بيزيد لِرَدِّ سعيد فليفعل، فبقي أشرافُ النَّاسِ وحلماؤهم في المسجد، وعمرُو بنُ حُرَيْثٍ يومئذٍ خليفة سعيد، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر النَّاسَ بالاجتماع والطاعة.

فقال له القعقاعُ بنُ عمرو: أتَرُدُّ السَّيْلَ عن أذراجِه؟ هَنيْهات! لا والله لا يَسْكُنُ الغَوْغاءُ إِلَّا المَشْرِقيَّةَ^(١) ويوشكُ أَنْ تُتَضَى، ثم يَعْجُونَ^(٢) عَجِيجَ العَدَانِ^(٣)، ويتمنُّون ما هم فيه اليَوْمَ، فلا يَرُدُّه الله عليهم أَبَدًا، فاصبر. قال: أصبر، وتحوَّل إلى منزله.

وخرج يزيْدُ بنُ قيس فنزل الجَرَّةَ^(٤)، وهي قريب من القادسيَّة، ومعه الأشتر، ووصل إليهم سعيدُ بنُ العاص، فقالوا: لا حاجة لنا بك، فقال: إنَّما كان يَكْفِيكُمْ أَنْ تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً واليَّ رجلاً، وهَلْ يَخْرُجُ الألفُ لهم عُقُولُ إلى رجلٍ. ثم أنصرف عنهم، ومضى حتَّى قدم على عثمان فأخبره الخبر، وأنَّ القومَ يريدون البَدَل، وأنهم يختارون أبا موسى. فولَّاه عثمان، وكتب إليهم:

أما بعد، فقد أمرتُ عليكم مَنْ اخترتُم، وأعفيتُكُمْ من سعيد، والله لأقرضنَّكُمْ عِرضي، ولأبذلنَّكُمْ صَبْري، ولأصلحنَّكُمْ جَهْدي، فلا تَدْعُوا شيئاً أَحَبَّتُموه لا يعصِي الله فيه إِلَّا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصِي الله فيه إِلَّا ما أَسْتَعْفَيْتُم منه. أنزل فيه عند ما أَحَبَّتُم؛ حتَّى لا تكون لَكُمْ على الله حُجَّة، ولنضبرنَّ كما أمرنا؛ حتَّى تَبْلغوا ما تُريدون.

وَرَجَعَ الأمراءُ من قُرب الكوفة، فرجع جَرِيرٌ من قَرْقيسياء، وعتيبة بن النحاس من حُلوان، وخطبهم أبو موسى، وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان. فأجابوه إلى ذلك، وقالوا: صلُّ بنا. فقال: لا، إِلَّا على السَّمْع والطاعة لعثمان، قالوا: نعم، فصلَّى بهم. وأتاه ولأته فولَّاهم. والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو حسبي.

(١) المشارف: قرى قرب حوران، منها بصرى من الشام ثم من أعمال دمشق، إليها تنسب السيوف المشرفية، وهنا حذف المضاف.

(٢) يعجون: يصيحون.

(٣) عدان: المراد به ضفة النهر، وعدان: مدينة كانت على الفرات لأخت الزباء ومقابلتها أخرى يقال لها عزان.

(٤) الجرعة: هو موضع قرب الكوفة المكان الذي فيه سهولة ورمل... وقيل: الجرعة بين النجفة والحيرة...

ذكر ابتداء الخلاف على عثمان ومن أبتدأ بالجزأة عليه

كان أول من ابتدأ بالجزأة عليه عبد الرحمن بن عوف؛ وذلك أن إبلًا من إبل الصدقة جيء بها إلى عثمان، فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن، فأخذها، وقسمها بين الناس وعثمان في الدار.

وكان أول من أجترأ عليه في المنطق جبلة بن عمرو الساعدي، مر به عثمان وهو في نادي قومه ويده جامعة^(١)، فسلم عثمان، فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون على رجل فعل كذا وكذا! ثم قال لعثمان: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك، أو لتتركن بطانتك هذه الحبيثة؛ مزوان وأبن عامر وابن سغيد، ومنهم من نزل القرآن بدمه، وأباح رسول الله ﷺ دمه.

وحكى أبو جعفر الطبري: أنه مر به وهو بفناء داره ومعه جامعة، فقال يا نعل^(٢) والله لأقتلك ولأحملك على قلو^(٣)ص جزاء، ولأحملك إلى حرة النار. قال: ثم جاءه مرة أخرى، وعثمان على المنبر، فأنزله عنه.

قال أبو جعفر: وعن أبي حبيبة، قال: خطب عثمان الناس في بعض أيامه، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إنك قد ركبت نهابير^(٤)، وركبنا معك، فثب نثب. فاستقبل عثمان القبلة، وشهر يديه، قال أبو حبيبة: فلم أر يومًا أكثر باكية ولا باكية من يومئذ.

قال: ثم خطب الناس بعد ذلك، فقام إليه جهجاء الغفاري فصاح: يا عثمان، ألا إن هذه شارف^(٥)، قد جئنا بها، عليها عباءة وجامعة، فأنزل فلندرعك العباءة، ولنطرحك في الجامعة، ولنحملك على الشارف، ثم نطرحك في جبل الدخان.

فقال عثمان: قبحك الله، وقبح ما جئت به!

(١) الجامعة: الغل يوضع في العنق.

(٢) نعل: رجل من أهل مصر، قيل: كان يشبه عثمان رضي الله عنه.

(٣) القلو^(٣)ص: من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة.

(٤) النهابير: المهالك.

(٥) الشارف من النوق: المسنة الهرمة.

قال أبو حبيبة: ولم يكن ذلك منه إلا عن مَلَأٍ من النَّاسِ، وقام إلى عثمان شيعته من بني أُمَيَّةَ، فَحَمَلُوهُ فَأَدَخَلُوهُ الدَّارَ.

وروى عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه، قال: أنا أنظر إلى عثمان يخطب على عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها أبو بكر، فقال له جَهَنجَاهُ: قُمْ يَا نَعْلٌ، فَأَنْزَلَ عَنْ هَذَا الْمِنْبَرِ، وَأَخَذَ الْعَصَا فَكَسَرَهَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ اليمنى، فدخلت شَطِئَةٌ منها فيها، فَبَقِيَ الْجُرْحُ حَتَّى أَصَابَتْهُ الْأَكْلَةُ^(١)، فرأيتها تُدَوِّدُ. ونزل عثمان وحملوه، وأمر بالعصا فشدوها، فكانت مُضْطَبَّةً^(٢)، فما خرج بعد ذلك اليوم إلا خَرْجَةٌ أو خَرْجَتَيْنِ حَتَّى حُصِرَ، فقتل.

هذا ما كان من أمر أهل المدينة.

وأما ما كان من أهل الأمصار، فكان سبب خلافهم أن عبد الله بن سبأ المعروف بأبن السَّوْدَاءِ، كان يهوديًا، فأسلم أَيْامَ عثمان، ثم تنقل في الحجاز، ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم بالشام، يريد إضلال النَّاسِ، فلم يقدر منهم على ذلك، وأخرجهُ أهل الشام، فَأَتَى مَصْرَ، فأقامَ فيهم، وقال لهم: العجبُ ممن يُصَدِّقُ أَنَّ عيسى يرجع، ويكذبُ أَنَّ محمداً يرجع، ووضعَ لهم الرِّجْعَةَ، فقبلوا ذلك معه، ثم قال لهم بعد ذلك: إِنَّهُ كان لكل نبي وصي، وعلي وصي محمد، فمن أظلمَ ممن لم يُجِزْ وصيةَ رسولِ الله، ووُتِبَ على وصيه! وإنَّ عثمانَ أخذها بغيرِ حقٍّ، فأنهضوا في هذا الأمرِ، وابدؤوا بالطَّغْنِ على أمرائكم، وأظهروا الأمرَ بالمعروفِ، والنهي عن المنكرِ تستميلوا به النَّاسَ. وبثَّ دُعَاتِهِ، وكتبَ من أسفَسَدَ في الأمصار، وكتبوه، ودَعَوْا في السَّرِّ إلى ما عليه رأيهم.

ثم كان أهل الكوفة أولَ مَنْ قامَ في ذلك، فاجتمعَ ناسٌ منهم فتذاكروا أعمالَ عثمانَ، فاجتمعَ رأيهم أَن يُرْسِلُوا إِلَيْهِ عامرَ بنَ عبدِ اللَّهِ التَّيْمِيَّ، ثم العنبريَّ، وهو الَّذي يُدْعَى عامرَ بنَ عبدِ القيسِ، فأتاه، فدخل عليه فقال: إِنَّ ناسًا من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ارتكبتَ أُمُورًا عَظَمًا، فاتَّقِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ.

فقال عثمان: انظروا إلى هذا، فَإِنَّ النَّاسَ يزعمون أَنَّهُ قارىءٌ، ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات، ووالله ما يدري أين الله؟ فقال عامر: بل واللهِ إِنِّي لأذري إنَّ اللهَ لَبالمرصاد.

(١) الأكلة: الحكمة.

(٢) يقال: ضَبَّبَ الخشب ونحوه: ألبسه الحديد ونحوه.

فأرسلَ عثمانُ إلى معاوية، وعبدِ الله بنِ سعد، وسعيدِ بنِ العاص، وعمرو بنِ العاص، وعبدِ الله بنِ عامر، فجمعَهُمْ وشاورَهُمْ، وقالَ لَهُمْ: إن لكلَّ أميرٍ وزراء ونُصحاء وإنكُم وُزرائي ونُصحااتي، وأهلُ بُقَتي، وقد صنعَ النَّاسُ ما قد رأيَتم، وطلبوا إليَّ أن أعزلَ عُمالي، وأن أرجعَ عَن جميع ما يَكْرَهُون إلى ما يَحِبُّون، فَأَجْتَهَدُوا رأيَكم.

فقال ابنُ عامرٍ: أَرَى يا أميرَ المؤمنين أن تَشغَلَهم بالجِهادِ عنكَ حتَّى يَذِلُّوا لك، ولا تكونَ همَّةُ أحدهم إلا في نفسِهِ وما هو فيه من دَبَرٍ ^(١) دَابَّتِهِ وَقَمَلٍ ^(٢) فَرَوْتِهِ.

وقال سعيد: احسِبْ عنكَ الداءَ فاقطعْ عنكَ الَّذي تخافُ، فإنَّ لكلَّ قومٍ قادة، متى تَهلكَ تَفَرَّقُوا ولا يَجتمعُ لَهُم أمر، فقال عثمان: هذا هو الرأي لولا ما فيه.

وقال معاوية: أُشِيرُ عليك أن تأمرَ أُمراءَ الأجنادَ فيكَفِيكَ كلُّ رجلٍ منهم ما قبله، وأكفِيكَ أنا أهلَ الشام.

وقال ابنُ سَعد: إنَّ الناسَ أهلُ طمعٍ، فأعطِهِم من هذا المالِ، تَعطِفَ عليك قلوبُهُم.

ثم قام عمرو بنُ العاص فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّكَ قد ركبْتَ النَّاسَ بِمِثْلِ بني أُمَيَّة. فقلَّتْ وقالوا، وزُغِتْ وزاغُوا، فأَعْتَدِلْ أو أَعْتَزِلْ، فإنَّ أبَيَّتَ فاعتزِمَ عَزْماً، وأَمَضَ قُدْماً.

فقال له عثمانُ: ما لَكَ قَمِلَ فَرُوكُ، أهذا الجَدُّ منك! فسَكَتَ عمرو حتَّى تَفَرَّقُوا، فقال: واللَّهِ يا أميرَ المؤمنين لَأنتَ أكرمُ عليٍّ من ذلك؛ ولكِنِّي علمْتُ أن البابَ من يُبَلِّغُ النَّاسَ قولَ كلِّ رجلٍ مثاً، فأردْتُ أن يَبْلُغَهُمْ قولي، فَيُثِقُوا بي، فأقودُ إليكَ خيراً، وأدْفَعُ عنكَ شراً.

ثم ردَّ عثمانُ عماله إلى أَعمالِهِم، وأمرَهُم بتجهيزِ النَّاسِ في البُعوثِ، وردَّ سعيدَ بنَ العاصِ إلى الكوفةِ، فلقِيَهُ النَّاسُ من الجَرَعَةِ فردُّوه كما تقدَّم، وتكاتَبَ أهلُ الأمصارِ، لَمَّا أَفسَدَ أمرَهُم ابنُ السَّوداءِ ^(٣)، وصارَ أهلُ كلِّ مِصرٍ يكتُبُ إلى أهلِ المِصرِ الآخرِ بغيوبٍ يضعونها لولائِهِم، وينالُون منهم حتَّى ذاعَ ذلك في سائرِ البلادِ، ووَصَلَ إلى المدينةِ.

(١) دبر الدابة: أصابها الدبر، والدبر: داء يصيب الإبل.

(٢) قمل فروته: كثر فيها القمل.

(٣) ابن السوءاء: هو عبد الله بن سبأ.

فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما أبتلي به هؤلاء. ثم تكاتب نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، بعضهم إلى بعض في سنة أربع وثلاثين أن أقدموا فإن الجهاد عندنا، ونال الناس من عثمان، وعظّموا عليه، وليس أحد من الصحابة ينهى ولا يذُب، إلا نفر، منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس، فكلّموا علي بن أبي طالب رضي الله وأرضاه وكرّم وجهه.

ذكر كلام علي لعثمان وجوابه له

قال: ولما اجتمع الناس إلى علي رضي الله عنه، وكلّموه، دخل إلى عثمان فقال: إن الناس ورآئي، وقد كلّموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، ولا أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما تعلم، ما سبّغناك إلى شيء فتخبرك عنه، ولا خلّونا بشيء فنبلّغك، وما خُصّضنا بأمر دونك، وقد رأيت وصّجت رسول الله ﷺ، وسمعت منه، ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بالعمل منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب إلى رسول الله ﷺ رجماً، ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبّغاك إلى شيء، فالله، الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر عن عمي، وما تعلم من جهالة، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة.

اعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هدي وهدي، وأقام سنة معلومة، وأمات بدعة مكروهة، فوالله إن كلاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل، فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإني أحذرك الله وسطواته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها وتركهم شيعاً؛ لا يبصرون الحق لعلو الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون^(١) فيها مرجاً.

فقال عثمان: قد علمت والله ليقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عثفتك ولا أسلمتكم، ولا عبت عليك، ولا جئت نكراً، أن وصلت رجماً، وسدذت خلّة، وأويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر ولي. أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: نعم، قال: فتعلم أن عمر ولاه؟ قال: نعم، قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رجمه وقرابته؟ قال علي: إن عمر كان يظاً

(١) مرج الناس: اختلطوا؛ ومريع الدين: فسد وقل الوفاء به.

على صِماخ^(١) مَنْ وَلَّى إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلَبَهُ، ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعُقُوبَةِ، وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، ضَعُفَتْ وَرَفَقَتْ عَلَى أَقْرَبَائِكَ.

قال عثمان: وهم أقرباؤك أيضاً. قال: أجل، إِنْ رَجِمَهُمْ مَنِّي لِقَرِيبَةٍ؛ وَلَكِنْ الْفَضْلُ فِي غَيْرِهِمْ.

قال عثمان: هل تعلمُ أَنَّ عَمَرَ وَلَّى معاوية، فقد وَلَّيْتُهُ؟ قال علي: أنشدك الله! هل تعلمُ أَنَّ معاوية كان أخوف لِعُمَرَ مِنْ يَزْقَأ^(٢) (غلام له)؟ قال: نعم، قال: فَإِنَّ معاوية يقطع الأمور دونك، ويقول للنَّاسِ: هذا أمرُ عثمان، وأنت تعلمُ ذلك، فلا تغيّر عليه.

ثم خرج عليٌّ مِنْ عنده، وخرج عثمانُ على أثره، فجلس على المنبرِ ثم قال:
أما بعد، فَإِنَّ لكلَّ شيءٍ آفَةً، ولكُلِّ أمرٍ عاهةٌ، وَإِنَّ آفَةَ هذه الأُمَّةِ، وعاهةُ هذه النُّعْمَةِ، طَعَانُونَ يُرُونَكُمْ مَا تُحِبُّونَ، يَسْتَرُونَ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، ويقولون لكم ويقولون، أمثالُ النُّعامِ، يَتَّبِعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ، أَحَبُّ مَوَارِدِهَا إِلَيْهَا الْبَعِيدُ، لَا يَشْرَبُونَ إِلَّا نَعَصًا^(٣)، وَلَا يَرِدُونَ إِلَّا عَكْرًا، لَا يَقُومُ لَهُمْ رَائِدٌ، وَقَدْ أَغْيَسَهُمُ الْأُمُورُ، أَلَا فَقَدْ عِثِمَ عَلِيٌّ وَاللَّهِ بِمَا أَفْرَزْتُمْ لِابْنِ الْخَطَّابِ بِمِثْلِهِ؛ وَلَكِنَّهُ وَطَنُكُمْ بِرَجْلِهِ، وَضَرَبَكُمْ بِيَدِهِ، وَقَمَعَكُمْ بِلِسَانِهِ، فَدِثْتُمْ لَهُ عَلَى مَا أَحْبَبْتُمْ أَوْ كَرِهْتُمْ، وَلِثْتُ لَكُمْ، وَأَوَّطَأْتُكُمْ كَيْفِي، وَكَفَفْتُ يَدِي وَلِسَانِي عَنْكُمْ، فَاجْتَرَأْتُمْ عَلَيَّ. أما واللهِ لَأَنَا أَعَزُّ نَفَرًا، وَأَقْرَبُ نَاصِرًا، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَأَحْرَى أَنْ قُلْتُ هَلُمُّ أُنَبِّئِ إِلَيَّ، وَلَقَدْ أَعْدَدْتُ لَكُمْ أَقْرَانَكُمْ، وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكُمْ فَضُولًا، وَكَشَرْتُ لَكُمْ عَنْ نَابِي، وَأَخْرَجْتُمْ مَنِّي خُلُقًا لَمْ أَكُنْ أَحْسِنُهُ، وَمَنْطَقًا لَمْ أَنْطِقْ بِهِ، فَكْفُوا عَنِّي أَلَسْتُمْكُمْ وَطَعْنَكُمْ وَعَيْبَكُمْ عَلَى وَلَا تَكُنْكُمْ، فَإِنِّي قَدْ كَفَفْتُ عَنْكُمْ مَنْ لَوْ كَانَ هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ لِرُضِيَّتُمْ مِنْهُ بَدُونَ مَنْطِقِي هَذَا، أَلَا فَمَا تَفْقِدُونَ مِنْ حَقِّكُمْ؟ وَاللَّهِ مَا قَصَرْتُ عَنْ بُلُوغِ مَا بَلَغَ مِنْ كَانَ قَبْلِي، وَلَمْ يَكُونُوا يَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِ.

فقام مروانُ بْنُ الْحَكَمِ فقال: إِنْ شِئْتُمْ حَكَمْنَا وَاللَّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ السِّيفَ، نَحْنُ وَاللَّهُ وَأَنْتُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: [من الطويل]

فَرَشْنَا لَكُمْ أَعْرَاضَنَا فَتَبَّتْ بِكُمْ مَعَارِسُكُمْ تَبْنُونَ فِي دِمَنِ الثَّرَى^(٤)

فقال له عثمان: اسكت لا سكت، دَغْنِي وَأَصْحَابِي، مَا مَنْطِقُكَ فِي هَذَا؟ أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكَ أَلَّا تَنْطِقَ! فَسَكَتَ مَرُوانُ، وَنَزَلَ عُثْمَانُ.

(١) الصِّماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته. (٢) يرفأ: يصلح.

(٣) النقص: الماء الكدر. (٤) الدمن: جمع دمنة: وهي المزبلة.

ذكر إرسال عثمان إلى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله وما يقول الناس فيهم

قال: لما تكتب أهل الأمصار بغيوب ولايتهم التي وضعوها، وشاع ذلك، وأنت الأخبار إلى المدينة، أتى أهل المدينة إلى عثمان وقالوا: يا أمير المؤمنين إنا نخبرك عن الناس بما يأتينا، وأخبروه، فاستشارهم فأشاروا أن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار، ليأتوه بأخبار العمال، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر، وعبد الله بن عمر إلى الشام. وفرق رجالاً سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمار، فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام الناس ولا عوامهم. وتأخر عمار حتى ظنوا أنه اغتيل، فجاء كتاب عبد الله بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قوم وانقطعوا إليه، منهم عبد الله ابن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني آخذ عمالي بموافاتي في كل موسم، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يضربون ويشتمون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليؤاف الموسم، ليأخذ بحقه مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين.

فلما قرئ كتابه في الأمصار بكى الناس بكاء شديداً، ودعوا لعثمان رضي الله عنه. وقدم عمال الأمصار إلى مكة في الموسم: عبد الله بن عامر أمير البصرة، وعبد الله بن سعد أمير مصر، ومعاوية أمير الشام وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمر بن العاص.

فقال عثمان رضي الله عنه: ويحكم! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة! إني والله لخائف أن تكونوا مضدوقاً عليكم، وما يغضب هذا إلا بي، فقالوا: ألم تبعث؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم ترجع رسلك ولم يشافهم أحد بشيء، والله ما صدقوا ولا برؤوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة. فقال: أشيروا علي.

فقال سعيد: هذا أمر مَضْنُوع يُلْقَى في السِّرِّ، فَيَتَحَدَّثُ به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء، وقتل الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم، فإنه خير من أن تدعهم.

وقال معاوية: قد وَلَّيْتَنِي فَوَلَّيْتُ قَوْمًا لَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ إِلَّا الْخَيْرُ، وَالرَّجُلَانِ أَعْلَمُ بِنَاحِيَتَيْهِمَا، وَالرَّأْيُ حُسْنُ الْأَدَبِ.

وقال عمرو: أَرَى أَنَّكَ قَدْ لَبَّيْتَ لَهُمْ، وَتَرَخَيْتَ عَلَيْهِمْ، وَزِدْتَهُمْ عَلَى مَا كَانَ يَصْنَعُ عُمَرُ، فَأَرَى أَنَّ تَلَزَمَ طَرِيقَ صَاحِبَيْكَ، فَتَشَدَّدَ فِي مَوْضِعِ الشَّدَّةِ، وَتَلَيْنَ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ.

فقال عثمان: قد سمعتُ كُلَّ مَا أَشْرَظْتُ بِهِ عَلَيَّ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ بَابٌ يُؤْتَى مِنْهُ. إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي يُخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ كَائِنْ، وَإِنْ بَابُهُ الَّذِي يُغْلَقُ عَلَيْهِ فَيُكْفَكَفُ بِهِ، اللَّيْنُ وَالْمُؤَانَاةُ إِلَّا فِي حُدُودِ اللَّهِ، فَإِنْ فُتِحَ فَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ عَلَيَّ حُجَّةٌ حَقٌّ. وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لَمْ آلِ النَّاسَ خَيْرًا، وَأَنْ رَحَا الْفِتْنَةَ لِدَائِرَةٍ، فَطُوبَى لِعُثْمَانَ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَحْرُكْهَا. سَكُنُوا النَّاسَ، وَهَيِّئُوا لَهُمْ حَقُوقَهُمْ؛ فَإِذَا تُعْوَطِيتَ حَقُوقَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا تَذْهَبُوا فِيهَا.

وكان هذا بمكة. فلما قَدِمَ عُثْمَانُ الْمَدِينَةَ دَعَا عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَعِنْدَهُ مَعَاوِيَةُ، فَحَمِدَ مَعَاوِيَةُ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَيْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَوَلَاةُ أَمْرِ هَذِهِ الْأَمَّةِ، لَا يَطْمَعُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُكُمْ، اخْتَرْتُمْ صَاحِبَكُمْ عَنْ غَيْرِ غَلْبَةٍ وَلَا طَمَعٍ، وَقَدْ كَبَرَ وَوَلَّى عَمْرَهُ، وَلَوْ أَنْتَظَرْتُمْ بِهِ الْهَرَمَ لَكَانَ قَرِيبًا؛ مَعَ أَنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُبْلَغَهُ ذَلِكَ، وَقَدْ فَشَتْ مَقَالَةٌ خَفَّتْهَا عَلَيْكُمْ، فَمَا عَتَبْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَهَذِهِ يَدِي لَكُمْ بِهِ، وَلَا تُطْمِعُوا النَّاسَ فِي أَمْرِكُمْ، فَوَاللَّهِ إِنْ طَمِعُوا فِيهِ لَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا إِلَّا إِذْبَارًا.

فقال عليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَا لَكَ وَذَاكَ لَا أُمَّ لَكَ! قَالَ: دَغَّ أُمِّي فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِشَرِّ أُمَّهَاتِكُمْ، قَدْ أَسْلَمْتُ وَبَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَجِنِّي عَمَّا أَقُولُ لَكَ.

فقال عثمان: صَدَقَ ابْنُ أَخِي، أَنَا أَخْبِرُكُمْ عَنِّي وَعَمَّا وَلِيْتُ، إِنَّ صَاحِبَيَّ اللَّذَيْنِ كَانَا قَبْلِي ظَلَمَا أَنْفُسَهُمَا، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمَا بِسَبِيلِ احْتِسَابًا، وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعْطِي قَرَابَتَهُ، فَأَنَا فِي رَهْطِ أَهْلِ عَيْلَةٍ، وَقَلَّةٍ مَعَاشٍ، فَبَسَطْتُ يَدِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ لِمَا أَقُومُ بِهِ فِيهِ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ ذَلِكَ خَطَأً فَرُدُّوهُ، فَأَمْرِي لِأَمْرِكُمْ تَبِعَ.

فقالوا: أَصَبَتْ وَأَحْسَنْتَ، قَدْ أُعْطِيتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَأُعْطِيتَ مَرْوَانَ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا. فَأَخَذَ مِنْهُمَا ذَلِكَ، قَرَضُوا وَخَرَجُوا رَاضِينَ.

ولَمَّا رَأَى مَعَاوِيَةُ مَا النَّاسُ فِيهِ قَالَ لِعُثْمَانَ: أَخْرِجْ مَعِيَ إِلَى الشَّامِ فَإِنَّهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ قَبْلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْكَ مَا لَا قِبَلَ لَكَ بِهِ، فَقَالَ: لَا أَبِيعُ جِوَارَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَطْعٌ خَنِيطٌ عُقْتُي.

قال: فأبعثُ إليك جُنْدًا منهم يُقيمون معك لِنَائِبَةٍ إِنْ نَابَتْ المَدِينَةُ، فقال: لا أَضِيقُ عَلَى جِيرَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُغْتَالَنَ، فقال: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعَمَ الْوَكِيلُ.

وخرج معاوية، فمرَّ بنفر من المهاجرين؛ فيهم عليٌّ وطلحةٌ والزُّبير وعلى معاوية ثيابٌ سَفَره، فقام عليهم، فقال: إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ كَانَ النَّاسُ يَتَغَالَبُونَ عَلَيْهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ، فَكَانُوا مَتَفَاضِلِينَ بِالسَّابِقَةِ وَالْقَدَمَةِ وَالْاجْتِهَادِ، فَإِنْ أَخَذُوا بِذَلِكَ فَالْأَمْرُ أَمْرُهُمْ، وَالنَّاسُ لَهُمْ تَبِعٌ، وَإِنْ طَلَبُوا الدُّنْيَا بِالتَّغَالُبِ سَلَبُوا ذَلِكَ وَرَدَّ اللَّهُ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى الْبَدَلِ لِقَادِرٌ، وَإِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمْ شَيْخًا، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا، وَكَاتِبُوهُ تَكُونُوا أَسْعَدَ مِنْهُ بِذَلِكَ. وَودَّعَهُمْ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ.

فقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: كُنْتُ أَرَى فِي هَذَا خَيْرًا.

فقال الزُّبيرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ قَطُّ أَعْظَمَ فِي صَدْرِكَ وَصُدُورِنَا مِنْهُ الْيَوْمَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعَمَ الْوَكِيلُ.

سنة خمس وثلاثين

ذِكْرُ مَسِيرِ مَنْ سَارَ إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ

قال: وَلَمَّا فَصَلَ^(١) الْأَمْرَاءُ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَقَدِمُوا عَلَى أَمْصَارِهِمْ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، وَكَانَ الْمُنْحَرِفُونَ عَنْ عُثْمَانَ قَدْ اتَّعَدُوا يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ بِالْأَمْصَارِ جَمِيعًا إِذَا سَارَ عَنْهَا الْأَمْرَاءُ، فَلَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُمْ ذَلِكَ. وَلَمَّا رَجَعَ الْأَمْرَاءُ وَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الْوُثُوبُ تَكَاثَّبُوا فِي الْقُدُومِ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِيَنْظُرُوا فِيمَا يَرِيدُونَ وَيَسْأَلُوا عُثْمَانَ عَنْ أَشْيَاءَ، لِيُطَيِّرَ فِي النَّاسِ.

فخرج المِضْرِبِيُّونَ وَفِيهِمُ الرَّحْمَنُ بْنُ عَدْنَسِ الْبَلَوِيِّ فِي خَمْسَمِائَةٍ. وَقِيلَ: سِتْمِائَةٍ، وَقِيلَ: فِي أَلْفٍ، وَفِيهِمْ كَنَانَةُ بْنُ بَشْرِ اللَّيْثِيِّ، وَسُودَانُ بْنُ حُمْرَانَ السَّكُونِيِّ، وَعَلَيْهِمْ جَمِيعًا الْغَافِقِيُّ بْنُ حَرْبِ الْعَكِّيِّ.

وخرج أهل الكوفة وفيهم زيدُ بْنُ صُوحَانَ الْعَبْدِيُّ، وَالْأَشْثَرُ النَّخَعِيُّ، وَزِيَادُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَصَمِ الْعَامَرِيُّ، وَهُمْ عِدَادُ أَهْلِ مِصْرَ.

(١) فصل القوم عن البلد: خرجوا.

وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي، وذريع بن عبادة العبدي، وبشر بن شريح القيسي، وابن المحترش، وهم بعداء أهل مصر، وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي.

فخرجوا جميعاً في شوال، وأظهروا أنهم يريدون الحج، فلما كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم ناس من أهل البصرة، فنزلوا ذا حُشب^(١)، وكان هواهم في طلحة، وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا على الأعوص وهواهم في الزبير، وجاءهم ناس من أهل مصر وهواهم في علي، ونزل عاتمهم بذي المروة^(٢).

فاجتمع نفر من أهل مصر وأتوا علياً، ونفر من أهل البصرة، وأتوا طلحة، ونفر من أهل الكوفة فاتوا الزبير، واجتمعوا بهم فكل طردهم وأبعدهم، فعادوا إلى أصحابهم.

وقيل: إن عثمان لما بلغه نُزولهم بذي حُشب، جاء إلى علي وكلّمه في ردهم، فقال علي: على أي شيء أردتهم؟ فقال عثمان: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيت لي.

فركب علي ومحمد بن مسلمة وأبو المضرس وكلّموهم في الرجوع، فرجعوا، فعاد علي إلى عثمان برجعهم، فسّر بذلك.

فلما فازقه جاء مروان بن الحكم إلى عثمان من الغد فقال له: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر رجعوا، وأن ما بلغهم عن أميرهم كان باطلاً قبل أن يأتي الناس من أنصارهم، ويأتيك ما لا تستطيع رده، ففعل عثمان، فلما خطب الناس قال عمرو بن العاص: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فثب إلى الله تثب.

فناداه عثمان: وإنك هنالك! قملت والله جُبْتُكَ، منذ عزلتكَ عن العمل، فتوذي من ناحية أخرى: ثب إلى الله، قرفع رأسه وقال: اللهم إني أول تائب. وخرج عمرو بن العاص حتى أتى فلسطين.

وفي رواية عن علقمة بن وقاص: إن عمرو بن العاص قام إلى عثمان وهو يخطب، فقال: يا عثمان، إنك قد ركبت بالناس النهابير^(٣) وركبوها، فثب إلى الله وليتوبوا. فالتفت إليه عثمان وقال: وإنك لهُنا يا بن النابغة! ثم رفع يديه واستقبل القبلة وقال: أتوب إلى الله، اللهم أنا أول تائب إليك.

(١) حُشب: بضم أوله وثانيه، وآخره باء موحدة: واد على مسيرة ليلة من المدينة..

(٢) ذو المروة: قرية بوادي القرى؛ وقيل: بين خشب ووادي القرى...

(٣) النهابير: المهالك.

قال ابن الأثير الجَزَرِيّ: وقيل: إِنَّ عَلِيًّا لَمَّا رَجَعَ مِنَ عِنْدِ الْمَصْرِيِّينَ بَعْدَ رَجُوعِهِمْ أَتَى عُثْمَانَ، فَقَالَ: تَكَلَّمُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ النَّاسُ مِنْكَ، وَيَشْهَدُونَ عَلَيْكَ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِكَ مِنَ التَّرْوَعِ^(١)؛ وَإِلْنَابَةِ؛ فَإِنَّ الْبِلَادَ قَدْ تَمَحَّضَتْ عَلَيْكَ، فَلَا آمَنَ أَنْ يَجِيءَ رَكْبٌ آخَرُ مِنَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، فَيَقُولَ: يَا عَلِيّ، ارْكَبْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ رَأَيْتَنِي قَدْ قَطَعْتُ رَجِمَكَ، وَاسْتَخَفَّفْتُ بِحَقِّكَ.

فخرج عثمانٌ فخطبَ خُطْبَةً نَزَعَ فِيهَا، وَأَعْطَى النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ التَّوْبَةَ، وَقَالَ أَنَا أَوَّلُ مَنْ اتَّعَظَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا فَعَلْتُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَمِثْلِي نَزَعَ وَتَابَ؛ فَإِذَا نَزَلْتُ فَلْيَأْتِنِي أَشْرَافُكُمْ فَلِيرَوْا رَأْيَهُمْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ رَدَّنِي الْحَقُّ عَبْدًا لَأَسْتَنْ بِسُتَةِ الْعَبْدِ، وَلَأَذْلُنَّ دُلَّ الْعَبْدِ، وَمَا عَنِ اللَّهِ مَذْهَبٌ إِلَّا إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ لَأُعْطِيَنَّكُمْ الرِّضَا، وَلَأُنَحِّينَ مِرْوَانَ وَدَوِيهَ، وَلَا أَحْتَجِبُ عَنْكُمْ.

فَرَّقَ النَّاسُ وَبَكَوْا حَتَّى أَخْضَلَتْ^(٢) لِحَاهُمْ، وَبَكَى هُوَ أَيْضًا، فَلَمَّا نَزَلَ وَجَدَ مِرْوَانَ وَسَعِيدَ بْنِ الْعَاصِ وَنَفَرًا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي مَنْزِلِهِ، لَمْ يَكُونُوا شَاهِدُوا خُطْبَتَهُ.

فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ مِرْوَانُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَكَلَّمُ أَمْ أَسْكُتُ؟ فَقَالَتْ نَائِلَةُ ابْنَتُهُ الْفَرَاصَةَ امْرَأَةً عُثْمَانَ: لَا، بَلْ اصْمُتْ، فَإِنَّهُمْ وَاللَّهِ قَاتِلُوهُ وَمُؤْتِمُوهُ، إِنَّهُ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنْزَعَ عَنْهَا.

فَقَالَ لَهَا مِرْوَانُ: مَا أَنْتِ وَذَاكَ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَاتَ أَبُوكَ وَمَا يُحْسِنُ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَتْ: مَهَلًا يَا مَرْوَانَ عَنْ ذِكْرِ الْآبَاءِ، تُخْبِرُ عَنْ أَبِي وَهُوَ غَائِبٌ تَكْذِيبٌ عَلَيْهِ! وَإِنَّ أَبَاكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ. أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّهُ عَمَهُ، وَأَنَّهُ يَنَالُهُ عَمُهُ لَأَخْبَرْتُكَ عَنْهُ بِمَا لَمْ أَكْذِبْ. قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهَا مِرْوَانُ، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَكَلَّمُ أَمْ أَسْكُتُ؟ قَالَ: تَكَلَّمُ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! وَاللَّهِ لَوِذِدْتُ أَنَّ مَقَالَتَكَ هَذِهِ كَانَتْ وَأَنْتَ مَمْتَنٌّ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَضِيَ بِهَا، وَأَعَانَ عَلَيْهَا؛ وَلَكِنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ حِينَ قَدْ بَلَغَ الْحَزَامُ الطُّبَيْنِ^(٣)، وَبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى^(٤)، وَحِينَ أُعْطِيَ الْخُطَّةَ الدَّلِيلَةَ الدَّلِيلُ، وَاللَّهِ لِإِقَامَةِ عَلَى خَطِيئَةٍ يُسْتَغْفَرُ مِنْهَا، أَحْسَنُ مِنْ تَوْبَةٍ يَخَافُ عَلَيْهَا، وَأَنْتَ إِنْ شِئْتَ تَقْرَأُ بِالتَّوْبَةِ، وَلَمْ تَقْرَأْ بِالْخَطِيئَةِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ بِالْبَابِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ مِنَ النَّاسِ.

(١) النزوع: الكف.

(٢) أخضلت: ابتلت.

(٣) الطبي: حلقة الضرع التي فيها اللبن، والتي يرضع منها الرضيع.

(٤) بلغ السيل الزبي: مثل يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

فقال عثمان: فأخرج إليهم وكلّمهم، فإني أستحيي أن أكلّمهم، فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنتكم قد جئتم لنهب، شاهت^(١) الوجوه! إلا من أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، اخرجوا عنا، والله لئن رُمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإننا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع الناس، وأتى بعضهم علياً فأخبره الخبر، فأقبل على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال: أحضرت خطبة عثمان؟ قال: نعم، قال: أفحضرت مقالة مروان للناس؟ قال: نعم، فقال علي: أي عباد الله، يا للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان، فصار سيقه له يسوقه حيث يشاء، بعد كبر السن، وصحبة الرسول ﷺ. وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له: أما رضىت من مروان ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك، وعن عقلك، مثل جمل الطعينة^(٢). يُقاد حيث يشاء ربه^(٣). والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه، ولا وأيم الله إني لأراه يوردك ثم لا يصدرك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعائيتك، أذهبت شرفك، وغلبت على رأيك.

فلما خرج علي دخلت على عثمان امرأته نائلة فقالت: قد سمعت قول علي لك، وليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله، وتتبع سنة صاحبتك؛ فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هنية ولا محبة؛ وإنما تركك الناس لمكانه، فأرسل إلى علي فاستصليحه فإن له قرابة منك، وهو لا يغصى.

فأرسل عثمان إلى علي فلم يأتِه وقال: قد أعلمته أنني غير عائد، فبلغ مروان مقالة نائلة فيه، فجلس بين يدي عثمان فقال: يا ابنة الفرافصة، فقال عثمان: لا تذكرئها بحرف، فأسوى وجهك، فهي والله أنصح لي منك، فكف مروان.

وأتى عثمان إلى علي بمنزله ليلاً وقال له: إني غير عائد، وإني فاعل، فقال له علي: بعدما تكلمت على منبر رسول الله ﷺ، وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك. فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم!

(٢) الطعينة: الراحلة يرحل عليها.

(١) شاهت الوجوه: قبحت.

(٣) رب الشيء: سيده أو صاحبه.

فخرج عثمان من عنده وهو يقول: خذلتني وجزأت الناس علي، فقال له علي: والله إنني لأكثر الناس ذباً^(١) عنك؛ ولكنني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعت قوله، وتركت قولِي. ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل إلى أن منع عثمان الماء. فغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان رضي الله عنه. والله أعلم.

ذكر مقتل عثمان رضي الله عنه

ولما عاد المصريون وغيرهم، ظن أن الفتنة قد ركذت، والبليّة قد سكنت، فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها، وقد عاد القوم، فجاءهم أهل المدينة وفيهم علي، فقال: ما ردكم بعد ذهابكم!

وقيل: إن الذي سألهم محمد بن مسلمة، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب^(٢) على بعير من إبل الصدقة، ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه هذه الصحيفة، يأمر فيها عامل مصر بجلد عبد الرحمن بن عديس وغيره، وصلب بعضنا.

قيل: وكان الذي أخذت منه الصحيفة أبو الأعور السلمي.

فدخل علي ومحمد بن مسلمة على عثمان وأعلموه بما قال القوم، فأقسم بالله ما كتبه ولا علم به. فقال محمد: صدق، هذا من فعل مروان، ودخل عليه المصريون، فلم يسلّموا عليه بالخلافة، وتكلموا، فذكر ابن عديس ما فعل عبد الله بن سعد بالمسلمين وأهل الذمة، وأنه استأثر بالغنائم، فإن قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين، وذكر أشياء مما أحدثها عثمان بالمدينة.

وقال: خرجنا من مصر نريد قتلك، فردنا علي ومحمد بن مسلمة، وضيمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه، فرجعنا إلى بلادنا، فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك، تأمر بجلدنا والمثلة^(٣) بنا، وطول حبسنا. فحلف أنه ما كتب ولا أمر ولا علم.

(١) ذب عنه: دفع عنه ومنع.

(٢) البويب: بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) المثلة: العقوبة والتكيل.

فقال محمدٌ وعليٌّ: صدق عثمان. قال المصريون: فَمَنْ كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيَجْتَرَأُ عليك، ويُبِعْثُ غلامُك وجَمَلُ الصَّدَقَةِ، وينقُشُ على خاتَمِك، ويُبِعْثُ إلى عامِلِك بهذه الأمورِ العظيمةِ وأنت لا تعلمُ! قال: نعم. قالوا: ما أنت إلا صادقٌ أو كاذبٌ، فإن كنتَ كاذبًا فقد استحققتَ الخلعَ لِمَا أَمَرْتَ به من قَتْلِنَا بغيرِ حقٍّ، وإن كنتَ صادقًا فقد استحققتَ الخلعَ. لَضَعْفِكَ عن هذا الأمرِ، وَعُغْلَتِكَ، وَخُبْنِ بَطَانَتِكَ، ولا تَتْرُكْ هذا الأمرَ يَبْدُ مَنْ يَقْطَعُ الأمرُ دَوْنَهُ.

فقال: لا أنزعُ قميصًا أَلْبَسْنِيهِ اللَّهُ؛ ولكِنِّي أتوبُ وأنزعُ.

قالوا: قد رأيناكَ تتوبُ، ثُمَّ تَعُودُ، وَلَسْنَا منصرفينَ حَتَّى تَخْلَعَكَ، أو نَقْتُلَكَ، أو تَلْحَقَ أرواحنا بِاللَّهِ، وَإِنْ مَنَعَكَ أَهْلُكَ وَأَصْحَابُكَ قَاتَلْنَاهُمْ.

فقال: أَمَا أَنْ أَتَبَرَّأَ مِنْ خِلافةِ اللَّهِ فَالْقَتْلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَّا قَتَالُكُمْ مِنْ مَنَعَنِي فَإِنِّي لَا أَمُرُ بِقَتْلِ أَحَدٍ بِقَتَالِكُمْ، فَمَنْ قَاتَلَ بغيرِ أَمْرِي.

وكَثُرَتِ الْأَصْوَاتُ وَاللَّعْطُ^(١)، فَقَامَ عَلِيٌّ وَأَخْرَجَ الْقَوْمَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ.

قال: لَمَّا رَجَعَ أَهْلُ مِصْرَ، رَجَعَ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادٍ وَاحِدٍ؛ فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ عَلِمْتُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَيَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ بِمَا لَقِيَ أَهْلُ مِصْرَ، وَقَدْ سِرْتُمْ مَرَاحِلَ حَتَّى رَجَعْتُمْ! هَذَا وَاللَّهِ أَمْرٌ بَيِّنٌ لَبِيلٌ! فَقَالُوا: ضَعُوه كَيْفَ شِئْتُمْ، لَا حَاجَةَ لَنَا فِي هَذَا الرَّجُلِ، لِيَعْتَزَّلَنَا.

قال: ثُمَّ أَحَاطَ الْقَوْمُ بِعُثْمَانَ، وَلَمْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَلَا مَنَعُوا مِنْ أَجْتِمَاعِ النَّاسِ بِهِ.

وَكَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَسْتَنْجِدُهُمْ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْحَثِّ لِلْمَنْعِ عَنْهُ، وَيَعْرِفُهُمْ مَا النَّاسُ فِيهِ، فَخَرَجَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ عَلَى الصَّعْبِ^(٢) وَالذَّلُولِ^(٣).

فَبِعَثَ مَعَاوِيَةُ حَبِيبَ بْنِ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيِّ، وَبِعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَذِيجٍ. وَخَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو.

وَقَامَ بِالْكُوفَةِ نَفَرٌ يَحْضُونَ عَلَى إِعَانَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، مِنْهُمْ عَقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى، وَحَنْظَلَةُ الْكَاتِبِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَمِنَ التَّابِعِينَ مَسْرُوقُ الْأَسْوَدِ وَشَرِيحٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيمٍ وَغَيْرُهُمْ.

(١) اللغظ: الصوت والجلبة.

(٢) الصعب: الذي صعب قياده.

(٣) الذلول: السهل الانقياد.

وقام بالبصرة عمران بن حصين، وأنس بن مالك، وهشام بن عامر وغيرهم من الصحابة.

وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين، وكذلك بمصر.

قال: ولما جاءت الجمعة التي على إثر دخولهم المدينة، خرج عثمان فصلّى بالناس، ثم قام على المنبر وقال: يا هؤلاء، لله الله، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسانه محمد، فامحوا الخطأ بالصواب.

وقام محمد بن سلمة وقال: أنا أشهد بذلك، فأقعدته حكيماً بن جبلة، وقام زيد بن ثابت، فأقعدته محمد بن أبي قتيبة، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه، فأدخل داره، واستقتل نفر من أهل المدينة معه، منهم سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي وزيد بن ثابت وأبو هريرة، فعزم عليهم عثمان بالانصراف، فانصرفوا، وجاءه علي وطلحة والزبير يعودونه، وعنده جماعة من بني أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا كلهم لعلي: أهلكتنا وصنعت هذا الصنع! والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن عليك الدنيا، فقام مغضباً، وعاد هو والجماعة إلى منازلهم.

قال: وصلى عثمان بالناس في المسجد بعدما نزلوا به ثلاثين يوماً، ثم منعه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقي، وتفرق أهل المدينة في حيطانهم^(١)، ولزموا بيوتهم، لا يجلس أحد ولا يخرج إلا بسيفه؛ ليمتنع به.

قال: وفي أثناء ذلك استشار عثمان نصحاءه في أمره، فأشاروا عليه بالإرسال إلى علي في ردهم، ويُعطيهم ما يرضيهم؛ ليطاولهم^(٢) حتى تأتيه أمداده، فقال: إنهم لا يقبلون التعلل، وقد كان مني في المرة الأولى ما كان.

فقال مروان: أعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك؛ فإنهم قوم بغوا عليك ولا عهد لهم.

فدعا علياً وقال له: قد ترى ما كان من أمر الناس، ولا آمنهم على دمي، فارددهم فإنني أعطيتهم ما يريدون من الحق مني ومن غيري. فقال علي: الناس إلى عذلك أخرج منهم إلى قتلك، وقد كنت أعطيتهم عهداً فلم تف به، فلا تفردني هذه المرة فإنني أعطيتهم عليك الحق.

(١) الحيطان: البساتين.

(٢) طاولهم: ماطلهم وأخرهم.

قال: أعطهم، فوالله لأفئتن لهم. فخرج عليّ إلى الناس فقال لهم: إنمّا طلبتم الحقّ وقد أُعطيتموه، وقد رَعمَ أنّه منصفُكم من نفسه ومن غيره، فقال النَّاسُ: قَبِلْنَا، فاستوثق منه لنا؛ فإنّا لا نرضى بقولٍ دون فعلٍ، فدخل عليه عليّ فأعلمه، فقال: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة، فإنه لا أقدر على ردّ ما كرهوا في يوم واحد منك. فقال له عليّ: أمّا ما كان بالمدينة فلا أجل لك فيه، وما غاب فأجله وصولُ أمرِك. قال: نعم، فأجلني فيما في المدينة ثلاثة أيام، فأجابه إلى ذلك.

وكتبَ بينهم كتاباً على ردّ كلّ مظلمةٍ، وعزّل كلّ عاملٍ كرهوه، فكفّ النَّاسُ عنه، فجعلَ يتأهّب للقتالِ، ويستعدُّ بالسّلاح، واتخذَ جُنُداً. فلَمّا مضتِ الأيّامُ الثلاثة ولم يُغيّر شيئاً ثار به القوم.

وخرجَ عمرو بنُ حزم إلى المصريّين فأعلمهم الخبر، وهم بذِي خُشبٍ، فقدموا المدينة وطلبوا منه عزّلَ عمّاله، وردّ مَظالمهم.

فقال: إنّ كنتُ أستعملُ من أردتُم، وأعزّلُ من كرهتُم، فلستُ في شيءٍ من الأمرِ، والأمرُ أمرُكم. فقالوا: واللّهِ لتفعلنَّ أو لتخلعنَّ أو لتقتلنَّ. فأبى عليهم فحَصَروه، واشتدَّ الحصارُ، فأرسلَ إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا، فأشرفَ عليهم وقال: يأيّها النَّاسُ، اجلسوا، فجلسَ المُحاربُ والمسالِمُ، ثم قال: يا أهل المدينة، استودِعكم الله، وأسأله أن يُحسِنَ عليكم الخلافةَ مِن بعدي، ثم قال: أنشدكم باللّهِ! هل تعلمون أنكم دعوتم اللهَ عندَ مصابِ عمرَ أن يختارَ لكم، وأن يجمعَكم على خيرِكُم! أتقولون إن اللّهُ لم يستجبْ لكم، وهتُم عليه، وأنتم أهلُ حقّه! أم تقولون: هانَ على اللّهِ دينه، فلم يبالِ من ولى، والذين لم يفرّقوا أهله حينئذٍ؟ أم تقولون: لم يكنْ أخذٌ عنْ مشورةٍ، إنما كان عنْ مُكابرةٍ فوكلَ اللّهُ الأُمَّةَ إذ عصته ولم يُشاوروا في الإمامة! أم تقولون: إن الله لم يعلمْ عاقبةَ أمري.

وأنشدكم باللّهِ! أتعلمون لي سابقةَ خيرٍ وقدمَ خيرٍ قدّم اللّهُ لي ما يوجبُ عليّ كلّ من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها، فمهلاً لا تقتلونني فإنه لا يحلُّ إلا قتل ثلاثة: رَجُل رزى بعدَ إحصائه، أو كفر بعدَ إيمانه، أو قتلَ نفساً بغيرِ حق. فإنكم إن قتلتموني وضَعتم السيفَ على رِقابِكُم، ثم لم يرفع اللّهُ عنكم الاختلافَ أبداً.

قالوا: أمّا ما ذكّرت من استخارةِ النَّاسِ بعدَ عمرَ، ثم وَلوكَ فإنّ كلّ ما صنعَ اللّهُ الخيرةَ، ولكن اللّهُ جعلك بليّةً ابتلى بها عباده.

وأما ما ذكّرت من قديمِك وسلَفِك مع رسول الله ﷺ فقد كنتَ كذلك، وقد كنتَ أهلاً للولاية، ولكن أحدثت ما علمته، ولا تتركُ إقامةَ الحقِّ عليك مخافةَ الفتنةِ عامّاً قابلاً.

وأما قولك: إنه لا يَحِلُّ إلا قتل ثلاثة، فإننا نجدُ في كتابِ اللَّهِ قَتْلَ غَيْرِ الثلاثة الذين سَمِيت، قَتْلَ مَنْ سَعَى فِي الْأَرْضِ فسادًا، أو قَتْلَ مَنْ بَغَى، ثم قَاتَلَ عَلَى بَغْيِهِ، وَقَتَلَ مَنْ حَالَ دُونِ شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَمَنَعَهُ وَقَاتَلَ دُونَهُ. وقد بَغَيْتَ وَمَنَعْتَ الْحَقَّ وَخَلَّتْ دُونَهُ، وَكَابَزْتَ عَلَيْهِ، وَلَمْ تُقَدِّ^(١) مِنْ نَفْسِكَ مَنْ ظَلَمْتَ، وقد تَمَسَّكَتْ بِالْإِمَارَةِ عَلَيْنَا، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَكَابِرْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ الَّذِينَ قَامُوا دُونَكَ وَمَنَعُوكَ مِنَّا إِنَّمَا يَقَاتِلُونَ لَتَمَسَّكَكَ بِالْإِمَارَةِ، فَلَوْ خَلَعْتَ نَفْسَكَ لَانْصَرَفُوا عَنِ الْقِتَالِ مَعَكَ.

فَسَكَتَ عُثْمَانُ وَلَزِمَ الدَّارَ، وَأَمَرَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِالرَّجُوعِ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِمْ فَرَجَعُوا، إِلَّا الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَأَشْبَاهَهُمْ لَهُمْ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَكَانَتْ مُدَّةُ الْحَصَارِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا مَضَتْ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، قَدِمَ رُكْبَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَخْبَرُوا خَبَرَ مَنْ تَهَيَّأَ لَهُمْ مِنَ الْجُنُودِ، فَحَالُوا بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَهُ، وَمَنَعُوهُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْمَاءِ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ سِرًّا، وَإِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَإِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ مَنَعُونِي الْمَاءَ، فَإِنْ قَدَّرْتُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَيْنَا مَاءً فَافْعَلُوا، فَكَانَ أَوَّلُهُمْ لِإِجَابَةِ عَلِيٍّ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ، فَجَاءَ عَلِيٌّ فِي النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الَّذِي تَفْعَلُونَ لَا يُشْبِهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَمْرَ الْكَافِرِينَ، فَلَا تَقْطَعُوا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْمَاءَ وَلَا الْمَادَّةَ؛ فَإِنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ لَتَأْسِرَ فُتُطْعِمُ، وَتَسْقِي. فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ وَلَا نَعْمَةَ عَيْنٍ، فَرَمَى بِعِمَامَتِهِ فِي الدَّارِ، وَجَاءَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ عَلَى بَغْلَةٍ لَهَا إِدَاوَةٌ^(٢)، فَضَرَبُوا وَجَهَ بَغْلَتِهَا فَقَالَتْ: إِنَّ وَصَايَا بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا لِثَلَا تَهْلِكَ أَمْوَالُ الْأَيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ، فَقَالُوا: كَاذِبَةٌ، وَقَطَعُوا حَبْلَ الْبَغْلَةِ بِالسَّيْفِ، فَتَفَرَّتْ، وَكَادَتْ تَسْقُطُ عَنْهَا، فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ، ثُمَّ ذَهَبُوا بِهَا إِلَى مَنَزِلِهَا.

فَأَشْرَفَ عُثْمَانُ يَوْمًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: أَنُشَدُّكُمْ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اشْتَرَيْتُ بَشْرَ رُومَةٍ^(٣) مِنْ مَالِي لِيُسْتَعَذَّبَ بِهَا، فَجَعَلْتُ رِشَائِي^(٤) فِيهَا كَرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَلَمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا حَتَّى أَفْطِرَ عَلَى مَاءِ الْمِلْحِ! ثُمَّ قَالَ: أَنُشَدُّكُمْ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اشْتَرَيْتُ أَرْضَ كَذَا فَزِدْتُهَا فِي الْمَسْجِدِ؟ قِيلَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ أَحَدًا مُنِعَ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ قَبْلِي؟ ثُمَّ قَالَ: أَنُشَدُّكُمْ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَنِّي كَذَا وَكَذَا أَشْيَاءَ فِي شَأْنِهِ؟

(١) القود: القصاص.

(٢) الأداة: الإناء.

(٣) بثر رومة: هي في عقيق المدينة.

(٤) الرشاء: جبل الدلو ونحوها.

فَفَسَا النَّهْيُ فِي النَّاسِ، يَقُولُونَ: مَهْلًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَامَ الْأَشْتَرُ: فَقَالَ: لَعَلُّهُ قَدْ مَكَرَ بِهِ وَبَكُمُ.

قَالَ: وَبَلَغَ طُلُوحَةُ وَالزَّبِيرُ مَا لَقِيَ عَلِيَّ وَأُمَّ حَبِيبَةَ، فَلَزِمُوا بَيْوتَهُمْ، وَبَقِيَ عَثْمَانُ يَسْقِيهِ آلُ حَزْمٍ فِي الْغَفْلَاتِ.

قَالَ: وَخَرَجَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى الْحَجِّ، فَاسْتَتَبَعَتْ أَخَاهَا مُحَمَّدًا، فَأَبَى، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لئنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ يَحْرِمَهُمُ اللَّهُ مَا يُحَاوِلُونَ لِأَفْعَلَنَّ.

فَقَالَ لَهُ حَنْظَلَةُ الْكَاتِبُ: تَسْتَتِيعُكَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَتَّبِعْهَا، وَتَتَّبِعْ ذُؤْبَانَ الْعَرَبِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ! وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ إِنْ صَارَ إِلَى التَّغَالُبِ غَلَبْتُكَ عَلَيْهِ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ. ثُمَّ رَجَعَ حَنْظَلَةُ إِلَى الْكُوفَةِ وَهُوَ يَقُولُ وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ: [مَنْ الْوَافِر]

عَجِبْتُ لِمَا يَخْوَضُ النَّاسُ فِيهِ يَرُومُونَ الْخِلَافَةَ أَنْ تَزُولَا
وَلَوْ زَالَتْ لَزَالَ الْخَيْرُ عَنْهُمْ وَلَا قُوا بَعْدَهَا ذُلًّا ذَلِيلًا
وَكَانُوا كَالْيَهُودِ أَوْ كَالنَّصَارَى سَوَاءٌ كُلُّهُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَا

قَالَ: ثُمَّ أَشْرَفَ عَثْمَانُ عَلَى النَّاسِ، وَاسْتَدْعَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْجَّ بِالنَّاسِ، وَكَانَ مِنْ لَزِمِ الْبَابِ، فَانْطَلَقَ.

قَالَ: وَلَمَّا رَأَى الْمَصْرِيُّونَ أَنَّ أَهْلَ الْمَوْسِمِ يَرِيدُونَ قَضَاءَهُمْ بَعْدَ الْحَجِّ مَعَ مَا يَلِيهِمْ مِنْ مَسِيرِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، قَالُوا: لَا يُخْرِجُنَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي وَقَعْنَا فِيهِ إِلَّا قَتْلُ هَذَا الرَّجُلِ، فَيَسْتَعْلُ النَّاسُ عَنَّا. فَتَقَدَّمُوا إِلَى الْبَابِ، فَمَنَعَهُمُ الْحَسَنُ، وَابْنُ الزَّبِيرِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ طُلُوحَةَ، وَمَرْوَانَ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَمِنْ مَعَهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ، وَاجْتَلَدُوا^(١) فَزَجَرَهُمُ عَثْمَانُ، وَقَالَ: أَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ نُضْرَتِي، فَأَبَوْا، فَفَتَحَ الْبَابَ لِيَمْنَعَهُمْ، فَلَمَّا خَرَجَ وَرَأَاهُ الْمَصْرِيُّونَ رَجَعُوا، فَزَكَبَهُمْ هَؤُلَاءِ، وَأَقْسَمَ عَثْمَانُ عَلَى الصَّحَابَةِ لِيَدْخُلْنَ، فَدَخَلُوا، فَأَغْلَقَ الْبَابَ دُونَ الْمَصْرِيِّينَ فَتَارُوا إِلَى الْبَابِ، وَجَاؤُوا بِنَارٍ، فَأَخْرَقُوا السَّقِيفَةَ الَّتِي عَلَى الْبَابِ، وَثَارَ بِهِمْ أَهْلُ الدَّارِ، وَعَثْمَانُ يُصَلِّي، قَدْ فَتَحَ طَةً، فَمَا شَعَلَهُ مَا سَمِعَ حَتَّى أَتَى عَلَيْهَا، فَلَمَّا فَرَّغَ جَلَسَ إِلَى الْمُصْحَفِ فَقَرَأَ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(١) اجتلدوا: تضاربوا بالسيوف.

قال: ثم قال عثمان للحسن: إن أباك الآن لفي أمرٍ عظيمٍ من أمرك، فأقسمتُ عليك لما خرجت عليه، فتقدموا فقاتلوا، ولم يستمعوا قوله، فبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان تعجل الحج في عصابة لينصروا عثمان وهو معه في الدار، وارتجز:

قد علمت ذات القرون الميل والحلي والأنامل الطفول^(١)
لتصدقن بيعتي خليلي بصارم ذي روني مضقول^(٢)
* لا أستقيل إذ أقلت قيللي *

وحكى أبو عمر أن المغيرة بن الأخنس قال لعثمان حين أحرقوا بابهُ: والله لا قال الناس عثاً: إنا خذلناك، وخرج بسيفه وهو يقول: [من البسيط]

لما تهدمت الأبواب واحترقت تيممتُ منهنُّ باباً غير مُحترق^(٣)
حقاً أقول لعبد الله أمره إن لم تقاتل لدى عثمان فانطلق
والله أتركه ما دام بي رمق حتى يزائل بين الرأس والعنق^(٤)
هو الإمام فلست اليوم خاذله إن الفراز علي اليوم كالسرق

وحمل على الناس فضربه رجل على ساقه فقطعها، ثم قتله، فقيل إن الذي قتله تقطع جذاماً^(٥) بالمدينة.

وقال قتادة: لما أقبل أهل مصر إلى المدينة في شأنه عثمان رأى رجل منهم في المنام كأن قاتلاً يقول له: بشّر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار، وهو لا يعرف المغيرة، رأى ذلك ثلاث ليالٍ، فجعل يحدث أصحابه. فلما كان يوم الدار خرج المغيرة فقاتل، والرجل ينظر إليه فقتل ثلاثة، فلما قتلهم وثب إليه الرجل فحذفه، فأصاب رجله، ثم ضربته حتى قتله، ثم قال: من هذا؟ فقالوا: المغيرة بن الأخنس، فقال: لا أراني إلا صاحب الرؤيا المبشر بالنار، فلم يزل بشر حال حتى هلك.

وخرج الحسن بن علي وهو يقول: [من الكامل]

لا دينهم ديني ولا أنا منهم حتى يسير إلى طمار شمام^(٦)

(١) الطفول: جمع الطفل، والطفل: الناعمة. (٢) الصارم: القاطع.

(٣) يم: قصد.

(٤) الرمق: بقية الروح.

(٥) جذم: أصابه الجذام، والجذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتساقط.

(٦) الشمام: اسم جبل بالعالية. والطمار: المكان العالي من الجبل وغيره.

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول: [من الرجز]
أنا ابنُ مَنْ حَامَى عليه بأخذٍ ورَدَّ أحزَابًا على رِغْمٍ معدٍّ^(١)

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول: [من الطويل]
صَبَرْنَا عِدَاةَ الدَّارِ والمَوْتُ واقِفٌ بِأَسْيَافِنَا دُونَ ابنِ أَرْوَى نُضَارِبُ
وَكُنَّا عِدَاةَ الرُّوعِ فِي الدَّارِ نُضَرَّةٌ نُشَافِيهِمُ بِالضَّرْبِ والمَوْتُ ثَاقِبٌ^(٢)

وكان آخر مَنْ خرج عبدُ الله بنُ الزُّبَيْرِ، وأقبلَ أبو هريرة والنَّاسُ مُحْجَمُونَ،
فقال: هذا يَوْمٌ طَابَ فِيهِ الضَّرْبُ، ونَادَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّاعِيَ إِلَى عَدَاوَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ فِي الْبَغْيِ﴾ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿غَافِرٌ: ٤١﴾.

وجاء عبدُ الله بنُ سَلَامٍ يَنْهَاهُم عَنْ قَتْلِهِ، فقال: يا قوم، لَا تَسْلُوا سَيْفَ اللَّهِ
فِيكُمْ، فواللَّهِ إِنْ سَلَّئْتُمُوهُ لَا تُغَمِّدُوهُ، وَيَلَكُمْ! إِنْ سُلْطَانُكُمْ الْيَوْمَ يَقُومُ بِالذَّرَّةِ^(٣)، فَإِنْ
قَتَلْتُمُوهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالسَّيْفِ، وَيَلَكُمْ! مَدِينَتُكُمْ مُحْفُوفَةٌ بِالمَلَائِكَةِ، فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ
لَيَتَرُكْنَهَا.

فقالوا: يا بن اليهودية، ما أنتَ وهذا! فرجع عنهم.
قال: ثُمَّ اقْتَحَمُوا عَلَى عُثْمَانَ دَارَهُ، مِنْ دَارِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ حَتَّى مَلَّوْهَا وَلَمْ
يَشْعُرْ مَنْ بِالْبَابِ مِنْهُمْ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَحْوَصُ^(٤) يَهْجُو آلَ حَزْمٍ: [من البسيط]

لَا تَرِثِينَ لِحَزْمِي رَأْيَتُ بِهِ ضُرًّا وَلَوْ طُرِحَ الْحَزْمِيُّ فِي النَّارِ
الْبَاخْسِينَ لَمَرَوَانِ بِذِي خُشْبٍ وَالْمُذْخِلِينَ عَلَى عُثْمَانَ فِي الدَّارِ

قال: وَلَمَّا صَارُوا فِي الدَّارِ نَدَبُوا رَجُلًا لِيَقْتُلَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اخْلَعْهَا
وَتَتْرُكُكَ. قال: لَسْتُ خَالِعًا قَمِيصًا كَسَانِيهِ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يُكْرِمَ اللَّهُ أَهْلَ السَّعَادَةِ،
وَيُهَيِّنَ أَهْلَ الشَّقَاوَةِ، فَخَرَجَ عَنْهُ، فَادْخَلُوا عَلَيْهِ رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ، فَقَالَ: لَسْتُ
بصَاحِبِي لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا لَكَ أَنْ تُحْفَظَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ تُضَيِّعُ، فَارْجِعْ عَنْهُ

(١) بنو معد: بطن من بعد عدنان. (٢) الثاقب: الظاهر.

(٣) الذرة: السوط يضرب به.

(٤) الأحوص: هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الألتح وعاصم بن ثابت
من الأنصار وهو حمي الدبر وكان الأحوص يرمى بالأبنة والزنى وشكى على عمر بن عبد العزيز
فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر، فدخل إليه عدة من الأنصار فكلّموه فيه
وسأله يردّه إلى المدينة.. فلم يستجب لهم... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

وفارقَ القومَ. ودخل عليه رجلٌ من قُريش فقال له: إِنَّ النبي ﷺ استغفرَ لك يومَ كذا وكذا فلنْ تُقَارِفَ دَمًا حرامًا، فرجعَ وفارقَ أصحابه.

ودخل عليه جماعةٌ كلُّهم يزجِعُ، أخزهم محمدُ بنُ أبي بكرٍ، فلمَّا خرجَ ثارَ قُتَيْبَةُ وسُودَانُ بنُ حُمرانَ والعَافِيَّي، فضربه الغَافِيَّي بحديدة، وضرب المصحفَ برجله، فدار المصحفُ، واستقرَّ بين يديه، وجاء سُودَانُ ليضربه فأكبَّت عليه نائلة بنتُ الفَرَّافِصَةِ، وأتقت السيفَ بيدها ففَطَعَ أصابعها وشيئًا من الكفِّ، ونصفَ الإبهامِ فولَّتْ، فَعَمَزَ أوراكَها، وقال: إنها لكَبِيرَةُ العَجْزِ، وضربَ عثمانَ فقتَلَه.

وقيل: إِنَّ الَّذِي قَتَلَه كِنَانَةُ بنُ بَشْرِ التُّجَيْبِيِّ، وكان عثمانُ قد رأى النبي ﷺ في تلك الليلة وهو يقولُ له: إِنَّكَ تُفْطِرُ اللَّيْلَةَ عِنْدَنَا.

ولما قُتِلَ قَطَرَ من دَمِهِ على المصحفِ على قوله تعالى: ﴿سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال: ودخل غِلْمَةٌ لعثمانَ مع القومِ لينصروه، فقال عثمانُ: مَنْ كَفَّ يَدَهُ فهو حرٌّ، فلما ضربه سُودَانُ ضَرْبَ بعضِ الغلمانِ رقيةً سُودَانُ فقتَلَه، ووثبَ قُتَيْبَةُ على الغلامِ فقتَلَه، وانتهبوا ما في البيت، وخرجوا، وأغلَقُوا البابَ على ثلاثة قَتْلَى.

فلما خرجوا وثبَ غلامٌ لعثمانَ على قُتَيْبَةَ فقتَلَه، وثار القومُ فأخذوا ما وَجَدُوا حتى أخذوا ما على النساءِ، وأخذَ كلُّوهمُ التُّجَيْبِيُّ مِائَةَ كَانَتْ على نائلة، فضربه غلامٌ لعُثمانَ فقتَلَه، وانتهبَ القومُ بَيْتَ المالِ.

قال: ووثبَ عَمْرُو بنُ الحَمِقِ على صَدْرِ عثمانَ وبه رَمَقٌ، فطعنه تسعَ طعَنَاتٍ، وأرادَ قَطَعَ رَأْسِهِ، فوقعتْ نائلةٌ وأُمُ البَيْنَيْنِ عليه فصِخَنَ وضربَ الوجوه، فقال ابنُ عَدِيسٍ: ائْرُكوه، وأقبلَ عُمَيْرُ بنُ ضَابِيءِ البُرْجُمِيِّ فوثبَ على عثمانَ، فكسرَ ضلعًا من أضلاعِهِ، وقال له: سَجَنْتُ أَبِي حَتَّى مَاتَ فِي السُّجُنِ.

وكان قَتْلُهُ يومَ الجُمُعَةِ لثمانِي عشرة، أو سبعِ عشرة لَيْلَةً خَلَتْ من ذِي الحِجَّةِ، سنَةً خمسَ وثلاثين. ذَكَرَ المَدَانِيُّ عن أَبِي مَعْشَرٍ عن نافعٍ، وعن أَبِي عثمانَ التَّهْدِي؛ أَنَّهُ قُتِلَ وَسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ^(١).

وقال ابنُ إِسْحاقَ: قُتِلَ عثمانُ على رَأْسِ إحدى عشرة سنة، وأحدَ عشرَ شهرًا، واثنين وعشرين يومًا من مَقْتَلِ عَمْرِ بنِ الخطَّابِ، وعلى رَأْسِ خمسَ وعشرين سنة من متوفى رسولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

وقال الواقدي رحمه الله: قُتِلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَثْمَانِ لَيَالٍ خَلَّتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ التَّروِيَةِ^(١). وقد قيل: إنه قتل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذِي الْحِجَّةِ.

رَوَى هَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ.

واختُلفَ في مدة الحصار. فقال الواقدي: حاصروه تسعة وأربعين يوماً. وقال الزبير بن بكار: حاصروه شهرين وعشرين يوماً؛ وقيل غير ذلك.

وقد تقدّم أنّه رضي الله عنه صَلَّى بالنّاس بعد أن نزلوا به ثلاثين يوماً، ثم منعه الصلاة، وصَلَّى بالنّاس أميرهم العَافِيّ.

وقد قيل: إنّه لما مُنِعَ عثمانُ الصلاةَ جاء سَعْدُ الْقَرْظُ وهو المؤذّن إلى عليّ بن أبي طالب، فقال: مَنْ يُصَلِّي بالنّاس؟ فقام خالد بن زيد، وهو أبو أيوب الأنصاري، فصَلَّى أياماً، ثم صَلَّى عليّ بعد ذلك بالنّاس.

وقيل: بل أمرَ عليّ سهل بن حنيف فصَلَّى بالنّاس من أوّل ذِي الْحِجَّةِ إلى يوم العيد، ثم صَلَّى عليّ بالنّاس العيد، وصَلَّى بهم حتى قُتِلَ عثمان. والله أعلم.

حكى أبو عمر بن عبد البر في مَقَاتِلِ عثمان، قال: كان أوّل مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ الدارَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، فأخَذَ بِلَحْيَتِهِ فقال: دَعِهَا يَا بْنَ أَخِي، فوالله لقد كان أبوك يُكْرِمُهَا، فاستَحْيَا وخرج، ثم دَخَلَ عَلَيْهِ رومانُ بْنُ سُرْحَانَ، رجلاً أزرَقَ قَصِيرَ مَجْدُورٍ، عِدَادُهُ فِي مُرَادٍ، وهو من ذِي أَضْبَحٍ، معه خَنْجَرٌ، فاستَقْبَلَهُ بِهِ، وقال: على أيّ دين أنت يا نَعْل؟ فقال: لستُ بِنَعْلٍ ولكنني عثمانُ بْنُ عَفَّانٍ، وأنا على مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قال: كَذَبْتَ، وَضَرَبَهُ عَلَى صُدْغِهِ فَقَتَلَهُ، فَخَرَّ، فَأَدَخَلَتْهُ امْرَأَتُهُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ثِيَابِهَا، وكانت امرأةً جَسِيمَةً.

ودخل رجلٌ من أهلِ مِصرَ معه السَّيْفُ مِصْلَتًا فقال: والله لأَقْطَعَنَّ أَنْفَكَ، فعَالَجَ المرأةَ فَكَشَفَتْ عَنْ ذِرَاعَيْهَا، وَقَبِضَتْ عَلَى السَّيْفِ فَقَطَّعَ إِنْهَامَهَا، فقالت للغلام لعثمان يُقَالُ لَهُ رَبَّاحٌ، ومعه سيفُ عثمان: أَعِنِّي عَلَى هَذَا، وَأَخْرِجْهُ، فَضَرَبَهُ الْغُلَامُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

قال: وأقام عثمانُ يومَهُ ذَلِكَ مطروحًا إلى اللَّيْلِ، فحمله رجالٌ على بابٍ لِيَذْفُوهُ، فعرضَ لَهُمْ نَاسٌ لِيَمْنَعُوهُم مِّنْ دَفْنِهِ، فوجدوا قَبْرًا قد حُفِرَ لغيره فَدَفَنُوهُ فِيهِ، وصَلَّى عَلَيْهِ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ.

(١) يوم التروية: الثامن من ذِي الْحِجَّةِ.

وقال محمد بن طلحة: حَدَّثَنِي كَنَانَةُ مَوْلَى صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، فَقَالَ: شَهِدْتُ مَقْتَلَ عُثْمَانَ، فَخَرَجَ مِنَ الدَّارِ أَمَامِي أَرْبَعَةُ مِنْ شَبَابٍ قَرِيشٍ مُضَرَّجِينَ بِالْدَّمِ، مَحْمُولِينَ، كَانُوا يَذُودُونَ عَنْ عُثْمَانَ وَهُمْ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حَاطِبٍ، وَمُرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ.

قال محمد بن طلحة: فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ نَدَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهِ؟ فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: يَا بَنَ أَخِي لَسْتُ بِصَاحِبِي، وَكَلَّمَهُ كَلَامًا فَخَرَجَ، وَلَمْ يَنْدُ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهِ.

قال: فَقُلْتُ لَكِنَانَةُ: مَنْ قَتَلَهُ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، يُقَالُ لَهُ: جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ، ثُمَّ طَافَ بِالْمَدِينَةِ ثَلَاثًا يَقُولُ: أَنَا قَاتِلُ نَعْلٍ.

وَرَوَى أَبُو عُمَرَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ أَلْقَى عَلَى الْمِزْبَلَةِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ أَتَاهُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ حُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَجُدَيْي بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ، فَاحْتَمَلُوهُ، فَلَمَّا صَارُوا بِهِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ لِيَدْفِنُوهُ نَادَاهُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي مَازَنٍ: وَاللَّهِ لئن دَفَنْتُمُوهُ هَاهُنَا، لَنُخْبِرَنَّ النَّاسَ غَدًا، فَاحْتَمَلُوهُ، وَكَانَ عَلَى بَابٍ، وَإِنْ رَأَسُهُ كَانَ عَلَى الْبَابِ يَقُولُ: طُقِّ طُقِّ حَتَّى صَارُوا بِهِ إِلَى حَشٍّ كَوَكَبٍ^(١) فَاحْتَفَرُوا لَهُ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ عُثْمَانَ مَعَهَا مَصْبَاحٌ فِي حَقٍّ^(٢)، فَلَمَّا أَخْرَجُوهُ لِيَدْفِنُوهُ صَاحَتْ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ: وَاللَّهِ لئن لَمْ تَسْكُتِي لِأَضْرَبَنَّ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ، فَسَكُتَتْ، فَدَفِنَ.

قال مالك: وَكَانَ عُثْمَانُ يَمُرُّ بِحَشٍّ كَوَكَبٍ فَيَقُولُ: إِنَّهُ سَيُدْفَنُ هَاهُنَا رَجُلٌ صَالِحٌ.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: أَرَادُوا أَنْ يُصَلُّوا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَمَنْعُوهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْمُ بْنُ حَذِيفَةَ: دَعُوهُ، قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، وَعَامَرَ بْنَ نَمِيرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ شَهِدُوا جَنَازَتَهُ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ كُفِّنَ فِي ثِيَابِهِ وَلَمْ يُغْسَلْ.

وَاخْتُلِفَ فِي سَنَةِ يَوْمِ قُتِلَ.

(١) حش كوكب: الحش: البستان؛ وكوكب: رجل من الأنصار، وهذا البستان كان عثمان قد اشتراه وزاده في البقيع، كما سيأتي.

(٢) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

فقال ابنُ إسحاق: قُتِلَ وهو ابنُ ثمانين سنة. وقال غيره: قُتِلَ وهو ابنُ ثمان وثمانين، وقيل: تسعين.

وقال قتادة: قُتِلَ وهو ابنُ ستِّ وثمانين سنة.

وقال الواقدي: لا خلافَ عندنا أنه قُتِلَ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وهو قولُ أبي اليقظان.

وَذِفْنَ لَيْلًا بموضع يقال له: حَشَّ كَوْكَب، وكوكب رجلٌ من الأنصارِ (الحَشَّ: البستان)، كان عثمانُ قد اشتراه وزاده في البقيع، وهو أولُ من قُبر فيه.

قال: وَقَدْ قيل: إنه صَلَّى عليه عمرو بن عثمان ابنه، وقيل: بل صَلَّى عليه حكيمُ بنُ حزام، وقال: بل صَلَّى عليه المسورُ بنُ مخرمة. وقيل: بل جُبَيْرُ بنُ مُطْعِم. وقيل: بل مروانُ بنُ الحَكَم، وقيل: كانوا خمسةً أو ستةً وهم: جُبَيْرُ بنُ مُطْعِم، وحكيمُ بنُ حزام، وأبو جهم بنُ حذيفة، ونيارُ بنُ مُكرم، وزوجتاه نائلة وأُمُ البنين بنتُ عُيَيْنَةَ.

ونزل قَبْرُهُ دِينَارًا، وأبو جَهم، وجُبَيْر، وكان حكيمُ ونائلةُ وأُمُ البنين يُذْلُونَهُ، فلَمَّا دَفَنُوهُ غَيَّبُوا^(١) قَبْرَهُ.

وَرَوَى أَبُو الفَرَجِ الأصفهاني بسندٍ رفعه إلى نائلةَ بنتِ الفَرافصة: كتبتُ إلى معاوية، وبعثتُ بقميصِ عثمانَ رضي الله عنه مع النعمانِ بنِ بَشِيرٍ وعبدِ الرَّحْمَنِ بنِ حاطبِ بنِ أَبِي بلتعة:

من نائلةَ بنتِ الفَرافصة، إلى معاوية بنِ أَبِي سُفْيَانَ:

أما بعدُ، فَإِنِّي أَذْكُرْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ، وَعَلَّمَكُمْ الإِسْلَامَ وَهَدَاكُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنْ غَوَايَةِ الْكُفْرِ، وَنَصَرَكُمْ عَلَى الْعَدُوِّ، وَأَسَبَغَ عَلَيْكُمْ النِّعْمَةَ، فَأَنْشِدْكُمْ اللَّهُ تَعَالَى، وَأُذْكُرْكُمْ حَقَّهُ وَحَقَّ خَلِيفَتِهِ أَنْ تَنْصُرُوهُ بِعِزْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَلِيلُوا أَلَيْ تَبْغِي حَقَّ تَفْيِئَةٍ إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ﴾ [الحجرات: ٩].

وإن أمير المؤمنين بُغِيَ عليه، ولو لم يكن له عليكم حَقٌّ إِلَّا حَقُّ الْوِلَايَةِ ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا أَتَيْتُ لِحَقِّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَرْجُو أَيَّامَ اللَّهِ أَنْ يَنْصُرَهُ لِقَدَمِهِ فِي الإِسْلَامِ، وَحُسْنِ بِلَايَتِهِ؛ فَإِنَّهُ أَجَابَ دَاعِيَ اللَّهِ، وَصَدَّقَ كِتَابَهُ وَرَسُولَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ إِذَا اتَّجَبَهُ، فَأَعْطَاهُ شَرَفَ الدُّنْيَا، وَشَرَفَ الْآخِرَةِ.

(١) غَيَّبَ الشَّيْءُ: وَاَرَاهُ وَأَخْفَاهُ.

وَأَنِّي أَقْصُ عَلَيْكُمْ خَبْرَهُ، لَأَنِّي مُشَاهِدُهُ أَمْرَهُ كُلَّهُ حَتَّى أَفِضَی إِلَيْهِ.

إِنْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ حَصَرُوهُ فِي دَارِهِ يَحْرُسُونَهُ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ، قِيَامًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ بِسِلَاحِهِمْ، يَمْنَعُونَهُ كُلَّ شَيْءٍ قَدَرُوا عَلَيْهِ حَتَّى مَنَعُوهُ الْمَاءَ يُحَضِرُونَهُ الْأَذَى، وَيَقُولُونَ لَهُ الْإِفْكَ^(١). فَمَكَثَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَهْلُ مِصْرَ قَدْ أَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَكَانَ عَلِيٌّ مَعَ الْمُحَرِّضِينَ لِلْمِصْرِيِّينَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يُقَاتِلْ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَنْصُرْهُ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِالْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ، فَظَلَّتْ تُقَاتِلُ خُزَاعَةَ، وَبَكْرَ، وَسَعْدَ بْنَ بَكْرٍ، وَهَذِلَ، وَطَوَائِفُ مِنْ مُزَيْنَةَ، وَجُهَيْنَةَ، وَأَنْبَاطٍ يَثْرِبَ، وَلَا أَرَى سَائِرَهُمْ، وَلَكِنِّي قَدْ سَمِعْتُ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ رَمَى بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ، فَقُتِلَ مَنْ كَانَ فِي الدَّارِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ، فَأَتَوْهُ يَصْرُخُونَ إِلَيْهِ لِيَأْذَنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَنَهَاهُمْ عَنْهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرْدُّوا إِلَيْهِمْ نَبْلَهُمْ فَرَدُّوهَا إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ عَلَى الْقِتَالِ إِلَّا جُرْأَةً فِي الْأَمْرِ وَإِغْرَاقًا، ثُمَّ أَحْرَقُوا بَابَ الدَّارِ.

فَجَاءَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالُوا: إِنَّ فِي الْمَسْجِدِ نَاسًا يُرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوا أَمْرَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، فَاخْرُجْ إِلَى الْمَسْجِدِ حَتَّى يَأْتُوكَ، فَاَنْطَلِقْ، وَقَدْ كَانَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَامَتِهِمُ السِّلَاحَ، فَلَبِسَ دِرْعَهُ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: لَوْلَا أَنْتُمْ مَا لَبِسْتُ دِرْعًا، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ، فَكَلَّمَهُمُ الزَّبِيرُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ فِي صَحِيفَةٍ، بَعَثَ بِهَا إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عَلَيْكُمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ أَلَّا تَعْرُوهُ بِشَيْءٍ، فَكَلَّمُوهُ وَتَحَرَّجُوا، فَوَضَعَ السِّلَاحَ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا وَضَعَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ يَقْدُمُهُمْ ابْنُ أَبِي بَكْرٍ؛ حَتَّى أَخَذُوهُ بِلَحْيَتِهِ وَدَعَوْهُ بِاللُّقَبِ، فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، فَضْرَبُوهُ فِي رَأْسِهِ ثَلَاثَ ضَرْبَاتٍ، وَطَعْنُوهُ فِي صَدْرِهِ ثَلَاثَ طَعَنَاتٍ، وَضْرَبُوهُ عَلَى مُقَدِّمِ الْجَبِينِ فَوْقَ الْأَنْفِ ضَرْبَةً أَسْرَعَتْ فِي الْعَظْمِ، فَسَقَطَتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَثَخَنُوهُ وَبِهِ حَيَاةٌ، وَهُمْ يُرِيدُونَ قَطْعَ رَأْسِهِ لِيَذْهَبُوا بِهِ، فَاتَّيْنِي بِنْتُ شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَأَلْقَتْ بِنَفْسِهَا مَعِيَ عَلَيْهِ، فَوُطِّنَا وَطْنًا شَدِيدًا وَغُرِينًا مِنْ ثِيَابِنَا، وَحَرَمَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ، فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ، وَعَلَى فِرَاشِهِ.

وَقَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ بِثَوْبِهِ، وَعَلَيْهِ دَمُهُ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَثَنَ كَانَ إِثْمَ مَنْ قَتَلَهُ لَا يَسْلَمُ مَنْ حَذَلَهُ، فَانْظُرُوا أَيْنَ أَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّا نَشْتَكِي مَا مَسَّنَا إِلَيْهِ، وَنَسْتَنْفِرُ وَلِيِّهِ، وَصَالِحَ عِبَادِهِ. وَرَحِمَةُ اللَّهِ عَلَى عُثْمَانَ، وَلَعَنَّ اللَّهَ مَنْ قَتَلَهُ، وَصَرَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَصَارِعَ الْخَزْيِ وَالْمَذَلَّةِ، وَشَفَى مِنْهُمْ الصُّدُورَ.

فحلف رجالٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَلَّا يَطْثُوا النِّسَاءَ حَتَّى يَقْتُلُوا قَتْلَةَ عُثْمَانَ، أَوْ تَذْهَبَ أَرْوَاحُهُمْ. وَكَانَ أَمْرُهُمْ فِي الْقِتَالِ مَا نَذَكْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً إِلَّا اثْنِي عَشَرَ يَوْمًا، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِلَّا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ. وَقِيلَ: إِلَّا سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.

رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ادْعُوا لِي بَعْضَ أَصْحَابِي، فَقُلْتُ: أَبُو بَكْرٍ؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ: عُمَرُ؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ: ابْنُ عُمَرَ؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ: عُثْمَانُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لِي بِيَدِهِ فَتَنْخِيطٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَارِهُ وَلَوْ أَنَّ عُثْمَانَ مَتَغَيَّرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الدَّارِ وَخَصِرٍ، قِيلَ لَهُ: أَلَا تُقَاتِلُ؟ قَالَ: لَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهْدَ إِلَيَّ عَهْدًا، وَأَنَا صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ.

وَعَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، قَالَ: أَتَيْنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِنَسْأَلَهَا عَنْ عُثْمَانَ فَقَالَتْ: اجْلِسُوا أَحَدُكُمْ عَمَّا جِئْتُمْ لَهُ: إِنَّا عَتَبْنَا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ثَلَاثِ خِلَالٍ - وَلَمْ تَذْكُرْهُنَّ - فَعَمَدُوا إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا مَاصُوه^(١) كَمَا يُمَاصُّ الثَّوْبَ اقْتَحَمُوا عَلَيْهِ الْفَقْرَ الثَّلَاثَةَ: حَرَمَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَحَرَمَةَ الْخِلَافَةِ؛ وَلَقَدْ قَتَلُوهُ، وَإِنَّهُ لَمَنْ أَوْصَلَهُمْ لِلرَّحْمِ وَأَتَقَاهُمْ لِرَبِّهِ.

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ الْمَصْرِيِّينَ عَلَى عُثْمَانَ، فَلَمَّا ضَرَبُوهُ خَرَجْتُ أَشْتَدَّ، حَتَّى مَلَأْتُ فُرُوجِي عَدْوًا، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ؛ فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ فِي نَحْوِ عَشْرَةٍ، عَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ فُرْغَ مِنَ الرَّجُلِ، قَالَ: تَبَّأَ لَكُمْ آخِرَ الدَّهْرِ! فَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرُوِيَ عَنْ مَبَارِكِ بْنِ فَضَالَةَ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ يَخْطُبُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا تَنْقِمُونَ عَلَيَّ، وَمَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَأَنْتُمْ تَقْسِمُونَ فِيهِ خَيْرًا!

قَالَ الْحَسَنُ: وَسَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اغْدُوا عَلَى أُعْطِيَاتِكُمْ، فَيَغْدُونَ فَيَأْخُذُونَهَا وَافِرَةً، حَتَّى وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: اغْدُوا عَلَى كُسُوتِكُمْ، فَيَأْخُذُونَ الْحُلَّ، وَاغْدُوا عَلَى السَّمَنِ وَالْعَسَلِ.

قَالَ الْحَسَنُ: أَرْزَاقُ دَاوَةَ، وَخَيْرٌ كَثِيرٌ، مَا عَلَى الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ يَخَافُ مُؤْمِنًا إِلَّا يُوَدُّهُ وَيَنْصُرُهُ، فَلَوْ صَبَرَ الْأَنْصَارُ عَلَى الْأَثَرِ^(٢) لَوَسَّعَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْأَرْزَاقِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَصْبِرُوا، وَسَلَّوْا السِّيفَ مَعَ مَنْ سَلَّ، فَصَارَ عَنِ الْكُفَّارِ مُعَمَدًا، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَسْلُولًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) ماص الثوب: غسله غسلًا لينًا رقيقًا. (٢) الأثر: المنزلة؛ أو المكربة المتوارثة.

وعن محمد بن سيرين^(١)، قال: كَثُرَ المَالُ في زمن عثمان حتى بِيعَت جاريةٌ بوزنِها، وفرسٌ بمائة ألف درهم، ونَخْلَةٌ بألف درهم.

وقد ذكر بعض من أَرَخَ أسبابًا كثيرةً، جعلها مَنْ أقدم على قتل عثمان ذريعةً له، وتَمَسَّك بها، أَعْضَيْنَا عن ذكرِها، وهو رضي الله عنه مبرأ من كلِّ سوء ونقص، فلنذكرُ خِلافَ ذلك.

ذكر أزواج عثمان وأولاده

تزوَّج رضي الله عنه رُقِيَّةً، وأمُّ كُلثوم ابْنَتِي رسولِ الله ﷺ، فولدت له رُقِيَّةُ عبدَ الله، هَلَك. وتزوَّج فاختة بنتَ عَزْوان، فولدت له رُقِيَّةُ عبدَ الله الأصغر. وتزوَّج أمُّ عمرو بنتَ جُنْدُبِ الدُّوسِيَّة، فولدت له عمرًا، وخالدًا، وأبانًا، وعمر، ومريم، وتزوَّج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزوميَّة، ولدت له الوليد، وسعيدًا، وأم سعيد، وتزوَّج أمُّ البنين بنتُ عَينَةَ بن حِصْنِ الفَزَارِيَّة، فولدت له عبدَ الملك، هلك. وتزوَّج رَمْلَةُ بنتُ شَيْبة بن ربيعة، ولدت له عائشة وأمُّ أبان، وأمُّ عمرو، وتزوَّج نائلة بنتَ الفَرافِصَةِ الكلبيَّة.

وقد رَوَى أبو الفَرَجِ الأصفهانيُّ في سببِ زواجِ عثمانَ نائلةً سَنَدًا رفعه إلى خالدِ بنِ سعيد، عن أبيه، قال: تزوَّج سعيدُ بنُ العاصِ وهو على الكوفةِ هُنْدًا بنتَ الفَرافِصَةِ بنِ الأحوص بنِ عمرو بن ثعلبة، فبلغَ ذلك عثمان، فكتبَ إليه: قد بلغني أنَّكَ تزوَّجْتَ امرأةً، فاكتبَ إليَّ نسبَها وجَمالَها، فكتبَ إليه: أما بعد، فَإِنَّ نَسَبَها أَنَّها بنتُ الفَرافِصَةِ بنِ الأحوص، وجَمالَها أَنَّها بَيْضاء مَدِيدَة^(٢).

فكتبَ إليه: إِنَّ كانَ لها أَخْتُ فزوَّجْنيها، فكتبَ سعيد، وبعثَ إلى الفَرافِصَةِ يخطُبُ إحدى بناته على عثمانَ رضي الله عنه، فأمرَ الفَرافِصَةُ أَبَنَهُ ضَبًّا فزوَّجها إِيَّاه، وكانَ ضَبُّ مُسْلِمًا، والفَرافِصَةُ نصرانيًّا، فلَمَّا أرادُوا حَمَلَهَا، قالَ لها أبوها: يا بنتي إِنَّكَ تَقْدَمينَ على نساءٍ من نساءِ قريش، هنَّ أَقْدَرُ على الطَّيِّبِ منك، فاحفظي عَنِّي حَصْلَتَيْنِ: تَكْحَلِي وتطَيِّي بالماءِ حتَّى تكونَ ريحُك ريحَ من أصابَه مطر.

(١) محمد بن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري؛ كان أبوه عبدًا لأنس بن مالك رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم... كان محمد المذكور صاحب الحسن البصري ثم تهاجرا في آخر الأمر... وكانت له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. وكانت ولادته لستين بقينا من خلاف عثمان، وتوفي سنة عشر ومائة بالبصرة... (وفيات الأعيان ٤: ١٨١).

(٢) المديدة: الطويلة.

فلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى عُثْمَانَ قَعَدَ عَلَى سِرِيرِهِ، وَوَضَعَ لَهَا سِرِيرًا جِيَالَهُ، فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَوَضَعَ عُثْمَانُ قُلْنُسِيَّتَهُ فَبَدَأَ الصَّلَاحَ، فَقَالَ: يَا بِنْتَ الْفَرَاغَةِ، لَا يَهْوُلُكَ مَا تَرَيْنِ مِنْ صَلَاحِي، فَإِنَّ وَرَاءَهُ مَا تُحِبِّينَ، وَقَالَ: إِمَّا أَنْ تَقُومِي إِلَيَّ، وَإِمَّا أَنْ أَقُومَ إِلَيْكَ. فَقَالَتْ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الصَّلَاحِ فَإِنِّي مِنْ نِسَاءِ أَحَبِّ بُعُولَتِهِنَّ إِلَيْهِنَّ السَّادَةُ الصُّلَحُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِمَّا أَنْ تَقُومِي إِلَيَّ، وَإِمَّا أَنْ أَقُومَ إِلَيْكَ، فَوَاللَّهِ مَا تَجَشَّعْتُ مِنْ جَنَبَاتِ السَّمَاءِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، بَلْ أَقُومُ إِلَيْكَ. فَقَامَتْ فَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَمَسَحَ رَأْسَهَا وَدَعَا لَهَا بِالْبَرَكَاتِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: اطْرَحِي عَنْكَ رِدَاءَكَ، فَطَرَحَتْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: خِمَارَكَ، فَطَرَحَتْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: انْزَعِي دِرْعَكَ^(١) فَتَزَعَتْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: حُلِّي إِزَارَكَ. فَقَالَتْ: ذَا إِلَيْكَ، فَحُلَّ إِزَارَهَا، وَكَانَتْ مِنْ أَخْطَى نِسَائِهِ عِنْدَهُ.

وُلِدَتْ لَهُ مَرِيَمٌ. وَقِيلَ: وَلِدَتْ لَهُ أُمُّ الْبَنِينَ بِنْتُ عُيَيْنَةَ عَبْدَ الْمَلِكِ، وَعُثْمَةُ وَوُلِدَتْ لَهُ نَائِلَةُ عَثْبَسَةَ، وَكَانَ لَهُ مِنْهَا أَيْضًا ابْنَةٌ تُدْعَى أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَأُمُّ الْبَنِينَ، كَانَتْ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقُتِلَ عُثْمَانُ وَعِنْدَهُ زَمْلَةٌ بِنْتُ شَيْبَةَ، وَنَائِلَةُ وَأُمُّ الْبَنِينَ، وَفَاحَتْهُ، غَيْرَ أَنَّهُ طَلَّقَ أُمَّ الْبَنِينَ وَهُوَ مُحْصَرٌ.

فَهَؤُلَاءِ أَزْوَاجُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَأَوْلَادُهُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

كِتَابُهُ وَقَضَائِهِ وَحُجَابُهُ وَأَصْحَابُ شَرْطَتِهِ

كَاتَبُهُ مِرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ، وَقَاضِيهِ كَعْبُ بْنُ سُورٍ، وَحَاجِبُهُ عِمْرَانُ، مَوْلَاهُ، وَصَاحِبُ شَرْطَتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قُنْفُذٍ التَّمِيمِيُّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ صَاحِبَ شَرْطَةٍ، وَكَانَ عَلَى الدِّيَّانِ وَبَيْتِ الْمَالِ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعَمَ الْوَكِيلِ.

ذِكْرُ عَمَالِهِ عَلَى الْأَمْصَارِ فِي سَنَةِ مَقْتَلِهِ

كَانَ عَمَّالُهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى مَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، وَعَلَى الطَّائِفِ الْقَاسِمُ بْنُ رِبِيعَةَ الثَّقَفِيِّ، وَعَلَى صَنْعَاءَ يَعْلى بْنُ مُنْيَةَ، وَعَلَى الْجَدِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِبِيعَةَ، وَعَلَى الْبَصْرَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ مِنْهَا وَلَمْ يُؤَلَّ عُثْمَانُ عَلَيْهَا أَحَدًا، وَعَلَى الْكُوفَةِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَعَلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَى خَرَاكِ السَّوَادِ جَابِرُ بْنُ فُلَانٍ

(١) الدرر: قميص المرأة.

المُزَنِّي وَسِمَاكُ الْأَنْصَارِي، وَعَلَى خَزْبِهَا الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَلَى قَرْقِيسِيَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى أَذْرِيَجَانَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسِ الْكَنْدِيِّ، وَعَلَى حُلْوَانَ عُتَيْبَةُ بْنُ النَّهَّاسِ، وَعَلَى مَاهِ مَالِكُ بْنُ حَبِيبٍ، وَعَلَى هَمْذَانَ الثُّسَيْرِ، وَعَلَى الرَّيِّ وَأَصْفَهَانَ السَّائِبُ بْنُ الْأَقْرَعِ، وَعَلَى مَاسَبَذَانَ حَبِيشُ، وَعَلَى بَيْتِ الْمَالِ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَعَلَى الشَّامِ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ. وَلِمَعَاوِيَةَ عَمَّالٌ وَهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى حُمْصٍ، وَحَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْفَهْرِيِّ عَلَى قَيْسَرِينَ، وَأَبُو الْأَعْوَرِ السُّلَمِيُّ عَلَى الْأَزْدِ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ حَكِيمِ الْكِنَانِيِّ عَلَى فِلَسْطِينَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الْفَزَارِيِّ عَلَى الْبَحْرِ، وَكَانَ عَامِلَ عُثْمَانَ عَلَى مِصْرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ، ثُمَّ سَارَ إِلَى عُثْمَانَ فِي رَجَبِ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، وَاسْتَخْلَفَ عَنْهُ بِمِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُدَيْفَةَ فِي شَوَّالٍ، وَأَخْرَجَ عُقْبَةَ، وَتَأَمَّرَ بِمِصْرَ، وَعَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ فَلَمْ يَمْكِنَهُ، فَتَوَجَّهَ إِلَى عَسْقَلَانَ، وَمَاتَ بِهَا.

وَكَانَ الْقَاضِي بِمِصْرَ عَمَّارُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فَلَمْ يَكُنْ بِمِصْرَ قَاضٍ إِلَى أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

ذكر شيء مما رثي به عثمان من الشعر

وَلَمَّا قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَثَاهُ جَمَاعَةٌ، مِنْهُمْ: حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَغَيْرُهُ فَكَانَ مِمَّا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنْ تُمَسِّ دَارُ ابْنِ أَرْوَى الْيَوْمَ خَالِيَةً بَابٌ صَرِيحٌ وَبَابٌ مُخْرَقٌ خَرِبُ
فَقَدْ يُصَادِفُ بَاغِي الْخَيْرِ حَاجَتَهُ فِيهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْجُودُ وَالْحَسَبُ

وَقَالَ أَيْضًا مِمَّا رَثَاهُ بِهِ فِي أَيْيَاتٍ أُخْرَى: [مِنَ الْبَسِيطِ]

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْدُبَةً فِي دَارِ عُثْمَانَ
ضَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السَّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا^(١)
صَبْرًا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدْتُ قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَخِيَانَا
لَتَسْمَعَنَّ وَشَيْكَا فِي دِيَارِهِمْ اللَّهُ أَكْبَرُ وَآثَارَاتِ عُثْمَانَ

(١) الْأَشْمَطُ: الْمُخْتَاطُ سَوَادُ شَعْرِهِ بَيَاضُ.

وقد قيل: إِنَّ البيت الثاني من هذه الأبيات «ضَحَّوْا بِأَشْمَطٍ» ليس له، وقال بعضهم: هو لِعِمْرَانَ بْنِ حِطَّانٍ.

وقال أبو عَمْرٍو: وقد زاد أهلُ الشَّامِ فيها أبياتًا لم أَرِ لِدَكرها وَجَهاً.

قال ابن الأثير: يعني ما فيها من ذكر علي رضي الله عنه، وهو:

يا لَيْتَ شعري وَلَيْتَ الطير تُخبرني ما كان شأنُ عليّ وابنِ عَفَّانا

وقال أيضًا: [من الطويل]

قتلتُم ولِيَّ اللّٰه في جوفِ دارِهِ وجئتُم بأمرٍ جائِرٍ غيرِ مهتَدٍ
فلا ظفرتُ أيمانُ قَوْمٍ تَعاوَنُوا على قَتْلِ عثمانَ الرَّشيدِ المسدِّدِ

وقال كعبُ بْنُ مالِك: [من البسيط]

يا لَلرِّجالِ لأمرٍ هاج لي حَزَنًا لقد عَجِبْتُ لِمَن يَبكي على الدَّمَنِ
إِنِّي رأيتُ قَتيلَ اللّٰه مُضطَّهَدًا عثمانَ يُهدى إلى الأجداتِ في كَفَنِ
يا قاتِلَ اللّٰه قوماً كان أمرُهُم قَتْلُ الإمامِ الذَّكِيِّ الطَّيِّبِ الرُّدَنِ^(١)
لم يَفْتُلُوهُ على ذَنْبٍ أَلَم بِهِ إلا الَّذي نَطَقُوا زُورًا ولم يَكُنِ

وقال أيضًا: ونسبت لحسان وقيل: للوليد بن عُقبة، والله تعالى أعلم: [من

الطويل]

وكفَّ يَدِيهِ ثُمَّ أَغْلَقَ بابَهُ وأيقَنَ أَنَّ الله ليس بغافلٍ
وقال لأهلِ الدارِ لا تَقْتُلُوهُم عَفَا اللّٰهُ عن ذَنْبِ امرئٍ لم يُقاتِلِ
فكيفَ رأيتُ الله ألقى عليهم الـ عداوةَ والبَغْضاءَ بعدَ التَّواضُلِ
وكيفَ رأيتُ الخَيْرَ أدبَرَ بَعْدَهُ عن النَّاسِ إدبارَ السَّحابِ الحَوافِلِ^(٢)

وقال حميدُ بْنُ ثَوْرٍ الهَلالِيُّ^(٣): [من البسيط]

إِنَّ الخِلافَةَ لَمَّا أَظْعَعَتْ ظَعَنَتْ من أهلٍ يثربِ إذ غيرِ الهدى سَلَكُوا
صارتُ إلى أهلها منهم ووارثها لَمَّا رَأى الله في عثمانَ ما انتَهَكُوا

وقال قاسمُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ: [من الطويل]

لَعَمْرِي لبئسَ الذَّبْحُ ضَحيتُم بِهِ وَخُنْتُم رسولَ اللّٰه في قَتْلِ صاحِبِهِ

(٢) الحوافل: اللاتني كثر ماؤها.

(١) الرذن: الكم.

(٣) حميد بن ثور الهلالي: هو من بني عامر بن صعصعة، إسلامي مجيد.

وقالت زينب بنت الزبير بن العوام: [من الطويل]

أَعْطَشْتُمْ عِثْمَانَ فِي جَوْفِ دَارِهِ شَرِبْتُمْ كَشْرَبِ الْهِيمِ شُرْبَ حَمِيمٍ^(١)
وَكَيْفَ بَنَى أُمُّ كَيْفَ بِالنُّومِ بَعْدَمَا أَصِيبَ ابْنُ أَرْوَى وَابْنُ أُمِّ حَكِيمٍ

وقالت لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ^(٢): [من مجزوء الكامل]

قَتَلَ ابْنُ عَفَّانَ الْإِمَامَا مُمْضَاعَ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ
وَتَشَتَّتْ سُبُلُ الرِّثَا لِصَادِرِينَ وَوَارِدِينَ
فَانْهَضَ مُعَاوِيَ نَهْضَةً تَشْفِي بِهَا الدَّاءَ الدَّفِينَا
أَنْتَ الَّذِي مِنْ بَعْدِهِ تُدْعَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

وقال أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمٍ^(٣): [من البسيط]

ضَحَّوْا بِعِثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضَحَى فَأَيُّ ذَنْحٍ حَرَامٍ وَنَلَّهْمُ ذَبَحُوا
وَأَيُّ سُنَّةٍ كَفَرٍ سَنَ أَوْلَاهُمْ وَيَابَ شَرٌّ عَلَى سُلْطَانِهِمْ فَتَحُوا
مَاذَا أَرَادُوا أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ بِسَفْكِ ذَاكَ الدَّمِ الذَّاكِي الَّذِي سَفَحُوا

وَرِثَاهُ غَيْرُهُمْ مَتَنَ لَوْ ذَكَرْنَا شَعْرَهُمْ لَا نَبْسُطُ بِهِ الْخَبِيرَ.

تم الجزء التاسع عشر،

وبليه - إن شاء الله تعالى - الجزء العشرون،

وأوله: ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

-
- (١) الهيم: جمع الأهيم، وهو من الرجال ومن الإبل: العطشان أشد العطش.
(٢) لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ: هي لَيْلَى بِنْتُ الْأَخِيلِ مِنْ عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ وَهِيَ أَشْعَرُ النِّسَاءِ لَا يَقْدَمُ عَلَيْهَا غَيْرُ خَنْسَاءٍ وَكَانَتْ هَاجَتِ النَّابِغَةُ الْجَعْدِي... (الشعر والشعراء).
(٣) أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمٍ: هُوَ أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمٍ بْنِ فَاتِكٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ صَحَبَ النَّبِيَّ ﷺ، وَرَوَى عَنْهُ الْحَدِيثَ، وَكَانَ بِهِ بَرَصٌ وَكَانَ أَسِيرًا عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ... (الشعر والشعراء).

فهرس المحتويات

	الباب الثاني من القسم الخامس: في أخبار الخلفاء الراشدين: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأيام الحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين	٣
٣	ذكر خلافة أبي بكر الصديق وشيء من أخباره وفوائده	٣
٥	ذكر نبذة من فضائل أبي بكر الصديق ومآثره في الجاهلية والإسلام	٥
١٤	ذكر صفة أبي بكر الصديق	١٤
١٤	ذكر ما ورد من أن رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على أمته من بعده وخجة من قال ذلك	١٤
١٧	ذكربيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخبر السقيفة، وما وقع بين المهاجرين والأنصار من التراجع في الإمارة	١٧
٢٥	ذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب بعد البيعة الأولى وقبل البيعة الثانية العامة	٢٥
٢٧	ذكر إنفاذ جيش أسامة	٢٧
٣٠	ذكر أخبار من ادعى النبوة من الكذابين وما كان من أمرهم، وتجهيز أبي بكر الصديق للجيش إليهم، وإلى من ارتد من قبائل العرب	٣٠
٣٧	ذكر غزوة أبي بكر وقتاله أهل الردة وعيس وذبيان	٣٧
٣٩	ذكر عقد أبي بكر رضي الله عنه الألوية وتجهيزه للجيش لقتال أهل الردة وما كاتب به من ارتد وما عهد	٣٩
٤٢	ذكر خبر طليحة الأسدي وما كان من أمره وأمر من اتبعه من قبائل العرب وما آل إليه أمره بعد ذلك	٤٢
٤٦	ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد	٤٦
٥٠	ذكر مسير خالد إلى البطاح ومقتل مالك بن نويرة	٥٠
٥٢	ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة	٥٢
٥٤	ذكر الحروب الكائنة بين المسلمين وبين مسيلمة وبين أهل اليمامة وقتل مسيلمة	٥٤
٦٠	ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس في مقتله وتنفيذ وصيته للرؤيا التي رثيت بعد مقتله	٦٠
٦٦	ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية	٦٦
٦٧	ذكر وقعة الثني	٦٧
٦٨	ذكر وقعة الولجة	٦٨
٦٨	ذكر وقعة اليس	٦٨

٦٩	ذكر وقعة فرات بادقلى وفتح الحيرة
٦٩	ذكر ما كان بعد فتح الحيرة
٧٠	ذكر فتح الأنبار
٧٠	ذكر فتح عين التمر
٧١	ذكر خبر دومة الجندل
٧٢	ثم كانت وقعة مُصَيِّخ
٧٢	ذكر وقعة الثني والزُمَيْل
٧٢	ذكر وقعة الفِرَاض
٧٣	ذكر فتوح الشام
٧٣	ذكر مسير خالد بن الوليد إلى الشام وما فعل في مسيره إلى أن التقى بجنود المسلمين بالشام
٧٥	ذكر وقعة أجنادين
٧٦	ذكر وقعة اليرموك
٧٨	ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر غير ما ذكرناه
٧٨	سنة إحدى عشرة
٧٩	سنة اثنتي عشرة
٨٠	ذكر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومدة خلافته
٨١	ذكر نبذة من أخباره وأحواله ومناقبه رضي الله عنه غير ما تقدّم
٨٥	ذكر أولاد أبي بكر وأزواجه
٩١	ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه وحاجبه وخادمه
٩٢	ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٩٣	ذكر نبذة من فضائل عمر رضي الله عنه ومناقبه
٩٥	ذكر صفة عمر رضي الله عنه
٩٨	ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٩٨	ذكر فتوح مدينة دمشق
٩٩	ذكر شيء مما قبل في أمر مدينة دمشق ومن بناها
١٠١	ذكر غزوة فُحْل
١٠٢	ذكر فتح بلاد ساحل دمشق
١٠٢	ذكر فتح بيسان وطبرية
١٠٣	ذكر الوقعة بمرج الرّوم
١٠٣	ذكر فتح بعلبك وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس
١٠٥	ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية وما تكلم به عند ذلك
١٠٥	ذكر فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم
١٠٧	ذكر فتح قيسارية وحصن غزة
١٠٨	ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة وسبسطية ونابلس وتبني واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا
١٠٩	ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء
١١٠	ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

- ١١١ ذكر فتح الجزيرة وأرمينية
- ١١٤ ذكر فتوح العراقيين وما والاها من بلاد فارس وغيرها وغزو الترك وفتح خراسان وسجستان وغير ذلك من الوقائع
- ١١٥ ذكر وقعة النمارق
- ١١٦ ذكر وقعة السقاطية بكسكر
- ١١٦ ذكر وقعة الجالينوس
- ١١٦ ذكر وقعة قس الناطف ويقال لها: وقعة الجسر ووقعة المروحة ومقتل أبي عبيد وغيره
- ١١٨ ذكر وقعة أليس الصغرى
- ١١٨ ذكر وقعة البويب
- ١٢٠ ذكر خبر سوقي الخنافس وبغداد
- ١٢١ ذكر خبر القادسية وأيامها
- ١٣٠ ذكر يوم أرمات
- ١٣٣ ذكر أغوات
- ١٣٥ ذكر يوم عماس، وهو اليوم الثالث
- ١٣٦ ذكر ليلة الهرير
- ١٣٧ ذكر يوم القادسية وقتل رستم وهزيمة الفرس
- ١٤١ ذكر ما كان بعد القادسية من الحروب والأيام يوم بُرس، ويوم بابل، ويوم كوثى
- ١٤٢ ذكر خبر بهرسير وهي المدينة الغربية
- ١٤٢ ذكر فتح المدائن الغربية وهي بهرسير
- ١٤٣ ذكر فتح المدائن الشرقية التي فيها إيوان كسرى
- ١٤٥ ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها
- ١٤٧ ذكر وقعة جلولاء وفتح خلوان
- ١٤٩ ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحه الأبلّة
- ١٥١ ذكر فتح تكريت والموصل
- ١٥٢ ذكر فتح ماسيدان
- ١٥٢ ذكر فتح قرقيسيا
- ١٥٣ ذكر فتح الأهواء ومناذر ونهر تيرى
- ١٥٤ ذكر صلح الهرمزان وأهل تُسْتَر مع المسلمين
- ١٥٥ ذكر فتح رامهرمز
- ١٥٧ ذكر فتح السوس
- ١٥٨ ذكر مصالحة جنديسابور
- ١٥٨ ذكر انسحاق الجيوش الإسلامية في بلاد الفرس
- ١٥٩ ذكر غزوة فارس من البحرين
- ١٦٠ ذكر وقعة نهاوند وفتحها
- ١٦٦ ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرها
- ١٦٦ ذكر فتح همذان والماهين وغيرها
- ١٦٧ ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان
- ١٦٨ ذكر فتح قزوین وأبهر وزنجان

١٦٩ ذكر فتح الرّي
١٦٩ ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان
١٧٠ ذكر فتح أذربيجان
١٧١ ذكر فتح الباب
١٧٢ ذكر فتح موقان
١٧٢ ذكر غزو الترك
١٧٣ ذكر غزو خراسان
١٧٦ ذكر فتح شهرزور والصامغان
١٧٧ ذكر فتح تُوْج
١٧٧ ذكر فتح اصطخر وجور وكازرون والنوبندجان ومدينة شيراز وأرجان وسينيز وجنابا وجهرم
١٧٨ ذكر فتح فسا ودراجرد
١٧٨ ذكر فتح كَرْمَان
١٧٩ ذكر فتح سجستان
١٧٩ ذكر فتح مُكران
١٨٠ ذكر فتح بيروذ من الأهواز
١٨١ ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد
١٨١ ذكر فتوح مصر وما والاها
١٨٢ ذكر مسير عمرو إلى مصر
١٨٥ ذكر حصار القصر وما قيل في كيفية الاستيلاء عليه وانتقال الروم والقيط إلى الجزيرة
١٨٦ ذكر إرسال المقوقس إلى عمرو في طلب الصلح وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصّامت وما وقع بينهما من الكلام وقبول المقوقس الجزية
١٩٢ ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان من الحروب بينهم إلى أن فتحت الإسكندرية ..
١٩٥ ذكر الفتح الثاني وما وجد بالإسكندرية وعدة من ضربت عليه الجزية
١٩٧ ذكر من قال إن مصر فتحت عتوة
١٩٨ ذكر أخبار الإسكندرية وبنائها وما اتفق في ذلك من الأعاجيب
٢٠٢ ذكر تحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية واختطاطه
٢٠٤ ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط وإبطال عمرو تلك العادة
٢٠٤ ذكر ما قرر في أمر الجزية من الخراج
٢٠٦ ذكر خبر المقطم
٢٠٧ ذكر خبر خليج أمير المؤمنين
٢٠٩ ذكر الخبر عن فتح الفيوم
٢١٠ ذكر فتح زويلة وطرابلس الغرب وبرقة وحصن سبّرت
٢١١ ذكر الغزوات إلى أرض الروم
٢١١ ذكر ما اتفق في خلافة عمر بن الخطاب غير الفتوحات والغزوات
٢١١ سنة ثلاث عشر:
٢١١ سنة أربع عشرة
٢١٢ ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

٢١٢ سنة خمس عشرة
٢١٥ سنة ست عشرة
٢١٥ ذكر بناء الكوفة والبصرة
٢١٥ سنة سبع عشرة
٢١٧ ذكر عزل خالد بن الوليد
٢١٩ ذكر بناء المسجد الحرام
٢١٩ ذكر عزل المغيرة بن شعبه
٢٢١ سنة ثمان عشرة
٢٢١ سبب ولاية كعب بن سور قضاء البصرة
٢٢٢ ذكر القحط وعام الرمادة
٢٢٤ ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه
٢٢٩ ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون
٢٣٠ سنة تسع عشرة
٢٣١ سنة عشرين من الهجرة
٢٣٢ ذكر إجلاء يهود خيبر منها
٢٣٣ ذكر عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة ومن ولي بعده في هذه السنة
٢٣٣ سنة إحدى وعشرين
٢٣٥ سنة اثنتين وعشرين
٢٣٥ سنة ثلاث وعشرين
٢٣٥ ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب ومدة خلافته
٢٣٩ ذكر قصة الشورى
٢٤٧ ذكر أولاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم وأزواجه
٢٥١ ذكر عمال عمر رضي الله عنه وعنهم على الأمصار
٢٥٢ كتابه
٢٥٣ فضائله
٢٥٣ ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه
٢٥٤ ذكر صفته ونبذة من فضائله
٢٥٥ ذكر بيعة عثمان رضي الله عنه
٢٥٥ ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عثمان
٢٥٦ ذكر خلاف أهل الإسكندرية
٢٥٧ ذكر غزو أرمينية وغيرها وما وقع من الصلح
٢٥٩ ذكر غزو معاوية الروم
٢٥٩ ذكر فتح كابل
٢٥٩ ذكر غزو إفريقية وفتحها
٢٦١ ذكر فتح جزيرة قبرس
٢٦٣ ذكر نقض أهل فارس وغيرهم وفتح إصطخر ودرابجرد
٢٦٤ ذكر غزو طبرستان
٢٦٤ ذكر غزو الصواري

٢٦٤ ذكر مقتل يزدجرد آخر ملوك بني ساسان
٢٦٥ ذكر فتح خراسان
٢٦٧ ذكر فتح كرمان
٢٦٨ ذكر فتح سجستان وكابل وغيرها
٢٦٩ ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقتله
٢٧٠ ذكر ما وقع في خلافة عثمان غير الغزوات والفتوحات على حُكم السنين
٢٧٠ سنة أربع وعشرين
٢٧١ سنة خمس وعشرين
٢٧٢ سنة ست وعشرين
٢٧٢ سنة سبع وعشرين
٢٧٢ سنة ثمان وعشرين
٢٧٢ سنة تسع وعشرين: ذكر عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن العاص عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بن عامر على ذلك
٢٧٤ ذكر الزيادة في مسجد النبي ﷺ
٢٧٤ ذكر إتمام عثمان الصلاة وما تكلم الناس به في ذلك
٢٧٥ سنة ثلاثين: ذكر عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة وولاية سعيد بن العاص
٢٧٦ ذكر جمع القرآن
٢٧٨ ذكر سقوط خاتم النبي ﷺ
٢٧٨ ذكر خبر أبي ذر الغفاري في إخراجة إلى الريزة وما تكلم الناس به في ذلك ووفاة أبي ذر رضي الله عنه
٢٨٢ سنة إحدى وثلاثين
٢٨٢ سنة اثنتين وثلاثين
٢٨٣ ذكر وفاة عبد الرحمن بن عوف وشيء من أخباره ونسبه
٢٨٥ سنة ثلاث وثلاثين ذكر خبر من سار من أهل الكوفة إلى الشام وما كان من أمرهم ..
٢٩٠ سنة أربع وثلاثين ذكر خبر يوم الجرة وعزل سعيد وخروجه عن الكوفة وأستعمال أبي موسى الأشعري
٢٩٢ ذكر ابتداء الخلاف على عثمان ومن ابتدأ بالجرأة عليه
٢٩٥ ذكر كلام علي لعثمان وجوابه له
٢٩٧ ذكر إرسال عثمان إلى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله وما يقول الناس فيهم
٢٩٩ سنة خمس وثلاثين ذكر مسير من سار إلى عثمان رضي الله عنه من أهل الأمصار ...
٣٠٣ ذكر مقتل عثمان رضي الله عنه
٣١٧ ذكر أزواج عثمان وأولاده
٣١٨ كتابه وقضاته وحجابه وأصحاب شرطته
٣١٨ ذكر عماله على الأمصار في سنة مقتله
٣١٩ ذكر شيء مما رثي به عثمان من الشعر
٣٢٣ فهرس المحتويات